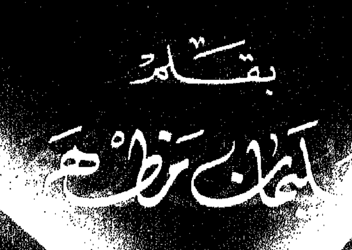
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



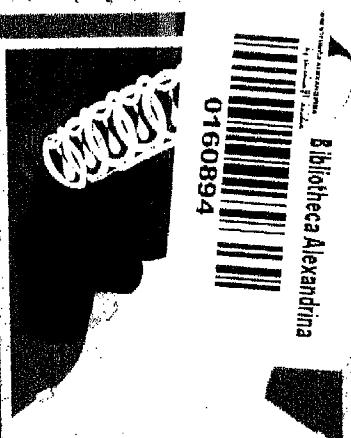
ملكات
بين القمة والقاع





بقلم

سليمان مظهر

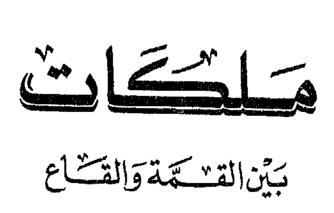




مكتبة مدبولي
القاهرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الناشر
مكتبة مدبولي
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٥٧٥٦٤٢١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملكات

بين القمة والقاع

بقلم
سليمان مظهر

مكتبة مدبولي
القاهرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإهـــــداء

إلى المكافحين ..
من أجل أن يشهدوا مصارع الطغاة

سليمان مظهر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهـرس الموضـوعـات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقـــديم

المكتبة العربية فى المرحلة الراهنة من تطور بلادنا الاجتماعى والسياسى تتسع حاجاتها كل يوم .. إنها لم تعد تشبع من الزاد الثقافى الذى يدخلها بلا انقطاع، ولم تعد تكتفى بلون أو عدة ألوان من هذا الزاد الثقافى، لأن حاجة القارئ العربى تتسع، واهتماماته الفكرية تتزايد، وتتبعه للثقافة يجمع بين التراث والفكر المعاصر، وبين مختلف أنواع المعرفة ..

إن حركة التاريخ فى بلادنا قد فتحت أبواب المعرفة لجميع المواطنين، وأتاحت لهم أن يعرفوا ثقافة بلادهم وثقافات البلدان الأخرى .. لأنه لايوجد شعب واحد يستطيع أن يكتفى بثقافته الخاصة مهما كانت عظمتها وسعة شمولها فى تباين ميادين الفكر والمعرفة.

والتاريخ بالذات هو أحد أبواب المعرفة الهامة التى يجب أن تكون مفتوحة فى المرحلة الراهنة لجميع طلاب المعرفة.. لأن التاريخ هو خط سير الإنسانية كلها .. هو السطور التى شقتها أظافر الناس فى الصخر على مر العصور ..

ونحن نؤمن بأن التاريح هو تاريخ الشعوب، تاريخ الجماهير الواسعة الكادحة التى تصنع بأيديها كل شئ ..

ولكنا أيضاً لانستطيع ونحن نفكر بطريقة علمية، أن نغفل دور الأفراد فى التاريخ .. إن الأفراد هم نتاج ظروفهم وبيئاتهم والضرورات التاريخية المحيطة بهم .. ولكنهم – خلال ذلك كله – يعملون وينتجون، ويؤثرون عن طريق عملهم وإنتاجهم فى سير التاريخ ...

فإذا كان الفرد ملكا، فإنه يؤثر فى التاريخ إلى حد ملحوظ، لأنه يملك إمكانيات التأثير الواسعة/.. ولكنه فى الوقت نفسه لايستطيع أن يتصدى لحتمية التاريخ التى تكتسح كل شئ يعترض طريقها ..

والواقع .. أن معركة الفرد الذى يؤثر فى التاريخ، هى معركة السلطان والملك والنفوذ. وليس تاريخ الحروب التى خضبت بالدماء مقدرات الأمم منذ أقدم العصور،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونكبت المجتمع فى مختلف ألوان تطوره، بأكثر من الصراع الهائل بين الشعوب والأفراد، والنضال الصاخب الدامى الذى تقود إليه المطامع والأهواء، من أجل الغلبة والسيادة، وليس بين المطامع البشرية منذ قامت المجتمعات المنظمة أرفع وأنفس من السلطان.

من هنا كان السلطان فى مختلف العصور هو الذى يمسك بزمام كل طامع، ويقوده إلى كل أنواع الصراع، ولو كان ضد الشعب نفسه. ولعل من أسباب ذلك ما كان للملوك من قدسية فى العصور القديمة وعصر الإقطاع حين كان الملك يتمتع بنعم باذخة، وامتيازات مطلقة، وسلطان لاحد له .. وحين كانت مسئولية الملك معدومة أو صورة. فهو كل شئ .. أما الشعب فلا شئ قط.!

ولم يكن كل ذلك لتقبله كل الشعوب .. فالحرية أثمن من كل شئ .. وهى تستطيع دائماً أن تثير فى أعماق الشعوب مايضطرم له كل سخط وعنفوان، فتنطلق من خلالهما أسباب الثورة ضد المغتصب، أو المستبد، أو الطاغية. لاتقف فى وجهها قوة على الإطلاق، تماماً كما ينفجر المرجل المغلق المقيد حين يغلى مابداخله، وتعجز كل القيود عن الوقوف فى وجه الانطلاق الرهيب.. الذى يمضى فيسحق كل شئ ..

وما أكثر مايعرض التاريخ حيوات شعوب قد تبلغ بها المهانة حد قبول كل ألوان الطغيان، ويبرز من بين أبنائها عصابات من المداهنين والمرتزقة ممن لايعبأون بأكثر من الكسب الرخيص، ولو كان مسيرهم على جثث الشهداء وبين بحور الدم.

وقد يستمر مغتصب السلطان فى طغيانه ومن حوله عصابات المرتزقة، وقد يرثه من بعده من يواصل السرقة والاغتصاب .. ولكن التاريخ لايستطيع أن يغفل أبداً أن الشعوب مهما بلغ بها من السكوت والرضا، لاتعدم أن تتابع حربها الخفية ضد الطغاة، ولو طال المدى، وهى ترى أن فى الاستسلام نهاية السقوط، وأن فى الذلة إهداراً للنفس وقتلة للروح. عندئذ تنفجر مراجل الثورة، وتمضى فى طريقها رغم كل القوى التى تقف على أهبة الاستعداد لسحقها وحماية طغيانها .. حتى يصل الكفاح إلى منتهاه .. بالنصر للشعوب.

وهذا هو ماكان يحدث فى الحقيقة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فما كانت الشعوب لتنسى أو تحتمل حتى الأبد. فمن أعماقها كانت تنبثق دائماً شعاعات زاخرة بكل ماهو فاضل وكريم، تزيح من الطريق ظلامات الفساد والخطايا والعار، وترسم طرقاً جديدة فى سبيل حياة أفضل، من نوع جديد لايعرف سوى الحق والنور.

وهكذا يمضى التاريخ ليحكى قصص الأفراد الذين يرسمون بتصرفاهم كل صور هذا التاريخ.

والملوك .. حتى مدى غير بعيد .. كانوا هم فى الحقيقة أبرز هؤلاء الأفراد، الذين يملكون إمكانيات التأثير الواسعة، ولكنهم فى الوقت نفسه – كما قلت – لايستطيعون التصدى لحتمية التاريخ التى تكتسح فى طريقها كل شئ ..

ولكن .. ماذا عن الملكات ..!؟

فى الحقيقة .. إن كلمة «الملكة» لم تعرف فى الشرق الإسلامى كلقب رسمى لزوجة أى ملك، ولكنها عرفت فى أوروبا منذ عصور طويلة .. وبعض النساء أصبحن ملكات متوجات يجلسن على العرش، لامجرد زوجات للجالسين على العرش ..

ومن هنا اختلف تأثير الملكات فى تاريخ العرب والإسلام عن تأثيرهن فى تاريخ أوربا .. والغرب كله ..

ومع هذا .. فلسنا نستطيع أن نتجاهل أن المرأة لعبت دائما فى قصور الملوك أدواراً تاريخية كانت لها آثار بعيدة المدى .. ومازالت قصور الملوك الشرقيين مسرحاً تؤدى فوقه بعض النساء أدوارهن ..

لهذا فإن صدور هذا الكتاب فى الوقت الحاضر، لايهدف فقط إلى عرض أدوار تاريخية لملكات مغامرات فى ميادين السياسة والهوى والتآمر. بل يهدف الكتاب أيضاً إلى ربط أدوار نساء القصور قديماً بأدوارهن التى مازلن يلعبنها حتى الآن .. فقد كانت المرأة تلعب دورا حقيقيا فى كثير من الأحيان .. وتحكم الملوك والأمراء والدهاقين الذين يحكمون الشعوب.

إن «سيدى عبد القادر» و«سيدى محمد» وأمثالهما من جوارى الإمام السابق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحمد بن يحيى حميد الدين، اللاتى كن يتخذن لأنفسهن أسماء الرجال، أو كان الإمام يتخذ لهن هذه الأسماء .. هؤلاء الجوارى اللاتى كن قابعات فى القصور، لم يكن يجلسن فارغات متعطلات، بل كن فى الواقع يحكمن من وراء أسوار «المقام الشريف» الذى كان يسكنه الإمام فى تعز أو صنعاء ..

ولهذا فإن اتخاذهن أسماء الرجال كان أشبه بتقرير للواقع، لأنهن – وهن النساء – كن يباشرن أعمال الرجال ؟ بل أعمال أعتى الرجال. فلم يكن عجيبا بعد ذلك أن يتسمين بأسماء الرجال !

ولكن كان هناك أيضا ملكات لعبن دور الرجال كأحسن مايكون .. كما فعلت الملكة حتشبسوت فى مصر القديمة.

ونعود إلى الملكات فى التاريخ ...

فى الشرق العربى الإسلامى، كانت المرأة فى قصور الملوك ذات أثر فعال فى سير الأمور ...

وفى عصور القوة والعزة العربية كان دور المرأة فى قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين لايتعدى دور الزوجة أو الجارية التى لانفوذ لها ولا طاقة لديها على التأثير فى الأحداث الكبيرة الهائلة ..

وبلغ من سيطرة الخلفاء الأقوياء على نساء قصورهم، أن الخليفة الهادى بن المهدى رأى الناس يتزاحمون على قصر والدته، يطلبون وساطتها فى أمور لهم فى دواوين الحكومة، فنهاها عن الاتصال بالناس وممارسة الوساطة، فسارعت إلى الانتهاء، وانفض الناس من حول قصرها ..

صحيح أن اسم السيدة «الخيزران» والدة الهادى وأخيه الرشيد، قد ورد كثيراً فى كتب الأدب والتاريخ. ولكنه لم يرد كاسم ذى أثر فى التاريخ، بل ورد كاسم أم أنجبت خليفتين كبيرين هما الهادى وأخوه هارون الرشيد ..

وورد فى كتب أدبنا وتاريخنا أيضا اسم «زبيدة» زوجة الرشيد. ولكنه ورد مقرونا بأعمالها الخيرية أو طرائف حياتها ... ولم يرد كاسم ملكة ذات أثر فى التاريخ ..

وعندما انحطت الخلافة العباسية، أصبحت للجوارى والنساء فى القصور مكانة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاصة، وأصبحن يدبرن المؤامرات لقتل الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن تمتد إليهن أيدى هؤلاء النسوة القاتلات ...

ويعرف التاريخ المصرى جيدا قصة شجرة الدر، جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته، ثم زوجة طباخ زوجها هذا الذى أصبح فيما بعد سلطانا – بفضل نفوذها – وعرف باسم عز الدين ايبك ..

إن شجرة الدر، عندما اعتلت العرش، أثارت قضية هامة فى التقاليد الإسلامية، وتحدت كل ماتواضع عليه المسلمون فى مسألة ولاية الأمر ....

ولكنها وجدت ردا سريعا من الخليفة المستعصم فى بغداد، الذى كان خليفة ضعيفا مغلوبا على أمره، ولكنه استأسد فى وجهها، وأرسل إلى أهل مصر يقول لهم: «إذا كنتم قد عدمتم رجلا فوليتم عليكم امرأة ... فأخبرونى أرسل إليكم رجلا..!»

وبسقوط شجرة الدر عن العرش سقطت معها أشهر محاولة جدية لجلوس امرأة على العرش فى الشرق العربى والإسلامى، واكتفت نساء القصور بلعب أدوارهن من وراء ستار ...

صحيح أن بعضهن خرجن من خدرهن كما فعلت زوجة السلطان الظاهر بيبرس، عندما مات زوجها .. فقد ركبت فرسا وذهبت إلى قادة جيش زوجها السلطان المتوفى تطلب إليهم أن يبايعوا ولدها بالسلطنة ...

ولكن هذه الحادثة وأمثالها، كانت حوادث فردية لاتذكر كقاعدة فى هذا المجال ..

وفى العهد العثمانى، كانت نساء القصور مجموعة من المتآمرات والمغتالات .. وكان السلاطين العثمانيون يدافعون عن أنفسهم ضد جواريهم بقتلهن بالجملة، وبلا رحمة على الإطلاق ..

ونحن نعرف بعض نساء القصور فى عهد أسرة محمد على بمصر .. وكانت أخرهن الملكة السابقة نازلى التى كانت سببا هاما فى التعجيل بنهاية أسرة محمد على كلها .. ولها وحدها تاريخ مثير يستحق صفحات كثيرة صاخبة ...!

أما ملكات التاريخ الأوربى اللاتى وردت قصصهن فى هذا الكتاب .. فإن بعضهن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كن ملكات متوجات جلسن على العرش كما يجلس الملوك الرجال، كالملكة كاترين الروسية. وبعضهن كن زوجات ملوك، يحملن - طبقا للتقاليد الأوربية - لقب ملكة، كمارى انطوانيت زوجة لويس السادس عشر التى ناوأت الثورة الفرنسية عند اندلاعها سنة ١٧٨٩ وانتهت حياتها وسط عواصف الثورة الجامحة ...

وماكان أشق على التاريخ أن يحمل على صفحاته مثل هؤلاء الملكات .. بكل مايعلو رءوسهن من تيجان ملوثة بالإثم والعار. وماكان أقسى على الشعوب أن تحتمل فى صبر كل تلك الضربات التى كانت تنهال على ظهورها من سياط الاستبداد والطغيان. وماكان أمر الكأس الملعونة التى أبت الأقدار إلا أن تشربها الإنسانية حتى الثمالة، من أيدى ندماء ارتفعوا من الحضيض إلى القمة فى غفلة من الزمان ..

وما من شك أبدا فى أن بعضا من هؤلاء الملكات اللاتى حاولت أن أعرض لحياتهن فى هذا الكتاب، سيرة لايمكن أن تكون عطرة على الإطلاق .. فما اعترفت واحدة منهن بالفضيلة أبدا .. بل جلسن على العروش، ينهبن، ويسرقن، ويقتلن، ويفسدن، ويعبثن، ويعشن حيوات مليئة بالرزايا والآثام. ولكن الشعوب كانت لهن دائماً بالمرصاد، فخرج من بين أبنائها ثوار أصحاب عنفوان، عرفوا كيف يطيحون بالفساد، ويقضون على الطغاة، ويعلون كلمة الشعب.

ولعل ثمة عبرة أخرى، غير مصارع الطغاة، أحببت أن يخرج بها القارئ من هذا الكتاب.

فقد حرص التاريخ، وهو يؤرخ لهؤلاء الملكات المتوجات، أن يكشف حقيقة كل منهن. لا كملكات فحسب، بل كنساء لهن نزوات إناث أيضاً ...

ومن هنا يخيل لمن لا يتعمق التاريخ أن المرأة لاتصلح للحكم، لأن أنوثتها تفتح عليها أبوابا من الفضائح لاتغلق أبدا ...

والواقع أن صورة الملكات القديمات فى أذهان الناس، تكاد تسئ إلى جميع النساء، إلا إذا أدركنا جيدا أن ثمة فارقا أساسيا بين الملكات فى العصر الإقطاعى وبين المرأة العاملة فى العصر الحديث.

إن بعض الملكات كن فاسدات، وكن يستغللن مراكزهن الرفيعة لإرضاء نزواته ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا صحيح .. ولكنه كان يحدث فى العصر الإقطاعى الفاسد .. فى العصر الذى كان فيه الرجال أيضا فاسدين يستغلون سلطانهم ..

والآن .. فى عصرنا .. حلت المرأة العاملة الشريفة محل الملكة القديمة ذات النزوات .. وتحررت أفكار الناس من أوضار المجتمع الإقطاعى الذى كان يفسد الرجال والنساء على السواء ...

وهكذا .. يحمل كتابنا هذا، صورة من المجتمع الإقطاعى الأوربى. الذى كان يفسد النفوس والقلوب والعقول.. صورة تدعونا إلى أن نعتز بما وصلت إليه المرأة الحديثة، وبما وصلت إليه بعض الملكات من عظمة وقوة فى تاريخ شرقنا القديم.

إن الإنسانية تتقدم، ولهذا لن تتكرر فى المستقبل قصص الملكات الخليعات، لأن قصصهن كانت من حصاد المجتمعات الرجعية الفاسدة التى انهارت إلى الأبد .. ولايمكن أن تعود ..

سليمان مظهر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول
ملكات من الشرق

- حتشبسوت .. المرأة الفرعون
- ممتاز محل .. سيدة التاج
- سميراميس .. نمرة وحمامة
- تزوهسى .. الامبراطورة التنين



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المـــرأة الفرعــون
حتشبسوت .. سيدة الأرضين

لم تكن تدرى سر تلك النظرة الحائرة التى كان يرسلها إليها أبوها .. ولكنها كانت تدرك أنه كان يتمنى يوم ولدت أن يكون المولود ذكراً. لهذا كانت أنوثتها تبعث ضيقا شديداً لدى الرجل الذى طالما حلم بوريث يرثه ويجلس من بعده على عرش مصر .. ولعلها - وهى بعد فى ميعة الصبا - كانت تحاول أن تخفف عن أبيها، فلا تظهر أمامه فى ثياب كتلك التى ترتديها أترابها من بنات القصر، وكانت تجتهد ألا يبدو فى تصرفاتها وحركاتها وكلماتها مايشعره أنها مجرد طفلة .. فكانت تنطلق فى ردهات القصر تأمر وتنهى، حتى بدت فى كثير من الأحيان بالغة القسوة على أترابها من أبناء الأمراء والنبلاء. متمردة على أنوثتها وعلى مايظهرها أمام أبيها على غير ماكان يتمنى أن تكون ..

ومع ذلك .. فقد كان جمال وجهها وفتنتها ورقة ملامحها تقف حائلا دون تأكيد تلك الصورة التى تريد أن تكون عليها .. فقد كان كل مافيها باهراً رائعاً، ملأتها الطبيعة سحراً، ووهبت لها أفتن مايمكن أن تتيه به امرأة .. ولم تكن وحدها صاحبة كل تلك الفتنة، بل كانت أمها الملكة «أحموس» زوجة الملك المحارب العظيم تحتمس الأول قد سبقتها إليها، وحين انتقلت الأم إلى السماء، لم يعد هناك فى القصر من تضفى عليه تلك الصورة الجميلة الفاتنة غير ابنتها.

إلا أن اختفاء الملكة الجميلة لم يكن هو سبب ما اعترى الملك من حيرة وحزن وانقباض. فقد كان ثمة سبب أقسى عليه وأشد. فقد كانت شرعية جلوسه على العرش مرتبطة بحياة زوجته ذات الدم الملكى، والتى ارتقى العرش عن طريق الزواج بها، فهو نفسه لم يكن من دم ملكى، إذ لم تكن أمه زوجة شرعية من بنات الملوك، كما أنه لم ينجب من زوجته الشرعية وارثاً للعرش. إذ كان كل أبنائه من الذكور قد ماتوا وهم صغار، ولم يبق له من خلفه الذكور إلا ابن واحد من زوجة غير شرعية، بينما كانت له ابنة واحدة من زوجته أحموس .. هى هذه الفتاة .. حتشبسوت ...!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أطلت الفتاة إلى والدها فرعون إذ نهض من فوق العرش المصنوع من البازلت الأسود فبدا فارع الطول مهيب الطلعة، ودلت حركته على أنه مقدم على أمر خطير. فقد جاءت اللحظة التى يجب أن يتنازل فيها عن العرش بموجب القانون الكهنوتى المقدس ...

والحق أن تحتمس لم يكن راغباً فى البقاء فى الحكم أكثر مما بقى، فقد سئم مواصلة الغزو، وضاق بكثرة المؤامرات. وإنما كان هناك أمر يقلق باله .. فعلى كتفى من يستطيع أن يلقى أعباء الحكم ؟ لم يكن هناك سوى ابنته البكر التى لاتزال دون الخامسة عشر، فهى وحدها التى يحق لها أن تخلفه بحكم القانون، فهل تستطيع كتفاها الرقيقتان أن تتحملا مثل هذا العبء الجسيم ؟

ولاشك أن كهنة أمون - وهم أصحاب السلطان الكبير على الحاكم - كانوا يعلمون مايفعلون حينما أشاروا على الملك بوجوب التنازل .. وإلا فأى حاكم يكون أطوع بين أيديهم من طفلة لا حول لها إلا بهم، ولا رأى إلا من محض تفكيرهم ؟!

ونظر الرجل فى إشفاق إلى الصبية النحيلة الماثلة أمامه، ثم أرسل زفرة شديدة اختلط فيها الملل بالقلق، فقد كان لابد من البدء بشعائر الاحتفال المقدس الذى يتم به تحويل القوة الروحية إلى حتشبسوت الصغيرة ..

وارتفعت يد فرعون اليمنى منبسطة وهبطت برفق فوق ظهر الفتاة التى انحنت أمامه، ثم مرت اليد فى بطء من فوق الظهر إلى العنق، صاعدة هابطة، وارتفع صوته يهز التاج الذهبى الذى يعلو رأسه مدوياً فى أرجاء القاعة الكبيرة التى حبست فيها الأنفاس :

«هذه الفتاة الحية، كنوميت أمون حتشبسوت، إننى أرفعها إلى سدتى، فهى ستأخذ مكانها فوق عرشى، وتوجه كلماتها إلى جميع رعاياها، إنها ستتولى الحكم عليكم بغير منازع. فاستمعوا إلى أقوالها، واتحدوا فى تنفيذ أوامرها .. واعلموا أن من أطاعها نجا ومن عصاها كتب على نفسه الهلاك».

ولم يكد الملك ينتهى من خطابه حتى أفسح مكاناً لابنته، فجلست بجانبه على العرش، وأخذ الاثنان يتلقيان الولاء معاً من رجال البلاط.

كان أول المتقدمين هابوسنيب كبير كهنة أمون. وكان شيخاً مسناً تبدو الصرامة على وجهه، ويشع الذكاء من رأسه الحليق. وحينما انحنى تعبيراً عن الولاء، حاول أن يخفى ابتسامة الانتصار التى بدت على وجهه. غير أن ذلك لم يخف على فرعون، ولكن الحقيقة أنه لم يخش على الملكة الجديدة من هذا الشيخ، فقد عهد فيه دائماً الحكمة وسداد الرأى، والإخلاص، بل إنه تأسف عندما ذكر أن العجوز لن يعمر طويلاً.

ثم توالى تقدم الكهنة بعد رئيسهم، فعاد القلق إلى نفس فرعون .. فهذه الوجوه التى ظهر عليها السرور بشكل واضح كانت تخفى الكثير .. أقله أنها تستبطن طموحاً لاحد له، وجشعاً متزايداً وفنوناً من المكر والخداع تربك أذكى الرجال ..!

تقدم بعد ذلك فتى حسن الطلعة وضئ الوجه واضح القسمات، كأنما صيغ جسده على نمط تمثال بديع، وكانت عيناه صافيتين تشع منهما نظرة لا تقف عند مظاهر الأشياء، إنه الأمير سينموت مدير بيت الإله أمون وعميد الطبقة الارستقراطية، وأبرع مهندس فى تصميم المعابد المصرية.

تقدم الفتى نحو العرش رابط الجأش ثابت الخطى، تدل هيئته على ثقة واعتزاز. ولكن حدث عندما اقترب من حتشبسوت ماجعل الملك يسترجع أفكاراً شاردة، فحين التقت نظراتهما كان هناك مايدل على تفاهم سابق .. فهل كانت العاطفة تلعب دورها بين الملكة المراهقة والأمير الشاب ؟

كان لهذا السؤال أهمية بالغة .. إذ لو صح ماتصوره فرعون، لكان فى ذلك مشكلة كبيرة ليس من الصواب أن تواجهها الملكة فى بدء حكمها. حقاً إنه كان من سداد الرأى أن تجتذب حتشبسوت إلى جانبها سينموت وأمثاله من ذوى النفوذ، ولكن إذا اتجه الأمر إلى شئ كالحب فإن فى ذلك خطورة لن تكون سليمة العواقب. فالحقيقة أن حتشبسوت وقد أصبحت ملكة، لم تعد تملك حرية التصرف فى أمر نفسها، فالقانون يحتم أن تتزوج من رجل تسرى فى عروقه دماؤها الملكية .. وليس هناك سوى شخص واحد تنطبق عليه هذه الصفة وهو أخوها الطفل غير الشرعى تحتمس (الثانى) الذى جاء ثمرة لاتصال فرعون بمونتفريت إحدى محظياته. غير أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الفكرة لم تلبث أن زايلت عقل فرعون، فقد رأى أنه لا يصح تعكير صفو أول يوم من حكم ابنته بمثل هذه الأفكار السوداء ...

فى ذلك اليوم من عام ١٥٢٠ قبل الميلاد، وفى قصرالملك فى طيبة، عاصمة مصر القديمة، وبعد تنازل تحتمس الأول أقيم حفل التتويج، بغير إمهال، وكان يوماً شديداً بالنسبة للملكة الصبية ... فبعد أن حملت على رأسها التاجين الأبيض والأحمر، وتسلمت شارتى الحكم، استوت على العرش الذى ازدانت قوائمه بزهور مملكتى الشمال والجنوب .. اللوتس والبردى، وأخذت تتلقى الولاء بلا انقطاع من رجال الحاشية وأفراد الشعب. فإذا ما انتهت من ذلك تصدرت موكباً عسكرياً تقليدياً قصد به إظهار مقدرة البلاد على صد العدوان الخارجى .. ثم اتجهت بعد ذلك إلى المعبد الكبير لإقامة صلاة الشكر وتقديم القرابين للإله آمون ...

كان لابد للملكة الصغيرة أن تشعر بعد كل ذلك الجهد بكثير من التعب .. فاتجهت إلى مخدعها لتنال قسطاً من الراحة .. ولكنها لم تستطع أن تستريح كثيراً، فقد جاء الكاهن الأكبر فى أعقابها ليقدم لها نصائحه .. وكان أهم ماجاء يحادثها فيه مسألة زواجها التى لم تعد تحتمل تأجيلاً بعد أن توجت ملكة ... وكان مفهوماً أن الرجل الوحيد الجدير بها هو أخوها تحتمس (الثانى) كما يقضى القانون.

لم يكن لدى حتشبسوت أى رغبة فى الزواج من أخيها بالرغم من أنه كان شاباً جميلاً فى السابعة عشر، وقد أحبه الناس لظرفه ولباقته، حقاً إنه كان أنيقاً طويل القامة عريض المنكبين، إلا أنه مع ذلك لم يكن قوى البنية، كما كان مغرقاً فى الترف والتأنق، وتنم على ذلك تقاسيمه التى تشعر بشئ من الأنوثه .. والحقيقة أنه كان على النقيض من أخته التى كانت تظهر الرجولة فى معظم مظاهرها.

وهكذا لم تجد حتشبسوت فى أخيها الصفات التى تتطلع إليها فى رفيق حياتها .. غير أنها كانت سيئة الحظ .. فالواقع أن تحتمس (الثانى) كان الرجل الوحيد الذى يبتغيه أقوى حزب فى البلاد .. وهو حزب دعاة الحرب، فقد سكر هؤلاء بنشوة الانتصارات الكبيرة التى حققها والدها، فباتوا يرون أن مصلحة البلاد تقتضى مواصلة الحروب .. فتعالت صيحاتهم مطالبين بملك ذكر يستطيع أن يقود الجيوش ويتابع الغزو، أما المرأة فكانت فى نظرهم لاتستحق إلا الزراية والامتهان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا هو الأمر الذى حاول الكاهن الأكبر أن يوضحه للملكة وكان موقفه دقيقاً، فقد رأى نفسه أمام قلب فتاة لاتتردد فى التضحية بكل شئ فى سبيل عاطفتها التى أحس أنها تتجه إلى الفتى سنيموت. ولكنه اعتمد على دهائه .. فقد كان يعلم أن الشاب تحتمس مولع بالصيد والخمر والنساء، فمع زوج كهذا تستطيع حتشبسوت أن تحكم وهى آمنة مطمئنة ..

وكان كبير الكهنة قد علم الكثير عن مزاج حتشبسوت وأنها كثيرة الطموح، ترغب فى الوصول إلى القوة وتسنم المجد. كما علم أن من أكبر أمانيها أن تحقق سلاماً دائماً لشعبها .. فأخذ ينصحها قائلاً :

«تزوجى من تحتمس، لاتكونى ملكة فحسب بل وملكاً أيضاً .. وماذا يهم أن لايكون قلبك متعلقاً به ويتجه إلى سواه .. ؟!» .

ولم تكن حتشبسوت فى حاجة إلى ذكاء لتفهم مايعنيه هابوسنيب فوافقت آخر الأمر على الزواج من أخيها حسب ما يقرره القانون الذى يسمح لأصحاب الدم الملكى فقط بالزواج بين الإخوة حفاظاً على نقاوته، ولكنها وقد علمت أنه يبغض سنيموت خشيت أن يطوح به إلى مكان بعيد بعد أن يشاركها فى الحكم، لذلك رأت أن تعهد إلى الأمير المهندس القيام بعمل يتأتى به بقاؤه قريباً منها ويستغرق إتمامه وقتاً طويلاً.

ولكن .. ماذا يمكن أن يكون مثل هذا العمل ؟

ربما كان إنشاء معبد كبير، فهذا مايستطيعه ذلك المهندس العبقرى .. وإنما يجب أن يكون معبداً يفوق فى فخامته وروعته كل مارآه الناس ..!

ولكن .. حتى يحين وقت الشروع فى ذلك رأت حتشبسوت أن تقوم بضربة قوية يدرك منها شعبها أنها قد صممت على أن تفرض عليه حكماً مطلقاً كما يفعل الرجال. ولكى تقدم الدليل على ذلك أعدت لهم مفاجأة لم تخطر ببال ..

كانت وفود الشعوب التى أخضعها والدها من قبل قد أخذت تتوافد على طيبة لتقديم الهدايا وتجديد الولاء للملكة ..

وهنا حدثت المفاجأة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحينما اكتمل عقد الوفود فى حفل الاستقبال المهيب الذى شارك فيه أيضاً الأمراء والنبلاء والكهنة .. رأى الجميع أمامهم فرعوناً حقيقياً اكتمل جلاله بوجود لحية صغيرة فوق ذقنه ..

كان هذا هو فى الحقيقة ماخططت له حتشبسوت. فبدلاً من أن يرى الجميع ملكة ترفل فى ثوب نسائى جميل وتزهو بشعرها المرسل على طريقة ملكات مصر .. رأوها ترتدى قميصاً فضفاضاً من الكتان الخشن مما يستعمله الرجال، ومن فوقه صديرية، وبدا السوط فى يد والقضيب المعقوف رمز مفتاح الحياة فى الأخرى. كما رأوا فوق رأسها التاج المزدوج الثقيل. وقد بدا وجهها جامدا عبوساً تشع منه عينان ثابتتا النظرات، وتتدلى منه لحية صناعية صيغت من الذهب على غرار لحية الإله أوزوريس ....

بداية رائعة بدت عظيمة فى نظر كبير الكهنة، فأسرع طالباً من الجميع الركوع إجلالاً لفرعون العظيم، ثم وجه خطابه إلى حتشبسوت قائلاً :

«أى فرعون العظيم .. إنك حقاً الابن المفضل لآمون رع .. وإنك حقا للأثير لدى جميع الآلهة ..».

حيال هذا المشهد الذى دل على أن حتشبسوت لاتقل عزماً وحزماً عن الرجال، لم يكن هناك من يجرؤ على الاعتراض بشئ .. وحتى دعاة الحرب لم يجدوا ذريعة لإبداءعدم الرضا. وكان كل ماطالبوا به أن يتم زواج الملكة من تحتمس فى أقرب وقت مستطاع ..!

وفعلاً تم الزواج على وجه السرعه، ثم أقيمت الاحتفالات ابتهاجاً به فى جميع أنحاء البلاد، وكان فيها بذخ كبير. وحتى العبيد الذين كانوا كثرة فى ذلك الزمن، لم يحرموا من المشاركة فيها .. فقد وزعت عليهم الأرزاق والهدايا، كما وزعت على غيرهم من المواطنين، وعاشت مصر بأسرها أياماً سعيدة ابتهاجاً بزواج حتشبسوت واحتفاء بارتقاء تحتمس الثانى بجانبها على العرش ..

كما تنبأت حتشبسوت .. كان أول مافكر فيه الملك الجديد أن يرسل سينموت إلى بقعة نائية على النيل .. غير أنها كانت قد أعدت خطة لمواجهة مثل هذا الإجراء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلم يمض شهران حتى كان سينموت قد تلقى أمراً ملكياً بالشروع فى إنشاء معبد جنائزى كبير .. يجب أن يقوم فى سفح جبل طيبة الغربى، ليكون مدخلاً إلى المقبرة السرية الحصينة التى تحفر فى جدار الجبل ..

وما أسرع ما اتجه سينموت إلى التنفيذ .. مدفوعاً بكل ما يعتمل فى قلبه لإرضاء الملكة حتشبسوت. وكان أول مافكر فيه أن يحدد مكاناً لنقش يضعه على أحد جدران المعبد يقول فيه :

«إن جلالتها تنمو بشكل أجمل من الناس جميعاً .. وإن نظرة إليها أبهى من النظر إلى العالم كله. إنها أشبه بإله .. شكلها شكل إله، وفعلها فعل إله - وسناؤها سناء إله .. إن جلالتها عذراء .. جميلة .. مزدهرة».

فى الحقيقة كانت حتشبسوت تزداد روعة وجمالاً كل يوم .. كان جمالها مثالياً .. مزيجاً من الجلال والكمال .. فهل كان الزواج قد زاد من جمال تلك «العذراء الجميلة المزدهرة» أم هو الحب الذى امتلأت به أعماقها للرجل الآخر .. بعد أن تزايد النفور الذى استحكم بينها وبين زوجها وأخيها الذى عكف على مسراته وانشغاله بعيداً عن القصر، تاركاً كل الأمور لحتشبسوت ووزرائها ..

والواقع أن تولى تحتمس الثانى للملك كان فى نظر الشعب شرعياً لا غبار عليه.. ولكن الأحوال كلها كانت تدل على أن زواجه من حتشبسوت كان زواجا رسمياً ليظهر أمام الشعب أن على أريكة الملك فرعوناً .. أما ماعدا ذلك فقد كانت حتشبسوت هى المسيطرة على البلاد .. فهى الوارثة الحقيقية للعرش .. بينما تحتمس لم يكن قد خلق ليكون فرعوناً ..

وتمر السنون .. وتستطيع حتشبسوت أن تحكم البلاد لفترة طويلة كانت كلها خيراً وسلاماً، وكان إلى جانبها رجال مخلصون ومستشارون ناصحون يصرفون الأمور بعد عرضها عليها وتبادل المشورة معها.

وكان أحكم مستشاريها هو كبير الكهنة .. ذلك العجوز الذى كان يشعر بدنو أجله .. فيحاول أن يزن افعاله وأقواله لعلمه بأنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة .. ولكن بالرغم من الجميع تقع الحرب .. فقد كان لابد من إرسال حملة تأديب إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلاد كوش بالنوبة الجنوبية لإخماد العصيان الذى قامت به بعض القبائل على مقربة من الشلال الثالث. ويظهر أن أهل بلاد كوش كانوا يعلمون أنه كان هناك خلاف على تولية العرش .. فانتهزوا الفرصة وأعلنوا العصيان ..

وأرسل الفرعون حملة لإخماد الثورة، وعاد الجيش بأسرى كثيرين، واستعاد تحتمس الثانى هيبته بعد أن حقق النصر .. كما حققه بعد ذلك على بعض القبائل الليبية، مما جعل الناس يتصورون أنه بدأ السير على نهج والده المحارب العظيم .. إلا أن ذلك لم يتحقق .. فقد كان سهل القياد .. مما جعل زوجته حتشبسوت تجعله طوع بنانها .. إذ لم يمض وقت طويل حتى جعلته يأتمر بأمرها من جديد .. واستمرت هى صاحبة الحل والعقد فى البلاد ..

استطاعت مصر أن تغتنى وتزدهر تحت صولجان الفرعون المرأة حتشبسوت .. وأخذت الحقول تعطى محصولات وفيرة بفضل وفاء النيل .. وقامت المبانى والمنشآت فى مختلف أنحاء البلاد .. وتوالى مسير السفن فى النيل والقوافل على البر محملة بالمحاصيل الثمينة من البقاع النائية.

أما سينموت .. فقد كان مايزال يواصل العمل لإنهاء المعبد الجنائزى لملكته حتشبسوت، وكان ينفذ بكل دقة جميع تعليماتها الملكية ويسجل بالنقوش والرسوم كل ماكانت تستهدفه من تأكيد حقها فى العرش ..

وحين كاد المشروع يقارب الانتهاء .. بدت هناك حاجة شديدة إلى إحضار أخشاب من بلاد بونت - وهى الصومال الإفريقى - لإكمال البناء ..

وأمرت حتشبسوت بإرسال بعثة إلى بلاد بونت .. أرض البخور والأخشاب والعجائب الخفية ..

ولايدرى أحد إذا كانت الملكة قد أصدرت أمرها إلى سينموت بأن يرأس بعثتها إلى بونت، أم أنها اكتفت بإرسال تجريدتها بينما هو يواصل العمل فى إعداد المعبد .. المهم أن البعثة التى سجلها سينموت على جدران الرواق الجنوبى للمدرج الثانى فى المعبد تبدو رسوما لسفن ملقية مراسيها على الشاطئ يصحبها نص يقول :

«تمخر السفن عباب البحر مبتدئة على الطريق الطيبة نحو أرض الإله، وترسو

فى سـلام ببـلاد بونت» وتـبدو الـسفـن الثلاث الأخـرى وهـى تـفرد أشرعـتها لتـغادر الشـاطئ عائـدة إلى طيبة، يصاحبها نص يقول :«تبحر وتصل فـى سلام وترسو فى طيبة، والقـلب مسرور بواسطة بعثـة سيد الأرضين. وتبدو فى الرسـوم منازل أهالى بونـت ترتـكز عـلى دعائـم من الخـشب، يـصعد إلـيها بسـلالـم خشـبية تقـوم وسط الأشـجار العالية .. ويشاهـد زعيم بونت المـدعو بارهـو ومن خلفه زوجته وابنته ووالده وثلاثه خدم. وهـم يـستـقبلـون البعـثة المصرية، كما ترى أشـجار الـبخور والأبـنوس وأعواد الذهـب بين المواد التى يقدمها أهالى بونت إلى البعثة المصرية.

هـكـذا عادت بعـثة حتشـبسوت وقـد جلبـت معهـا كميات وفـيرة، لا من الأخـشاب المـقطـوعة مـن أشجـار الـغابـات فحـسب، بـل أيضا مـن أشـجار أخـرى بيـنهـا خشـب الأبنوس الأسـود والأخضـر واللدائن المعطرة، وجلود الفهود والنمور والقرود العـجيبة والـكلاب النادرة .. وسجلها سينموت كلها على جدران المعبد.

وجاء يـوم عاش فيه سـينمـوت قمة مجـده كفنان أصـيل اسـتـطاع أن يقوم بإنجاز كبير، وبات يعتقد أن الحياة لايمكن أن تتمخض عن مزيد من السعادة حينما شاهـد حتشبـسوت فى ردائها الموشـى بالذهب تنزل من السفينة الملكية الراسية عـلى البر الـغـربى، وقد حـملت فـى يديها شـعارى المـلـكية. وفى الـطريق الـذى تزينه الطـنافس والـزهـور، ويحيـط به على الجانبين تماثيل أبى الهول تتقدم المـلكة نحو المعبد الـكبير الـذى بـدت أعمـدته الـبيضـاء ملتصـقة بالجـدار الجبلى الأحـمر .. فأعـطت بذلك لـوحة رائعة من الديكور الطبيعى لاتزال آثارها باقية ...

لـم تكن حتشبسوت قد رأت المعبد حتى ذلك اليوم .. فهى إما أن تكون قد أرادت أن تشـعر سـينمـوت بأنـها و اثـقة فـى مهارتـه، أو أنهـا أرادت أن تدخـر المفاجـأة لـنفسـها كاملة..

وبالفعل جاءت المفاجأة كاملة .. بل ومدهشـة إلى حد كبير ..

فقـد وقفـت المـلـكة عـلى عتـبة المـدرج العـظيم الـضخـم المؤدى إلـى المدخـل، وأخذت تشاهـد فـى سكون هيكل المبـنى، ثم رفعت بصرها وأخـذت تتأمل طويلاً تفـاصيله .. إنها تحفة فنية رائعة تمخضت عنها .. عبقرية إنسان ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت الملكة فى هدوء وهى تنظر إلى سينموت :

إنه عجيبة العجائب .. بل إنه أبهى أشكال البهاء. إن الملك فى مثل هذا المعبد لايستطيع إلا أن يشعر بتضاؤل جبروته .. والآن أى شئ يستطاع به مكافأتك ياسينموت على هذا الإنجاز العظيم ؟

وأخذت الملكة بعد ذلك تنتقل فى أرجاء المعبد الكبير ..

بدأت من الفناء المتسع الذى غرست فيه أشجار نقل بعضها من بلاد بونت، وقد حفت به تماثيل فى صورة أبى الهول يعلو كلاً منها رأس الملكة، وانطلقت على الممر الذى يفضى إلى السفح الثانى وفى نهايته رواق عريض يرتكز على منحدر أملس جميل، وتتأمل الملكة الصور المنحوتة على صف الأعمدة والجدران .. إنها تمثل مشاهد مختلفة من حياة الملكة منذ ولادتها حتى تتويجها .. ولكن أبرز مافيها هو ما اتجهت إليه حتشبسوت فوراً لترى ما إذا كان سينموت قد استطاع أن يحقق لها هدفها الرئيسى.

ووقفت تتأمل الرسوم ..

إنها تهدف إلى البرهان على أن حتشبسوت ليست ابنة تحتمس الأول، بل هى ابنة الإله آمون رع بالذات .. وقد بدأ آمون وقد اتخذ لنفسه شكل تحتمس الأول جالساً مع أحموس زوجته «فوق السموات» التى تحتضن إلهتين اثنتين ومعها نص يقول :

«عثر عليها وهى نائمة فى قصرها البهى .. فاستيقظها عطر الإله الذى استنشقته بحضور جلالته. فتقدم منها فوراً .. وبسط رغبته عليها. فتراءى لها بشكل إله، ولما أصبح بمحاذاتها استمتعت بمنظره الجميل، فانساب حب الإله فى كيانها كما انساب عطره فى كل جوارحها، ذاك العطر الإلهى المستورد من البونت بلد العطور .. وساعتئذ قالت له أحموس :

«كم هى عظيمة شهرتك، وكم تبدو جبهتك مدهشة. لقد وحدت بين جلالتى ونعمتك فانشر شذاك فى كل أعضائى».

وبعد ذلك يتابع النص فيقول :

«لقد فعل الإله الجليل معها كل مايشتهيه».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى لوحة يبدو الإله آمون يخاطب الإله الخالق خنوم قائلاً : «إذهب وافعل منها ومن روحها ومن هذه الأعضاء التى هى منى .. إذهب واجعلها أفضل من كل الآلهة.. واعط شكلى لهذه الابنة التى أنجبتها وهى ابنتى».

وبعد ذلك تبدو الملكة الأم أحموس وهى حبلى بشكل واضح مع بسمة مشرقة على وجهها، وهى تسير بين إلهتين إلى مكان الولادة ....

أما المشهد الثانى فيأتى مباشرة بعد الولادة .. وهو يظهر الملكة جالسة تحتضن المولود، بينما تقف أمامها أربع إلهات باسطات أذرعهن باتجاهها كأنما يقمن بدور القابلات، ثم يظهر مشهد حاتحور إلهه الحب تقدم المولود حتشبسوت إلى آمون الذى يهتف جذلاً :

«صورة مجيدة تنحدر منى .. إنه ملك سيعتلى عرش حورس إلى الأبد، ويحكم البلدين».

وأحست حتشبسوت وهى تتأمل تلك الرسوم بسعادة غامرة .. أنها ستؤكد للجميع أنها بالفعل ابنة الإله آمون ... وهى بذلك خليقة بأن تكون الملكة الشرعية على البلاد ..

وعندما انتهت الملكة من المشاهدة، وهمت بركوب السفينة رأت أن تحيى الرجل الذى استطاع أن يحقق أمنيتها .. فقالت له أمام الجميع :

«لقد أثبت أنك خادم نافع ياسينموت، فقد استمعت إلى تعليماتى، وقمت بما طلبته على خير وجه، وهو أمر يجعلنى راضيه عنك، فلتكن صديقاً للملك من الآن.. وإنى إذ أقول ذلك أعنى أنه أصبح من حقك أن تأكل خبز فرعون سيدك .. فى معبد آمون رع ..».

ثم تناولت الملكة من يد واحد من الخدم ريشة نعامة ذات قبضة ذهبية وصديرية موشاه بالذهب، وناولتها لسينموت، فأسرع إلى تناولها وهو راكع، ففى تلك اللحظة بدت له حتشبسوت بلحيتها الذهبية الصغيرة ليست امرأة يعشقها الرجال.. بل فرعوناً عظيماً يجله الناس ويقدسونه ..!

من سوء حظ حتشبسوت أنه لا الخصب الذى تحقق فى حكمها، ولا المعبد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجميل الذى شيده مهندسها البارع سينموت، كان مرضياً لأصحاب الأهواء، فقد كان الحزب المتشبع بفكرة الغزو لايزال رابضاً يترقب الفرص، وقد ضايقه أن تمر تلك السنوات الطويلة بغير أن يقوم بشئ من تلك الغزوات التى كان يجد فيها مايبتغيه من مكاسب ومغانم ..

وعاد الهمس يترامى فى أوساط الشعب بوجوب وجود فرعون صادق فوق العرش بدلاً من ذلك المظهر الكاذب .. فرعون حقيقى يكون محباً للحرب متعطشاً للدماء، يستطيع قيادة الجيوش، وتسجيل الانتصارات كما فعل الآباء والاجداد.

وترامت الإشاعات الى حتشبسوت فرأت أن تبادر إلى القضاء على الشر قبل استفحاله، ولكنها عادت فرأت الا تقوم بضربتها القاضية إلا إذا خرج الأمر عن حده. وكان مما طمأنها أن كبير الكهنة كان فى صفها. وما دامت كلمته نافذه على جميع الكهنة، فإن الخطر لايزال بعيداً ..

غير أن القدر كان لها بالمرصاد، فقد مات ذلك الشيخ المخلص. وحملت مومياؤه فى مشهد مهيب إلى قبر كان أعد له فى رحاب المعبد الجديد ..وهكذا خلا الميدان للجشعين ممن كانوا تحت رئاسته. ولما انتخب من بين الكهنة من يخلفه جاء واحداً من كهنة أمون الكارهين للملكة.

وجاءت الضربة الثانية فى موت زوجها تحتمس الثانى الذى كان وجوده الرسمى بمثابة حاجز يحميها من المتآمرين .. وقد مات متأثراً بمرض غامض لم يمهله سوى أيام قليلة .. وعندما حملت مومياؤه إلى «بيت الموتى» بدأت حتشبسوت تشعر بهول الموقف .. فقد كان واضحاً أنها ستواجه مصاعب ودسائس ليس لها آخر.

ثم .. كانت المأساة الجديدة ..مأساة شبيهة بمأساة تحتمس الأول وابنته حتشبسوت، فهى لم ترزق من تحتمس الثانى إلا بنتين بينما لم تعقب منه وارثاً ذكراً للعرش .. وبذلك وبعد موت زوجها وجدت حتشبسوت نفسها أما لطفلة هى نفرورع الوارثة للعرش من خلال دمها الملكى، وهى رئيسة للبيت المالك لاينازعها منازع. وكانت لاتزال فى مقتبل العمر وريعان الشباب .. وقد وقع على عاتقها مشكلة وراثة الملك فى نفس الصورة التى وجدت فيها البلاد بعد وفاة تحتمس الأول.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحق. لقد كان الموقف حرجاً، ولابد من الخروج منه بصوره ترضى حتشبسوت وترضى الشعب معاً ..

والحقيقة أن تحتمس الثانى كان قد أنجب ولداً من إحدى محظياته، وقد انتظم هذا الولد فى السلك الكهنوتى منذ طفولته، وتربى فى حجور كهنة معبد أمون .. هذا الابن الذى دعى تحتمس أيضاً كان فى التاسعة من عمره عندما مات والده.

وفطنت حتشبسوت سريعاً إلى هذه الحقيقة .. فهذا الصبى قد تبلورت فيه جميع أمانى خصومها وتشبعت نفسه بأطماعهم .. وقد كان متفانياً فى حب والده كارهاً كل الكراهية لحتشبسوت التى كان مقتنعاً بفكرة أنها كانت تتجاهل أباه فى حياته، واتخذت من اعتلال صحته فرصة للسيطرة على شئون البلاد. واتخذ الخصوم من معبد إله الشمس مقراً عاماً لمؤامرتهم وتدبيرهم. فهل سكتت حتشبسوت عن ذلك الخطر المتزايد الذى بات يهددها ويهدد أمن بلادها وسلامها؟ لقد رأت أن الوقت قد حان للقيام بضربتها القاضية، غير أن سينموت حال دونها والقيام بذلك .. فقد أخبرها أن هجوماً على المعبد يثير غضب الشعب عليها، وربما أدى إلى وقوفه ضدها، وإنما يمكن القيام بمثل هذا الهجوم عندما تبدو من أولئك الخصوم بادرة شر يكون فيها حجة عليهم.

وجاءت هذه البادرة سريعاً، بل إنها جاءت ترتدى ثوباً من السحر الوهمى الذى كان له أهمية خاصة عند الكهنة المصريين. فالواقع أن هؤلاء كانوا من السحرة المهرة، وكان لهم براعة فى التصور الخادع، ومقدرة على خلق مظاهر كاذبة كانت تدخل فى عقول الشعب السريع التصديق، فلا يسعه إلا أن يرهبهم، ويؤمن بمقدرتهم فى نفس الوقت.

لذلك لم يكن عجباً أن يرى الناس يوماً موكباً كبيراً من أولئك الكهنة، وقد خرجوا يحملون تمثال أمون، وساروا به إلى النيل ليصدر أمراً إلى النهر بأن يحول مجراه إلى أرض أصابها الجفاف كما زعموا. وبينما كانوا يدورون بالتمثال كان الصبى تحتمس قد اتخذ مكانه بين أقرانه من صغار الكهنة الذين انتظم معهم فى السلك الكهنوتى منذ طفولته. وفى أثناء الطواف بدوا وكأن تمثال الإله يتجه ناحية شخص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معين .. وبعد أن بلغوا المكان الذى يجلس فيه الصبى وقف التمثال فجأة أمامه .. فخر هذا على الأرض ساجداً يشكر الإله على تعطفه واختياره ..!

وصاحت الجموع الساذجة من فرط الدهشة وتولى الكهنة توضيح الأمر ... فهذه معجزة لم يسبق لها مثيل، وهى تدل على اختيار الإله لتحتمس ليكون فرعوناً ...!

وتلك قصة سجلها تحتمس الثالث فيما بعد على جدران معبد الكرنك بعد أن أصبح له الأمر .. وهكذا مرة أخرى رأت حتشبسوت أن تقوم بضربتها القاضية ولكن حال سينموت بينها وبين القيام بها، فقد أقنعها أن الظروف باتت تجعل مثل هذه الضربة أشد خطراً عليها من ذى قبل. فقد علم سينموت أن تلك المعجزة التى لم يسبق لها مثيل لم تكن سوى حيلة خادعة .. لكنه أدرك أيضاً أن أولئك الذين شاهدوها من أبناء الشعب قد أخذوها تسليماً على أنها معجزة سماوية. ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تخرج من عقولهم ذلك الاعتقاد، فإذا حاولت حتشبسوت أن تقوم بشئ يعارض رغبة الكهنة فإنها تعرض نفسها للمقتل بغير أن يكون هناك من يشفق عليها.

لم يعد هناك إذن سوى حل واحد .. فلكى تبقى على حياتها وتحتفظ بعرشها يجب أن تشرك معها على العرش تحتمس الصبى ...

وهنا .. تغشى عيون التاريخ .. وتختلط صفحات المؤرخين .. وتتشابك الآثار التى تحمل الأخبار الدقيقة فى خلال فترة شهدت موجات من التدمير وسيطرت عمليات الحقد والانتقام حتى عجز الجميع عن متابعة الأحداث ..

كما لم يعد هناك ما يؤكد حقيقة العلاقة الرسمية والمشاركة التى قامت بين حتشبسوت وتحتمس الثالث.

فهل كانت وصية عليه وعلى ابنتها صاحبة الحق فى الولاية الرسمية حين توليا الملك بعد أن تزوجا وهما لم يبلغا سن الرشد .. أم أنها كانت قد تزوجت الملك الصغير وهى فى عمر امه، وسيطرت على العرش بعد أن أبعدته تماماً عن ممارسة أى دور ..!!

هكذا اختلط الحابل بالنابل .. فما يدرى أحد حقيقة الأمر، وبات لكل مؤرخ رأيه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتناقضت كل نقوش رجالات الحكم والمقربين من العرش طوال فترة الخلاف الرهيب الذى قام واندلع بين تحتمس الثالث وحتشبسوت حتى أسقط اسمها من لائحة الملوك ...!

على أنه مع كل هذا التناقض والاضطراب والاختلاف كان هناك اتفاق على أن حتشبسوت وضعت الصبى شريكاً لها فى الحكم باسم تحتمس الثالث.. برغم الثورة العارمة التى تملكت أحاسيسها وأحست معها أن هذا الصبى روح شريرة تقمصت جسداً، وأرسلها القدر العاتى لتعكير صفو حياتها، بينما كان هو أيضاً – ومن خلال الكهنة الذين ناصروه – قد جلس بجانب حتشبسوت وهو يضمر أمراً .. فقد أحس أن الهوة بينهما سحيقة .. وبدت له دائما عقبة كئودا فى طريق طموحه ووصوله إلى القوة المطلقة التى كان يسعى إليها بكل ثمن ...

ولكن حتشبسوت مع ذلك استطاعت أن تسيطر على الموقف، وان تواصل فرض نفسها على العرش .. حتى أن المهندس «أنينى» كتب على جدران مقبرته «كان تحتمس الثالث حاكماً جالساً على عرش أبيه الذى أعطاه الحياة .. أما الزوجة المقدسة حتشبسوت (زوجة تحتمس الثانى) فكانت تحكم البلاد بإرادتها. فطأطأت لها مصر مطيعة لأوامرها، ولا غرابة فى ذلك فجلالتها من النسل المقدس الخارج من صلب الآلهة .. فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية وحبل مؤخر السفينة فى البلاد الشمالية. ولقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى فى المشروعات الهامة .. وكان قولها يملأ أهالى بلاد القطر فرحاً وحبوراً».

ظلت حتشبسوت إذن الملكة الحقيقية للبلاد. وكان تحتمس شريكها على العرش يقوم بدور الملك الصورى .. ولم يكن من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك. إذ كانت حتشبسوت تبلغ السابعة والثلاثين من عمرها حين مات تحتمس الثانى واشترك معها فى العرش تحتمس الثالث وهو فى التاسعة من عمره، وظلت هى قائمة على العرش الفعلى منذ موت زوجها تحتمس الثانى.. قضت سبعة أعوام منها سيدة الأمر خلال مشاركة ابن زوجها الصبى تحتمس الثالث، حتى أحكمت تدبيرها تماماً،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأعلنت نفسها ملكة شرعية على البلاد طوال ثلاثة عشرة عاماً، انزوى خلالها تحتمس الثالث، فلم يسمع عنه التاريخ خلالها إلا في مناسبات قليلة ..

لكن الأمر الذى ظل غريباً في الحقيقة، أن حتشبسوت حين تجرأت على اتخاذ هذه الخطوة لم تتبعها بما يليها من خطوات كان لابد منها في مثل هذه الأحوال ... بأن تقضى على شريكها الذى جمدته. فقد وقفت عند هذا الحد وتركته يعيش في عزلة وفى أمان، ولكنه موحش .. وكان اسمه يذكر أحياناً على الآثار بصفة ثانوية، ولكن لم يذكر إلا بعد اسمها الذى كان يحتل المكانة الأولى.

والواقع أن حتشبسوت لم تكن سفاحة ولا محاربة، ولم يكن حب سفك الدماء من طباعها .. وكان هو خلال تلك الفترة يزداد صلابة ويشتد عوداً، وراح يفرض وهو فى عزلته – خاصة بعد أن كبر وبلغ مرحلة الفتوة – رقابة شديدة على الملكة .. وأخذ خدمها المخلصون يختفون واحداً بعد آخر، ولم يعثرعلى جثة واحدة منهم أبداً..!.

وبرغم العزلة التى فرضتها حتشبسوت على تحتمس الثالث. إلا أن الخوف بدأ يدب فى نفسها .. وبدأت تخاف ذلك الولد الصموت ذا العينين المنحرفتين والفم المطبق.

وقد صدق أحساسها .. فقد عادت ذات مساء بعد أن حضرت وليمة أقيمت لتكريم كبار المحاربين، فلم تكد تستقر حتى شعرت بانحراف شديد أعقبه قئ مستمر. وأدركت حتشبسوت تواً أن وقت النجاة قد فات .. وأن الموت يسعى إليها بخطى سريعة بفعل السم الذى دس لها فى الطعام. وأخذت المسكينة تصرخ طالبة المساعدة.. غير أن صيحاتها ذهبت هباء .. فقد صدرت الأوامر من تحتمس الثالث بعدم الدخول عليها. فلم يستجب أحد لصرخاتها التى أخذت تضعف شيئاً فشيئاً .. هنالك وجدت حتشبسوت نفسها وحيدة فى وسط صحراء تزينها الرياض والطنافس وتحيط بها كل مظاهر الأبهة، وكان لابد من أن تواجه هذه النهاية المرعبة..

وعندما دخلت الجوارى إلى مخدعها فى الصباح بعد أن أذن لهن بذلك .. وجدن الملكة العظيمة .. تلك التى عاشت كريمة النفس، قوية الهمة معتزة برأيها، حريصة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على عرش بلادها .. وجدنها جثة هامدة انطرحت على الرخام الأسود البارد .. وقد تفتحت عيناها واسعتين على ليل الأبدية ..

لتحاشى غضب الشعب بسبب هذا العمل الإجرامى، عمد تحتمس الثالث – وقد صار صاحب كل الأمر – إلى طرق الخداع التى تعلمها على أيدى كهنة آمون .. فقد أمر بإعداد مشهد جليل لتشييع جنازة حتشبسوت، وحملت المومياء فى وقار إلى قبر سرى لم يعرفه سواه .. ولكن لم تمض أيام حتى نبش هذا القبر سراً. ونهبت محتوياته .. وألقيت مومياء الملكة الجميلة فى العراء ...!

والواقع أن حقد تحتمس على حتشبسوت لم يلبث أن تفجر بصورة بشعه، فقد مضى يتعقب كل أثر لها ويأمر بمحوه .. محا اسمها من فوق التماثيل وواجهات المبانى الكبيرة .. ومن السجلات والمحفوظات .. ولم يكتف بذلك بل إنه أمر بعدم إقامة الصلوات على روحها، وكان واضحاً أنه أراد أن ينفى وجودها تماماً..

إنما بقى معبدها وحده بمنأى عن أن تناله يد التدمير الكامل .. فبرغم تكسير أكثر من مائة وعشرين تمثالا من التماثيل التى تمثل الملكة فى صورة أبى الهول، وتشتيت أجزائها فى جهات مختلفة، وبرغم تشويه وجهها من النقوش على الجدران، ومن تفاصيل قصة ولادتها من آمون، ورحلة أسطولها إلى بلاد بونت .. إلا أن تمثالاً واحدا من المرمر كان فى مقصورتها ظل سليماً لم يصل إليه أحد ..

كما بقيت فى حجرة مسقوفة على أعمدة ذات ستة عشر ضلعاً كوة كبيره مثلت عليها الملكة حتشبسوت فى صورة رائعة نجت من أيدى المشوهين .. كما نجت رسوم تمثل مهندسها وأبرع رجالها وأقربهم الى قلبها سينموت كان قد أخفاها فى كوة على الجدار الواقع خلف أبواب المقاصير المخصصة لحفظ أدوات العبادة فلم يكتشفها أحد.

وبقى معبد الدير البحرى قائماً فى مكانه بعد انقضاء جبروت تحتمس، كما تنبأت حتشبسوت أمام هذا الأثر الفنى الرائع .. الذى مايزال يحيى اسمها .. كأشهر ملكة جلست على عرش مصر ....




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سـيدة التــــاج
كل شيئ من أجل الحب

ما أكثر الذين سمعوا وقرأوا عن تاج محل .. الضريح الذى أقامة شاهجهان رمزا للحب والوفاء لزوجته ممتاز محل. ولكن القليلين جدا من يعرفون حقيقة الحياة التى عاشتها .. وتفاصيل الخيانات والمؤامرات التى جعلت من حياة «سيدة التاج» مأساة .. لن ينساها التاريخ.

كان كل مافيها يبهر الفتيان الحالمين الباحثين عن الحب، والمغامرة، والجنون. وبرغم أنها لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة بعد، كانت الطبيعة قد ملأتها سحرا، ووهبت لها أفتن مافى المرأة من جمال. وفى خضم تلك الفتنة راح فتيان الأشراف الوالهين المعجبين العامرين بالأحلام يتقربون إليها، وفى عيونهم حملاق ذاهل مجنون، كل منهم يحاول الوصول إلى قلبها .. حتى شهريار .. الابن الأصغر للسلطان «جيهانكير» لم يمنعه من محاولة التقرب منها أنه زوج لم تمض بعد شهور قليلة على زواجه من ابنة نور جيهان .. زوجة أبيه، فقد كانت الفتاة تدير رؤوس الجميع بجمالها ورقتها وطلاوة حديثها الذى اكتسبته من أبيها «آصف خان» رئيس تشريفات القصر .. وشقيق السلطانة نور جيهان.

على أن قلب الفتاة لم يكن يتجه لغير «شاهجهان» أكبر أبناء جيهانكير سلطان المغول المسلمين فى أكرا .. عاصمة الهند. كان الفتى يكبرها بأعوام، ولكنه كان غارقا إلى أذنيه فى المسئوليات التى حملها له أبوه، حين ولاه قيادة القوات الزاحفة إلى شمال الدكن ليضمه إلى حظيرة الإسلام، بينما كان السلطان يحاصر بنفسه حصن كنجارا الهندوكى الذى امتنع على كل الفاتحين المسلمين منذ «محمود الغزنوى»، ولكنه تمكن من إسقاطه، والاستيلاء على كل كنوز المعبد الهندوكى، ونذرها كلها لخدمة الإسلام والمسلمين.

وظلت الفتاة «أرجمند» تنتظر فى لهفة عودة فتاها، وكانت أخبار انتصاراته فى المعارك ضد الوثنيين قد سبقته إلى القصر، وزادتها شغفا به وإعجابا بشجاعته. ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكن ذلك الحب ليخفى على أبيها، ولا على أحد أخر بالقصر، وخاصة عمتها السلطانة نور جيهان. وكانت السلطانة تضيق بذلك الحب الذى يجمع بين الفتاة وأكبر أبناء زوجها .. فقد كانت تعلم أن السلطان قد قرر أن تكون ولاية العهد لأول من ينجب ولدا من أبنائه حتى يضمن استمرار السلطنة فى ذريته .. وهى تخشى لو تزوج شاهجهان بارجمند .. أن ينجبا ولدا قبل أن تأتى ابنتها زوجة شهريار بولد يضمن لها أن تكون زوجة ولى العهد .. والسلطانة فيما بعد ..

لكل ذلك أبت نور جيهان إلا أن تحول دون هــذا الحب أن يستمر .. حتى لاتكون له ثماره التى يمكن أن تضيع أمنيتها، ولعل ذلك كان وراء دفعها السلطان لإرسال ولده الأكبر إلى الحرب فى الدكن، على أمل أن يقضى عليه الهنادكة الأشداء .. بل لقد استطاعــت أن تغــرى أخاها رئيس التشريفات ليدفع ببعض المرتشين لقتل الفتى - إذا لم يقــض عليه فى المعركة - حتى تضمن ولاية العهد لزوج ابنتها شهريار.

لهذا كانــت السلطانة أشد الناس ضيــقا وغضبا بخروج الفتى حيا منتصرا من المعركة .. وتفتق ذهنها عن وســيلة جديدة لابعاده عن القصر .. فــأقنعت زوجــها بأن يرسل إلى ولده وهو فى الطريق، يبلغه أن عليه العودة إلى الدكن نائبا للسلطان.

ونزل الخبر كالصاعقة على رأس الفتاة المحبة، ارجمند، فما كانت لتستطيع أن تتصور أن يستمر فتاها بعيدا دون أن تلتقى به، وتحقــق أمل الزواج الذى طالما حلمت به.

وما أقسى موت الأمل على قلوب المحبين ..

لم يكن الفتى بأقل لهفة على فتاته .. وبرغم انه تلقى أمر والده، صمم أن يواصل طريقه إلى «اكرا» قبل أن يعود إلى حيث عين نائبا للسلطان. ولم يكن فى الأعماق منه مايوحى إليه بأن ثمة من يتآمر عليه. وحين وصل إلى القصر وجد ارجمند زينة لهفانة، وفى قلبها لهيب النار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال فى تصميم : سأرفض إنعام السلطان.

واستنكرت ما سمعته : ترفض أن تكون نائب السلطان. وتتركها لشهريار ؟!

قال لها : خير من أن أتركك.

مسحت دموعها وهى تقول : وهل تتصورنى أقبل هذه التضحية ؟ لا .. لست أنانية .. وعليك القبول.

أجابها فى تصميم : لن أقبل إلا بشرط ..

قالت له فى استغراب : أتشترط على المظفر بالله.. السلطان جيهانكير ..؟!

وسمعا صوتا خلفهما : وماشرطك ياشاهجهان ؟

وفوجئ الفتيان .. لقد سمعهما السلطان. واسترد الفتى أنفاسه وخاطب أباه : أريد أن أكمل دينى يا مولاى ..

وتبسط السلطان وهو يتساءل : وقعت فى الحب إذن .. فمن اخترت من النساء ؟

وأجاب شاهجهان وبصره على الفتاة : ابنة أصف خان رئيس التشريفات .. فهى خير عون لى فى مكانى البعيد.

وأطل السلطان فى رضا وهو يقول : أرجمند .؟ نعم الاختيار .. وقد قبلت الشرط.

غير أنه كان هناك من لايقبل هذا الشرط .. إنها امرأة السلطان .. نور جيهان .. التى استدعت أخاها وصرخت فيه : أنا لا أقبل ؟

أجابها : ولكنها ابنتى ..

وصرخت فيه : وماذا عن ابنتى أنا ؟ تريدها أن تفقد كل الامل فى النفوذ والسلطان ؟

وهز رأسه وهو يقول : أليست زوجة شهريار ؟

قالت وهى تضرب الأرض بقدميها : ولكن شهريار ليس ولى العهد .. وتعرف أن شيئا آخر لن يعوضها عن أبيها المقتول.

أجابها فى عناد : وأنا لن أحرم ابنتى من رجل يحبها وتحبه.

وهتفت فى غضب : أتتحدانى يا أصف خان ؟ نسيت أنك لم تبلغ مكانك .. لولا أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تزوجنى السلطان لإرضائى .. بعد أن قتل رجاله زوجى ؟

وحاول تهدئتها : أتنسين أننى أب .. أكثر مما تذكرين أنك أم.

قالت نور جيهان متوعدة : وعهدك لى ؟ أما تعاهدنا أن نعمل لتولية شهريار ولاية العهد .. ورسمت بنفسك خطة التخلص من شاهجهان .. وكلفت رجالك بالتنفيذ ..؟

أجابها باستخفاف : كان ذلك قبل أن أعرف أنه يريد الزواج من ابنتى ..

هتفت فى صخب وثورة : فاسمع منى .. والله إن لم تمنع ابنتك من قبول هذا الزواج .. لأكشفن أمرك للسلطان .. ولنائب السلطان .. وكما حرمنى السلطان من زوجى .. لأحرمنه من ولده .. ومن زوجة ولده !

كان أصف خان يدرك معنى تهديد نور جيهان .. فقد كان يعرف تفاصيل ذلك الحدث الذى ترملت بسببه قبل أن يتزوجها السلطان.

الحق .. لقد كان الذى حدث شيئا رهيبا ..

فالسلطان جيهانكير – سلطان المغول فى الهند – لم يكن قد عرف الحب قبل أن يرى «مهر النساء» زوجة صائد الأسد واليه على إمارة البنغال القريبة من العاصمة.

كان ذلك حين ذهب بنفسه إلى البنغال ليستقصى حقيقة الرائحة التى زكمت الأنوف عن الرشوة والفساد الذى كان طابع حكم واليه. وحين بدأ السلطان يقسو عليه، لجأت المرأة إلى كل وسائل الأنثى التى تحاول بها أن تبعد عن زوجها نقمة السلطان. ولكن الأمر لم يكن من الممكن أن يستمر طويلا .. فقد استمرت ريح حكم الوالى الفاسد تنتشر فى كل مكان .. ولم يكن أمام السلطان إلا أن يرسل إليه قائده لإحضاره ولو بالقوة. غير أن الرجل أدرك مايخبأ له. فغافل القائد بضربة من سيفه قضت عليه .. ولكنها أباحت فى الوقت نفسه لرجال القائد أن يعاجلوا الوالى بالسيف .. ويجزوا رأسه ليرسلوه إلى السلطان.

وتلقى السلطان النبأ فى سكون .. ثم انطلق فجأة إلى الأرملة التى رفضت يده الملطخه بالدماء.وعرفت أقدام جيهانكير الطريق كثيرا إلى بيت الأرملة. ومع استمرار تمنعها كان شغفه بها يتزايد، وهيامه يستبد به. وعرفت هى كيف تضرم أوار الحب فى قلب الرجل. كانت تدل عليه وتتمنع وتقول له كلما أحست بالنار فى إعماقه، إنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتمنى أن تكون له .. لولا أنها لاتستطيع أن تقبل منه حبا يشاطرها فيه مخلوق، ولا تتصور أن تكون واحدة من حريم السلطان، وحسبها أن يكون الرجل الذى تحبه لها وحدها ..!

وبرغم أن السلطان أقسم لها أن يطرد كل حريم القصر، إلا أنها ظلت تتمنع عليه. ولم يستطع شئ قط أن يوقف المرأة. واضطر السلطان ذات يوم إلى إعلان طلاق السلطانة .. أم الأبناء ..!

ولم يطل تمنع المرأة بعد .. فاستسلمت له .. بشرط أن تكون صاحبة الأمر والنهى فى قصر السلطنة. ولم يرفض السلطان رغبة المرأة التى أحبها، فتزوجها وسماها نورجيهان، أى نور الدنيا. ومنذ تلك اللحظة التى تزوجها فيها .. دخل البلاط عامل جديد كان له أكبر الأثر فى توجيه سياسة دولة المغول المسلمين فى الهند .. الحب الذى يحرك كل شئ .. حتى الفتنة الدائمة .. بين الآباء والأبناء ..!

فمن خلال ذلك الحب .. عرفت نورجيهان كيف تسيطر على كل شئ .. قلب السلطان .. وحكم السلطان .. وأبناء السلطان .. كما عرفت كيف تكون صاحبة اليد المطلقة فى القصر ..

كل ذلك عرفته الفتاة أرجمند من أبيها أصف خان وهو يحاول منعها عن قبول الزواج بشاهجهان، حتى لا تتعرض لانتقام المرأة التى تستطيع أن تفعل كل شئ .. حتى القتل ..

ولكن الفتاة قالت له فى تصميم : لن أتخلى عن شاهجهان .. فأنا معه .. أينما كان ويكون.

مضى أصف خان إلى حيث تنتظره نورجيهان ليحمل لها نبأ تصميم ابنته على الزواج بشاهجهان. ولكنه لم يكن يدرى مايفعل ولا أى شئ يقول .. وحين بلغ القاعة صكت أذنيه كلمات صاخبة تدور بين السلطانة .. وأخوى شاهجهان .. كان الحوار كله التحريض وإثارة الفتنة بين الأشقاء.

كانت نور جيهان تقول : لم ينصفكم السلطان ..

وأيدها شهريار فى غيظ : كل شئ لشاهجهان ولا شئ لنا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال برويز الأخ الأوسط فى حقد : حتى أرجمند سيزوجها له .. وكانت أمنية عمرى أن تكون لى ..

قالت تحرضه : انت أحق بها .. وأصلح لها.

وهتف برويز محنقا : إن لم أستردها .. فلن أدعه يهنأ بها.

واندفعت هى فى حماس : فلم لاتفعلها الآن .. ويقويك عليها أخى أصف خان !

قال برويز : أخوك لم يعد يفضلنى زوجا لها، بعد أن ظهر ذلك الأحمق.

قالت فى سخرية الواثق: بل سيقبل طلبك .. ويمنع ابنته من الزواج بشاهجهان..

ووقع بصرها على أصف خان وهو يقف عند الباب .. وأطلت إليه ففهمت الكثير من وقفته المستكينة قبل أن يتكلم ويقول :

– قد عجزت معها يانورجيهان.

وفتحت المرأة عينيها فى توثب .. وقالت فى استنكار : عجزت معها.. وأنت أبوها؟

قال وهو يتنهد : أرجمند لم تعد طفله.

وصرخت نورجيهان فى حقد ووحشية : أنت الطفل يا أصف خان .. فإن كنت عجزت عنها بحيلتك .. فحيلتى ولو طال الزمن أقوى وأقدر.

★ ★ ★

استقر الأمر فى الدكن بتولى شاهجهان منصب نائب السلطنة. وكانت زوجته أرجمند التى سماها «ممتاز محل» هى السند الأكبر للرجل الذى وقفت خلفه ولم تتخل عنه قط . وخلال أقل من خمسة أعوام كانا قد أصبحا أبوين لطفلين، وكان لابد للسلطان أن يعلن ولاية العهد لشاهجهان..

وما كان أسعد ممتاز محل بذلك الحب الذى كان شاهجهان يحيطها به .. بل إن شعب الدكن كله كان يعتبرها – على ما اعتاد عليه من قبل – وكأنها قديسة. فقد كان نائب السلطان يربط بينها دائما وبين كل مايقدم للشعب الطيب من أعمال تتسم بكل ماهو خير على ضوء ماجاء به الإسلام .. وكانت ممتار تجتهد فى إبراز محاسن حكم زوجها للشعب الذى اعتبره نعم الأمير وأعدل الحاكمين.

ولكن .. كان هناك من لايزال يقف بالمرصاد لذلك الحب الكبير .. ومن لايزال

يصر على الانتقام ..

كانت نور جيهان ..

وذات صباح .. جاء إلى مقر نائب السلطان رسول من العاصمة، يستأذن فى لقاء الأميرة .. وحين أذن له شاهجهان بالدخول، انحنى أمام ممتاز محل التى سألته عما وراءه فقال :

– أبوك يامولاتى .. أصيب فى القتال ويبغى أن يراك.

هتفت فى انزعاج : وماجرى له ؟

قال الرسول فى أسف : معه الله ياسيدتى.

وصرخت ممتاز : لا .. أبى بخير .. لن يموت ..

قال الرجل : ليس قبل أن يرى مولاتى.

وفى غضب قال شاهجهان : أنت لاتحسن نقل الرسالة يارسول الشؤم .. قد بلغت رسالتك .. فامض.

وتراجع الرجل وهو يتساءل : وماذا أقول لسيدى ؟

أجاب شاهجهان وهو يصرفه : الأميرة ذاهبة إليه ..

وانسحب الرسول وهو يقول : سأنتظر لأصحبها على أقصر الطرق وأسرعها يامولاى ..

وانطلقت الأميرة مع الرسول لايصحبها غير حارسها. وإذ كان الطريق إلى العاصمة يستغرق أياما كثيرة، فقد كانت ممتاز محل تستكين إلى استراحات فى القرى التى تمر بها لقضاء بعض الليل .. وتسمح لحارسها أن يستريح حتى يأتى الصباح. وفى ركن فى مقهى شعبى جلس الحارس الهندى يشرب الشاى فى متعة ويتبادل الحديث مع الرسول الذى جاء من العاصمة، والذى أبى إلا أن يدفع حساب المقهى، وأخرج كيسا مملوءا بقطع الذهب والفضة راح يحركه بين يديه وهو يعد ما به من أموال .. واستمر الحديث ..

وتساءل الجندى : يبدو أن العاصمة تمتعكم بالكثير ..

قال الرسول : وتغرقنا فى الذهب والأموال ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هز الجندى راسه فى أسف : أما حالنا هنا فقاسية .. معارك الحدود لاتنتهى والحياة غير رضية.

وفى نفحة كرم مد الرسول يده بالكيس إلى الجندى وهو يقول : لاتبتئس .. خذ.. خذ .. كل مافى الكيس لك.

وفوجئ الجندى .. وقال وهو يمد يده فى جشع ليأخذ الكيس : انكم حقا تعيشون فى بحبوحة.

قال الرسول : ستنعم بها أنت أيضا .. مادمت مرافقا للأميرة.

قال الجندى فى أسى وهو يخبئ كيس النقود فى ثوبه : الرحلة لن تكون سعيدة.. والأميرة قلقة على أبيها ..

وغمز الرسول بعينه مهدئا : اطمئن أنت .. فأصف خان بخير.

واستغرب الجندى : أما قلت أنه مصاب يحتضر ؟

أجاب الرسول بخبث : المصاب سواه .. ولست رسوله.

وفتح الجندى عينيه فى تساؤل : ألست رسول أصف خان ؟

وكانت الإجابة : بل رسول برويز.

وقال الجندى فى دهشة : برويز ؟ شقيق الأمير ؟

قال الرسول فى استخفاف : وعشيق الأميرة .. إن سيدتك ممتاز تعشق برويز .. وهى الآن ذاهبة للقائه.

★ ★ ★

وفى قصر السلطنة بأكرا كانت السلطانة نورجيهان ما تزال تواصل العمل لإثارة الفتنة بين أبناء السلطان، لتضمن استمرار نفوذها فى القصر وفى الحكم .. وتدبر بكل الجهد لتنزل سيف نقمتها بالمرأة التى رفضت الانصياع لرغباتها وأبعدت ولاية العهد عن شهريار زوج ابنتها ..

كانت المؤامرة تدبر بليل ..

وعرفت نورجيهان كيف تقنع زوجها السلطان بتكليف ولده شاهجهان بالسير ن الدكن إلى قندهار لمطاردة الأعداء الذين يواصلون الهجمات على حدود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إمبراطورية المغول بالهند. وكانت أبعاد المؤامرة التى دبرتها بإتقان تقوم على إبعاد شاهجهان من الدكن ليسير على طريق مقتله فى معركة قندهار، حيث كان من المؤكد أن تنتهى حياته على يد بعض من معه من رجال أخيه شهريار، الذى كان ضالعا فى المؤامرة ليحل محل أخيه وليا للعهد ونائبا للسلطان..

ولاتقان نسيج خيوط المؤامرة، تمكنت نورجيهان من اجتذاب الأخ الأوسط برويز ليشترك معها .. وأوحت اليه بأن القضاء على شاهجهان سيخلى له أمر ممتاز التى كان يتمناها من قبل. ودبرت نورجيهان مع برويز تلك الحيلة التى استدعت بها ممتاز محل إلى العاصمة.

عندما وصلت الأميرة ممتاز إلى العاصمة وانطلقت إلى القصر تسأل عن أبيها .. لم تجده، ولم تسمع عن أخباره أى شئ. وإذ هى تسير قلقة فى حديقة القصر تبحث عمن يمكن أن يدلها على أبيها .. ظهر برويز وكأنه يلتقى بها فجأة. واندفعت إليه وهى تقول : يقولون أنك تعرف مكان أبى.

قال لها فى هدوء : اطمئنى .. هو بخير.

وتساءلت فى جزع : فكيف إصابته ؟

أجابها فى تلطف : الاصابة فى قلبى أنا يا أرجمند .. ولا تدرين..

وفوجئت ممتاز وتباعدت فى غضب : أتجرؤ على قولها وأنت شقيق زوجى ؟!

وأمسك برويز بيدها وحاول تقبيلها وهو يهمس : يقولها العقل والقلب والروح يا أرجمند.

وسحبت ممتاز كفيها من بين يديه والتفتت إليه فى غضب تتوعد : والله ليعلمنها عنك شاهجهان.

واجابها فى صفاقة : سيدرى أننا متحابان.

ولم تكن ممتاز تدرى أنه فى تلك اللحظة بالذات كان الرسول الذى رافقها فى رحلتها قد جاء بحارسها، وراحا يتلصصان معا من وراء الأشجار .. وحين سمع الجندى بعض الحوار بين برويز وسيدته فتح عينيه فى استنكار، وتراجع من مخبئة فى ذهول وهو يضرب رأسه بيديه ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانفجرت ممتاز غاضبة فى وجه برويز : سيدرى زوجى الحقيقة من أمر أخيه.

وبدأ برويز يكشف عن حقيقته .. فقال فى سخرية : لن يدرى شيئا .. وهو فى طريقه إلى حتفه.

وتوقفت فى انزعاج وهى تنظر إليه .. واستمر فى حديثه : بأمر السلطان .. وتدبير نورجيهان .. يسير شاهجهان إلى نهايته الآن فى قندهار.

كانت السلطانة نورجيهان قد ظهرت فى ذلك الوقت وهى تقترب منهما. وتظاهرت المرأة بالدهشة والاستنكار اذ ترى ممتاز وبرويز معا فى ركن الحديقة.

وهتفت فى استغراب : غريب .. أميرة الدكن فى أكرا .. ولا أدرى ؟

تمالكت ممتاز نفسها وهى تجيب :

بلغنى أن أبى مصاب .. فجئت لأراه ..

وتظاهرت نورجيهان بالاستغراب وهى تقول : أصف خان فى مهمة ببلاد الأفغان.. بخير وصحة وأحسن حال..

وذهلت ممتاز : والرسالة .. والرسول ؟

غمزت المرأة بعينيها وهى تنقل نظراتها بين الاثنين : بل احتلت على زوجك .. لتلتقى بعشيقك يا خائنة، والله ليعلمها شاهجهان.

كان شاهجهان قد تلقى أمر أبيه بالزحف على قندهار للقضاء على حركة التمرد التى تجمع لها الراجات الوثنيون فى محاولة لاختراق حدود الإمبراطورية الإسلامية من الشمال ..

وإذ هو يستعد للتحرك .. جاءه أن حارس الأميرة قد عاد وليس معه سوى الرسول الذى كان قدجاء ليأخذها إلى العاصمة. واذن لهما شاهجهان. ولكنهما رفضا أن يتكلما إلا بعد أن تخلى القاعة من الناس .. فما يحملان سر لا يستطيعان البوح به الا لولى العهد وحده.

وانطلق الرسول يروى بالتفصيل قصة خيانة ممتاز محل لزوجها وولى نعمته .. وكيف اتجهت فور وصولها إلى العاصمة لتلتقى بعشيقها برويز فى حديقة القصر ثم فى أماكن أخرى كثيرة. وجن جنون شاهجهان وهو يصرخ : انه حديث إفك ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال الرسول : رأيت بعينى يامولاى .. ويشهد حارسها.

وأطل شاهجهان إلى الجندى الذى كان يحنى رأسه فى أسف دون أن ينبس. فلما أمره بالكلام كانت إجابته الوحيدة.

– لعل عينى أخطأت يامولاى.

وصرخ الأمير وهو يجرد سيفه ويطيح برأسى الرجلين.

– الأمر صحيح اذن .. ولكن والله لن يكون على الفضيحة شهود أحياء .. أما هى.. فالويل لها حين أعود.

★ ★ ★

انطلقت ممتاز محل عائدة إلى الدكن بأسرع ما تستطيع .. وحين بلغت قصر الإمارة اندفعت لترى شاهجهان وحوله أولادهما فى لباس السفر والحرب. وألقت المرأة بنفسها تحت أقدام زوجها الذى فوجئ بها. واضطرب للحظات. ثم جرد سيفه وقد ملأته الثورة وصرخ :

– اتجرؤين ياخا ئنة ..؟!

وتمسكت ممتاز محل بساقيه وهى ترفع عينيها الباكيتين إليه فى استعطاف : هل صدقت ما يأفكون ؟ اقتلنى بسيفك ان كنت صدقتهم.

وأغمد شاهجهان سيفه فى غمده، وقال هو يكظم الغيظ ويحيط أبناءه بذراعيه :

– سيفى أشرف من أن يلوثه دم الخيانة.. أيها الحراس .. امضوا بها إلى السجن..

ووقفت ممتاز محل على قدميها وقد استردت نفسها وخاطبته فى اعتداد وثقة :

– افعل ماتريد ياشاهجهان .. ولكن اسمعها منى .. لاتذهب إلى قندهار .. فالموت متربص بك هناك .. والخونة الذين أوقعوا بى .. هم الذين يغدرون بك ..

★ ★ ★

عندما عاد أصف خان من مهمته فى بلاد الأفغان .. بلغه ما كان من أمر ابنته وما اتهمتها به نور جيهان .. واندفع الرجل إلى القصر ودخل على شقيقته وهو يحاول أن يكظم ثورته. وقال لها من بين أسنانه :

– أنت فعلتها يا نورجيهان.

وردت عليه باستخفاف : ابنتك لم تحفظ شرف زوجها.

وهتف صارخا : اتلوثين شرفها .. وتقضين على سمعتها ؟

قالت له فى تحد : بما زرعت فاحصد.

وانفجر الرجل وهو يندفع خارجا : ياذئبة .. غدا تكون نقمتى .. أما اليوم .. فلأذهب لأحمى أية الطهر من سوء فعلتك .. وأفتح على حقيقة المؤامرة عين ضحيتك ..

وخرج أصف خان كالعاصفة، وبينما هى تحاول أن تتبعه فوجئت بالسلطان جيهانكير يدخل وخلفه ولداه شهريار وبرويز. وتوقفت وهى تحاول السيطرة على نفسها.

تساءل السلطان عن سر اندفاع أخيها وغضبه ..

وأجابته فى صوت حرصت أن تسيطر عليه :

– أمر خطير أزعجه .. ولا أجرؤ أن أبوح به.

وهز السلطان رأسه وهو ينظر إلى شهريار :

– صحيح إذن ما أنبأنى به شهريار ؟

وتظاهرت بأن قد فوجئت بمعرفته لما تخفيه .. وقالت فى استسلام :

– عرفت إذن أن شاهجهان تجرأ على عصيان أمر السلطان .. ورفض السير بقواته إلى قندهار ؟

وواصل شهريار وهو يتظاهر بالاستنكار :

– والأدهى أنه يمتنع عن ارسال إمدادات من رجاله للعون والمساعدة .. وهذا قائدك مهابت خان يخبرك بما كان ..

ودخل القائد مهابت خان وهو يؤكد : هى الحقيقة يامولاى.

وثارت ثائرة السلطان .. وهتف فى غضب :

– والله لن أسكت عنك ياشاهجهان .. وإنك لتعرف جزاء العصيان..

واندفعت نورجيهان تزيد من اشتعال نار غضبه، وهى تخفى نشوة انتصارها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنجاح مخططها :

– فاعقد لولدك شهريار لواء الحملة على قندهار .. واجعل ولايته للعهد جزاء مايحقق من انتصار ..

واستغرق السلطان فى التفكير للحظات .. ثم التفت الى زوجته : هو ماقلت يانورجيهان ..

قالت وهى تنقل نظراتها بين أبناء زوجها : ولعل برويز هو خير من يقود الحملة للقضاء على مؤامرة شاهجهان ..

وأمن السلطان على كلامها : هو ذاك .. فامضوا على بركة الله ..

وغادر السلطان القاعة تتبعه نورجيهان وخلفها زوج ابنتها شهريار .. ووقف برويز وهو يتبادل النظرات مع صديقه القائد مهابت خان وهمس إليه : شهدت ماتدبر امرأة السلطان ؟

وقال القائد : والله لن ينالها شهريار .. وأنت الأحق بولاية العهد يابرويز .. وإنها تسعى لتسيطر بنفوذها من خلال زوج ابنتها على عرش السلطنة .. ألا بئس ماتفعل هذه المرأة .. وإنها لترسلك لتضرب أخاك فى الدكن وتقتله ..

وهز برويز رأسه وهو يقول فى سره : تماما .. كما سيرتك بغرورها لتتخلص منك إلى حرب البنغال ..

وقال القائد مهابت خان من بين أسنانه وقد لمع فى رأسه شيئ : طغيان هذه المرأة لن يوقفه غير العصيان ..

والتقت نظراتهما .. وهز برويز رأسه فى تأييد وتحريض واتفاق : هو ماقلت .. وإنى معك لو أعلنت العصيان وانشققت بقواتك على السلطان .. وامرأة السلطان ..

★ ★ ★

استطاع أصف خان – عندما التقى بشاهجهان ولحق به إذ هو فى بداية الطريق إلى قندهار – أن يوقفه عن مواصلة السير. وأطلعه على تفاصيل المؤامرة .. سواء فيما ينتظره فى معركة قندهار التى خططت لها نورجيهان .. أو فيما دبرت ضد زوجته ممتاز محل. وأدرك شاهجهان أبعاد المؤامرة، فتوقف عن مواصلة السير

بقواته، وعاد إلى مقره، وأعلن رفضه لأوامر السلطان.

وانطلق ومعه آصف خان إلى حيث كانت ممتاز محل فى سجنها، وأخذها بين ذراعيه معتذرا عما كان.

واستمرت الأيام تسير ..

وفى الوقت الذى كان فيه شاهجهان – تسانده وترعاه زوجته ممتاز محل – .. يواصل حكم مقاطعة الدكن على هدى القرآن وكأعدل ماتكون أحكام الإيمان ..

كانت أمور السلطنة كما تسيرها نورجيهان تزداد بالبلاد انهيارا. فحين حملت السلطان على تحويل ولاية العهد إلى شهريار أصغر أبنائه؛ أثارت ثائرة أكبر الأبناء شاهجهان الذى كان يعتبر نفسه صاحب الحق الأول فى ولاية العرش، فجهر بالخروج على أبيه، وتبعه فى ذلك طائفة من كبار رجال الدولة الذين رأوا هذه المرأة تعهد بدافع من غرورها وكبريائها إلى محاولة النيل من أقدارهم ..

ووجد السلطان نفسه بين شقى الرحى .. ولده الأمير يقود جيش العصيان من ناحية. ومهابت خان كبير قواده يقود المتمردين من ناحية أخرى، ومعه برويز ابنه الأوسط. بينما لحقت الهزائم بقواته التى ارسلها بقيادة شهريار إلى قندهار التى سقطت نهائيا فى يد الراجات الهندوس. ولكن النفس الأمارة بالسوء فى أعماق نورجيهان لم تكن لتهدأ أبدا. فمن جديد عادت تستغل الفرصة لإقناع السلطان بأن موقف شاهجهان هو الذى أدى إلى ضياع قندهار، وأنه يجب أن ينحى عن الولاية على مقاطعة الدكن. وساند نورجيهان فى مطلبها عدد من الأمراء الحاقدين على شاهجهان فوزه دونهم بممتاز التى كانوا يطمعون فى زواجها.

وأحست ممتاز محل بأن بذور الخيانة التى بذرتها نور ضد شاهجهان فى كل مكان ستؤتى ثمارها. فراحت بكل طيبة قلبها وسماح نفسها تعمل على إقناع زوجها بأن يتقرب من أبيه ويطلب صفحه مستغفرا تائبا.

وتلقى السلطان سعيداً نبأ استغفار ولده شاهجهان ومحاولته الحصول على رضاه .. ولكن ذنب الافعى قالت له حين وجدته قد لان للاستجابة إلى ولده : ليقبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطان توبة شاهجهان. ولكن .. ليكن هناك شرطان .. أن يقسم العهد لشهريار .. أن يرسل ولديه إلى السلطان ليكونا رهائن لو انقلب وخان ..!

وحين أبلغ رد السلطان لولده شاهجهان .. استبد به الغضب .. فالشرطان هما بئس الثمن لقاء الصفح والغفران. وإذا كانت ممتاز قد استشعرت فى أعماقها قسوة ما أوعزت به نورجيهان للسلطان وخبث ما دبرت. الا أنها طلبت من زوجها أن يقبل الشرطين. وحين استغرب كيف يمكن أن تطيق بقاء الصغيرين تحت رحمة نورجيهان.. أجابته فى ثقة : من أجلك أقبل وأطيق .. لتزول من أمامك كل عقبات الطريق ..

وإذ هما فى ذلك الحوار .. إذ بالباب يفتح .. وأصف خان يندفع ناحية شاهجهان ويقول وهو ينحنى فى تبجيل :

– السلام على مولانا السلطان ..

وينظر إليه شاهجهان فى تساؤل واستغراب .. ويجيبه أصف خان :

– الرحمة على السلطان المظفر بالله جيهانكير .. والمجد للسلطان شهاب الدين شاهجهان .. حامى حمى الإسلام ومطهر أرض الهند من الأصنام والأوثان..



عندما مات السلطان جيهانكير، تدبر أصف خان الموقف على ضوء مصالحه الخاصة فى روية، فآثر أن يقف إلى جانب زوج ابنته معرضا عن شقيقته. وهكذا أسرع ليبلغ شاهجهان الخبر ويدعوه للإسراع بالعودة من الدكن ليتولى العرش ..

ولكن نورجيهان لم ترض بما فعله أخوها. فأسرعت إلى تحريض شهريار زوج ابنتها للمناداة بنفسه سلطانا على الهند. وخشى أصف خان أن يفلت الأمر من بين يديه، فأسرع بنفسه وألقى القبض على شهريار. ممهدا الطريق لشاهجهان لتولى السلطنة .. مما رفع مكانته عند السلطان الجديد فجعله وزيره الأول ولقبه بيمين الدولة ..

وجاء يوم ..

وشهدت قاعة عرش السلطنة فى أكرا صباح ذلك اليوم مشهدا عجبا. كان رجال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاط يجلسون على جانبى القاعة بينما السلطان الجديد شاهجهان يجلس على العرش فى ردائه الإمبراطورى، وعلى يمينه السلطانه ممتاز محل، وإلى يساره يمين الدولة أصف خان، وأطل السلطان ناحية باب القاعة وهو يسأل عمن بقى هناك من أصحاب المظالم فى ذلك الصباح، وإذ أجابة أصف خان بأنه لم يبق بالباب أحد .. سمع الجميع صوت ممتاز محل وهى تقول : بل هناك.

وأطل الجميع ناحية الباب، ولكن ممتاز محل نهضت من مكانها واتجهت لتقف أمام السلطان وهى تقول :

- أنا ياMولاى ..

وتعجب شاهجهان وقال : ممتاز ؟ أظلامه من السلطان ؟

وقالت ممتاز محل : صاحبة الظلامة تعجز الان عن الحضور.. فباسمها اعرض شكايتها إذا أذن السلطان ..

وقال شاهجهان : فما ظلامتها ؟

قالت ممتاز : كانت دارها ذات قدرة ونفوذ .. من حولها مغريات الدنيا .. وطموحات الحياة .. فهل يعيبها ياMولاى أن تكون ذات أحلام وأمال ؟

أجاب السلطان : ما استحق أن يعيش من عاش خاملا بلا أمل.

قالت ممتاز : وهل يعيب الجواد أن يخطئ فتتعثر قدمه على عثرات الطريق ؟

أجاب شاهجهان : لكل جواد كبوة.

قالت السلطانة : فان كانت الكبوة بصاحبه .. فنال عليها العقاب .. ثم استغفر وتاب .. فهل يعفى عنه ويثاب ؟

قال السلطان : العفو عند المقدرة شيمة الاكرمين.

انحنت ممتاز محل امام زوجها فى تقدير كبير وقالت فى رضا :

- والله قد عرفتك، أندى الأكرمين وأقدرهم على العفو والثواب ..

انهضها السلطان وهو يقول : أحسنت العرض والدفاع .. فإن كان الأمر يتصل بى فقد عفوت وأثبت. فمن تكون صاحبتك ؟

أتجهت ممتاز ببصرها ناحية الباب وهى تقول :

- الآن فليأذن لها السلطان بالدخول ..

ودخلت من الباب امرأة محجبة وقفت فى ذلة أمام الجميع .. واقتربت منها ممتاز محل وأخذتها بين ذراعيها وهى تقول :

- أرفعى حجابك .. قد عفا عنك السلطان .. يا نورجيهان ..



وتتابعت السنين ..

وكان تولى شاهجهان حكم الإمبراطورية الإسلامية فى الهند عام ١٦٢٧ تسانده ممتاز محل فى كل أعماله التى يعلو بها شأن الإسلام ..

ألا ماكان أروعها من امرأة ..

وما كان أخلصها من زوجة ..

ان جدران القلعة الحمراء لتشهد بمدى حرارة الكلمات التى كانت تدور بين شاهجهان وممتاز، وكيف كانت تخفف عنه كل مايمر به من محن وأحقاد ..

وانها لتذكر ذلك الحوار الذى دار بينهما حين توالت المتاعب وحلت المجاعة بالبلاد.. وأخذ الضيق كل مأخذ بالسلطان بينما هى تبذل كل الجهد لتهدئته والتخفيف عنه..

قالت ممتاز : يشهد الله انك تفعل المستحيل من أجل شعبك .. إنك تواصل الليل والنهار لتعيد الأمن والرخاء .. وتقيم العدل بين الناس .. تنصف المظلوم من الظالم.. وتأخذ من القوى لتعين الضعيف ..

ونهض السلطان فى ضيق وهو يطل إلى شبح المجاعة من وراء نوافذ القصر : فهل ينصفنى التاريخ حين يتحدث فيقول إننى عجزت عن ضرب المجاعة التى أخذت بالعباد ؟

أجابته فى ثقة : دعنى لها يا شاهجهان .. سأقوم بمواجهتها .. وأكفل بإذن الله رد غائلتها .. وكما تقدر المرأة على تدبير طعام أبنائها وإدارة شئون بيتها .. سيعطينى الرحمن القدرة على ضرب المجاعة ومكافحتها.

ولعلها قدرة الله قد أرادت بالحق أن تساندها فى مكافحة غائلة المجاعة .. فبذلت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل قدراتها لاستئصال شأفة القحط ومناهضة الوباء ...

كانت تنزل بنفسها إلى البيوت ترعى المرضى وتعين الفقراء .. وتقيم المطاعم للناس يأكلون بالمجان. وكانت تشترى الأطفال الذين يبيعهم الاباء عن إملاق فتردهم فى السر بغير مقابل للأمهات ..

وانتصرت ممتاز محل على المجاعة والداء .. ولكن .. انتصر عليها داء ليس له دواء....!

فذات يوم .. خلال إحدى زيارات شاهجهان للمناطق الجنوبية فى الهند ليتفقد أحوالها ويقضى على إحدى الفتن التى طالما نشبت بين الحين والحين .. أحست «الزوجة المحبوبة» بآلام الوضع .. وكان لابد أن يتم وضع المولود الجديد قبل موعده بطريقة لم تكن العناية الصحية الملائمة وقتها لتكفل لها النجاح .. وأحست الزوجة بدنو أجلها .. وأرسلت إلى زوجها من يستعجله ليعود ..

وجاء السلطان بأسرع مايمكن ..

كانت ممتاز مستلقية على فراش طويل ممددة الجسم فى إجهاد .. وأرسلت بصرها المستسلم إلى السلطان الذى أخذبه انزعاج شديد .. ثم عادت تصرخ من الالم وتقول :

– فى جوفى نار تحرقنى. إنها تأكل أعماقى ..

وحاول السلطان أن يخفف عنها : بعض الصبر يا حبيبة .. وما أسرع مايخرج المولود إلى الحياة .. فتستريحين.

أجابته من بين همسات الأعياء : ما أسرع مايخرج إلى الحياة، من يأخذ منا الحياة..

قال فى استجداء : لاتفقدى الأمل .. ياكل الأمل.

ورسمت ابتسامة منهكة على شفتيها وهى تقول : لم يعد أمل بعد .. نسمات الحياة تخفت فى صدرى .. وأحس دنو أجلى ..

وصرخ شاهجهان وهو يحس باقتراب النهاية : لا .. لا تتركينى وحدى ..

قالت وأنفاسها تخفت : ستعيش مع ذكراى ..

وهتف شاهجهان : كيف حياة من بعدك ياكل نبض الحياة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجابته فى ضعف : الخلود حياة .. أنا حية ماخلدت ذكرى.

قال وهو يشجعها : سيظل أسمك خالدا على مدى الدهر ياممتاز..

مدت أصابعها لتلمس أصابعه .. وحاولت أن تأخذ كفه بين كفيها .. وقالت والجهد قد أخذ منها مأخذه :

– عهد لى ياشاهجهان .. أن تذكر حبى ما حييت .. فالذكرى الطيبة .. نسمات تهفو إليها الروح.

ومن بين العبرات وجد الرجل نفسه يقول : عهد على ياممتاز .. أن أجعل ذكرك خالدا لا تمحوه الأيام ....

ولعله استطاع أن يسمع آخر كلماتها وهى تخرج مع نفثات صدرها المحتضر : ما أروع أن يموت الإنسان .. وذكره خالد على مر الزمان ..

وما أسرع ماتنتهى نسمات الحياة ..

وأمام جثمان ممتاز محل وقف شاهجهان يشهد الله أن يحفظ رفاتها فى صرح يخلد ذكراها. ويعبر عن قيمة الحب الذى نشأ بينهما وربط قلبيهما طوال تسعة عشر عاما ..

لقد عزم شاهجهان أن يخلد حبه لممتاز محل.

وهكذا كان ..

وشيد السلطان لمحبوبته أروع وأفخم أثر يخلد قصة الحب والوفاء على مدى التاريخ .. ولايزال يعد أكمل وأجمل بناء قائم على وجه الأرض ..

إنه أعجوبة الدنيا .. تاج محل ..




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سـمـيرامـيـس
نمرة .. على جناحي حمامة ...!

اختلف المؤرخون فى حقيقة سمير اميس .. فقال بعض منهم إن وجودها خرافة. وأكد آخرون إن الأعمال التى تنسب إليها متداخلة فى تاريخ الاشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهرى دجلة والفرات. أما المنقبون عن الآثار فقالوا إن هناك من الدلائل الأثرية مايؤكد أنها كانت تعتبر ربة أسطورية. وأن اسمها - ومعناه الحمامة - إنما أطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها، وهم يعتبرونها رمز الحب والسعادة والانتصار .. بالرغم من أنها حين تولت العرش أصبحت نمرة طاغية، وإن جاءت على جناحى حمامة ...!



انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات فى جبال أرمينيا، ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت الاسماك تستلقى وتتمدد على أديم الأرض ...

وبين تلك الأسماك، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء، فسبحتا إليها، ودفعتاها امامهما إلى الضفّة ... وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة عائدة إلى مجرى النهر ...

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست. ومن داخل البيضة خرجت طفلة رائعة الجمال من حولها أسراب من الحمام ترف بعضها عليها بأجنحتها لترد عنها حر النهار وبرد الليل. وتنطلق الأخريات إلى حيث ينزل الرعاة، فتحمل إليها بمناقيرها نقطا من الحليب تقطرها فى فمها لتغذيها وتروى ظمأها.

ومع مر الشهور والسنين، تحولت الحمائم إلى الأمكنة التى يضبع فيها الرعاة مايصنعون من جبن، فتأخذ منه بمقدار ماتسع مناقيرها، لتقدمه للطفلة التى عاشت مع حمائمها سعيدة لاتعرف قط طعم الشقاء.

وكان الرعاة إذا عادوا فى المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون. ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يراقب المكان وهم غائبون...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشهد الراعى الحمائم وهى تحط حول الجبن وتلتقط قطعة صغيرة فتحملها بمناقيرها إلى مكان تطير إليه. وأخبر الرقيب رفاقه، فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة. فأخذوها إلى خيامهم، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها فى سوق «نينوى» العظيم...

وحمل الرعاة الصبية الحسناء إلى نينوى. وكانوا قد سموها «سميراميس» .. وهى تعنى «الحمامة البيضاء».

وأتفق أن كان يوم وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج الذى يقام كل عام، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمين من كل نواحى المملكة، لينتقى كل شاب عروسا شابة. أو ينتقى صبية يحملها إلى داره فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج .. فيتزوجها .. أو يقدمها عروسا لأحد بنيه ..!

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء إلى حيث يعرضونها للبيع. وبينما هم يضعونها فى أول الصف، إذ شاهدهم «سيما» ناظر مرابط خيول الملك. وكان «سيما» عقيما لا ولد له، فهفا قلبه إلى سميراميس، ورغب فى تبنيها.

ودعا «سيما» الرعاة وساومهم على ثمنها، وعندما تمت الصفقة حملها إلى منزله، فما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها ... وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت ... وبرزت أنوثتها كأجمل ماتكون النساء ..!

★ ★ ★

وذات ربيع، جاء مينوتس – قائد الملك ووزيره – إلى مرابط الخيل يتفقدها. وشهد الوزير «سميراميس» الحسناء، فراعه جمالها وبهاؤها، وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور .. ورنت إليه «سميراميس» بفتور يحمل الدعوة. فوقف الوزير فى مكانه حائرا مبهورا .. حتى انتبه إلى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة، وسار بها إلى حديقة القصر، يتحدث إليها وتتحدث إليه.

وانطلقت «سميراميس» على استحياء تتبع الوزير، وعندما وقف فى بستان القصر، اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام. ومد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه. وأخذ يسألها من تكون ...

ولم تستطع «سمير اميس» أول الأمر أن تجيب.. ثم لم تجد إلا أن تقول له إنها ابنة ناظر المرابط الملكية.

ونادى الوزير على سيما، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب، كما بدا له أن يفعل أول الأمر .. واضطر أن يقص قصتها كاملة على الوزير .. منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم فى البيداء .. حتى اتخذها ابنة له .. لايطيق فراقا لها أبدا ..!

وأحس الوزير من طريقة الرجل فى الحديث أنه لايمانع فى تركها مقابل مبلغ كبير .. فأخرج «صرة» من المال قذف بها إليه .. ثم انطلق بالفتاة فى الطريق إلى العاصمة.

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا. وعندما بلغ القصر كان أول مافعله أن سلمها للمزينات والماشطات، وأخرج لها من خزائنه حليا لايوجد مثلها إلا فى كنوز الملك. وأخذتها نساء القصر إلى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلنه على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر .. ثم ألبسنها الأرجوان الفينيقى الموشى بالذهب، وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ماعرفت «نينوى» من عرائس.

واحتفل «مينوتس» بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل. وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه .. حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولايطيق عنها فراقا لحظة. وكأى امرأة استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلهما لتتحكم فى الرجل الذى عبدها، فخضع لرغباتها، واحترم افكارها، وصار يأخذ بآرائها فى كل مايلم به من أحداث ومهام.

ومرت الأيام، وسميراميس كل شئ فى حياة الوزير وكل شئ أيضا فى حياة الجماهير. إلا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا فى تعلق الشعب والوزير بالعروس الإلهية .. هو ذلك النصر الذى استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها.. عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء.

كان ذلك يوما خالدا فى تاريخ البلاد. وكان الملك «مينوس» قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه. وراح يبحث عن السبيل إلى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ومملكته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواسعة الأطراف. فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه «مينوتس» على تجنيد جيش كبير ضخم، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة. ثم لم تمض أيام أخرى حتى شهدت نينوى خروج جيش كبير ضخم، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة. ثم لم تمض أيام أخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق.

كان الجيش ضخما بالغ القوة لاقبل لأحد به على الإطلاق. فلم يكن عجيبا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش. إلا أن الذى أثار «نينوى» وأغضب ملكها، هو أن ذلك الجيش الضخم، وعلى راسه القائد، والملك نفسه، عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء .. «بكتريا» لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة.

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لايستطيع لها اقتحاما. ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله، ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سمير اميس، أرسل إليها يستدعيها لتوافيه فى ميدان القتال..

وحضرت سميراميس. ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلا. وعرفوا جمالها الأخاذ الوضئ.. فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ماكانوا يعهدون ..!

وطلع الصباح .. ووقفت «سميراميس» على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التى انهكت الجيش الذى لم يهزم أبدا. ولاحظت «سميراميس» أن الهجوم كان موجها إلى قسم المدينة القائم فى السهل، لاضد قلعتها، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة. وخطرت لها فكرة .. ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة، وهل يمكن أن تقوم هى نفسها بهذا الهجوم..!

وانطلقت «سميراميس» إلى الخيمة فأيقظت زوجها. ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التى رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عنيف، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم «سميراميس» بنفسها وتقدمتهم إلى اقتحام القلعة الشامخة.

وانقضت ساعة وبعض الساعة .. وانتبه الملك، والوزير مينوتس، والجيش جميعا.. فاذا «سميراميس» واقفه على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا ..!

وعرف الكل أنه النصر .. وأدركوا أن المرأة التى قادت بضعة الرجال قد اقتحمت القلعة التى انهارت.. وأن العاصمة قد باتت بين أيديهم ...

والتفت الملك إلى قائده مينوتس يسأله :

- من تكون هذه المرأة يامنوتس ..!!

وشعر مينوتس بدنو الكارثة .. وأدرك أن سميراميس قد راقت فى عينى الملك، فسكت على رعب كأنه لم يسمع. وكرر الملك السؤال ولم يجد القائد بدا من أن يجيب:

- إنه زوجتى يامولاى ..!

وعاد الملك إلى العاصمة .. ودخل قصره .. وتفرق الجند والناس. وأرسل الملك إلى قائده يأمره بدعوة «سميراميس» إليه. ولم يستطع الوزير إلا أن يحنى هامته.

أما سميراميس .. فقد وجدتها فرصة للوصول إلى المجد الذى طالما حلمت به .. وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان .. هذه راكعة وراءها تروح لها، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات ..

وعندما دخلت على الملك ... ووقعت عليها عيناه فى اتكاءتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها ... انهار قلبه فى هوى عربيد .. زادت هى من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور .. لم يدع له مجال الاختيار ..!

وعندما صارا وحدهما.. اتفق معها الملك على أن تترك زوجها .. لتكون له وحده..!

وعادت «سميراميس» إلى قصر زوجها وفى أثرها رسول الملك يقول لمينوتس :

- إن سميراميس قد راقت فى عينى الملك، فهو يريد أن يراها فى قصره بين محظياته ونسائه، فإذا كنت فى حاجة إلى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك مايمنعه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس ..!

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التى لايمكن أن ترد، ولبث أمدا لايدرى مايفعل. واستدعى «سميراميس» زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك.. فإذا بها تشير عليه بتلبيتها .. على أن تسعى هى خلال إقامتها فى البلاط.. بما أوتيت من فطنة ودهاء .. لعلها تقنع الملك بإعادتها إليه ..!

ونزل القائد عند إشارة سميراميس .. وكله حزن ويأس.. ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر فى محفتها .. حتى اسودت الدنيا كلها فى عينيه .. وانطلق إلى شجرة قائمة فى أقصى المدينة ..

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز .. تدلت جثة الوزير .. الذى حكم على نفسه بالإعدام ..!



بلغ الخبر «سميراميس» وهى بعد لاتزال فى طريقها إلى قصر الملك. ولكن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه .. أبدا ما أحبته قط .. وماكان ليملأ قلبها سوى حب المجد، والسلطان، والسيطرة .. وهى تستطيع أن تجدها جميعا فى قصر نينوس ...!

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبل أبدا. وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب .. بل ستكون هى وحدها الملكة .. ولامحظيات سواها ...

وكان هذا هو بالضبط ماحدث ...

فقد عرفت «سميراميس» اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هى وحدها .. ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن .. كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس...

ورفعها الملك من محظية إلى ملكه ..

وولدت له الملك ولدا سمّاه إيناس ...

وظلت الحياة تسير ....



عرفت «سميراميس» كيف تجعل من نفسها كل شئ فى قصر الملك .. وعرفت كيف تجعله لايطيق فراقا لها لحظة .. حتى ولو كان خروجا لحرب .. أو لإخماد ثورة فحسب ...

غير أن خروجها معه فى كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا. فقد كان يستعمل فى حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والإرهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل واشور .. فكيف تطيق هى التى رعتها حمامات السلام فى البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك .. وفى كل مكان ..!!

وكان آخر ماشهدته من حروب الملك، عندما خرج إلى بلاد الطوارنيين الثائرين عليه .. فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم، قام بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء .. وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الثائرة. ولم يكتف الملك الوحش بكل ذلك.. فقد أمر بقطع رءوس الثوار .. ونظمها فى حبل على شكل عقد، وحكم على من بقى حيا أن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم، أما من أبى فقد قطع أنفه وأذنيه وشفتيه .. ثم سيق مع الآخرين إلى العاصمة .. ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين ..!

ولم تطق «سميراميس» كل تلك الفظائع .. وكرهت الرجل الذى عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض. ودفعتها تلك الكراهة – جنبا إلى جنب مع حب الطموح والسيطرة – إلى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج .. عن أى طريق ...!

وكانت «سميراميس» تعرف الطريق جيدا. فقد عرفت من قبل كيف تتمنع على الملك لتغريه .. وكيف تقصيه عنها لتشعل فى قلبه نار الشوق .. فإذا ماتضاءل أمامها وتحطمت منه الأعصاب .. كان هذا هو الوقت الذى تطلب فيه ماتريد .. وسرعان مايلبى ويجيب ..!

وكان مساء .. بينما الملك يجلس فى مقصورتها وكله شوق، أخذ يحدثها بأن الوقت قد حان لتطلب ماتريد .. وكان طلبها هو أن يسملها سلطته كلها لأيام ثلاثة.. تجلس فيها وحدها على العرش .. ويكون لها أثناءها أن تأمر فتطاع .. ولو كان الأمر صادرا إليه هو نفسه ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وابتسم الملك .. ثم ضحك .. ثم كاد يستلقى لطول ماضحك .. ثم قال لها :

– لك ماتريدين ..!

وجلست «سميراميس» على عرش نينوى . تأمر وتنهى وتحكم ...

وطلع صباح اليوم التالى من الأيام الثلاثة التى منحها لها الملك .. فكان أول أمر أصدرته سمير اميس للجنود أن يقبضوا على الملك ..!

وأطاع الجنود .. واقتيد نينوس إلى السجن أمام عينيها، وعندما راح الملك يستعطفها فى ذلة وخضوع.. ابتسمت له ساخرة.. ثم انطلق من بين شفتيها أمر جديد إلى الجنود.. بأن يذبحوه ..!

واثبتت سميراميس أنها لم تعد بعد ابنة الحمائم. وأنها قد أصبحت – فى بابل وأشور – أكثر قسوة من كل طغاة بابل وأشور ..!

وعلم الشعب بما صنعته الملكة .. فهاج .. وتألبت الجماهير زاحفة إلى القصر تهتف بالثأر وتطالب برأس الملكة..

وتلقت سميراميس نبأ الثورة وهى فى الحمام .. فلم تذعر .. ولم تأخذها رعدة. بل خرجت من الحمام نصف عارية .. فى شعر منفوش .. وغدائر تنسدل على كتفيها كريش الطاووس .. وأطلت من شرفة القصر ..!

وتحول الصخب فجأة إلى همس خافت، وصمت الضجيج ثم أخذ يتحول بعد ذلك إلى عبادة وصلاة للملكة القاتلة ..!

وسجد الجميع .. ثم تفرقوا .. وقد أصبحت الملكة فى مقام الآلهة ...

ومنذ ذلك اليوم. جلست سميراميس وحدها على عرش أشور، تحكم دولة مترامية الأطراف .. وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد...

واستمرت سمير اميس تحكم وحدها عشرين عاما.

ولم يعد ينقصها بعد كل الأمجاد التى صنعتها للشعب إلا أن تتحول إلى الفتوح، وتحطم كبرياء كل الثوار.

وصنعت سميراميس جيشا لم تر أشور جيشا مثله قط، زحفت به لتخضع آسيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وميديا وفارس وأرمينيا وفينقيا.. ولم يعد هناك من بلد يقف فى وجهها إلا الهند .. ذلك البلد المسحور الذى تحدثت عنه القرون الأولى.

وإذن فإلى الهند ...

وخرجت سميراميس على رأس جيشها الجرار. فما وقف أمامها عدو .. وماصمد دونها بلد .. حتى بلغت أطراف الهند وقد أنهكها طول السفر ...

وكانت سميراميس قد استعدت قبل ذلك بسنتين لملاقاة جيش ملك الهند. وكان الهنود مشهورين بقدرة فيلتهم التى تستخدم فى الحرب فلا تقهر. فسعت هى إلى التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية.. وأمرت بتغطية مائة ألف جمل بجلود الثيران السوداء لتقلد بها الفيلة .. وصنعت ألفى مركب لتشق بها نهر السند .. وحملها الجيش على ظهور الجمال.

وبدأت الحرب وجها لوجه.. وكانت سمير اميس قد أنزلت فيلتها الزائفة فى المعركة .. فكسبت أولى الجولات.. وأسرت مائة ألف هندى .. وأغرقت ألف مركب من مراكب الأعداء فى نهر السند.

وتظاهر الملك الهندى بالتراجع والهرب .. ومن ورائه انطلق جيش سميراميس بغير نظام يبغى الغنيمة. وكانت هناك قنطرة كبيرة على النهر اضطرت سميراميس ان تنزل جيشها على جانبها .. وتوقفت المعركة ...

وفى اليوم التالى عاد القتال .. وانطلقت الفيلة الزائفة براكبيها تطارد جيش الهند المتقهقر ..ولكن الهنود الذين اكتشفوا الزيف عندما عثروا على جثث «الفيلة» الميتة.. عادوا يكرون على جيش سميراميس بفيلتهم الحقيقية التى تمرست بالحروب وخبرتها..

وانهار جيش «سميراميس» .. وفر الرجال والجمال فى اضطراب لم يكن بعده سوى الهزيمة .. أما هى .. فقد أصابها سهم من يد الملك الهندى، جعلها تسرع مع فلول جيشها المقهور إلى عبور نهر السند مرتدة إلى بلادها.. ولم يتبعها الملك الهندى بجيوشه إذ حذره كهانه من العبور ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتم الصلح على تبادل الأسرى .. وعندما عادت سميراميس إلى آشور .. لم يكن يحيط بها من الجيش الذى خرجت به من قبل .. سوى الربع أو أقل قليلا ..!

وفى عاصمتها أحست سميراميس خيوط مؤامرة جديدة .. فقد كان ابنها ميناس قد ضاق بخمول ذكره أمام عظمة أمه وسلطانها .. فملأته الغيرة .. وطمع فى الحصول على أزمة الأمور ..!

شعرت سميراميس بما يدبره ولدها .. وأرادت أن تجتذبه إليها وتتدارك أمر نفسها فتزوجته. ولكن هذا الزواج لم يجدها نفعا.. فقد لبث ميناس يحيك لها المكائد والدسائس حتى أحست كأنها محصورة فى مصيدة ..!

وأتعبها الجهد .. ولم تجد أمامها إلا أن تتنازل عن العرش لولدها ميناس.

وخلعت سميراميس التاج الذى كسبته بالدم.. وخرجت من عاصمتها – بابل – التى شيدتها أيام مجدها .. لتعود إلى البادية التى تلقتها وليدة من قبل .. وهناك عاشت منبوذة وحيدة. كأنها لم تكن يوما شيئا مذكورا.

ولم تطق سميراميس صبرا بعد .. فرفعت يديها إلى السماء تطلب من الإله بيلوس أن يأخذها إليه ..

ويقولون إنه هناك عاشت سميراميس.. كواحدة من ربات آشور وبابل .. وعبدها أهل الأرض تماما كما يعبدون أهل السماء....



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تـزوهـسـى
الامـبراطـورة التـنين

أخذت بها رعشة باردة وهى تسير فى خطوات مضطربة إلى جوار الامبراطورة الوالدة، لتنتقل من «قصر الراحة» حيث عرشها الذى يغلب عليه اللون الأحمر، لتدخل بها إلى «قصر الطهارة السماوية» حيث مخدع ولدها امبراطور الصين، المزخرف بالمباخر والسلاحف البرونزية وطائر الفنييق. وعند باب قاعة الحكم الامبراطورى أطلت أمامها فإذا الإمبراطور ينحنى راكعاً أمام أمه وهو يستقبلها، قبل أن ينهض ليحدق فيها بنظرات ملؤها الإعجاب. ووجدت نفسها تركع مسرعة دون أن تجرؤ على أن تفتح عينيها أو ترفعها، بينما الامبراطورة الوالدة تقدمها لولدها، وهى تؤكد له أنها الأجمل بين الفتيات الثمانى والعشرين اللاتى اختارتهن من بين ستين فتاة، تم ترشيحهن، ليكن محظيات للإمبراطور، تنفيذا للمرسوم الذى أصدره بأن تحضر إلى الحريم كل فتاة منشورية بلغت سن الانتخاب ..!

ولم تكن الفتاة «يهونللة» ذات الأربعة عشر ربيعا، لتحلم قط أنه يمكن أن تكون إحدى الزوجات الثانويات للامبراطور «شيان فنج» ..

وإنها لتدرك أنها ليست من أسرة ملكية، وإن كانت تنتمى لأقدم قبيلة فى منشوريا. كما أنها تتذكر أن أمها الأرملة لم تكن تسمح لها - شأنها شأن جميع أبناء كبار الموظفين المنشوريين - بتجاوز باب حديقة الدار، حيث كانت الفتاة تقضى أكثر أوقاتها بين جدران البيت وزهور الحديقة حذقت الفتاة الصغيرة فنون الأدب والشعر والتاريخ الذى كان له أعظم نصيب من اهتمامها - ولم تكن تدرى أن أحد أحلام أمها أن تجد ابنتها طريقها يوما إلى «المدينة المحرمة» فى بكين، حيث قصور الامبراطور، لتكون إحدى المحظيات الملكيات.



ظلت الفتاة فى ركعتها أمام الامبراطور، وهى تنصت إلى الأم الملكية التى راحت تشيد بها وتبدى إعجابها بأخلاقها بعد أن فحصتها جيدا بصفتها حماة الزوجات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملكيات ومرت بذاكرة «يهونللة» فى لحظة هذه الصور المتتابعة التى فتحت عليها عينيها وهى تواجه مع صويحباتها الستين فى موكبهن من منشوريا إلى بكين، تلك العصبة من برابرة الشمال الذين هاجموهن لاختطافهن، لولا ضابط الحرس المنشورى الشاب المكلف من الإمبراطور باصطحابهن إلى المدينة المحرمة. فقد تصدى هو ورجاله بكل جرأة وشجاعة للمهاجمين حتى قضوا عليهم.

وعادت تتذكر مسيرتها وهى تخترق مع رفيقاتها «باب السلام السماوى» للمدينة المحرمة ثم وهى تطل مشدوهة إلى «قصر التناسق الأعلى» أرفع الأمكنة فى المدينة، حيث عرش الامبراطور المزخرف المصنوع من الخشب المطلى باللاك المذهب، تزينه الأحجار الكريمة والزخارف والنقوش الحيوانية والأسطورية، تحيط بها أعمدة ذهبية حفرت عليها تنانين تتلوى.

وتذكرت فى لمحة ماقاله مرافقهن الضابط الشاب وهو يدعوهن إلى الإسراع فى السير بعيدا عن «قصر التناسق الأوسط» حيث كان الامبراطور يقف وسط الموسيقا ودقات الطبول الاحتفالية وتحيات التبجيل من رجال البلاط، وهو يدعو الآلهة لتفيض عليه بمواسم زراعية وفيرة، كما يبارك بيديه وعينيه المتطلعتين إلى السماء محصول القمح للموسم الزراعى الجديد.

وتنبهت الفتاة فجأة إلى الامبراطور يناديها لتقترب منه، ويدعوها للجلوس عند قدميه. وتهز الأم الملكية رأسها فى ابتسامة، وهى تتمنى لولدها أن تستطيع هذه الفتاة الحلوة بجسدها الفائر أن تمنحه ولى العهد الذى طالما تمناه ..

استدارت الامبراطورة لتغادر المكان عائدة إلى قصرها، وقد ملأتها سعاده كبيرة لترحيب ولدها بالمحظية التى اختارتها له.

★ ★ ★

لم يسمح للمحظية «يهونللة» بزيارة أهلها إلا بعد خمس سنوات. وكانت قد ازدادت قربا من الإمبراطورة الوالدة. فقد عرفت الفتاة كيف تكتسب رضاءها، خاصة أن جمالها كان خير عون لها لدى الامبراطور «شيان فنج». لهذا عملت الحماة على ترقية يهونللة إلى مقام «المحظية الأولى» بين حريم الامبراطور.

والحق، إن يهونللة قد حاولت – منذ أصبحت المحظية الأولى – أن تدفع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطور الشاب إلى اكتساب قلوب الناس، الذين كانوا يستشعرون أن امبراطورهم خامل كسول، حتى لقد توقعوا لطول ما أصاب البلاد من ضعف خلال حكمه دون أن ينجب وليا للعهد - أنه سيكون آخر أباطرة أسرة «المانشو» وكان هذا الاعتقاد الشعبى قد أدى إلى قيام محاولة انقلابية عام ١٨٥٣ للقضاء على الأسرة المالكة، قادها أحد القادة الموظفين الثائرين. واستولى الثوار على مدينة نانكنج. وأظهر الإمبراطور من الضعف فى مقاومة الثائرين ماجعلهم يستعدون للزحف على العاصمة بكين ..!

وحين استشعرت المحظية الأولى أن الإمبراطور يفكر فى الهرب، أظهرت معارضتها لموقفه، واستغلت تأثيرها عليها، وأشارت بأن يتولى الضابط المنشورى «لوكونج» الذى شهدت شجاعته بنفسها، قيادة قوات المقاومة ضد الثائرين. ولم تجد مايمنعها من العمل على دعوة الشعب لحماية الامبراطور. وبدأ الشعب يميل إلى المحظية الأولى لمساندة قائد المقاومة ضد الثائرين. وأفلح القائد الجديد فى إخماد الثورة، مما جعله موضع رضى الامبراطور.

فى ذلك الوقت كانت يهونلله قد أنجبت ولى العهد. وأعاد ذلك إلى الناس طمأنينتهم إلى وجود وريث، اعتقادا منهم أن الله عاد فابتسم للعرش وأصحابه. وقبل أن ترحل الإمبراطورة الوالدة. كانت قد عملت على ترقية أم ولى العهد. إلى مقام «الزوجة الأولى» ليصبح مسماها «تزوهسى» وهو الاسم الذى عرفت به فى التاريخ، حتى بعد أن توغل بها العمر وأصبح الناس يثقون بحكمتها وقوة إرادتها، وأطلقوا عليها لقب «بوذا العجوز» ..!

★ ★ ★

بعد أن قضت الامبراطورة الأم، لم يعد لتزوهسى بين نساء البلاط سوى صديقتها «ساكوتا»، وكانت هذه الفتاة رفيقة لها منذ الصبا، جاءت معها من منشوريا ضمن المرشحات الملكيات. وبعد أن رقيت تزوهسى إلى مقام الزوجة الأولى، استطاعت أن تقنع الإمبراطور بأن تكون صديقتها هى الزوجة الثانية ليطلق عليها لقب «تزوآن».

تمكنت تزوهسى بمهارتها من التدخل فى شئون الدولة بعد أن ازدادت ثقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطور بها، فجعلها مستشارة البلاط فى كل أمور الحكومة الامبراطورية.

وازداد نفوذ الزوجة الأولى، وهى لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد، حين أصيب الامبراطور فينج بفالج أقعده عن العمل، وبصفتها والدة وريث العرش، اصبحت تزوهسى صاحبة الأمر والنهى، وارتفع شأنها وعلت كلماتها. وبعد أن أصبحت تحمل مسئولية تولى أمور شعب الصين بكل مافيه من تناقضات واضطرابات، لم يكن بد من أن تضطر إلى إحكام سيطرتها بالاتجاه إلى القسوة فى الطبع وتشديد الوطأة على القوى المتناحرة، مما جعلها تمكن يدها على كل شئ فى البلاد.

بالرغم من تمكن تزوهسى من السيطرة على الموقف الداخلى. إلا أنها فوجئت بظروف خارجية لم تكن فى الحسبان.

فقد عاود الانجليز والفرنسيون حرب الأفيون الثانية، طالبين من الصين أن تجعل تجارة الأفيون مشروعة، وأن تسمح لهما بالدخول فى مدن جديدة غير التى كان قد سمح بدخولها فى حرب الأفيون الأولى. وحين رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على «كانتون» وأرسلوا حاكمها مقيدا بالأغلال إلى الهند وزحفوا على العاصمة بكين. وهرب الناس أفواجا من المدينة المحرمة، كما هرب الامبراطور نفسه فيمن هرب. وإن كان قد ادعى أنه إنما خرج فى رحلة الخريف. وقبل أن يمضى أقام شقيقه الأمير «جونج» حاكما مطلقا دون أن يستمع إلى نصيحة تزوهسى بالبقاء فى العاصمة. وراحت هى تلح على الإمبراطور بان يظل فى عاصمته حماية للشعب قائلة له :«إن المعتدين سيواصلون الزحف على بكين متى علموا أن ابن السماء قد غادرها وترك عرشها خاليا ومعابدها خرابا ..!»

وصل الهاربون بما فيهم الامبراطور ومحظياته وامرأته ووزراؤه وجميع ضباط القصر إلى قصر الصيف فى «جيهول». ولم يكد الامبراطور يمضى يوما هناك حتى أبلغه الأمير جونج بتقدم الأجانب نحو العاصمة وهو يسأله ماذا نفعل ؟

وكان جواب الامبراطور أنه لايستطيع إصدار أوامر وهو بعيد، وأنه يترك له تصريف الأمور. ولم تستطع تزوهسى احتمال ذلك الضعف من الامبراطور، وطلبت منه أن ينيبها فى جميع حقوقه الرسمية قائلة إنها قادرة على المواجهة حماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للشعب. وكان أول شئ فعلته حين عينها نائبة عنه أن أصدرت مرسوما امبراطوريا قالت فيه :

«علمنا أن البرابرة يشددون على عاصمتنا. وقد طلب إلينا الأمراء والوزراء أن نطلب نجدات من الأقاليم. والكل يعرف أن أهم مايجب فى الحرب هو أخذ العدو على غرة بالمباغتة المفاجئة فى تدبير حكيم. وإذا كانت قوة الأعداء فى اسلحتهم النارية، فإن اجتذابهم إلى التلاحم المباشر يبطل عمل مدفعيتهم وسيكون لنا النصر مؤكدا. إن خيالة منغوليا ومنشوريا لايغنون فى هذه الحرب فتيلا. أما رجال هوبى وسشوان فهم أسرع من القردة وأصلح لمفاجأة الأعداء. فليرسل إلينا نائب الملك فى هولوانج ثلاثة آلاف جندى لحماية بكين، وليأت إلينا مثلهم من سشوان. إن حرج الموقف لايسمح بالتسويف. والأمل وطيد أن نجمع من الجنود ماندراً به هذه الغمة. ولكل عمل عظيم جزاء عظيم».

وتمت تلبية مرسوم تزوهسى الصادر باسم الامبراطور. وجاءت القوات من الأقاليم فى مواجهة حامية ضد الاعداء. وأرسلت تزوهسى أمرا إلى الأمير جونج ألا يبقى على أحد من الأسرى. ولكن الأمير لم يستمع إلى أمر تزوهسى، وأخلى سبيل جميع الأسرى، بل ووافق على دفع تعويض كبير بموجب معاهدة وقعها مع المعتدين، فتحت بمقتضى شروطها ثغوراً جديدة، مع السماح لهم بممارسة نشاط مبشريهم وتجارهم فى جميع أنحاء الصين..!

أعلنت تزوهسى رفضها لكل ماقام به الأمير «جونج». فأصدرت مرسوما باسم الإمبراطور بعزله. ولكن العلة كانت قد اشتدت بالإمبراطور وظهر اقتراب أجله. وأحاط ثلاثة من الأمراء الطامعين ليستخلصوا قرارا لأنفسهم بالوصاية على ولى العهد القاصر. ولم يكن من الممكن أن يبلغ هؤلاء غايتهم إلا بابعاد تزوهسى والإيقاع بها. ووجدوا ضالتهم فى الضابط الشاب «لوكونج» الذى كانت زوجة الامبراطور تناصره وتعتمد عليه. وأثار المتآمرون الريب فى نفس شيان فنج المريض، وادعوا أنها تقرب الضابط الشاب، وفى ذلك جرم كبير يوجب السخط عليها ونفيها إلى «القصر البارد» حيث تعتقل المغضوب عليهن من المحظيات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والزوجات الملكيات. وحين ابى عليهم ذلك راحوا يلحون عليه بالنميمة، وما زالوا به حتى امر ان يؤخذ منها ولى العهد، ويعهد بتربيته إلى زوجة الأمير «يى» أحد الأمراء الثلاثة الطامعين.

ولكن إذا كان الامبراطور قد رفض اعتقال زوجته الأولى، إلا أنها أحست بسخطه عليها إذ ابى مقابلتها والاستماع إليها. ولكى تواجه الماكرين أرسلت تزوهسى إلى الأمير جونج ليعود إلى منصبه، وليرسل إليها جيشا فى جيهول. وأدرك المتآمرون ماتضمره لهم، فاجتمعوا حول المريض واثروا عليه، حتى أصدر مرسوما بتعيينهم أوصياء على ابنه بعد موته، وحرم على تزوهستى رعايه ابنها الذى كان فى الخامسه من عمره ..!



توفى الامبراطور، ونودى بابنه «تونج شى» امبراطورا. وأصدر الأوصياء الثلاثة قرارا بتعيين الزوجتين الملكيتين تزوهسى وتزو آن فى مقام واحد دون تفضيل لإحداهما على الأخرى، وأن يطلق عليهما معا لقب «الامبراطورة الكبيرة». وقد اضطروا إلى ذلك لموالاة جيوش منشوريا للإمبراطورة الكبيرة تزوهسى. وأصدر الأمراء قرارا رسميا آخر بتعيين انفسهم وصاة على المملكة نفسها وليس على الامبراطور القاصر فقط.

لم يعمل المتآمرون للامبراطورة حسابا. وأخذوا يصدرون المراسيم الامبراطورية. ولكنهم لم يدركوا شيئا هاما.. فقد كان لابد لصحة المراسيم أن تكون مختومة بخاتم المملكة وإلا فقدت قيمتها. وراحوا يبحثون عن الخاتم فلم يجدوه، إذ كانت تزوهسى قد أخفته عن الجميع ..!

ورأى الناس المراسيم تصدر بغير خاتم الدولة، فثاروا واتهموا الأمراء الثلاثة بالتزوير والخداع. بعد أن استطاع الضابط صديق تزوهسى ورجاله تأليب الناس على المتآمرين وكشف مساوئهم واستيلائهم على أموال الشعب. وإذ كان سخط الأهالى قد ازداد فقد رموا الأوصياء بالعبث بشئون الدولة. وانتشرت الضغينة ضدهم حتى بلغت بكين. وهناك عقد الأعيان جلسة أقاموا فيها الامبراطورتين وصيتين على المملكة وعلى الامبراطور القاصر، على أن تجلسا على العرش فى

«قصر التناسق الأعلى» مع إسدال الستار. وكان هذا الستار حاجزا أمام العرش تسدله الامبراطورة فى الجلسات الرسمية ليحجبها عن أنظار الوزراء.

بدأ إعداد جنازة الإمبراطور فنج. وحسب المألوف، أحضر المغتصبون الثلاثة جثة الميت إلى بكين، وقدموا إلى الامبراطور الصبى فى جلسة رأستها الامبراطورة تزوهسى. وفوجئ الجميع بالامبراطورة تقول فى هوادة :

«باسم شريكتى وباسمى نشكر لكن خدماتكم التى أديتموها. ونعلن إقالتكم. لقد انتهت مهمتكم فانتهت وصايتكم».

احتج الأمير «يى» بأنه الوصى الشرعى مع زميليه، وأنهم لاينزلون عن الوصاية حتى يبلغ الصبى الرشد. وأجابت الامبراطورة فى هدوء :

«لاشئ من هذا»

ثم التفتت إلى «لوكونج» قائد الحرس الجديد وقالت بلهجة آمرة :

«اقبضوا على هؤلاء الثلاثة»

وقبض على المتآمرين فى الجلسة نفسها. وأجريت الجنازة فى حفاوة وجلال يحرسها جند «لوجونج»

★ ★ ★

كانت الامبراطورة الكبيرة حينذاك فى السادسة والعشرين. ومن تلك اللحظة وإلى آخر أيامها، ظلت هى الحاكمة المطلقة دون شريكتها التى لم تكن سوى صورة وهمية. وأطلق الناس على تزوهسى لقب «الامبراطورة التنين»..!

كان أول مرسوم تعلنه الإمبراطورة باسم ولدها القاصر يقول :

«إننى أتهم الأوصياء المدعين المختلسين بالاعتداء على حقوقى الامبراطورية ومحاولة خداعى. ولكنهم لن يخدعوا الأمة. وإذ كان مسلكهم هذا جريمة ضد الامبراطور الراحل وضد الشعب، فعليه نأمر بحرمان الثلاثة من مناصبهم مع مصادرة أملاكهم لكثرة ما اختلسوا ونهبوا وارتشوا. ولما كان قد اتضح من تقرير الأمير جونج واللجنة الامبراطورية إجرامهم واستحقاقهم الموت بالتعذيب، فإن الامبراطورة الكبيرة تزوهسى لاتمانع فى إظهار عطفها ورحمتها.. لهذا فإنها تسمح لهم بالانتحار ؟».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد بلغت تزوهسى قمة طموحاتها. ولكنها أخذا بعبر التاريخ. رأت أن حكومة المرأة لاترضى الرجال. فكانت تصدر المراسيم باسم ابنها، لاتظهر هى إلا فى مقام عفو أو عطف أو منح. وبهذه السياسة اكتسبت رضى الشعب الذى دعاها بالأم العطوف، وكانت الامبراطورتان تعقدان كل يوم جلسة فى القصر يحضرها الأمير جونج بصفته مستشارا، إلا أنه أخذ يثقل على قلب تزوهسى آخر الأمر. فقد حدث أن أخذ يتعسف فى جمع الضرائب وأساء السيرة حتى ضج الحكام ورفعوا الشكاوى ضده مما جعلها تأمر الحرس بالقبض عليه مدعية أنه يدبر خيانة، وامرت بنفيه خارج المدينة المحرمة.

واستمرت الامبراطورة الكبيرة فى حكم البلاد منفردة بالأمر.

ومضت السنوات وهى تعمل على إصلاح شئون الدولة ومواجهة الأعداء والأجانب الذين كانوا يسعون لاقتطاع أوصال الصين. وحين بلغ ولدها الامبراطور «تونج شى» السابعة عشرة لم يكن أمامها إلا أن تعلن بلوغ ابنها سن الرشد وصلاحيته لتولى الحكم. ونزلت الوصيتان له عن حقوقهما، ونصحتا له بالاستمرار فى مسيرة الإصلاح والوصول بها مبلغ الكمال.

وانزوت تزوهسى فى قصرها تاركة ولدها يمارس شئون الحكم، بعد أن اختارت له زوجة شابة. ولكن الامبراطور الشاب كان خليعا مفتونا ولم يكن يعنى باحترام والدته ولا استشارتها. بل كان يتجه إلى شريكتها تزو آن والأخذ برأيها. وزاد الطين بلة أن الزوجة التى اختارتها لولدها أصبحت حربا على حماتها، تنصح لزوجها ألا يستشير والدته فى مهام الدولة.

وتحملت الامبراطورة الكبيرة الأمر لمدة ثلاثة أعوام هى التى دامت طوالها مدة حكمة. ولايدرى أحد هل كانت وفاته فى نهاية هذه المدة بسبب الجدرى الذى أصيب به أم أن شيئا آخر كان قد حدث فقضى على الامبراطور، فرحل فى يناير ١٨٧٥ رحلته الأخيرة. وتبعته زوجته الشابة التى لجأت إلى الانتحار حزنا على زوجها ..!

★ ★ ★

لم تكن للامبراطورة التنين أن تفقد سيطرتها على الحكم بسهولة. فقبل أن يموت ولدها دون أن ينجب وليا للعهد، كانت قد زوجت أختها من الأمير شون أحد أبناء أسرة المانشو حيث أنجبت ولدا ذكرا. وحين مات ولدها الامبراطور دعت إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقد جلسة عاجلة، وبمساعدة رجلها قائد الحرس لوكونج وأنصاره قامت بتعيين ابن الأمير شون وريثا للعرش غير عابئة بالسوابق ودون أن تأبه بالمعارضين، وبذلك حصر إرث العرش فى ابن اختهما. ولم تكد تصدر القرار حتى أرسلت قائد حرسها لإحضار الوليد والقوم يلحون عليها بالتمهل لاشتداد البرد فى تلك الليلة. وقبل أن يبدأ أى تحرك مضاد رأى الجميع الوريث الجديد فى القصر الإمبراطورى مع مربياته وخدمه. وتصالحت تزوهسى مع شريكتها تزو أن، وعادت الامبراطورتان لممارسة الوصاية على الإمبراطور الصغير «كونج هو». وكان فى ذلك انتصار عظيم مرة أخرى لتزوهسى التى قررت ألا تدع فرصة شهرتها لتكون وصية باستمرار على الأباطرة القصر ..

لقد أعجبتها اللعبة التى تمارس من خلالها حكم الصين ..!!

منذ تلك اللحظة استبقت تزوهسى مقاليد الحكم فى يدها وحدها.

وحافظت هذه الامبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً جديدة مستعينة برجال من دهاقين السياسة بالإضافة إلى قائدها الوفى لوكونج، وأرغمت الدول الأجنبية الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب ..

وحدث يوماً أن شكت إليها الامبراطورة الثانية من رجلها لوكونج الذى يعاملها بفظاظة ويدعى لنفسه من الألقاب ماتكاد أن تكون ألقاب الامبراطور، مؤكداً أنه لولا وقوفه إلى جانبهما ما استطاعا الاستمرار فى مقامهما الامبراطورى ..!

وكانت هذه الشكوى سببا فى وقوع شجار عنيف استفحل أمره بين المرأتين ولم تمض أيام حتى مرضت تزو أن مرض الموت. وقيل فى ذلك أن الكعك المسكر الذى بعثت به تزوهسى إليها لمصالحتهما كان مسموما ..!

ولكن. بعد أن ماتت الشريكة، عادت تزوهسى تستعيد فى ذهنها أسباب الخلاف. وأحست أنه حان الوقت للتخلص من الرجل الذى ساندها طويلا، بعد أن بدأ يتصور أنه صاحب الفضل الأول لتوليها مقاليد البلاد ..

وكان لابد أن ينتهى دوره ... بالانتحار ..!

واستمرت تزوهسى تحكم وحدها حتى بلغ الامبراطور الجديد العشرين من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمر وكان عليها أن تسلمه كل الأمور ليصبح امبراطوراً بحق.

وبعد أن تسلم الامبراطور «كوانج هو» مهامه، انسحبت هى إلى قصر الصيف وقد بلغت الخامسة والخمسين. وتفرغت تزوهسى للأنس والراحة، وراحت تنفق بغير حساب، ودام هذا الحال عشر سنوات كانت تعانى خلالها من الفراغ. وكان تتعمد أن تسئ إلى الامبراطور الذى كان من المتعين عليه طبقا للتقاليد أن يستقبلها راكعا عند عتبة الباب، وإذا ذهب إلى زيارتها بقى راكعاً أمام بابها حتى يؤذن له، وكان خصيها يتعمد الإساءة إليه بإطالة ركوعه، وقد تعتذر هى أحيانا بأنها فى حديث مع خصيها ولا تستطيع استقباله، فيبقى فى انتظار نهاية ذلك الحديث ..!



فجأة فى عام ١٨٩٤ وهى تستعد للاحتفال ببلوغها الستين، انقضت اليابان على الصين. وأسرعت بعض الدول إلى تقطيع أوصالها تقطيعا جديدا. وتوجه اللوم فى الحرب اليابانية إلى نائب الملك، ولكن الامبراطورة تزوهسى دافعت عنه وأوقعت اللوم كله على الامبراطور الذى أقدم على هذه الحرب بدون استشارتها ولا موافقتها.

وبعد انتصار اليابان قامت فى بكين حركة قوية تطالب بأن تحذو الصين حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية، وبأن تحاول الحصول على مقومات الثورة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبها الظافرة. قاومت الامبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ماديهم من قوة، ولكن الامبراطور انضم سرا إلى الحركة. ولم تشعر تزوهسى إلا والامبراطور يصدر إلى الشعب الصينى عام ١٨٩٨ - دون أن يستشيرها - عدة مراسيم للسير بأساليب الغرب ونظمه، وأمر بإقامة نظام جديد للتعليم الغربى، وإنشاء مدارس لايقتصر التعليم فيها على كتب كونفوشيوس وتعاليمه. وهال الامبراطورة أن يصدر الامبراطور «كوانج هسى» هذه المراسيم التى رأت فيها تطرفا لا تحمد عقباه. وازدادت العلاقات بينهما سوءا. ومن سوء حظ الامبراطور أن سعى إلى مؤامرة للقبض على تزوهسى واعتقالها فى جزيرة صغيرة بتهمة الإسراف فى أموال الدولة. لكن هذه المؤامرة انقلبت عليه وألقى القبض على الامبراطور ذاته، وسجنته الامبراطورة فى أحد القصور، ونقضت مراسيمه، وقبضت بيدها من جديد على أزمة الحكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعادت تزوهسى لتلعب دورها الامبراطورى مرة أخرى، واتخذت رد فعل عنيف ومعارضة قوية ضد الأفكار الغربية اتخذتها عونا لها على تحقيق أهدافها.

ولم يكد ينقضى عامان حتى كانت قد قامت فى الصين حركة «البوكسرز» أى «الملاكمون» عام ١٩٠٠ بعد أن كان الصينيون قد ضاقوا ذرعا بتدخل الأجانب الذين سمح لهم الامبراطور قبل ذلك بالتدخل فى شؤن الصين. وكان بعض أهداف هذه الحركة القضاء على الأسرة المالكة وخلع الامبراطور والامبراطورة. ولكن تزوهسى أفلحت فى اقناع زعماء الحركة بأن يواجهوا حركتهم لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هى. وقبل «البوكسرز» أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين. وكان يمكن لهذه الحركة التى تدعمها الامبراطورة أن تنجح لولا أنه حدث – كما يحدث عادة مع الثورات – أن خرجت الثورة من أيدى قادتها إلى الغوغاء والمجرمين. وشرع هؤلاء يذبحون الأجانب بلا تفريق بين الطيب منهم والخبيث، مما دعا الجيوش المتحالفة إلى الزحف مرة أخرى إلى بكين.

لم يعد فى يد تزوهسى أن تفعل شيئا بعد أن انهار الموقف، وعجزت عن إيقاف زحف الجيوش المتحالفة، ولم تجد أمامها إلا أن تهرب وحاشيتها إلى «شيانجو» حتى لاتقع فى أيدى الأعداء، وانقضت جيوش انجلترا وفرنسا وروسيا والمانيا واليابان والولايات المتحدة على بكين واعملت فيها السلب والحرق، وقتلت كثيرا من الصينيين انتقاما منهم لمواطنيها كما خربت كثيرا من الممتلكات القيمة ونهبتها، وفرض الحلفاء على عدوهم المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠ مليون دولار، يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح.

قضت تزوهسى ليالى هربها فى حال أسوأ مما يلقى المعوزون والبؤساء. وحين سمعت عن انتحار حوالى خمسمائة من نساء الطبقات العليا فى الصين مفضلات الانتحار على الحياة بعد ما لاقين من عار ومذلة، قررت أن تنتحر. ولكن المحيطين بها أقنعوها بالتراجع عن هذه النية حيث لن يكون هناك من يواجه الأعداء، وأن عليها أن توافق على عقد الصلح حماية للبلاد.

وكان الموقف صعبا ..ولكن كان لابد مما ليس منه بد.

وعادت الامبراطورة إلى المدينة المحرمة، وقد أحست بحاجة البلاد إليها لمتابعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسيرة الإصلاح. وعادت تقرب إليها الامبراطور حتى وهو فى سجنه. وراحت تزوهسى تستشير الامبراطور فى كل مايعرض لها من الشئون وتطلعه على مراسيمها قبل صدورها. وإذ أحست إنه كان يستشعر إعياءً كبيرا بعد هذا المرض. فقد أعفته من التقاليد فى السجود أمامها قائلة فى لطف :«إننى أوثر أن أراك معافى على أن أراك تضرب الأرض بجبينك».

وراحت الامبراطورة تدخل على الحكومة الصينية كثيرا من الضروب الاصلاحية التى تهدف إلى تجديد البلاد وصبغتها بالصبغة الغربية الحديثة، فمدت الطرق الحديدية مستعينة برؤوس الأموال الأجنبية وبخبرة الأجانب وإشرافهم.

لكن الأمر كان لابد أن يكون له نهاية. حيث استسلمت تزوهسى لمرض حاولت مقاومته، ولكنها لم تكن تدرى وهى تصارع المرض فى قوة، أن إرادتها لن تكون أقوى من الموت، وأنها لن تستطيع أن تواصل دورها فى أن تكون وصية على امبراطور صغير جديد.

ففى عام ١٩٠٨ وهى ماتزال على فراش المرض، قامت تزوهسى بتدبير موت الامبراطور السجين كوانج، ليحل محله على العرش ابن أخيه الصغير «بويى»، مما يمهد لها أن تواصل قيامها بالدور الذى أتقنته دائما، وهو أن تكون وصية على الامبراطور الصغير لتظل هى الامبراطورة الحقيقية التى تضم فى يديها مقاليد الأمور.

ولكن .. لم يكد «بويى» الطفل يعلن امبراطورا تحت وصايتها بعد موت عمه كوانج فى سجنه، حتى لقيت فى اليوم التالى مصيرها المحتوم .. دون أن تنكشف أمام عينيها حجب الغيب، لتعلم أن الصبى بويى سيكون آخر عنقود فى أسرة المانشو وآخر امبراطور يحكم الصين. بعد أن أضطر إلى التخلى عن العرش فى مواجهة عهد الثورة الجمهورية التى لم يستطع أن يوقفها تيار الإصلاح الجديد، وتوبة الامبراطورة التنين تزوهسى.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثانى
ملكات غير متوجات
فى مشاهد تمثيلية

- صبيحة الاندلس

سيدة القصر فى قرطبة.

- شجرة الدر

أسيرة البرج.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة الأندلس

سيدة القصر فى قرطبة

شخصيات التمثيلية

- الحكم المستنصر بالله : الخليفة الأموى بالأندلس.
- الأميرة صبيحة : امرأة الخليفة وأم ولى العهد.
- محمد بن أبى عامر : كاتب صبيحة ثم الملك المنصور.
- جوهر المصحفى : حاجب الدولة فى قرطبة.
- المملوك زاهر : رئيس المماليك الصقالبة.
- القائد غالب : قائد الجيوش فى مراكش.
- أسماء بنت غالب : ابنة القائد وزوجة المنصور.
- الوصيفة سمية : وصيفة الأميرة صبيحة.
- الوصيف ميسور : وصيف صبيحة ومن جنسها.
- هشام بن الحكم : ولى العهد ثم الخليفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــــل الأول
المشـــهد الأول

«فى قصر الخليفة الأموى بالأندلس الحكم المستنصر بالله.
المنظر فى حديقة القصر.. خميلة تحيط بها الأشجار وأحواض الزهور.. تجلس على مقعد الخميلة صبيحة.. فتاة فى العشرين من عمرها وهى تغنى».

صبيحة (تغنى) :

نواســم البســـتان — تنثر سـلك الزهــر
والطل فى الأغصان — ينظــمه بالجــوهــر
وراحـــة الإصـــباح — أضـــاء منهـــا المشــرق
تنشـــرهـــا الأرواح — فـــلا تـــزال تخفـــق
والزهـر زهــر فــاح — لــه عيـــون ترمـــق
فأيقـــظ الندمـــان — يبصـرن ما لم يبـصـر
جواهـــر الشـــبان — قد عرضت للمشترى

(يدخل الخليفة الحكم مع نهاية الاغنية ويقف قرب الخميلة مستمعا ثم يقترب من صبيحة)

الحكم : سبحانك .. ما أروع الغناء.

صبيحة (تفاجأ) : مولاى ..

الحكم : من تكون الحورية ؟

(تنهض صبيحة بينما يربت الخليفة على كتفها ..)

صبيحة : جارية من جوارى مولاى.

الحكم: بل ملك هبط من السماء .. هيه .. ما اسمك ؟

صبيحة : صبيحة ..

الحكم : أنت أحلى من الفجر .. وأندى من البكور .. أنت صبح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : جاريتك يامولاى.

الحكم : تعالى ياصبح .. اقعدى .. واسمعينى أحلى النغم ..

المشهد الثانى

(المنظر قاعة قصر الخليفة وهى على مستويين : مستوى مرتفع فى صدره العرش .. ومستوى منخفض يظهر فيه ركن مطل على الحديقة من خلال نافذة .. المشهد على المنظر فى المستوى المنخفض بركن القاعة عند النافذة. وبينما يسمع صوت الغناء من بعيد .. يظهر المصحفى حاجب الدولة وجوهر كبير المماليك الصقالية يطلان إلى الخارج معا، كأنهما شبحان يسترقان السمع ..)

المصحفى (بحيرة) : ماهذا الذى يصنعه الخليفة ؟

جوهر (بسخرية) : اسكت أنت يامصحفى .. ما هكذا يتحدث الوزراء.

المصحفى : لا أستطيع أن أصدق. خليفة المسلمين فى الأندلس الحكم المستنصر بالله .. يهجر خزانة كتبه .. وينطلق إلى هذه الجارية كل يوم فى حدائق الزهراء .. هى تغنى .. وهو ينصت .. حتى مطلع الفجر ..؟!

جوهر : لاتشغل بالك ياحاجب الدوله .. فولى العهد على الأبواب.

المصحفى (يفاجأ) : ولى العهد ؟!

المشهد الثالث

(المنظر فى خميلة الحديقة .. الحكم وصبيحة وهى تقترب من وجهه بحب ودلال)

صبيحة : أقولها فى أذنك يامولاى.

الحكم : هاك أذنى ياصبح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : صبيحة ستصبح أما عن قريب يامولاى.

الحكم : أم ..؟ سيصبح لى ولد ياصبيحة ؟!

(بدهشة ممزوجة بالفرح)

صبيحة : بإذن ربك.

الحكم (بفرحة) : والله لو جاء المولود ذكرا ياصبح .. لجعلتك سيدة البلاد ..

صبيحة : يارب .. حقق أمل مولاى.

الحكم : هيا بنا إلى القصر .. برد الجو.

صبيحة : هيا يامولاى .. سأسبقك.

(ينهضان. وتقفز صبيحة فى مرح فيمنعها الحكم)

الحكم : لا .. لا ياصبح .. لاتقفزى.

صبيحة : مولاى.

الحكم : ولن تغادرى بعد الليلة فراشك .. حتى تضعى ولى العهد ..

المشهد الرابع

(المنظر طريق تجارى به حوانيت قليلة بينها حانوت كاتب الشكاوى (عرضحالجى) يجلس أمام الحانوت محمد بن أبى عامر وهو شاب فى العشرين .. مشرق ملئ بالأمل وبجواره التاجر الذى يتأمله فى إعجاب).

التاجر : والله ما أبرعك .. وما أرق ما تكتب وتنمق وتبدع ..

ابن أبى عامر : فضل من الله.

التاجر : تحول إليك كل أصحاب المظالم .. فى أسلوبك السحر .. يشد انتباه أمير المؤمنين إلى قضايا الشاكين .. فينصرهم على الظالمين ..

ابن أبى عامر : كلماتى وحدها تدخل القصر .. ولا اجسر على اجتياز بابه .. وآه لو اجتزته ..

التاجر : عدت تحلم ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن أبـى عامر : لـيس حلـما .. بل هـدف أبذل من أجـل تحقيـقه عمـرى .. أن أكون واحدا من كتاب الزهـراء .. ولسـان الشـعب داخل قصـر الخلافة.

التاجر : فلو أتيحت لك ؟

ابن أبى عامر : ستعرف عندها .. كيف يكون محمد بن أبى عامر.

المشهد الخامس

(فى قاعة العرش بالقصر .. الخليفة يتكئ على العرش والى يمينه صبيحة .. وفى مستوى أقل قليلا يـجلس إلى اليسار المصحفى يتأمل ابن أبـى عامر الذى يقف أمامه منحنيا فى احترام)

المصحفى : ومنذ متى تمارس الكتابة ؟

ابـن أبى عـامـر : عـشرة أعـوام يـاسـيدى .. أجـلـس فى حـانـوتـى الصـغـيـر أكتـب العـرائض .. وأنمق المظالم .. وأحبر الشكاوى ..

المصحفى : وترى نفسك أهلا لأن تكون كاتب الأميرة ..وواحدا من أهل القصر؟؟

ابن أبى عامـر : أمل .. عشت حياتـى كلها أتمناه .. وكـان صيتك هو مثلى الأعلى ياسيدى الوزير.

(الخليفة وصبيحة يبتسمان)

الحكم : رأيت يامصحفى ؟ كل الفتيان يحلمون بمكانك يبهرهـم كرسى الوزارة.

المصحفى : يبهرهـم نور أمير المؤمنين.

الحكم : فما رأيك فيه ؟ أراه خيرا من كل من سبقوه.

المصحفى : هو أكفأ من يصلح كاتبا للأميره.

الحكم : الكاتب كاتب صبيحة .. فما رأيك فيه ياصبح ؟

صبيحة: فما رأيى ؟! وقد استحسنه الخليفة والوزير ؟

الحكم : إذن .. ليكـن محمد ابن أبـى عامر .. كـاتب أميـرة قرطبة .. وسيدة بلاد الأندلس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــل الثـــانى
المشهد الأول

(فى حديقة القصر .. صبيحة وهى تجلس فى مرح وأمامها وصيفتها سمية)

سمية : يا راميا ليس يدرى ما الذى فعــلا

عليك عقـلى فـإن السـهم قد قتلا

أجريته فى مجارى الروح من بدنى

فالنفس فى تعب والقلب قد شـغلا

صبيحة (بحيرة) : هـو والله ما قلـت ياسميه .. وإنى لفى حيرة .. لا أدرى كيف أفعل.

سمية : أأقولها يامولاتى !؟ حير الله من حيرك.

صبيحة : اخسئى يا لعينة .. حيرتى فى القلب .. وفى الرأس ..

(يرتفع من بعيد صوت غناء موشح أندلسى فتنصت صبيحة وهى سارحة ببصرها بعيدا، بينما تظل سمية تتأملها وهى تهز رأسها)

صوت المغنى :

عجبت من قـلبى المـــعنى — يهفـــو إذا هبـت الريــاح

لـو كان للصــب ماتمــــنى — لـطار شـوقا بـلا جـناح

وبلبـــل الـدوح إذ تغـــنى — أسهر ليلى إلى الـصباح

عســاك إن زرت ياطـبيبـى — بالطيف فى رقدة السحر

أن تجعل النوم من نصيبى — والعين تحمى من السهر

(فى ابتسامة خفيفة تنبه صبيحة)

سمية : نحن هنا يامولاتى.

صبيحة : مازلت هنا ؟ لماذا لم يحضر كاتبى ؟ أما أرسلت إليه ؟

سمية : أبلغته أمرك يامولاتى .. وسيجئ (تنهض مغادرة المكان) بإذنك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(صبيحة وهى تطل أمامها وحولها فى قلق)

صبية : أين أنت يامحمد ؟

(يظهر محمد بن أبى عامر وبين يديه أوراق ويقترب ثم ينحنى أمام صبيحة باحترام.)

صبيحة : تعال يامحمد .. اجلس (يجلس فى تردد).

ابن أبى عامر : رهن أمرك يامولاتى .. ماذا أكتب ؟

صبيحة (مضطربة) : آه .. والله نسيت يامحمد.

ابن أبى عامر (فى حرج) : أأمضى يامولاتى ؟

صبيحة : لا .. لا .. إنما أردت أن أكتب ونحن هنا بعيدا عن أجواء القصر .. أريد أن أتنفس ..

ابن أبى عامر : نسمة البكور تنعش النفس .. والفكر.

صبيحة : والقلب يامحمد.

ابن أبى عامر (فى حرج) : أأمضى يامولاتى ؟

صبيحة : لا يرتاح وفيه لهيب .. ليس من يطفئه.

ابن أبى عامر : أطفأ الله نور من يحرق قلبك.

صبيحة (تحاول أن تبتسم) : اسكت يا لعين .. ترضاها لنفسك ؟

ابن أبى عامر : يرضينى أن أكون فدى مولاتى .. ما استطعت أن أخفف عنها ..

صبيحة : قربك منى يخفف عنى بالفعل يامحمد .. يزيح عن صدرى الكثير .. وماتدرى.

ابن أبى عامر (بحرج ورقة) : أدرى يامولاتى .. وما فى القلب فى القلب.

(يتبادلان النظرات فى هيام .. تقرب صبيحة وجهها منه .. تبدو عليه دلائل المقاومة والخوف..)

ابن أبى عامر : مولاتى .. أخشى.

صبيحة : لاتخش شيئا يامحمد .. قد قلتها .. مافى القلب أقوى من كل شئ.

ابن أبى عامر : أنا ملك يمينك يامولاتى .. ولكنه .. مولاى..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة (بضيق) : لانفعل مايغضبه .. وهو غارق بين نسائه وحريم قصره.

ابن أبى عامر : خشيتى عليك .. أقوى من لهفة النفس والقلب ..

صبيحة (بحيرة) : وحرقة قلبى يامحمد ؟

ابن أبى عامر (بقلق) : قلبى لا يطاوعنى ..والعيون حولنا فى كل مكان.

صبيحة (بضيق) : إيه .. والعمر يمضى.

ابن أبى عامر : والناس لايرحمون.

المشهد الثانى

(فى ركن مظلم داخل القصر .. سمية وميسور وصيف صبيحة يتهامسان)

سمية : انت تظلمها ياميسور .. إنما هى امرأة تحب.

ميسور (غاضبا) : أيتيح لها الحب .. أن تسئ إلى الخليفة ؟!

سمية : غريب .. يهمك الخليفة .. أكثر مما تهمك سيدتك .. وهى نافاريه مسيحيه من جنسك ودينك ؟

ميسور : تعيريننا ياسمية ؟ تعرفين أننا أسلمنا وحسن إيماننا .. وأصبحنا بعض أمة العرب والمسلمين ..

سمية : فما بالك .. لاتريد أن تحفظ سرها ياميسور ؟

ميسور : أنت لاتعرفين .. لاتعرفين ياسمية.

سمية : أعرف ياميسور .. وأعرف أنك هائم بهاشفوق عليها .. ولكنك لاتريد أن تدرك أنها الأسميرة اليوم .. والملكة غدا .. وأنت الوصيف.

ميسور (بضيق) : وهو الكاتب فحسب .. ما الفرق ؟

سمية : اخفض بصرك ياميسور .. ليست مولاتك هى المرأة الوحيدة فى هذا العالم.

ميسور (بغيظ) : وهل هو الرجل الوحيد ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثالث

(المنظر فى قاعة العرش. صبيحة تجلس على الجانب الأيمن والعرش خال وأمامها المصحفى وابن أبى عامر يتكلم ببساطة لا يظهر فيها التحدى)..

ابن أبى عامر : لست الوحيد الذى يعرف مايجرى فى قرطبة. ولكن سيدى الحاجب لاشك يعرف أكثر .. فولده عثمان صاحب الشرطة.

صبيحة : فماذا يقول حاجب الدولة فى تذمر الأهالى وتمردهم ..

المصحفى (بازدراء) : هم بعض حثالة العامة يامولاتى .. سيتولى أمرهم صاحب الشرطة فيخرسهم.

ابن أبى عامر : والله إنى أرى غير هذا الرأى.

صبيحة : فما الرأى ؟

ابن أبى عامر : المتذمرون فئات من أصحاب الحرف .. لهم مطالب لا يحلها صاحب الشرطة.

المصحفى : هم عديمو الوفاء. إنهم أشد تشنيعا، وأكثر شغبا ضد أولى الأمر. كلما خففنا عنهم الأثقال زاد صخبهم وضجيجهم .. فلا ندرى أين رضاهم ولا أين سخطهم .. ولن يعيدهم إلى الصواب غير أن نقطع السنة السوء.

ابن أبى عامر : بإذنك ياسيدى الوزير. فما هكذا تساس الأمور.

صبيحة : فما تقترح يامحمد ؟

ابن أبى عامر : التقيت بالمتذمرين. وفهمت منهم أن الضرائب أثقلتهم. ووعدتهم – بعد إذن مولاتى – ان أعرض عليك أن يخفف عنهم بعض مايعانون .. بإسقاط ضريبة الدقيق عنهم.

المصحفى (متذمرا) : ولكن بيت المال يجنى آلاف الدنانير من هذه الضريبة. فكيف السبيل إلى سد النقص ..؟ أم ترى تريد أن تورط الدولة بوعودك .. فى أمور ليست من شأن كاتب الأميرة ؟

(صبيحة تنظر فى عتاب قاس إلى المصحفى ثم تهمله وتوجه كلامها لابن أبى عامر)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : أترى يامحمد أن تخفيف الضريبة يقضى على تذمر الناس .. دون أن يضر بخزينة الدولة ..

ابن أبى عامر : بل يحمى الخزينة ويدعمها يامولاتى إذا ابتهج الناس وهدأت نفوسهم وخففت عنهم الأعباء .. ازداد إنتاجهم واندفع نشاطهم .. فيصبحون اكثر خيرا للدولة.

المصحفى (ساخرا بغيظ) : بل ستتوالى مطالب الرعاع .. كلما تحقق لهم مطلب طالبوا بسواه .. ولن يقضى على تذمرهم غير ضرب السياط.

ابن أبى عامر : خير لنا أن تهدأ النفوس وتطمئن القلوب .. من أن نأخذ الناس بالقسوة والعنف.

صبيحة (بحسم) : سنأمر بإسقاط ضريبة الدقيق .. وغدا يصدر قرار الخليفة.

(يبدو الضيق على المصحفى ولا يتكلم)

ابن أبى عامر : أعز الله ملك مولاى الخليفة .. ومولاتى الاميرة ..

صبيحة : والتموين ياحاجب الدولة. هل اتخذت مايلزم للتخفيف من أعباء الغلاء. وإيقاف استغلال المستغلين لقوت الشعب ؟

المصحفى : رجال الشرطة يراقبون الاسواق وسيضرب صاحب الحسبة بيد من حديد على من يثبت تلاعبه ..

ابن أبى عامر (فى خبث خفى) : لن يردع التجار ان قاضى الحسبة المشرف على شئون التموين صهر حاجب الدولة. بل يردعهم وجود إجراءات محددة ونظام واضح وعقوبات قائمة على أساس ..

المصحفى (بضيق) : سنأمر بالتشهير بكل مستغل وننفيه عن قرطبة.

ابن أبى عامر : أكثر جدوى إذا سمح لى سيدى الوزير .. ان تكون هناك رقابة جيدة وتفتيش مستمر .. فالوقاية خير من العلاج .. ولو قام المحتسب بالمرور المنظم على السوق والتعرف على خباياه .. وراقب البيع والشراء. ووضع بطاقة بالأسعار على البضائع .. لكان ذلك خيرا من النفى والتشهير ..

صبيحة (كالمحدثة نفسها) : هو والله ماتقول .. وإنك لو أنصفنا لصاحبها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

(المنظر فى ركن القصر .. جوهر زعيم الصقالبة يتهامس مع الوصيف ميسور)

ميسور : لم أعد أحتمل.

جوهر : لاترفع صوتك .. يسمعك.

ميسور : كل شئ أصبح له .. إنها ترعاه وترفعه يوما بعد يوم ..

جوهر (ساخرا) : لعلها تثق فيه .. وهو أهل لثقة سيدتك يا ميسور.

ميسور (بغيظ) : ليست ثقة ياجوهر .. شئ أخطر.

جوهر : ماذا تعنى ياميسور ؟

ميسور : أمور خطيرة تجرى من وراء ظهرك ياكبير مماليك القصر .. ورجالك الصقالبة لايرون ولايسمعون ..

جوهر (بثقة) : عيوننا كلها مفتوحة على القصر .. مايجرؤ أحد أن يفعل شيئا من وراء ظهرنا أبدا.

ميسور (بخبث) : افتح عينك بنفسك جيدا .. ياجوهر .. إنك المسئول الأول عن شئون القصر .. أو يأخذ مكانك .. من هو أقرب إليها منك.

المشهد الخامس

(ركن فى قاعة بقصر المصحفى حاجب الدولة .. مجلس طرب .. المصحفى يجلس وبجانبه جوهر يشار إليه وهما يتابعان الغناء والراقصات)

المغنى :

طرقت والليل ممدود الجناح

مرحبا بالفجر فى غير صباح

غادة تحمل فى أجفانها

سقما فيه منيات الصحاح

فاسقنى عن إذن سلطان الهوى

ليس يشفى الروح إلا كأس راح

وانتظر للحلم بعدى كرة

كم فساد كان عقباه صلاح

المصحفى (بخبث) : سر عنك ياجوهر .. اتغضب وتثور .. لانها جعلت كاتبها وكيلا لها .. ومديرا لأعمالها .. ثم ناظرا لخزينة الدولة .. ومشرفا على شئون القصر ؟!

جوهر (بضيق) : نسيت أنها أصبحت كل شئ فى الأندلس .. تشارك زوجها علنا فى إدارة الحكم .. وتتولى شئون السياسة والإدارة دون الخليفة ؟

المصحفى (بخبث) : لقد أصبح عجوزا .. أكثر مما ينبغى ..

جوهر : لهذا جعلت كاتبها الشاب .. ملكا غير متوج فى قرطبة .. يتقرب إليه الجميع.

المصحفى : أليس أقربهم إلى قلب الأميرة ؟

جوهر : وأم ولى العهد ..

المصحفى : تغار يا كبير المماليك ؟

جوهر (ثائرا) : وأكاد أجن .. هذا الذى كان يجلس أمام الحانوت يكتب الشكاوى.. يتغير مكانه بين يوم وليلة .. فيصبح سيد القصر .. وأقرب الجميع إلى قلب الخليفة؟!

المصحفى (متخابثا) : تعنى إلى قلب حظية الخليفة.

جوهر : هى الحقيقة .. هى تحبه يامصحفى.

المصحفى : تغار لأنه يبهرها ويبهر معها الناس ؟

جوهر : لن يبهرهم بعد .. حين أكشف أمره للخليفة.

المصحفى : تكشف غرامه بالأميرة ؟

جوهر : وغرامها هى به.

المصحفى : ليس وقته الآن .. ولكن .. عليك به هو وحده يكفى تحطيمه أمام عين الخليفة .. وأمام عين الناس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السادس

(المنظر فى قاعة العرش. الخليفة غاضب ويقف أمامه المصحفى وجوهر)

الحكم : أنت تكذب.

جوهر : أنقل مايتحدث به الناس يامولاى.

الحكم : كلكم كذابون .. كذابون.

جوهر : اسأل المصحفى يامولاى .. وزيرك لن يكذبك.

المصحفى (بخبث) : لعلها وشاية حاسد.

الحكم : هو صحيح إذن.

المصحفى : لا دليل يدينه يامولاى.

جوهر : والهدية ؟ أليست دليلا عليه.

الحكم : أى هدية ؟ ما الذى تخفونه عنى ؟

جوهو : النموذج الفضى لقصر الزهراء.

الحكم : نموذج فضى ؟

جوهر : هدية للأميرة .. من كاتب الأميرة.

المصحفى : يا لك ياجوهر .. إنها لاتتكلف أكثر من عشرين ألف دينار. !

جوهر : والهدايا والعطايا بالآلاف .. لكل الناس .. مذ أصبح وكيلا على أملاك الأميرة وأملاك ولى العهد.

الحكم (صارخا بثورة) : أريد ابن أبى عامر .. أحضروه أمامى .. هاتوه وحده .. الآن .. الآن.

(ينسحب المصحفى وجوهر. بينما الخليفة يسير ذهابا وجيئة فى ضيق شديد. يدخل ابن أبى عامر وينحنى أمام الخليفة)

ابن أبى عامر : رهن أمرك يامولاى.

الحكم : ما هذا الذى يقوله الناس عنك ؟

ابن أبى عامر : ماذا يقولون ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم : كاتب صبيحة .. ليس أمينا على مافى عهدته من أموال.

ابن أبى عامر : لعلها وشاية حاسد يامولاى.

الحكم : ولم لاتكون الحقيقة ؟

ابن أبى عامر : الحقيقة التى ينشدها المنافقون الحاسدون.

الحكم : غدا تقدم حسابا على مافى حوزتك .. ووالله مايسكت الحكم .. لو كانوا صادقين.

المشهد السابع

(فى قاعة الخزينة .. جانب القاعة وبه خزائن بيت المال .. الخازن أمام مكتبه وأمام اكياس مليئة يقف فى الانتظار .. قبل دخول الخليفة يسمع نداء المصحفى من الخارج)

صوت المصحفى (من الخارج) : افتحوا خزائن المال .. ليغادر الجميع دار ضرب النقود .. حتى ينتهى الخليفة من التحقيق فى سلامة خزائن بيت المسلمين.

(يدخل الخليفة وابن أبى عامر وجوهر .. الخليفة يراقب ويتابع) .

الحكم : كل شئ منسق منمق .. فلعل خزائن المال مثلها..

المصحفى (بخبث) : احص مافى الخزائن ياجوهر.. وقل النتيجة لأمير المؤمنين..

(ابن أبى عامر يرفع يده ويخاطب الخليفة)

ابن أبى عامر : بل ليشهد مولاى بنفسه كل مافى الخزائن.

الحكم : هو ماتقول يامحمد.

(يوالى الخازن عد الأكياس والخليفة يتابعه بنفسه .. المصحفى وجوهر يتابعان فى قلق وهما مشدوهان ويتهامسان باستغراب)

المصحفى : ماهذا ؟ كل شئ كامل لانقص فيه ؟

جوهر : غير معقول .. أنا متأكد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم (بارتياح) : حسابات دقيقة، وعهدة كاملة، وخزائن سليمة يامحمد.

ابن أبى عامر : خادمكم الوفى يا مولاى..

المشهد الثامن

(قاعة العرش فى القصر .. فى ركن القاعة الحكم وصبيحة تحدث الخليفة فى ارتياح)

صبيحة : وشهدت بنفسك أمانة كاتبى يامولاى ؟

الحكم : كاتبك جدير بالثقة .. نادر المثال.

صبيحة : ستكافئة يامولاى .. لتقطع السنة الحاسدين.

الحكم : هو ماقلت .. وهو جدير بأرفع المناصب فى الدولة.

المشهد التاسع

(المنظر قاعة فى قصر صبيحة .. فى جانب من القاعة جوهر والمصحفى يتحدثان فى غيظ وحقد فى انتظار دخول الأميرة)

جوهر (بحقد) : وأصبح مفتشا عاما يا حاجب الدولة.

المصحفى (كالمحدث نفسه) : مفتش عام .. وأخر من يعلم .. حاجب الدولة .. ورئيس وزراء الخليفة.

جوهر : وقبلتها لنفسك.

المصحفى : والله ما أقبلها أبدا .. أبدا.

(تدخل صبيحة وتتوقف عند سماع أخر كلام المصحفى)

صبيحة : ما اعتراضك إذن ياحاجب الدولة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصحفى : يزداد غرورا وتيها .. كلما ارتفعت به المناصب يامولاتى.

صبيحة (بسخرية) : رأيته غير قادر على توليها ؟ شهدت منه قصورا وعجزا ؟

المصحفى : يخادع ..فيجعل من الحبة قبة ..

صبيحة : هل كانت حبة .. سياسته فى القضاء على الفتنة فى الأسواق .. أم استكثرتها عليه ؟ إذ نجح فيما عجز عنه ولدك ؟

المصحفى (بغيظ مكتوم) : سيدتى .. والله ماعينت عثمان صاحبا للشرطة لصلة قربى .. بل لكفاءة وقدرة.

صبيحة : كفاءته التى أثارت الفتن والحزازات ؟ أم قدرة كتلك التى أبداها صهرك صاحب الحسبة فى ظلم الناس وغلاء الأسعار ؟

المصحفى : كنت تستحسنين كفاءتهما قبل أن يثيرك عليهما كاتبك.

صبيحة : ما أبغضتهما يامصحفى .. ولكن من وثقت فيهم وعينتهم من أقاربك أساءوا إليك وإلينا.

المصحفى : إن كنت لم أعد أنا الآخر موضع ثقة مولاى الخليفة ومولاتى الأميرة.. فإنى التمس إعفائى من منصبى.

صبيحة (بسخرية خفيفة) : لم نفقد الثقة فيك ياحاجب الدولة .. فما زلت مستشارنا الاول. ولكن .. أليس من حقنا أن نثق فى الآخرين .. وقد أثبتوا أنهم أهل لها ؟

المشهد العاشر

(فى قاعة قصر المصحفى .. جوهر والمصحفى فى ضيق)

جوهر : مال الخزائن لم يكن سليما قبل تلك الليلة.

المصحفى : وكيف فعلها ؟

جوهر : أسأل هذا .. (يدخل ميسور ويفاجأ به المصحفى).

المصحفى : وصيف صبيحة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوهر : ومنافس كاتبها يامصحفى.

ميسور (وهو ينحنى) : فى خدمة سيدى.

جوهر : أخبرنا كيف كانت الخزينة ياميسور.

ميسور : أخفيت بنفسى بعض ماكان فى الخزائن .. والعجز أكيد ..

جوهر : هى صبيحة. أعطته تلك الليلة مايسد به عجز الخزائن ..

المصحفى (فى غيظ) : إذن .. لنكيدن لها .. وله.

ميسور: فى خدمة سيدى.

المصحفى (يطيل النظر إلى ميسور) : يذهب من يوسوس فى الناس .. ان صبيحة وابن أبى عامر .. عاشقان ..



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــل الثـــالث

المشـــهد الأول

(فى السـوق .. التجار يتجـمعون على ميسـور الذى يقف وسـطهم وهم يتلـفتون إليه فى استغراب)

ميسـور : أرأيتم ؟ الكاتب والأميرة.

رجل ١ : القصر ميدان العشق.

ميسـور : والخليفة نائم .. لايرى .. لايسمع. لايتكلم.

التاجر : شاخ .. فخدعته عيون صبيحة ..

ميسـور : صاحب البيت أخر من يعلم .. لايدرى أنهما يلتقيان فى ضيعة الأميرة.. بعيدا عن قرطبة ..

التاجر : ما أبرعه من كاتب .. إلى وكيل .. إلى مفتش عام.

رجل ٢ : إلى عشيق .. وغدا ..

المشهد الثانى

(المنظر فى قاعة صبيحة التى تقف مواجهة للمصحفى .. وفى عينيها قلق)

صبيحة (بقلق) : غدا .. غدا .. ما الذى تعنيه يامصحفى ؟

المصحفى (بلؤم) : لابد من سفره غدا .. قبل أن تصل أخبار الفضيحة إلى الخليفة.

صبيحة (بثبات) : سانقلها إليه بنفسى يامصحفى.. هى فرية لابد من تحطيمها.

المصحفى : الخليفة مريض .. قد يحطمه النبأ فيقضى عليه.

صبيحة : زوجى يثق بى .. ويثق بكاتبى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصحفى (بخبث) : الزوج المحب غيور يامولاتى .. يقتله الوهم. فما بالك بحديث يتناقله الناس ؟

(صبيحة تنهار فتجلس وهى تبكى فى حيرة)

صبيحة : لست أدرى يامصحفى .. أكاد أجن.

المصحفى (بمكر) : نبعده عن قرطبة يامولاتى .. غدا .. قبل أن يستفحل الأمر.

صبيحة : كيف ؟ .. فى إبعاده الآن اعتراف بأنه ارتكب ما يستحق الإبعاد ..

المصحفى : إنما أحرص على صحة مولاى .. وتكون أمامنا الفرصة لنكتم همسات الناس قبل أن تزعق ..

صبيحة (باستسلام) : لا خيار إذن .. لا خيار .. ولكن إلى أين ؟

المصحفى (فى انتصار) : إلى إشبيليه .. قاضيها .. وحاكمها المطلق .. بأمر الخليفة .. وكتاب زوجة أمير المؤمنين ..

المشهد الثالث

(المنظر فى خميلة الحديقة بقصر الخلافة .. صبيحة جالسة بينما ابن أبى عامر يروح ويجئ فى ثورة).

ابن أبى عامر : هى المؤامرة .. يفعلها المصحفى لتزداد قبضته على الزهراء وأهل الزهراء .. يريد أن تكون له وحده .. لينقلب على كل من فى القصر بعد حين .. دون أن يجد من يقاومه ويكشف أمره ..

صبيحة : هو بعض مايدور بخلدى والله يامحمد .. ولكنه أخذنا من اليد التى توجعنا.

ابن أبى عامر : بنفس اليد نكشف ستره يامولاتى .. ونمزق اليد التى تأبى إلا أن تلعب فى الظلام.

صبيحة (وهى تبكى) : أخشى على الحكم أن تضيعه الغيرة .. وعليك أن يضيعك الحقد .. لو ذهب بها المصحفى ..فلنحن رأسنا للعاصفة حتى تمضى يامحمد.

ابن أبى عامر : تبكين يامولاتى ؟ والله ما استحق كاتبك كل هذه الدموع الغوالى.

صبيحة : والفراق يامحمد.

ابن أبى عامر : سأعود .. فى اليوم الذى تحبين.

صبيحة : لم أكن أحب أن أبعدك .. وأنت ملء القلب ..و لكن بالرغم منى.

ابن أبى عامر : لن أنساها لهم ماحييت.

صبيحة : الضربة التى لاتقتلك .. تقويك.

ابن أبى عامر : سأكون لها يا أميرة قرطبة .. وغدا.

صبيحة : إن غدا لناظره قريب.

(ينهض فتقترب منه .. ابن أبى عامر ينحنى على صبيحة كأنه يريد تقبيلها. صبيحة تغمض عينيها فى انتظار القبلة ينتبه إلى نفسه فى اللحظة المناسبة فيبعد شفتيه وينحنى على يدها يلثمها. صبيحة تنتبه فتفتح عينيها وتطل إليه فى حيرة .. بينما ينتبه هو إلى نفسه فينتصب وينحنى لها).

ابن أبى عامر : إنى راحل يامولاتى.

المشهد الرابع

(فى قاعة بقصر صبيحة .. سمية تحاول التسرية عن مولاتها، بينما صوت غناء يسمع من بعيد)

المغنى :

وماغيض السلوان دمعى وإنما

نزفت دموعى فى فراق الصواحب

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب

فحتى متى أبقى راحلا غير أيب

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا

فمن طالع، أخرى الليالى، وغارب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرحماك يامولاى دعوة ضارع
يمد إلى نعماك راحة راغب

سمية : أنت تذبلين يامولاتى.

صبيحة : ماعدت أطيق صبرا ياسمية.

سمية : والله إنى لاستحى أن أقولها يامولاتى.. أترينه يستحق كل ما تصنعينه من أجله.

صبيحة : ماذا ؟ لعلك انضممت إلى الحاسدين والحاقدين.

سمية : لا والله ماقصدت .. ولكن أقولها صريحة .. فى قلبك اللهيب .. وليس فى قلبه جذوة نار.

صبيحة : صدقت ياسمية .. إنى احترق. وأضحى من أجله كل شئ. وهو بارد العاطفة. جامد القلب. تصدنى عيناه كلما التقت بعينى.

سمية : أما أثار ذلك فى نفسك الشك ؟

صبيحة : إيه .. ما أكثر ما دارت برأسى دوامة الشك فالعن حبى له. ثم لا أكاد أراه حتى أتمنى لو ألقيت بنفسى بين ذراعيه .. أنا أحبه ياسمية من كل قلبى .. أحبه ..

سمية : ومن كل قلبه يحب النفوذ والسلطان .. وسبيله إليهما نفوذك وسلطانك.

صبيحة (فى ثوره) : لا .. لا يمكن أن يكون هذا .. أنت تبالغين فى ظنونك به .. وتشعلين فى قلبى لهيب النار. ولكن اسمعى ياسمية .. سأحبه .. سأظل أحبه .. لن أنساه .. سأضحى من أجله .. بعمرى ودمى.

المشهد الخامس

(المنظر فى قاعة قصر المصحفى .. جوهر يهز رأسه فى سخرية وهو يتكلم).

جوهر : عرفت الأخبار ؟

المصحفى : أى أخبار ؟ أجديد عن الخليفة.

جوهر : جديد عن امرأته .. وغريمك.

المصحفى : اللعين ابن أبى عامر ؟ أو قد عاد ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوهر (بسخرية) : فيم اضطرابك ؟ لا .. بل مايزال فى إشبيليه لم ينقض على منصبك بعد.

المصحفى : فما له ؟

جوهر : الرسائل بينه وبين صبيحة لاتنقطع.

المصحفى : لا تهمنى رسائله .. بقدر مايهمنى بقاؤه بعيدا عن قرطبة.

جوهر (بضيق) : هو فى إشبيليه تماما كما كان فى قرطبة. مايزال صاحب الكلمة الأولى فى قصر الزهراء.

المصحفى (بثقة وسخرية) : لن يكون ياجوهر.

جوهر : الأميرة صبيحة ماتزال ترمقة بعين رعايتها .. وتظلله بجناح حمايتها.

المصحفى : ولو فعلت. لقد انتهى أمر كاتب صبيحة.

جوهر : أبدا .. بل هو فى الطريق إلى أوج مجده.

المصحفى : ماذا تقول ؟

جوهر : انزل إلى الشارع تسمع رجالها يبثون فى كل مكان أشياء كثيرة عن ابن أبى عامر.

المصحفى (بثورة) : ماذا يقولون ؟ ما الذى تريد صبيحة أن تدخله فى رءوس الناس ؟ .. تكلم .. أريد أن أسمع ماذا يقول الناس ؟

المشهد السادس

(المنظر فى السوق .. التاجر وحوله رجال يتكلمون بينما ميسور فى ركن يسمع)

التاجر : انتصر ابن أبى عامر.

رجل ١ : لقد استحق ثقة الخليفة بحق.

التاجر : هل عرفتم آخر الاخبار ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجموع : أحك لنا .. هات مالديك.

التاجر : الخليفه أرسله إلى مراكش .. ليراقب دفاتر بيت المال .. ويحاسب القائد الأكبر غالب.

رجل ١ : غالب ؟ ابن أبى عامر يحاسب أعظم قواد الأندلس ؟!

ميسور (كالمحدث نفسه) : إذن .. فالذى فعلها شخص واحد .. المصحفى.

المشهد السابع

(المنظر فى قصر المصحفى .. جوهر يتكلم فى ثورة بينما يجلس المصحفى يرد عليه باستخفاف).

جوهر (بغضب) : فعلتها من وراء ظهرى يامصحفى ؟

المصحفى : ومايضيرك ؟ قصدت أن أضرب عصفورين بحجر.

جوهر : أى عصفورين، وأى حجر ؟

المصحفى : جعلت ابن أبى عامر اكثر بعدا عن قرطبة ..وشغلته بغالب قائد الجيوش.

جوهر : إنما تريد تحطيم غالب .. وأنك لتعرف صداقتى له ..

المصحفى : غريب .. ماغضبك وهدفنا واحد ؟ أما أردت إبعاد ابن أبى عامر خوفا على مكانك فى القصر ؟

جوهر : انت من أبعده عن مركز السلطة فى قرطبة خوفا على نفسك.

المصحفى : أرحتك من وجوده ياجوهر.

جوهر : وتعذبنى بتحطيم صديقى ؟ لكن اقسم أن لو.

المصحفى : ماذا تعنى ياجوهر ؟!

جوهر : لتكونن نهاية قرطبة كلها. ونهاية المصحفى ونهاية الحكم .. ونهاية صبيحة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثامن

(غرفة ذات طابع مغربى هى دار غالب قائد الجيوش فى مراكش .. غالب وابن أبى عامر يتحدثان) .

غالب (ثائرا) : واحد منا يقتل الآخر يا ابن أبى عامر فاحذر لنفسك.

ابن أبى عامر : أحس مسئوليتى لرفع شأن هذه الدولة ياغالب، ولن أتخلى عن أمر فرضه على واجبى نحو مولاى.

غالب (بغضب) : تخدع نفسك .. وتعرف أن من فعلها هو المصحفى.

ابن أبى عامر : لن أقصر فيه .. أما المصحفى ..فله يوم .. ولن يكون عندها حاجب الدولة بعد .. ستكون لسواه.

غالب (مستنكرا) : ماهذه الثقة يا ابن أبى عامر .. أتعين وتعزل .. وكأنك الخليفة؟

ابن أبى عامر (بخيلاء) : اتراني لا أستحق ؟!

غالب : أراك تتيه بنفسك أكثر مما ينبغى لك .. وتسئ بما تقول حتى للخليفة.

ابن أبى عامر (بتحد) : الخليفة ؟ أدس ونفاق ؟!

غالب (ثائرا) : تقولها لى يا ابن أبى عامر ؟ والله إنها للقاتلة .. عنك سيفك.

(ينهض الاثنان ويرفعان السيوف .. فى نفس اللحظة تدخل اسماء بنت غالب)

اسماء : ماهذا الذى تفعلان ؟ أقتال تحققان به هدف المصحفى ؟

(يتبادلان النظر ثم يطلان إلى السماء)

أسماء : أليس لهذا ارسلك اللئيم يا ابن أبى عامر ؟ وأنت يا أبى ؟ أما قلتها بنفسك الآن .. واحد منكما يقتل الآخر ؟ ثم ماذا ؟ لمن تكون الغلبة ؟ للمصحفى .. لينفرد بقرطبة .. وبأهل الزهراء.

(يتبادلان النظر ثم يخفضان السيوف ويتصافحان) .

ابن أبى عامر : غلبتنا أسماء .. والله أنها الحقيقة.

★ ★ ★

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
المشهد الأول

(المنظر : فى خميلة حديقة قصر الزهراء .. صبيحة تسير وهى تغنى بينما الخليفة يجلس يستمع فى نشوة إليها ، ولا يلاحظ نظراتها الساهمة إلى بعيد) .

صبيحة (تغنى) : يا بعيد الدار موصولا بقلبى ولسانى
ربما بعدك الدهر وأدنتك الامانى
كلما زاد بى الشوق وفاضت بى عيونى
لذت بالسلوان والصبر وماذا يفعلان

(مع انتهاء الأغنية يربت الحكم على صبيحة فى حنان) .

الحكم : ما زال فى صوتك السحر ياصبح.

صبيحة : بعض رضاك يامولاى.

الحكم : لكنى أحس نبرة الاسى والحزن فى صوتك يا أم هشام.

صبيحة : حزنى على ولدى عبد الرحمن.

الحكم : لاتعودى للأسى من جديد. وقد حاولت أن أخفف عنك إذ أعلنتك ملكة القصر.

صبيحة (بأسى) : ولكنه كان ولى العهد .. وكان هو الذى سيحفظ الخلافة فى بيت الحكم .. سيدى ومولاى .. ولكنه .. مات.

الحكم : لا تحسبى الله الذى اختاره إلى جواره ان ترك لك هشام ؟

صبيحة : ولاية عهدك ليست لهشام يامولاى.

الحكم : آه .. يطمع فيها أخى المغيرة.

صبيحة : وما زلت لاتقرر شيئا .. والوقت يمر .. واطماع المغيرة فى ولاية العهد لاتهدأ.

الحكم : تأخذنى الحيرة فى الأمر ياصبح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : تسمعنى يامولاى .. لماذا لاتعلن البيعة بنفسك لهشام ؟

الحكم (بضيق) : وتظنين الأشراف والأعيان يقبلون الموافقة على البيعه له .. وهم يعرفون نواقصه ؟

صبيحة : يوافقون اليوم حرجا منك .. لن يعصوك وانت خليفتهم الذى يحبون.

الحكم : والأمراء والحكام فى إفريقيا ومراكش وبقية الأنحاء.

صبيحة : نسخ الاقرار يوقعونها .. لو وجدوا من يجذبهم ويقنعهم ياMولاى.

الحكم : فمن يكون ؟

صبيحة : والله ماكان لذلك سواه .. محمد بن أبى عامر.

الحكم : والله إنى لاريده بجوارنا فى هذه الفترة ياصبح.

صبيحة : هو خير من يقف إلى جوارك .. ويرعى ولى عهدك .. لو صار وزير القصر ياMولاى.

الحكم : هو ماتقولين .. اكتبى إليه يشد إلينا الرحال.

المشهد الثانى

(المنظر فى دار غالب قائد الجيوش بمراكش .. غالب وابن ابى عامر وأسماء معا) .

غالب : يعز علينا فراقك يامحمد.

ابن أبى عامر : والله إنى لأكره تركى لك ياغالب .. غير أنى وما يأمر الخليفة.

غالب : لكنى أنصحك .. افتح عينيك جيدا متى عدت إلى قرطبة.

اسماء : هو ماتقول والله يا أبى .. فما أكثر مايجرى على الألسنة من شائعات ينفث بها الحاقدون.

ابن أبى عامر : تقصدين مايقولونه عنى .. والملكة ؟!

اسماء : الكلمة الخبيثة لها وقع السحر فى سمع الناس .. أما الكلمة الطيبة فتضيع هباء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن أبى عامر : إنهم لكاذبون. فما بينى وبين هذه السيدة إلا صداقة بريئة .. تبادلنى الإعجاب وأسدى إليها النصح.

أسماء : أتستحق هذا الاعجاب حقا ..؟ اليست امرأة مثلنا نحن النساء ؟ فكيف استطاعت وهى النافارية أن تكون صاحبة النفوذ الأول على أمة المسلمين ؟

ابن أبى عامر : لا عن ملق ولا رياء علم الله. ولكنها فى الحقيقة أقدر كل من فى قصر الخلافة على إدارة شئون الحكم.

غالب : أتعنيها يامحمد ؟ أو يترك الخليفة العربى أمره للملكة من الفرنجة أن تدير حكم الإسلام والمسلمين ؟

أسماء : ليست وحدها .. يحيط بها المماليك الصقالبة، وأقولها برغم صداقتك مع زعيمهم جوهر يا أبى .. أراهم لايخلصون للخلافة .. ولا الخليفة.

ابن أبى عامر : الملكة أصبحت منا .. مصيرها يرتبط بمصيرنا . أما هؤلاء الصقالبة .. فكما تقولين يا أسماء .. لا اثق بهم أبدا. ولعل هذا مايدفعنى لأن أحيط بكل شئ فى القصر .. فعزيز على أن ينتكس أمر هذه الامة العربية فى الأندلس.

أسماء : إن كان لى أن أقولها .. فلتفتح عين الخليفة على حقيقتهم .. وتبصره بسوء نواياهم .. ماوسعتك حيلة، وأسعفتك حجة ..

غالب : والمصحفى يامحمد .. يقربهم إليه لأمر فى نفسه وإنى لناصحك.

ابن أبى عامر : والله ما وثقت به قط.

غالب : إنى لاكررها لك .. ما أرسلك المصحفى الى مراكش الا لتضربنى وأضربك.. ويقضى أحدنا على الآخر.

ابن أبى عامر (يبتسم) : خاب فأله ياغالب .. أراد لنا العداوة فإذا بنا صديقان.

أسماء (ضاحكة) : لو درى ما كان.

ابن أبى عامر : سيدريه .. متى وصلت إلى قرطبة.

المشهد الثالث

(المنظر فى قاعة قصر صبيحة .. وأمامها محمد ابن أبى عامر وهى تمازحه)

صبيحة : واستوليت على قلب غالب يا لعين.

ابن أبى عامر : والله إنه يستحق كل تقدير يامولاتى.

صبيحة : قلت لك دع هذه الكلمة يامحمد .. واكتف بأم هشام.

ابن أبى عامر : لست أجد الجرأة عليها .. أنت مولاتى .. وامرأة أمير المؤمنين.

صبيحة : ورسائلك ؟ وذلك اللهيب الذى يندلع من خلال كلماتك ؟

ابن أبى عامر : حقيقة .. أقولها على البعد .. ولا أقدر عليها وأنا قريب.

(تسرح صبيحة ببصرها فى ضيق وهى تعبث بقدميها .. ثم تطل إليه فى شغف واستعطاف)

صبيحة : وتهون عليك حرقة قلبى؟

ابن أبى عامر : فديتك بالقلب والروح يامولاتى .. فوالله ما أعرف لى مكانا إلا بجوارك .. وما أدرى لنفسى موئلا إلا بقربك.

صبيحة : فما تأخيرك فى العودة من مراكش إذن ؟ أيكون شاغل هناك شغلك عنا؟

ابن أبى عامر : والله هى الخشية عليك من نار الحاقدين وكيد الحاسدين.

صبيحة : أم لعله حب آخر .. استولى على القلب فما عاد لنا فيه نصيب ؟!

ابن أبى عامر : ليس بقلبى قدر ذرة لسواك يامولاتى.

صبيحة (تنهض وتسير مفكرة ثم تتكلم بسخرية)

هيه .. نفس الألفاظ الساحرة يامحمد

(يدخل الخليفة)

الحكم : أى السحرة هنا ياصبيحة ؟

صبيحة (وهى تستقبله) : مولاى.

ابن أبى عامر : خادمك يا أمير المؤمنين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم : لعلك تنجح فى التجربة الجديدة يا ابن أبى عامر.

صبيحة : والله إنى لأثق فى نجاحه يامولاى.

الحكم : ولعله لايخذل رأيك.

ابن أبى عامر : ليوفقنى الله أن أكون عند حسن ظن مولاى ومولاتى.

الحكم : فماذا عن مراكش يا ابن أبى عامر .. وما الرأى فى غالب ؟

ابن أبى عامر : والله يامولاى لولا أن يغضب المصحفى لقلتها عن حق.

الحكم (باستغراب) : المصحفى .. ومادخله فى ذلك ؟

ابن أبى عامر : لايطيق عودة غالب إلى قرطبة.

الحكم : أيريد غالب العودة إلى قرطبة ؟

ابن أبى عامر : وجوده اليوم فى قرطبة الزم من بقائه فى المغرب الأقصى.

الحكم : والله هو الرأى .. لنستدعيه ياصبح .. فهو خير قوادنا .. ورجل الملمات.

المشهد الرابع

(المنظر فى قاعة قصر المصحفى الذى يسير فى ثوره . بينما جوهر يجلس فى سخرية)

المصحفى : يعود إلى قرطبه ؟

جوهر : ولم لا .. أيضايقك وجوده فى العاصمة .. وكنت تريد القضاء عليه ؟

المصحفى : ماذا تعنى ؟ أسخرية تريد ؟

جوهر : حاشا للمملوك أن يسخر من حاجب الدولة ؟ ولكن هكذا يقول ابن أبى عامر .. قرطبة فى أشد الحاجة إلى غالب.

المصحفى : ولمن ندع المغرب الأقصى القائم على فوهة بركان ؟

جوهر : خمد البركان يامصحفى .. واستتب الامن والسلام فى مراكش.

المصحفى (بغيظ) : ليكن أمر مولاى .. ولكل شئ نهاية .. والويل لك يا ابن أبى عامر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس
المشهد الأول

(المنظر : ركن فى بيت ابن أبى عامر فى قرطبة .. تضم الجلسة مع ابن أبى عامر غالب وأسماء ابنته التى تبدو فى جلستها وكانها ترنو فى إعجاب إلى ابن ابن عامر طوال الحديث)

غالب (ضاحكا) : وفعلتها يا ابن أبى عامر.

ابن أبى عامر : من أجل سلامة الخلافة .. وخير قرطبة .. ومجد الإسلام والله ياغالب.

غالب : فماذا قال المصحفى ؟

ابن أبى عامر : لم يعلق.

غالب : كيف ؟

ابن أبى عامر : وقع الصاعقة يخرس الصوت والشفاه.

غالب : لن ينساها لك.

أسماء : ولن ينساها للخليفة .. وامرأة الخليفة.

غالب : وقائد جيوش الخليفة.

أسماء : وهل ينساها المغيرة .. وقد وجد من يقف فى وجهه لو حاول خلع هشام عن ولاية العهد ؟

ابن أبى عامر : لن يجرؤ .. فالبيعة رضى بها الجميع.. لإرضاء الخليفة المحتضر.. وما خلعها أحد.

غالب : بل خالفها المغيرة .. ومماليك القصر.

ابن أبى عامر : تعنى الصقالبة ؟

أسماء : وجوهر .. زعيمهم.

ابن أبى عامر (باستغراب) : جوهر .. جوهر والصقالبة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثانى

«المنظر : فـى قاعة العرش بقصر الـزهـراء .. صـبيحة تبـدو كالمستغربة . بيـنما هـى تطل إلى ابن أبى عامر الذى يقف أمامها منتهيا من تبليغها» .

صبيحة : جوهر والصقالبة ؟

ابن أبى عامر : هى الحقيقة يا أم هشام.

صبيحة : إذن .. لنسكتهم الان .. قبل ان يعرفوا بما حدث.

ابن أبى عامر باستغراب : وماحدث يامولاتى ؟

صبيحة : مات الخليفة.

«تبدو المفاجأة على ابن أبى عامر بينما تظل صبيحة تسير فى قلق جيئة وذهابا. بعد فترة يرفع ابن أبى عامر رأسه بعد تفكير. بينما تتوقف صبيحة فى مواجهته» .

ابن أبى عامر : ومتى تعلنينها للناس ؟

صبيحة : ليس قبل المناداة بهشام .. خليفة على الأندلس.

ابن أبى عامر : كدت اقولها لك يا أم هشام .. حتى لا تكون للمغيرة ..

صبيحة : والله لن تكون للمغيرة أبدا ..

ابن أبى عامر : ولا لحزبه وصقالبته .. وإلا ضاعت الزهراء وأهل الزهراء.

صبيحة : فما الرأى يامحمد ؟

ابن أبى عامر : نبعد بين المغيرة والصقالبة ... ونرغمه على البيعة قبل أن نعلن موت الخليفة.

صبيحة : والله ما أخفى خبر موته .. من أجل هشام ولدى .. ولكن لأحمى بيت الزهراء من أن يقع فى يد المغيرة .. ولأمنع قرطبة من أن تقع فى حكم الحزب المخالف .. القائم على نفوذ الصقالبة.

«يدخل المصحفى ويسمع الفقرة الأخيرة من كلام صبيحة» .

المصحفى : نعم الرأى يا أم هشام .. فانتبهى أنت لرعاية الخليفة والوصاية عليه .. ودعى لنا المغيرة ومماليكه .. (يقترب المصحفى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : فما تفعلون بهم يامصحفى ؟

المصحفى : سأخرج لهم وأقضى على مؤامرتهم الآن .. وقبل ان يهربوا من قرطبة ..

«يستدير المصحفى ويتجه للخروج» .

صبيحة : أسرع يامصحفى.

ابن أبى عامر : بل انتظر .. والمغيرة يا حاجب الدولة .. ماذا نفعل به ؟

المصحفى (بخبث قبل أن يخرج) : تقتله يا ابن أبى عامر.

ابن أبى عامر (كالمحدث نفسه) : اقتله انا يا مصحفى ؟

صبيحة : اقتله .. من أجل صبيحه .. ومن أجل هشام .. ومن اجلك انت يا ابن أبى عامر.

ابن أبى عامر : من أجلى ؟ .. أنا يا صبيحة ؟

صبيحة : ليصير ابن أبى عامر .. سيد رجال قرطبة .. ووزير المؤيد بالله هشام .. خليفة المسلمين على أرض الأندلس.

المشهد الثالث

«المنظر فى السوق والناس مجتمعه امام الحوانيت يحيطون بجوهر الذى يواصل الصراخ» .

جوهر : القتلة .. انتبهوا أيها الناس.

الجموع : اين القتلة ؟ أين ؟ اين القتلة ؟

جوهر : فى قصر الزهراء .. اسرعوا إلى القصر ايها الناس إلى القصر ..

رجل ١ (يسأل التاجر) : من هذا الذى يصرخ فى الناس ؟

التاجر : جوهر .. زعيم الصقالبة .. وصاحب الألف مملوك.

رجل ١ : هو يعلم الحقيقة إذن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوهـر (يواصل الصراخ) : هناك جريمة تدبر فى القصـر.

رجل ١ : لنسرع خلفه .. نشهد ونتفرج.

التاجر (باستخفاف) : ما لنا والمماليك .. هى فتنة يدبرونها فى قصـر الخليفة.

جوهـر (بسخرية) : اين هـو الخليفة يا أغبياء ؟

التاجر : فى القصر يامملوك الحريم.

جوهـر : يا أغبياء .. أرأيتموه ؟ أشاهدتم الخليفة ؟

التاجر : الخليفة مريض فكيف نراه.

جوهـر : الخليفة مات.

الجموع (تفاجأ ويتبادلون النظرات) : مات الخليفة .. لاحول ولا قوة إلا بالله.

جوهـر : مات الحكم .. وقتلوا وريثة المغيرة.

التاجر : قتلوا المغيرة ؟ من هـم ؟ من القتلة ؟

جوهـر : امرأة الخليفة .. وعشيقها .. والحاجب المصحفى.

المشهد الرابع

«المنظر فى القصـر : صبيحة فى مقعدها بجوار العرش الخالى .. وأمامها ابن أبى عامر، وهى تتكلم باستغراب)

صبيحة : كل هذا يفعله جوهـر ؟

ابن أبى عامر : ومع هذا .. عفا عنه المصحفى.

صبيحة (بغضب) : عفا عنه ؟ بغير إذنى ؟ كيف حدث ؟ اين هـو المصحفى .. آتونى بحاجب الدولة.

(يدخل المصحفى)

المصحفى : تنادينني يامولاتى ؟

صبيحة (بثورة) : كيف تعفو عن المملوك المتآمر. دون إذنى ؟ نسيت أنى الوصية على الخليفة .. لايصدر عفو بغير أمرى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصحفى (بشبه استخفاف) : لم أنس يامولاتى.

ابن أبى عامر : كيف فعلت إذن .. وقد شهدته يدبر المؤامرة ويثير الشعب ؟

المصحفى : استطيع أن اقدر الأمر جيدا يا ابن أبى عامر .. أم رأيتما إزاحتى من الطريق ؟

ابن أبى عامر : كيف تقول يا مصحفى ؟ وقد أعلنت الوصية استمرارك حاجبا للدولة ..

صبيحة : أنت يدى اليمنى ياحاجب الدولة .. وابن أبى عامر فى منصب الوزارة يدى اليسرى.. ولكن الرأى الأول للوصية.

المصحفى : رأيت يامولاتى أن أتريث وقد أظهر الندم .. وسأكون له بالمرصاد..

(يبتعد ابن أبى عامر ويتكلم كالمحدث نفسه بصوت خافت)

ابن أبى عامر : والله إن ندمه خدعة يامصحفى .. هو اتفاق بينك وبينه .. ووالله لن أتركها لكما أبدا .. أبدا..



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس
المشهد الأول

(بعد سنوات .. المنظر فى قاعة العرش بالقصر .. يظهر الخليفة الصغير هشام وهو صبى صغير فى الخامسة عشرة مستندا إلى العرش وهو يتكلم مع أمه فى ضيق ، بينما ابن أبى عامر فى ركن آخر يتابع الحديث ولا يتدخل) .

هشام : ضقت ذرعا بهذه العزلة .. أريد أن أخرج .. أخرجونى من القصر.

صبيحة : ماهذه الضجة ياهشام ؟

هشام : ألست الخليفة يا أماه ؟ لم لا أجلس على العرش أمام الشعب ؟ أم أظل هكذا محبوسا فى القصر ؟

صبيحة (تخفف عنه) : محبوس فى القصر ؟ من قالها لك ؟

هشام (مترددا بخوف) : لم يقلها لى أحد أبدا .. أبدا يا أماه.

صبيحة : انت الخليفة وامير المؤمنين ياهشام ... وعندما أمهد لك تولى الامر كله.. ستخرج للناس كلهم .. فلا تصدق ما قالوه لك.

هشام (بفرحة صبيانية) : إذن هم يكذبون .. وزعيمهم اكثر كذبا..

صبيحة (تستدرجه) : آه .. زعيمهم أكذبهم ياهشام.

هشام : سأضرب هذا المملوك جوهر لو رأيته.

(يخرج)

صبيحة : جوهر أيضا ..

(تطل إلى ابن أبى عامر وهو يقترب)

ابن أبى عامر : قلتها من قبل .. هذا اللعين جوهر يؤلب الشعب من جديد .. وينفخ فى نار النقمة هو وبقايا صقالبته.

صبيحة : يغيرون ضدنا النفوس ويثيرون الفتنة ؟

ابن أبى عامر : والله ماصدقت توبتهم قط ... ما يذيعونه فى الناس مثير .. وهمسات الشعب تتحول إلى ضجيج ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : ماذا يقولون ؟

ابن أبى عامر : يقولون ... كل شئ دبرته صبيحة .. قتلت المغيرة. وحبست الخليفة .. ليخلو لها كل الأمر ...

صبيحة (فى ثورة) : ليقتل جوهر وكل الصقالبة يا ابن أبى عامر.

ابن أبى عامر : مهلا يامولاتى .. لو فعلنا لوثبت الفتنة سافرة.

صبيحة : فما ترى يامحمد ؟

ابن أبى عامر : نرهب الناس ونخفف عنهم ... ونشغلهم عما يذيع الناقمون..

(صبيحة تطل إليه كمن لايفهم)

ابن أبى عامر : يقوم غالب بعرض جنده اظهارا لهيبة الدولة وإرهابا لأهل الخلاف..

صبيحة : وكيف نخفف عن الناس ؟

ابن أبى عامر : ضريبة أخرى نسقطها .. ضريبة الزيتون .. ونعلنها بينما نخرج الخليفة الناس.

صبيحة (تهز رأسها فى عدم اقتناع) : نخرجه للشعب ؟ ألست من أشار بحجبه عن الناس ؟

ابن أبى عامر : لصالح الخليفة والخلافة يامولاتى .. رأيته لايحسن غير اللهو .. فكان حجبه عن أعين الحاسدين الحانقين من أبناء عمومته ضرورة .. فلا يزل لسانه بأمر ينكرونه ..

صبيحة (بأسف) : كلهم يعرفونه صغيرا .. لايزال فى رعونة المراهقة ..

ابن أبى عامر : الناس لايرحمون. إنهم يريدون فى الخليفة حزما ونضجا وقدوة صالحة .. لو رأوا هشاما بما هو عليه لامتهنوه واستصغروا شأنه. فتضيع هيبة الدولة .. والآن ... فاذا خرج الخليفة الصغير للناس بعد ان يسقط بأمره مايجهدهم.. تفتحت له الأفئدة ... وتحركت العواطف .. وارتفعت الهتافات للخليفة .. والوصية على الخليفة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثانى

(المنظر قاعة فى دار غالب قائد الجيوش، وقد جلس امامه جوهر كبير الصقالبة يلعبان الشطرنج. بينما جوهر يواصل الحديث فى سخرية مثيرة).

جوهر : كل الناس يلهجون بذكر صبيحة يا قائد الدولة.

غالب (بغيظ) : ولا ذكر لغالب .. ولا حجابه .. ولا وزارة..

جوهر : والله إنك لأحق بحجابة الدولة من هذا المصحفى.

غالب : اسكت ياجوهر .. تسمعك الجدران.

جوهر (بخبث) : أعرف ان عيون المصحفى وابن أبى عامر حولى فى كل مكان. ولكنى أعرف عنهما الكثير أيضا ياقائد جيوش الأندلس ..

غالب (باستغراب) : ماذا تعرف ياجوهر ؟

جوهر : كل منهما يكره الآخر .. ويعمل للقضاء عليه..

غالب : عرفت ذلك يوم ارسل المصحفى غريمه إلى مراكش ليضعنا وجها لوجه.

جوهر : ولكنكما تقاربتما .. كل الناس تحدثوا عن صداقتكما و ... وعن أشياء اخرى كثيرة.

غالب (باستغراب) : أشياء ؟ ماذا تخفى ؟

جوهر (يتظاهر بالتردد) : لا شئ .. لم أعن ما أقول.

غالب : تكلم ياجوهر .. تتحرج منى ؟

جوهر : والله ما أردت قولها أبدا.

غالب : تكلم ياجوهر.

جوهر (كمن غلب على أمره) : اسماء .. وابن أبى عامر.

غالب : أسماء .. ابنتى ؟

جوهر : يقول الناس انهما متحابان ويتلاقيان.

(يطل غالب إليه ثم يغرق فى الضحك)

غالب : صحيح .. كانت فكرة فى مراكش أن تتم المصاهرة وشغلتنا الأحداث ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(جوهر يفاجأ .. ثم يحاول أن يغير أسلوبه بخبث).

جوهر : إنها للفرحة إذن ياغالب.

غالب : أسماء تحبه. ولن أجد لها خيرا منه. ولكنه غرق فى الوزارة ونسى نفسه.

جوهر : والله لم ينسها. وإنما تنسيه صبيحه.

غالب : ماذا وراء كل ذلك ياجوهر ؟ أرى تحت الرماد وميض نار.

(جوهر يستغرق فى التفكير ثم يتكلم بخبث وإغراء)

جوهر : لو تم الزواج .. نلت الحجابة بدلا من المصحفى.

غالب : ماذا تعنى ياصقلبى ؟

جوهر (بخبث) : صبيحة غاضبة على المصحفى .. وابن أبى عامر لايريده .. فمن أقرب إلى الحجابة .. من صهر الوزير ؟

المشهد الثالث

(فى القصر بقاعة العرش .. صبيحة وأمامها المصحفى وابن أبى عامر)

صبيحة (ثائرة) : المؤامرات تدبر بليل خارج القصر وداخله.

ابن أبى عامر : هم الصقالبة مايزالون .. وكبيرهم جوهر.

صبيحة : لتكن حربا شعواء وقضاء عليهم.

المصحفى : أرى الاكتفاء برقابتهم، وبث العيون حولهم يامولاتى.

ابن أبى عامر : حجر حرياتهم أشد خطرا من نتائج التخلص منهم.

صبيحة : نطردهم من قرطبة كلها ..

المصحفى (بخبث) : أخشى أن يعودوا إلى حرب الإشاعات وأحاديث الإفك ..

صبيحة (ثائرة) : لن أسمح لهم بالبقاء فى قرطبة .. أنا الوصية .. وعلى الحاجب التنفيذ..

المصحفى باستخفاف : لينفذه ابن أبى عامر.

ابن أبى عامر : انت عفوت .. وقبلت التوبة .. وعليك رد القضاء.
المصحفى (كالمحدث نفسه) : لأكسب حقدهم وعداءهم يا لعين.
(يخرج)
ابن أبى عامر : أرأيت يا أم المؤيد ؟ والله ماوثقت فيه قط ...
صبيحة : أقولها لك يامحمد .. افعلها أنت.
ابن أبى عامر : سأفعلها .. ولن تكون بعد اليوم مؤامرة .. ولا مماليك .. بيدى تلك ستزول من قصر الزهراء دولة الصقالبة .. أعدى اعدائك وأعداء أمة العرب ..

المشهد الرابع

(فى قاعة العرش بقصر الزهراء ... القاعة خالية)
(أصوات من بعيد) : الفرنجة .. الفرنجة .. الفرار ... لانجاة اليوم لأحد .. الصقالبة استعدوا الفرنجه على قرطبة .. أما من نجاة .. أما من قائد للمسلمين.
(تدخل صبيحة مندفعة فى ثورة وخلفها المصحفى وابن أبى عامر .. تظل تروح وتجىء والاصوات تبتعد .. ثم تتجه إليهما)
صبيحة : أين غالب ؟ أين قائد الجيوش ؟
المصحفى : فى المغرب الأقصى.
صبيحة (تتوقف فى مفاجأة) : ماذا يامصحفى ؟ من أعادة إلى المغرب ؟
المصحفى : لم أجد له مهمة هنا فى قرطبة.
صبيحة (بثورة عارمة) : من أذن لك ؟ وماذا نفعل وجيوش الفرنجة تضرب وتزحف ؟
المصحفى : والله إنى لأخشى اندلاعها حربا شعواء بيننا وبين الفرنجة.
ابن أبى عامر : ماذا يامصحفى ؟
المصحفى : اخشى القتال .. لو اشتبكت الدولة مع الفرنجة .. اتحنا للمتمردين القيام بثورة جامحة .. قد يضيع معها بيت الحكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : وتضييع الدولة .. ياحاجب الدولة ؟

المصحفى : بضعة قلاع .. خير من ضياع كل الدولة.

صبيحة (بغضب) : منطق الانهزاميين .. امض الآن وارسل فى طلب غالب .. فوالله لو لم يعد فى الوقت المناسب .. ليكونن مايكون.

(يخرج المصحفى فى تثاقل)

ابن أبى عامر : والله لو سرنا على سياسة التخاذل التى انتهجها المصحفى لضاعت البلاد .. سأخرج بنفسى للجهاد .. وأقود الجيوش.

(صبيحة تطل إليه فى ثقة واطمئنان)

صبيحة : على بركة الله يامحمد.

ابن أبى عامر : كل ما أرجوه مؤازرة مولاتى.

صبيحة : فما تريد يامحمد ؟

ابن أبى عامر (بحزم وتصميم) : سأضرب فى الداخل وفى الخارج. سأسحق كل عقبة وكل متهاون وكل مناوئ.. سأنزل الرعب فى قلوب الخونة والمترددين .. فلا توسوس لهم النفس وأنا غائب .. ان ينقضوا على الخليفة والوصية .. والنصر لنا ..

المشهد الخامس

«فى الطريق بالسوق .. جماهير تذهب وتجئ فى فرحة».

الجموع : الله اكبر .. الله اكبر.

التاجر : النصر لابن أبى عامر.

رجل ١ : انتصرت جيوشنا واندحر الفرنجة.

التاجر : عاش المؤيد .. عاشت صبح.

رجل ١ : بارك الله المنصور .. أذل الفرنجة وخلص البلاد من الخونة.

التاجر : أنت المنصور على الخونة والفرنجة .. أنت الحاجب المنصور يا ابن أبى عامر .. صنعت النصر ولك النصر يامنصور ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع
المشهد الأول

«المنظر فى قاعة العرش. الخليفة المؤيد بالله هشام .. العرش خال. وصبيحة تقف مستندة إليه .. بينما المصحفى يقف فى مواجهتها يتكلم باستسلام مشوب بالخبث».

المصحفى : والله إنى لناصحك يامولاتى .. والصدق قلت.

صبيحة : فما يضيرك من غالب أيضا .. الأنه أصبح ذا الوزارتين ؟

المصحفى : إنما فعل المنصور ذلك ليضمن الجيش معه ضدك وضد ولدك الخليفة المؤيد.

صبيحة : مازلت نصيرا للمتآمرين والحاسدين يا مصحفى.

المصحفى : المتآمرون هم ابن أبى عامر ومعه غالب مساعده.

صبيحة (بسخرية) : ساءك نجاحه فى طرد الفرنجه، وعودته وهو المنصور.

المصحفى (بخبث واستثارة) : والله ما ساءنى سوى خداعه لك يامولاتى و .. و ..

صبيحة (تفاجأ) : فيم يخدعنى يامصحفى ؟ تكلم ..

المصحفى : يتقرب من رضا مولاتى .. ويخادعها مع قائده.

صبيحة : مازلت تلغز .. أفصح يامصحفى.

المصحفى : سأقولها يامولاتى .. ابن أبى عامر سيتزوج أسماء بنت غالب.

صبيحة (باستغراب) : أسماء ..؟

المصحفى : الحقيقة .. يتحدث بها كل الناس.

صبيحة (كالمحدثة نفسها) : أسماء بنت غالب ؟

المصحفى : وتمت الخطبة يوم تولى قائد الجيوش منصب الوزارتين.

صبيحة (فى تؤدة) : لكن .. ماعلاقتى بهذا الامر ؟ ومايضيرك أنت ؟

المصحفى : يضيرنى أن يتفق الاثنان على مولاتى ... والخليفة ولدك .. بإذنك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«يخرج بينما تتحرك صبيحة مفكرة ثم تهمس كالمحدثة نفسها فى ثورة»

صبيحة : ما لهذا تثور وتغضب يا لعين .. بل تريدها غيرة حمقاء .. تطيح وتدمر.. وتحطم الجميع.

«تقف صبيحة مواجهة النافذة المطلة على الحديقة فى سرحة طويلة .. يدخل ابن أبى عامر فى هدوء».

ابن أبى عامر : مولاتى مستغرقة فى التفكير .. فلأستأذن إذن ...

صبيحة (تنتبه) : ما لديك يامحمد ..

ابن أبى عامر : والله قد حرت فى أمر هذا المصحفى .. اخلصت له النصح وساعدته فى كل الأزمات .. ثم يأبى الا أن يتامر على.

صبيحة : أتظنه يقبل ببساطة انتصارك على الفرنجة .. يامنصور ..

ابن أبى عامر (فى تواضع مكشوف) : هو توفيق من الله .. وما كان بيدى من الأمر شئ لولا دعوات مولاتى.

صبيحة : بل قيادتك الحكيمة فى الحرب كما هى فى السلم يامحمد .. ووالله إن المصحفى ليغلبه الحقد عليك فلا يستطيع السكوت عنك ..

ابن أبى عامر : والله مانقمت عليه أبدا يامولاتى .. وماكان يعنينى حياتى ولا منصبى .. ولكنه مصير دولة العرب والمسلمين فى الأندلس.. لماذا لانكون يدا واحدة.. لماذا نتفرق شيعا فتذهب ريحنا كلنا نحن العرب ؟ لم لاندرك ان العدو بالشمال يتربص بنا ؟ لم لاندرك أن ديننا يدعونا إلى وحدة الكلمة وجمع الشمل إلى متى هذا التناحر والشقاق ؟ إلى متى ؟ إلى متى ..؟

صبيحة : إلى أن تتم المؤامرة .. ويجعلنى اتخلص منك ومن قائد الجيوش .. غالب .. أبو أسماء ..

ابن أبى عامر (يفاجأ) : أسماء.

صبيحة (تتظاهر بالبساطة) : أحقا مايقولون .. خطبت اسماء يامحمد ..؟

ابن أبى عامر (يتدارك نفسه بسرعه وثبات) : والله كنت انتظر المناسبة لاستأذنك فيها يامولاتى .. شعرت ان المصحفى يدبر ليفرق بيننا وبين غالب فقلت أغلبه بأسماء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة (فى غيظ تحاول أن تكظمه) : وتغلبنى بها يامنصور ؟

ابن أبى عامر : حاشا لله يامولاتى .. بل أغلب ألسنة السوء التى تلغط بالشائعات.. على الملكة والمنصور ..

صبيحة : فلتقطع ألسنة السوء .. ولاينشغل المنصور بزوجة صغيرة مهما بلغ بها الجمال، عن شئون الدولة، وحق الأمة علينا وعليه ..

ابن أبى عامر : معاذ الله يامولاتى .. مايشغلنى عن أمور الدولة وحق الأمة شئ أبدا.

صبيحة : اذن .. تريد أن تهجرنا يا ابن أبى عامر.

المشهد الثانى

(المنظر فى قصر صبيحة .. قاعة بالقصر يجرى فيها احتفال عرس ورقص وغناء. فى الصدر ابن أبى عامر وعروسه أسماء، وأمامها الراقصات يرقصن، بينما صبيحة تجلس بعيدا تتأمل العروسين فى سرحة تحاول إخفاءها.

فى ركن من القاعة ميسور وسمية يتهامسان).

ميسور : ما أقدرك وأشجعك ياصبيحة.

سمية : قلتها لك من قبل ياميسور .. لاتظلمها .. كان إعجابا بمن يقدر على حمل العبء معها. والسير بالسفينة إلى بر الامان..

ميسور : وظلمته هو أيضا .. لوامتلأ قلبه بها .. ما تركها لسواه.

سميه : ورأيت نبلها .. رأيت كيف تشرف بنفسها على حفل زفافه إلى أسماء ؟

ميسور : ما كانت لتفعل .. لو كانت غريمتها.

سميه : ولو كانت ياميسور. فقد يئست منه وعفت عنه ... حتى لتدفع على نفقتها كل تكاليف العرس وملابس العروس .. ثم توقع بيدها على عقد القران..

ميسور : ما أرق قلبك ياصبح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سميه : عد إلى حظيرتها ياميسور.

ميسور : لأكونن عبدها وحارسها منذ اليوم .. فما أجدرها بالاحترام والفداء.

سمية (هامسة كالمحدثة نفسها) : وما اقدر من على اكتافها ركب القمة .. ليدوسها بعد حين.

(ينهض ابن أبى عامر وأسماء ويتجهان ناحية صبيحة التى تسرع فى اظهار الابتسام والتهنئة).

ابن أبى عامر : مولاتى تضفى علينا كل النعم.

صبيحة : أنت جدير بها يامنصور .. وبعروسك الفاتنة.

أسماء (فى خجل) : أعز الله مولاتى الملكة .. جعلت يوم عرسى فى قصرها أعز أيام العمر.

صبيحة (متضاحكة) : ولى شرط يا اسماء.

أسماء : رهن أمر مولاتى.

صبيحة (تتغامز مشيرة إلى ابن أبى عامر) : لاتشغليه عن قصر الزهراء .. فأمر الدولة بين يديه.

أسماء : حق الدولة أولى فى كل حين يامولاتى ... وما كنت لأصبح امرأة المنصور.. لو ضيعت حقا من صنع المنصور.

صبيحة : فلتنعم بعروسك يامنصور .. فما أجدر أسماء بزوجها .. اعلى الرؤوس فى قرطبة.

ابن أبى عامر : رأسى فداؤك يا أم المؤيد.

صبيحة (تتضاحك بسخرية خفيفة) : أبدا يامنصور .. احفظها فى مكانها .. فهى لك .. ولعروسك.

ابن أبى عامر : هى والله لملكة قرطبة .. لاتنحنى لسواها.

(تحول صبيحة نظرها إلى غالب الذى يقترب ..)

صبيحة : أنصدق حقا يا غالب ؟ نصدق مايقوله زوج ابنتك ؟

غالب : كلنا فداء ملكة قرطبة .. أم المؤيد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة (كالمحدثة نفسها همسا مبتعدة) : تكذبان ورب الكعبة .. وما أصدق المصحفى.

المشهد الثالث

«فى قاعة مظلمة فى قصر المصحفى .. عدد من المماليك الصقالبة يجلسون حوله وبينهم جوهر».

جوهر : والله ماعدت أطيق ..

المصحفى : اهدأ ياجوهر..

جوهر (ثائرا) : كل يوم نجتمع وننفض على لاشئ .. والملك المنصور يواصل الصعود .. والخلافة منه قاب قوسين.

المصحفى : .. فلتكن ضربة قاصمة تطيح به ..

جوهر (ينهض فى شبه جنون) : وجدتها .. ليس أشد من ضربة يقتل بها الخليفة .. الذى عزلوه عن الناس .. ينهار عالم صبيحة .. والمنصور ..

المشهد الرابع

«المنظر فى قاعة العرش .. صبيحة وبجانبها ابن أبى عامر بينما يقف امامها ميسور .. ابن أبى عامر يربت على كتف الميسور فى تقدير».

ابن أبى عامر : حييت ياميسور .. لولاك لفقدنا الخليفة المؤيد.

ميسور : اقسمتها بحق الملك المنصور .. وقد قبضت على جوهر .. ألا أدع واحدا من الصقالبة على قيد الحياة .. وأنا لها يامولاتى.

صبيحة : حمى الله الخليفة من عدوه وعدونا يا ميسور .. فامض على بركة الله.. وانتظر أوامر المنصور ..

«يخرج ميسور ويتابعه ابن أبى عامر بعينيه ثم يروح ويجئ فى القاعة وهو يضرب كفيه».

المنصور : والله ما أملك تدميرهم وتحطيمهم ويدى مغلولة إلى عنقى .. المصحفى يحميهم ويسهل لهم الفرار .. ومازال حاجبا للدولة.

صبيحة : والله مابيده شئ .. لايقدم ولايؤخر ..

ابن أبى عامر : يحميه منصبه يا أم المؤيد.

صبيحة : تولى الحجابة انت يامنصور .. وفى عنقك حياة المؤيد..

المشهد الخامس

«المنظر فى بيت غالب قائد الجيوش ومعه المصحفى».

المصحفى (فى ثوره) : هذا اللعين لن أتركه.

غالب (ساخرا) : أوه .. تعنى الملك المنصور.

المصحفى : اعنى هذا الوغد الشقى.

غالب : لاتثر هكذا يامصحفى .. لايليق بحاجب الدولة ..

المصحفى (باندفاع وثورة) : حاجب الدولة ؟ أبدا ياغالب .. حتى تلك أخذها منى.

غالب : ماذا ؟ لم تعد حاجب الدولة بعد ؟

المصحفى : ولاشئ أبدا .. لاشئ .. ابن أبى عامر وضع يده على كل شئ.

غالب : هل أصبح حاجب الدولة أيضا يامصحفى ؟

المصحفى : ألم يسم نفسه الملك المنصور ؟ ألم تسمع الناس وهم يتحدثون عنه وكأنه هو الخليفة .. كل شئ له .. أخذها كلها لنفسه يا غالب .. كل شئ له وحده .. هو الاوحد .. هو الأوحد.

(يندفع المصحفى إلى الخارج)

غالب : إلى اين يامصحفى .. انتظر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصحفى : سأقتله .. ولو كان فى قصر الخليفة.

المشهد السادس

«المنظر فى قصر المنصور، ومعه زوجته أسماء التى تحاول تهدئته بينما هو يجلس إلى مكتبه فى ثورة».

أسماء : هون عليك .. لاتدنس بدمه يديك يامنصور.

ابن أبى عامر : حاول قتلى .. ومن قتل يقتل.

أسماء : ولكنه لم ينفذ القتل.

ابن أبى عامر : الأعمال بالنيات يا أسماء.

أسماء : الأمر لك يامنصور .. ولكن .. دعها لسواك.

ابن أبى عامر : من سواى يجرؤ على قتل المصحفى.

(يظهر غالب عند الباب وهو يدخل).

غالب : واحد منكم يقتل الآخر يامنصور .. فاحذر لنفسك.

ابن أبى عامر : أضربه قبل أن يضربنى.

غالب : دعها للقضاء يامنصور .. فوالله إنه لمنصفك.

ابن أبى عامر : هو ماتقول ياغالب .. فو الله ما أثمت معه قط .. أخلصت له النصح، وساعدته فى كل الأزمات .. ثم يأبى مع هذا إلا أن يتآمر على .. وعلى الخلافة والخليفة.

أسماء : أنت العادل والمنصور .. فليحكم بينك وبينه حكم الله ...



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

المشهد الأول

«زنزانة فى السجن . الضوء خفيف .. المصحفى وجوهر مكبلان فى السلاسل يجلسان فى جانب من الزنزانة» .

جوهر : أهى النهاية يامصحفى ؟ حاجب الدولة ينتهى إلى تلك السلاسل فى يديه وقدميه ؟

المصحفى (بمرارة) : سبقتنى إليها ياجوهر .. ويلحق بنا غدا .. غالب .. وصبيحة .. والمؤيد .. ويبقى المنصور..

جوهر : بأى قوة يملك ابن أبى عامر أن يصنع كل ذلك.

المصحفى : بحب صبيحة وسكوتها عليه ياجوهر.

جوهر : مسكينة هذه المرأة .. عاونته لأنها أحبته .. وحسبته يهواها ويقف إلى جوارها .. ولم تدر أن ذلك الذى تفتح له قلبها سيصبح ذات يوم سجانها ..

المصحفى : حبيسة القصر اليوم .. ستصبح غدا حبيسة السجن.

جوهر : قد ينقذها زحف الفرنجه .. وهزيمة المنصور ..

«ترتفع أصوات ضجة فى الخارج ... ينصت الاثنان بينما الضجة تقترب وتزداد وضوحا من الخارج ..»

الاصوات : النصر للمنصور .. جاء البشير .. انهزم الفرنجة وانتصر ابن أبى عامر .. النصر للمنصور .. النصر للمنصور ..

«تتباعد الأصوات ...»

جوهر (بحقد) : سمعت يامصحفى .. سمعت ... اللعين لايريد أن ينهزم .. إيه .. الا تتكلم .. ياحاجب الدولة .. الا تسمع ؟

المصحفى (بإعياء) : صبرت على الأيام لما تولت

والزمت نفسى صبرها فاستمرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت على الأيام نفسى عزيزة
فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يانفس موتى كريمة
فقد كانت الدنيا لنا .. ثم ولت

المشهد الثانى

«قاعة مكتب المنصور بقصر الزهراء. صبيحة والمنصور يواجهان بعضهما البعض، بينهما هو يسير ذهابا وجيئة فى ضيق ثم يعود للجلوس على مكتبه» .

صبيحة : مابالك يامنصور .. بعدت عن القصر وهجرت ناسه.

المنصور : والله ياسيدتى .. تشغلنى شئون الدولة.. استقرارها ورخاؤها وانتصارها .. لا أعرف لنفسى حياة خاصة .. بل وهبت حياتى وجهودى لهدف واحد رضيت به ... وحدة العرب وانتصار الإسلام.

صبيحة : وتشغلك حتى عنا يامنصور ؟

المنصور : تشغلنى حتى عن أهل بيتى.

صبيحة : لم تكن تشغلك من قبل عن صبيحة .. أم نسيت العهد.

المنصور : مازلت عند عهدى .. كل ما أسبذل هو من اجل صبيحة .. ودعما لحكم ولدها ..

صبيحة : وعهد الإخلاص والوفاء .. والقلب يامنصور.

«ينهض المنصور فى استغراب»

المنصور : إخلاص ووفاء أكثر من بذل جهدى وعمرى لأحمل على كتفى أعباء الخلافة كلها ؟ بكل أثقالها ومؤامرات أعدئها ؟

صبيحة (بسخرية) : أى أعباء تدعى يامنصور ؟ أما عرفت ما أعنيه ؟

المنصور : مولاتى يشق عليها ألا ترى المنصور فى قصرها كما تعودت من قبل ..

وتأبى أن تدرك أن أعباء الحكم لاتترك لى فرصة للزيارة أو المسامرة ..

صبيحة (بغيظ مكبوت) : لعلها تدرك أكثر .. أن الرجال إذا بلغوا قمة السلطة .. ملوا من كان سببا فى بلوغهم النفوذ والسلطان ..

المنصور (بتأنيب شديد) : تتيهين على المنصور، ولولاه مابقى ملكك .. وما استقرت الخلافة فى بيت ولدك. ولقضت المؤامرات والدسائس على حكم المسلمين والعرب فى الأندلس ..

صبيحة : تذكر أننى من جعلك حيث أنت.

المنصور (بسخرية مرة) : ما كنت لأنكر الفضل عن أهله ياسيدتى .. وماتنكرين أنى توليت الأندلس مفككة العرى موبوءة بالدسائس.. فجعلت منها دولة موحدة ذات جيش لايدين بالولاء إلا للخليفة .. انظرى حولك ياسيدتى .. ترى قرطبة ومافيها من عز ورخاء ..لم يكن ليتم لولا المنصور.

صبيحة : وكنت تنال الجزاء أضعافا يامنصور .. جعلتك حاجب الدولة وذا الوزارتين، وصاحب الكلمة العليا فى الخلافة .. والآن .. تتحدى من صنعتك ..

المنصور (يثور) : والله لولا الوفاء لامرأة الحكم ما تركتك تقولينها .. ولكن أظن الحديث يجب أن ينتهى عند هذا الحد .. بإذنك ياسيدتى.

(يستدير المنصور لينصرف .. صبيحة تحاول أن تسيطر على انفعالها وكأنها تستعطفه من جديد ...)

صبيحة : انتظر يامنصور .. لاتنس أننى وإن كنت ملكة فأنا امرأة .. وما هكذا تحتمل امرأة إهمال من تحب .. يامنصور ..

المنصور (بلين) : لا بأس عليك ياسيدتى .. المنصور طوع أمرك ورهن إشارتك.

صبيحة : أطمع ان تعود إلى سابق عهدك .. تتردد على قصر الخلافة .. وتولى أهله الود .. والوصال.

المنصور : ان تركت لى شئون الدولة فراغا .. بإذنك ياسيدتى

(صبيحة تستدير نحو الباب وتهمس كالمحدثة نفسها ..)

صبيحة : يا لعين .. والله لن أنساها لك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(المنصور وهو يهز رأسه استخفافا ..)

المنصور : تتوعدنى الأفعى .. لا والله لن أسمح أبدا أن تعود هذه الدولة لتقع فى براثن الدس والتآمر ... وستعلمين أيتها الملكة .. لمن النصر.

(يستدير فيفاجأ بأسماء تقف عند الباب من الجانب الآخر غير الذى خرجت منه صبيحة..)

أسماء ؟؟

(تقترب منه وتقبل عليه فتحضنه)

أسماء : أغفر لى ياسيدى سوء ظنى .. كنت حقا حمقاء.

المنصور : لست أفهم يا أسماء .. ماذا جاء بك.

اسماء : وساوس الزوجة الغيور .. حين يستبد بها الشك ..

المنصور : شئ غير هذا أتى بك .. خبرينى.

أسماء : ساورتنى الشكوك فى خلوتك مع الملكة .. وماتصورت أن ستصفعنى الحقيقة لتظهرنى حمقاء.

المنصور (متضاحكا) : أردت مفاجأتى والملكة معى يا أسماء ؟

أسماء : عفوا يامنصور .. الغيرة تأكل قلب النساء.. ولو كن نساء الملك المنصور.

المنصور : هونى عليك أيتها الغيور .. ما عاد ابن أبى عامر وقد جاوز الخمسين زير نساء .. فمهام الدولة ومجد الوطن اغلى عنده من كل شئ .. حتى ولو كان خليفة الأندلس .. أو ملكة قرطبة ..

المشهد الثالث

«المنظر فى قاعة العرش .. الخليفة هشام يجلس على العرش وهو ينظر إلى أمه صبيحة باستغراب».

صبيحة : الا تريد أن تفهم ؟ الا تفتح عينيك ياهشام ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هشام : اليوم تريدين ان أفتح عينى ؟ وأين كنت يوم أقفلهما الملك المنصور ؟

صبيحة : لن يهزم الملك المنصور سوى قوة الخليفة.

هشام (بسخرية) : وترينني قويا يا أماه ؟

صبيحة : أنت الاقوى .. أنت الخليفة.

هشام : ومن يؤيدنى يا أم المؤيد ؟

صبيحة : إرادة الله .. لتقواك وصلاتك .. ورضاء شعبك عليك.

هشام : شعبى ؟ أين هو ؟ ألم تحبسونى عنه وتحرمونى منه ؟

صبيحة (بحسرة) : أردت الخير لك .. فسرقه المنصور.

هشام : فما ترين يا أم هشام ؟

صبيحة : اخرج إلى الشعب بالرغم منه ياهشام .. يؤيدك وينصرك .. وسأعرف كيف افتح عيون الشعب على حقيقة المنصور ..

المشهد الرابع

«ركن فى قصر صبيحة .. ميسور وسمية يتهامسان».

ميسور : كل هذا يصنعه المنصور ؟

سمية : يتآمر على حياة الخليفة .. ويزيد الملكة ذلا على ذل .. حتى لقد أرسل من يحمل ما بالخزينة من قصر الزهراء إلى قصره بالزاهرة..

ميسور : لعله يتهم سيدة القصر بسرقة بيت المال.

سميه : والله ما أدرى .. كيف تقدر الملكة على مواجهة المنصور.

المشهد الخامس

«فى قاعة العرش .. صبيحة وفى مواجهتها رجلان من رجال المنصور يحملان خزينة بيت المال».

صبيحة : ما هذه الجرأة .. من أمركم بنقل خزينة بيت المال ..؟

رجل ١ : أمر الملك المنصور.

صبيحة : وتقدمون على هذا الأمر دون إذن الخليفة ؟

رجل ١ : الخليفة ؟ لم نأخذ إذنه أبدا.

صبيحة (آمره) : لاتمسوا الخزينة .. دعوها .. إنها فى قصر خليفة المسلمين .. ولاتخرج إلا بإذن خليفة المسلمين..

«يدخل المنصور فيتوقف الرجلان، وتقف صبيحة فى مواجهته، بينما يدخل فى نفس اللحظة خلف المنصور الخليفة هشام».

المنصور : إذن الخليفة ؟ الم تأذن لى بالتصرف كما أريد يا أمير المؤمنين ..؟

هشام : أجل .. نعم .. قلت لك.

صبيحة (بمفاجأة) : أنت أذنت له .. يامولانا المؤيد يا ابن الحكم ؟

هشام (بخوف) : آه .. لا أعرف .. لا أعرف.

المنصور : قد أذن لنا يا أم هشام.

صبيحة (باستنكار) : اظنك تتحدث إلى أم أمير المؤمنين.

المنصور : بإذنك يامولاتى .. دعينا ننفذ أمر الخليفة.

صبيحة (بسخرية) : اذا اذن لك.

المنصور : قد اذن لى.

صبيحة : لم يقل امير المؤمنين.

المنصور (بنظرة حادة لهشام) : ماذا ياهشام ؟

هشام (برعب) : أذنت .. أذنت أيها الملك المنصور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سمية (بحسرة شديدة فى ركن القاعة) : كل شئ فى يد المنصور .. انتهت صبيحة .. وانتهى المؤيد .. لاحول ولا قوة إلا بك.

المشهد السادس

(فى قصر المنصور الذى يظهر مستلقيا فى إجهاد على فراشه وحوله بعض الرجال وإلى جواره أسماء).

أسماء (بانزعاج) : اين الطبيب .. لم لم يحضر حتى الان ؟

المنصور (مجهدا) : يشتد الوخز فى صدرى ويضيق نفسى .. يبدو أنها النهاية يا أسماء .. فإن كانت المنية .. فتلك هى المنية التى تمنيت.

أسماء : فداك عمرى يامنصور.

المنصور : اذكرونى يا إخوان .. اذكروا دائما أننى وهبت حياتى لهذه الأمة .. أشعت فيها العزة والكرامة .. وحدت صفوفها .. وقهرت أعداءها.

أسماء : بأبى أنت وامى يامنصور.

المنصور : أسماء اغفرى لى .. واسمعينى ... أما أرسلت لصبيحة بعد ؟

(صبيحة تدخل من الباب .. وعند اقترابها يتراجع الآخرون وينسحبون)

صبيحة : رحمتك يارب العالمين .. اعف عنه .. فقد والله عفوت ..

(وتنحنى صبيحة على المنصور بينما تتوقف أسماء مترددة ثم تغادر المكان).

المنصور : صبح .. اقتربى ياصبح .. اقتربى ..لا أرى وجهك.

صبيحة : أنت بخير يا منصور .. أنت بخير.

المنصور : اغفرى لى ياصبح .. لم أكن إلا بشرا..

صبيحة : كنت المنصور .. وستظل المنصور.

المنصور : يخنقنى الندم .. والموت ياصبح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبيحة : صبح فداؤك يامنصور .. أنت بخير.

المنصور (بضيق شديد) : كل شئ صنعته من أجل الخير ..خير الأندلس .. وطننا الكبير .. فليرحمنى الله.

يستسلم المنصور للموت.

صبيحة : مات .. مات .. ويل للأندلس من بعدك يا منصور.

(موسيقى حزينة فى الخلفية، ويرتفع صوت غناء موشح أندلسى من بعيد)

من مبلغ العاذلينا بانتزاحهم
حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا
إن الزمان الذى قد كان يضحكنا
أنسا بقربهم قد عاد يبكينا



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر
أسيرة البرج

شخصيات التمثيلية

- شجرة الدر : جارية الصالح نجم الدين ثم زوجته.
- صفية : وصيفة شجرة الدر وجاريتها.
- جيهان : محظية الأمير .. ثم زوجة أيبك (أم على).
- سلافة : جارية من حريم الأمير وصديقة جيهان.
- عز الدين أيبك : أحد زعماء المماليك ثم السلطان أيبك.
- نجم الدين أيبك : ابن الملك الكامل ثم سلطان مصر.
- ركن الدين بيبرس : أحد زعماء المماليك.
- فارس الدين أقطاى : أحد زعماء المماليك ومنافس أيبك.
- الامير فخر الدين : ابن شيخ الشيوخ وقائد جيش مصر.
- ابو زهره : شيخ منجم.
- البهاء زهير : شاعر ومرافق للأمير.
- صواب الطواشى : حارس نجم الدين وحاجبه.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــل الأول
المشهد الأول

(خميلة فى حديقة حصن كيفا بالشام .. شجرة الدر تغنى للأمير نجم الدين أيوب الذى يظهر الإعجاب بالغناء، ثم يدعوها للجلوس بجواره)

نجم الدين : مازلت تلغزين يا فتاة.

شجرة الدر : وهل تجرؤ جارية أن تلغز على الأمير نجم الدين.

نجم الدين : فما بالك تخفين أسباب هربك من دار بدر الدين لؤلؤ .. لتهيمى على وجهك .. حتى يعثر عليك رجالى ؟

شجرة الدر : (بضيق) دار بدر الدين ليست بدار أمان ياسيدى. لارعاية فيها لحرمة .. ولا كرامة لضيف.

نجم الدين : (مقطبا) أما رعى صاحب الموصل حرمة ضيافتك ؟

شجرة الدر : امتهننى .. وامتهنتنى بناته. ووالله انى لأعرق حسبا من بدر الدين وبنات بدر الدين.

نجم الدين : (بلطف) من يجهل البحر لايدرك لؤلؤه.

شجرة الدر : لم يكن بدر الدين يجهل صلتى بملكة تبريز سيدة العجم وزوج السلطان جلال الدين حوارزم شاه.

نجم الدين : تعنين فاطمة بنت طغرل السلجوقى.

شجرة الدر : رحمها الله من سيدة نضال وكفاح.

نجم الدين : ماكان أقدرها. لولا المغول ماتبدد لها ملك .. ولاسقطت راية.

شجرة الدر : ولولا هم لم تقذف المقادير بفتاتها .. ليمتهنها بدر الدين وبنات بدر الدين.

(ينهض الأمير وشجرة الدر ويسيران .. بينما تتبعهما عيون أيبك وزهير وهما يطلان من نافذة أعلى الحديقة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : لا أنكر على مولانا تقريبه لهذه الفتاة يازهير .. ولكن

زهير : أكمل .. لاتأكل الكلمات.

أيبك : ان تصبح الفتاة وحدها صاحبة الحظوة عند الامير .. ليس لغيرها رأى ولا مشورة .. فذلك مما يثير حقد حظاياه.

زهير : فأى المحظيات تقصد ؟

أيبك : جيهان .. هذه الدعية المتعالية.

زهير : لاتخف .. فالفتاة من الذكاء بحيث تعرف كيف تخلص من غريمتها .. ليخلص لها وجه الأمير.

أيبك : ما أبعد الفرق بين تعالى هذه المتعجرفة، وبساطة نفس تلك الدرة.

زهير : صدقت يا أيبك .. هى درة لم يلتقط مثلها غواص

أيبك : التقطها الأمير نجم الدين.

زهير : قالها له طواشيه صواب .. فما أعجبه قوله.

أيبك : لعله استكثر عليها وصف الدرة ؟

زهير : بل استقله .. وقال له .. بل هى ياصواب .. شجرة الدر.

المشهد الثانى

(غرفة شجرة الدر .. الاميرة جالسة وبين يديها جاريتها صفية تمشط شعرها وتجملها).

شجرة الدر : ما أروع ماتجملين وجهى ياصفية.

صفية : سبحان الذى خلق فسوى

شجرة الدر : حفظتها من الأمير ؟

صفية : ما أسعد الأمير بما أنعم الله عليك من سحر عينيك وبهاء وجهك.

شجرة الدر : اتتغزلين بى ياصفية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفية : يعلم الله كم أحسد مولاى، وأنت سيدة نسائه .. لاينافسك على قلبه امرأة.

شجرة الدر : (بضيق) تنافسنى زوجة .. أم ذلك الطفل الأبله طوران شاه.

صفية : هذه ليست فى الحسبان .. ظننتك تعنين محظيته الأولى .. جيهان.

شجرة الدر : بنت الاشكرى ؟ بئس اللعينة الدعية .. كم تتعمد إثارتى.

صفية : هى أعجزُ من أن تطاولك أو تدانيك جمالا وحسن سيرة.

شجرة الدر : تتيه بنسبها الملوكى، وماتزعم من عراقه أصلها.

صفية : أنا أدرى بها .. فهى من سقط قصر صاحب القسطنطينية.

شجرة الدر : ليس هذا رأى الأمير.

صفية : خدعته. إذ هى أول من نزل الدار واستقر بها المقام.

شجرة الدر : يميل إليها قلبه .. ولها هواه.

صفية : (بتدلل) هوى الامير خالص لقلب واحد دون كل القلوب، وإنه لحديث كل أهل الحصن يامولاتى.

«يظهر الامير نجم الدين عند الباب»

نجم الدين : أحديث لايجب أن أشارك فيه .. أم يؤذن لى ؟

شجرة الدر : (تفاجأ وترحب به) مولاى .. ألف مرحى.

نجم الدين : قطعت عليك سماع حديث الصحاب يادرة العين .. وإنى لأعرفه.

صفية : واخجلى .. بإذنك يامولاى «تخرج».

نجم الدين : «نجم يأخذ بيد شجرة الدر ويسيران إلى جناحه» الا تحبين ان تسمعى حديث المنجم .. وهو يوزع مناصب السلطنة على كل من فى الحصن ؟

شجرة الدر : (بحيرة) المنجم ؟ أه عرفت حديثه يامولاى ؟

نجم الدين : نصب أيبك وبيبرس وقلاوون على عرش السلطنة.

شجرة الدر : كل المماليك جعلهم سلاطين .. إلا ولى العهد.

نجم الدين : (بلطف) لن يحرمنى من السلطنة لو جلست إليه .. ومن يدرى .. لعله لا يحرمك أنت الأخرى من تولى العرش.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : إلا هذا أنا امرأة يامولاى .. وتلك هى التى لايمكن ان يقولها.

«يتهيأن للجلوس بينما المنجم وأيبك فى الركن المواجه لهما ينهضان وينحنيان أمامهما».

نجم الدين : هلا رايت للأميرة طالعها يا أبا زهرة ؟

«يقترب المنجم ويطالع كفها ويتحسسه»

المنجم : يزهو بها العرش .. والعلم عند الله.

أيبك : (ناظرا إلى المنجم بيأس) افلست ياشيخ .. وأنا الذى كدت أصدق نبوءتك.

المنجم : أنا لا أرجم بالغيب .. ولا أكذب.

شجرة الدر : أنساء يملكن فى دولة الإسلام ؟

المنجم : أتحدث بالعلم والتفسير وتجارب السنين.

شجرة الدر : تريد أن أعقل أن امرأة تجلس على عرش صلاح الدين ؟

أيبك : بدعة تكون حديث الناس فى كل مكان وزمان.

المنجم : هكذا تقول خطوط كفك ياسيدتى.

شجرة الدر : أنت تسخو بالأمانى والآمال.

نجم الدين : يدرك أنك ستكونين معى على العرش حين أتولى السلطان.

شجرة الدر : تلك هى الحكاية إذن.

المنجم : بل تتولين الملك باسمك وحدك .. ويزين التاج مفرقك وشعرك .. وتردين الغزاة عن ساحة أرضك.

نجم الدين : (ساخرا) لم تبق لى شيئا .. وضعت التاج على رءوس الجميع .. فلم تنصف أميرك.

«يمد المنجم يده ناحية الأمير الذى يعطيه كفه»

المنجم : فى ركابك النصر والعزة والسلطان .. وبين يديك الظفر على كل باغ بعدوان.

«خطوات سريعة من الخارج ويدخل الحاجب معلنا وصول الشيخ فخر الدين».

فخر الدين : مولاى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجم الدين : ماوراءك يا أخى شيخ الشيوخ ؟

فخر الدين : (مترددا) جاء بريد من القاهرة.

نجم الدين : فما الأنباء ؟

فخر الدين : الأمير سيف الدين.

نجم الدين : أخى ؟ ماله.

فخر الدين : (بانفعال) أبوك الملك الكامل .. اعلن تنصيب الصبى بدلا منك وليا لعهده على عرش مصر.

المشهد الثالث

« القاعة فى حصن كيفا. أيبك واقف يطل فى سرحة من النافذة. يدخل بيبرس واقطاى وفخر الدين فيتابعون بأبصارهم قبل أن يجلسوا. فخر الدين يهز كتفيه فى سخرية.

فخر الدين : والله ما أدرى كيف فعلها الملك الكامل .. وقد كان نجم الدين ولده الاثير.

أيبك : (منتبها) وراء كل مصيبه .. امرأة.

بيبرس : اى النساء وراء عزل الأمير من ولايه العهد ؟

أيبك : سوداء بنت نصر .. أحظى نساء الكامل وأثرهن لديه.

بيبرس : فما خبرها ؟ أنت تدريه لقربك من الأمير.

أيبك : اقنعت الملك الشيخ بتقسيم المملكة.

الجميع : (بدهشة) تقسم مملكة صلاح الدين ؟

أيبك : تضمن لابنها الصبى عرش المغرب فى مصر. ويبقى ابن زوجها نجم الدين على المشرق فى دمشق .. بعيدا عن مقر السلطنة بالقاهرة.

فخر الدين : (ينتفض فى انفعال) ومصر .. ليس من يحسب حسابها؟ أيجلس

على عرشها صبى لم يبلغ الحلم؟ .. بينما الأعداء يتربصون بها. الصليبيون يستعدون للوثوب عليها .. والمغول يزحفون إلى بغداد وأمل غدهم أن يبلغوا القاهرة... ويقهروا شعب مصر ؟.

أقطاى : كل ذلك من اجل صبى .. يريد الكامل أن يرضى أمه.

فخر الدين : «بغضب» أبدا .. لن تضيع دولة بنى أيوب . ولن يبلغ الصبى ما أريد له .. أبدا لن يكون له عرش مصر .. ولن يدين له شعب مصر.

فخر الدين : (هامسا لأيبك) فكيف نصره .. وليس حوله غير هؤلاء العابثين لايقض مضجعهم ماهو فيه من هم وفكر. ولا يهمهم كل ماكان وماسيكون.

أيبك : والله قد نصحتهم فسخروا بى .. لم يقيموا وزنا لقولى .. فأنا عندهم أمعه.. لا رأى ولا كلمة لى.

فخر الدين : جهلوك يا أيبك.

أيبك : عما قريب يعرفون كيف أكون.

فخر الدين : فلتكن ناصح الأمير .. فانت أقربهم إليه.

أيبك : فعلتها ورب الكعبة .. وإنه ليستكمل اليوم أهبته للمقاومة، ويستكثر من الجند والعتاد .. إذ أشعرته انه لن يستطيع بهؤلاء يوم يحين الحين أن يغلب أخاه على عرش الأيوبيين .. أو يدفع المعتدين عن ساحة المسلمين.

فخر الدين : «يعانقه» الآن اطمأن قلبى .. فحوله من ينصره ويناصره.

أيبك : معنا من يشد أزره أيضا ويشحذ همته.

فخر الدين : زدتنى اطمئنانا .. فمن يكون ؟

أيبك : زوجه شجرة الدر أم خليل .. تدفعه ليكون له دون سواه عرش الأيوبيه .. ومناجزه أعداء الإسلام.

فخر الدين : الآن أمضى إلى القاهرة. واعرف كما تعرف ثقل ما على كتفينا من تبعات.

أيبك : «بتصميم» نحن اردناها يا فخر الدين. ولابد أن يتم لنا مانريد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

«غرفة شجرة الدر .. نجم الدين يداعب طفله، وأمه شجرة الدر تتأملهما فى ابتهاج .. نجم الدين يتأمل كف الصغير ويهز رأسه .. تدخل صفيه مستأذنة.»

صفية : بالباب أيبك والمنجم يلبيان أمر الأمير.

نجم الدين : أدخليهما .. بعد إذنك يادرة العين.

«تنسحب صفية ويدخل أيبك والمنجم»

نجم الدين : ليت كفك الصغير قادر على كشف ادلة المستقبل يا خليل.

المنجم : العلم لايفرق بين صغير وكبير. فأعطنى كفه الرقيق يامولاى.

نجم الدين : عرفت أيام عمره . ماضيه وحاضره. فليت لى العلم بأيام غده.

«أبو زهره يطيل التأمل فى كف الصغير»

شجرة الدر : أطلت التأمل وسرحت بالفكر .. فما تقول إشارات كف الصغير ؟

المنجم : العرش قاب قوسين منه ...

شجرة الدر : فليحرس الرحمن ولدى الخليل.

المنجم : باسمه يكون مجد السلطان .. ويرفرف على مصر علم الأمان ويكون الدعاء به على كل لسان. بإذنك يامولاى «يخرج».

أيبك : سيبلغ حيث أردت بتوفيق الله .. ويكتب اسمه النصر رائعا امجاد ابيه نجم الدين .. ومفاخر جده صلاح الدين.

شجرة الدر : «لأيبك» ويفيض بره على كل من رعى حقه وحق أبيه .. وبشر بما يبلغ من المجد. قبل ان يدرج فى المهد.

نجم الدين : أوفتك أم خليل حقك ياجاشنكير ..

أيبك : بارك الله فى خليل .. وأم خليل

نجم الدين : كما تحرص على طعامى .. فاحرص على طعامهما من كل باغ نكير.

أيبك : أطال الله عمر الأمير وجعلنى فداه. وشرفنى بأن أكون فى خدمة زوجة وأم ولده.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجم الدين : «بسعادة» وصاحبه تدبيره وشريكته فى الجهاد.

شجرة الدر : كل أملنا فى الجاشنكير .. وفى حرصه وخبرته.

أيبك : حقق الله آمال يومك وغدك .. انت اليوم زوجة الأمير. وغدا أم السلطان خليل ابن السلطان نجم الدين .. وخليفته على عرش الناصر صلاح الدين.

«يطل نجم الدين إلى المائدة فى ركن الغرفة وعليها الطعام.»

نجم الدين : أنت اليوم مدعو معنا ياعز الدين ضيفا معى على مائدة أم خليل ..

«يتقدمون نحو المائدة»

نجم الدين : باسم الله.

أيبك : مادمت ضيفكما .. فلأسبقكما كما تعودت يا أمير

«يتناول أيبك لقمة ثم يبدو عليه أنه لا يستسيغ الطعام .. فجأة ينهض فى ذعر ويصرخ محذرا وهو يلقى الصحون»

أيبك : الطعام مسموم .. لاتقرباه

«يتلوى أيبك ممسكا بطنه ويستند إلى الجدار .. فيسرع إليه نجم الدين .. ويبدو الذعر على شجرة الدر .. بعد أن يهدأ أيبك تقترب منه صفية هامسة»

صفية : والله إنى لأتصور من وضع السم فى الطعام

أيبك : برأسى مثل ما برأسك .. إنها جيهان بنت الأشكرى.

صفية : اللعينة .. حقدت عليها أن تكون أم الولد، وزوجة الأمير.

أيبك : إلى درجة أن تدس لها السم ؟

صفية : تريد أن يخلص لها هوى الأمير.

أيبك : حمدا لله أن جعلنى فداء مولاى الأمير ومولاتى أم خليل.

نجم الدين : لم تكن نجاتك غير نجاة لنا من شر كان يتربص بنا.

شجرة الدر : والله ماندرى كيف تكون مكافأة أيبك يامولاى ؟

نجم الدين : ما من خلعة ولا مال نجزية على مايديننا به.

أيبك : مكافأتى أن يظللنى الله تحت راية السلطان نجم الدين وزوجته أم خليل .. وهما على عرش مصر والشام ومايليهما من بلاد الإسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : لن تحميك راية السلطان بغير قلب يحوطك بالحب والحنان.

أيبك : يسمع الله من مولاتى.

شجرة الدر : فلتهب له يامولاى هبتك .. وتسبغ عليه نعمتك.

نجم الدين : قد وهبته من تختارين.

شجرة الدر : ليس أجدر بالجاشنكير غير جارية ذات حظوة .. من سبايا الأمير .. ذات نسب وحسب وجمال ودلال.

نجم الدين : لا أبخل عليه .. فما بخل علينا حتى بالحياة.

شجرة الدر : فلتعقد له على من هى أجدر به من بنات الملوك والسلاطين.

نجم الدين : فمن تكون ؟

شجرة الدر : فلتكن جيهان بنت الأشكرى زوجة أيبك الجاشنكير.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى
المشهد الأول

(ركن القاعة فى حصن كيفا بالشام .. شجرة الدر تجلس وهى تتصفح أوراقا .. بعد لحظات يدخل الشيخ فخر الدين فيحييها) ..

شجرة الدر : عدت يافخر الدين .. ؟ فلعلك تحمل من أنباء مصر مايزيل أوجاع الأمير ..

فخر الدين : كل الخير من مصر .. وعلى مصر .. يا أم خليل.

شجرة الدر : إذن .. استجاب الملك الصالح لنصح أخيه فى الرضاع ؟ ..

فخر الدين : قلبى والله معه .. كان مطمئنا إلى سلامة تدبيره .. حتى استخلف ولده سيف الدين على عرش القاهرة .. وجعل نجم الدين على عرش دمشق.

شجرة الدر : (باستنكار) وأين أصالة رأيه وحنكته من تقسيم مملكة الإسلام ؟

فخر الدين : (بأسف) خيل إليه أنه سيخلد إلى الراحة والسلام .. وقد ضمن الملك لولديه.

شجرة الدر : لم يلق بالا إلى حق أبنه الأكبر فى خلافته .؟

فخر الدين : فتحت على ذلك عينيه .. ونبهته إلى احتمال معارضة إخوته وأبناء عمه أمراء الشام.

شجرة الدر : فما لهؤلاء وذلك ؟

فخر الدين : كلهم يرى نفسه أحق بعرش مصر من الصبى.

شجرة الدر : فلعله اقتنع.

فخر الدين : شئ واحد أقنعه ..

شجرة الدر : عدم صلاحية سيف الدين للعرش ..

فخر الدين : بل تمرد أمراء الشام وخروجهم عليه ..

شجرة الدر : أراد السلام .. فوجد الحرب ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فخر الدين : أحس بخطئه .. وحملنى سرا رسالة إلى نجم الدين ..

شجرة الدر : فما فحواها ..؟

فخر الدين : وعد أن يصحح ما كان ..

شجرة الدر : فأسرع إلى الأمير .. فتلك رسالة فيها الشفاء.

المشهد الثانى

«مكتب الأمير نجم الدين .. الأمير يقلب أوراقا أمامه، ويبدو عليه هم وضيق يجلس أمامه الشاعر البهاء زهير والشيخ فخر الدين» ..

البهاء زهير : أيها الحامل هما

ان هذا لايدوم

مثل ماتفنى المسرات

كذا تفنى الهموم

إن قسا الدهر

فإن الله بالناس رحيم

أو ترى الخطب عظيما

فلك الأجر العظيم

نجم الدين : (بأسف) نكأت الجرح يازهير ..

فخر الدين : فما للهموم .. وقد كانت سحابة صيف ؟

نجم الدين : بعد الصيف يأتى الخريف .. لا أحد يدرى أعنيف أم لطيف ..

صواب : (يدخل) بالباب رسول من القاهرة يامولاى.

نجم الدين : إيذن له.

«يدخل الرسول فينحنى أمام الأمير»

الرسول : أطال الله عمر مولاى..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجم الدين : ما وراءك يا رسول ؟

الرسول : مات السلطان الكامل.

الجميع : (يفاجأون) إنا لله وإنا إليه راجعون ..

الرسول : ولمولاى الأمير رسالة من أخيه السلطان العادل سيف الدين ..

فخر الدين : (بضيق) السلطان العادل ؟.

نجم الدين : هات الرسالة ..

الرسول : يقرؤك السلطان السلام .. ويعلن تثبيتك من قبله على عرش المشرق فى دمشق ..

نجم الدين : (كظيما) بلغت رسالتك .. فامض بسلام ..

(ينحنى الرسول ويخرج بظهره .. ويسيطر الوجوم على الجميع) .

نجم الدين : سمعت يافخر الدين .. العادل يثبتنى على عرش المشرق، ويستأثر لنفسه سلطنة بنى أيوب فى القاهرة ..

فخر الدين : (بضيق) سبق السيف العزل. فأذن لى يا أمير.

نجم الدين : إلى أين؟

فخر الدين : (بتصميم) إلى القاهرة .. فمكانى اليوم هناك .. من أجلك .. ومن أجل مصر.

المشهد الثالث

(الخميلة فى الحديقة حيث تجلس شجرة الدر، وأمامها عز الدين أيبك واقفا)

شجرة الدر : شاقتك أنباء مصر ياعز الدين ؟.

أيبك : يعز على قصورها .. وقد استأثر عليها العادل .. وهو من بلوت ترفا وسفها وسوء مسيرة.

شجرة الدر : لهذا تأتى الرسل من القاهرة .. تستحث نجم الدين للمسير لاستخلاصها وإنقاذ شعبها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : والله إنى لأستبطئ مسيره ولا أدرى سر انتظاره.

شجرة الدر : فى رأس الأمير دوامة ياعز الدين ..

أيبك : مات أبوه .. فترك العادل يثبت أقدامه ويضع يده على خزائن أموال مصر.. يبددها عن يمين وشمال ..

أيبك : ولم ننتظر ؟.. لم لانسعى إليه ونختصر الزمن ؟

شجرة الدر : لهذا استدعيتك ..

أيبك : رهن إشارتك يا أم خليل ..

شجرة الدر : ليس سواك من يؤدى المهمة .. ويوثق بصدق نبئه.

أيبك : أفعلها يا أم خليل ..

شجرة الدر : تسافر إلى مصر ؟

أيبك : أعرف كيف اتخفى .. والتقى بفخر الدين .. وأعود بالخبر اليقين.

المشهد الرابع

«مكتب الامير نجم الدين .. الأمير وشجرة الدر أمام خريطة لمصر والشام يتشاوران»

شجرة الدر : لم يعد التأخير فى صالحك يامولاى.

نجم الدين : هو ماتقولين .. غدا نبدأ التحرك حتى لو لم يأتنا خبر فخر الدين ..

(يدخل أيبك مستأذنا وعليه علامات الإجهاد)

شجرة الدر : عدت مهموما ياعز الدين.

أيبك : لم تسر الأمور على الهوى.

شجرة الدر : فكيف حال فخر الدين ؟

أيبك : الزمة المستبد الفاسق داره .. لم يرع حرمته وأخوته ..

نجم الدين : يفعل ذلك مع أعظم أمراء الدولة حرمة.. وأرفعهم عند الشعب منزلة؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : ومتى رعى الصبى الحرمات ؟.

نجم الدين : فما خبر اللعين ؟.

أيبك : ساء سيرة وفسد سريرة .. وتفرغ لشهواته ومباذله ..

نجم الدين : وأموال بيت المال ؟.

أيبك : أسرف في بذل المال .. حتى نفذت خزائن المال.

شجرة الدر : وأمراء بنى أيوب .. كيف سكتوا عليه ؟

أيبك : أقصاهم عن السلطة .. وأمعن في مطاردتهم وتمزيقهم.

نجم الدين : ورجالى وصحبى .. ومن أعتمد عليهم في استخلاص عرش أبى ؟

أيبك : كلهم بنى الغضبان .. صودرت أموالهم .. وضربت بيوتهم .. وسيق نساؤهم وأطفالهم كأنهم أسرب حرب.

شجرة الدر : أليس من ناصح ولا مشير ؟

أيبك : غلبهم أصحاب السوء على أمر السلطان .. فأعطاهم قياده .. وترك في أيديهم كل أمور الدولة .. يعيثون ويفسدون .. ويضيعون كل حقوق الشعب.

شجرة الدر : ويسكت الشعب على ضياع حقوقه ؟ أين انتفاضه شعب مصر ؟

أيبك : نار تحت الرماد .. تثور يوم تجد نافخ النفير.

نجم الدين : أما وقد ضاقت جماهير مصر بحكمه .. فقد سهلت مهمتنا ..

أيبك : ذلك هو الأمل الباقى .. رأيت بنفسى كيف ثقلت عليهم أيامه .. واتجهت قلوبهم نحو المشرق فى انتظار الصالح نجم الدين.

شجرة الدر : وإنه والله لمستجيب لهم .. قائم لإنقاذهم.

أيبك : يوم يبلغ السلطان الشرعى عاصمته .. ستكون يد شعب مصر معه .. ضد الغاصب المستبد، وكل من معه ..

نجم الدين : فلنبدأ طريقنا باسم الله .. ولننقذ شعب مصر .. من مغتصب عرش مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الخامس

«ساحة من الصحراء .. فى ركنها خيمة عسكرية .. بيبرس وأقطاى فى لباس الحرب، وحولهما عدد من جنود المماليك .. الجميع أمام الخيمة ينظفون سلاحهم من أثر المعركة .. بيبرس وأقطاى يدخلان الخيمة ويخلعان خوذتيهما ويجلسان فى جهد».

بيبرس : أقتال فى كل خطوة يا أقطاى ؟

أقطاى : فما تتوقع من أمراء بنى أيوب .. وقد مزقوا بينهم أرض الإسلام ليكون لكل منهم نصيب.

بيبرس : وكيف سيواجهون الصليبيين ؟ أبهذه الأيدى الممزقة ؟ أم بتلك الحراب الموجهة إلى صدور بعضهم البعض ؟

أقطاى : تستغرب ؟ أليس هذا هو مانصنعه الآن ؟

بيبرس : نفعلها بحق .. فنجم الدين صاحب الولاية الشرعى على عرش بنى أيوب ..

أقطاى : هو منطق الجميع .. كلهم يرون أنفسهم أصحاب حق.

«تدخل شجرة الدر فجأة، وعلى وجهها غضب شديد»

شجرة الدر : تجلسون هنا .. والأمير أسير ؟

أقطاى وبيبرس : (بانزعاج) ماذا تقولين ؟

شجرة الدر : كمين نصبه بدر الدين لؤلؤ للأمير .. واقتاده أسيرا إلى قلعة سنجار.

بيبرس : وأين أيبك .. ومن معه من جنود ؟

شجرة الدر : سلوا هذا الرسول (تشير إلى الباب حيث يدخل جندى مثخن بالجراح).

الجندى : كنا قلة، وهم كثرة .. والقوة الرئيسية معكم على طريق غير الذى يسير فيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقطاى : كان تخطيط الأمير .. لنسير بمولاتنا من طريق غير مأهول.

شجرة الدر : كان يخشى على من صاحب الموصل .. ويدرى أنه لاينسى هربى من بين يديه.

بيبرس : (للجندى) فكيف فعلتم لتخليص الأسير ؟

الجندى : حاولنا الهجوم على الحصن .. ولكنه كان أمنع من أن نناله لقوة حراسه وأسواره .. وتبدد منا الرجال بين قتيل وجريح وأسير.

شجرة الدر : خشيتى على الأمير من صاحب الموصل. فقد أقسم من قبل ليحطم كبرياءه ويقتاده إلى بغداد حبيسا فى قفص .. مصفدا بالأغلال.

بيبرس : (بحزم) فلنمض على الفور لاقتحام حصن سنجار .. ولو ضاع نصف الجيش.

شجرة الدر : (معترضة) والله لانضيع قوات الأمير .. وهو أحوج إليها فيما هو أهم وأخطر.

أقطاى : (باستغراب) أهم من فك أسره يا أم خليل ؟

شجرة الدر : دعوا تدبير ذلك لى .. فو الله لايكون إلا مانريد.

المشهد السادس

«غرفة ذات قضبان فى قلعة سنجار. الأمير يروح ويجئ فى قلق .. عز الدين أيبك الأسير معه يتابعه فى حيرة»

نجم الدين : أخاف على شجرة الدر لو عرف اللعين مكانها.

أيبك : هى بين أيدى رجالك يامولاى .. لايسلمونها أبدا ..

نجم الدين : كيف أطمئن وأنا سجين هذا الحصن بين يدى عدوها وعدوى.

أيبك : والله ماتصل إليها يده . ولايبلغ منها أبدا.

نجم الدين : يفعلها .. مادام لاخلاص لنا من هذا الحبس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : لايقدر عليها .. فهى أم خليل وزوجة نجم الدين.

نجم الدين : يتمنى أن يحطم بها كبريائى.

أيبك : أو يثأر بها منك ؟

نجم الدين : كان عندى له ثأر واحد .. والآن له ثأران.

«يرتفع صوت ضجيج وصيحات .. وقتال. ينهض أيبك مسرعا إلى النافذة ويطل منها .. يصيح أيبك فجأة مستغربا. يتجه الأمير إلى النافذة وأصوات القتال مستمرة»

أيبك : مولاى .. انظر.

نجم الدين : ليس هؤلاء رجالنا.

أيبك : هم معنا على أى حال .. ليسوا علينا.

نجم الدين : غصت الساحة باجساد القتلى والجرحى.

أيبك : أرى بدر الدين لؤلؤ على رأس رجاله المهاجمين.

نجم الدين : إنهم يتساقطون بين يديه.

أيبك : انظر يامولاى .. سقطت أبواب الحصن .. واقتحمه الفرسان .. وهرب لؤلؤ مهزوما يطلب الصحراء.

«تظهر فجأة شجرة الدر بلباس الحرب .. يندفع إليها الأمير فتلقى بالسيف وتحتضنه .. تستدير إلى الباب حيث يقف قائد غريب فى لباس الحرب».

نجم الدين : مرحى بسيدة الابطال.

ذلك بطلها . .الامير حسام الدين خوارزم ... بعض أهلى ..

نجم الدين : مرحى بالأمير ..

شجرة الدر : بلغته رسالتى .. فلبى وأنجد .. وإنه معك على طريق النصر يوم تريد لجيش من الخوارزمية يحجب غباره وجه الشمس.

نجم الدين : سلمت يداك يادرة القلب .. ما أبرع مادبرت ونفذت وأنقذت.

شجرة الدر : (بخجل) بعض فضلك على جاريتك يا أميرى.

بيبرس : لولا أم خليل لضاع الجميع فى أسر بدر الدين لؤلؤ.

نجم الدين : الحمد لله..وهانحن قد بلغنا نابلس..وقربت نهاية المسيرة إلى مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث
المشهد الأول

(قاعة العرش بقلعة الجبل بالقاهرة .. الصالح نجم الدين وقد أصبح سلطانا وهو جالس على عرشه .. يقف أمامه ابن شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين، وهو يحرك كيسا خفيفا يتناوله من صاحب بيت المال).

فخر الدين : الف درهم يامولاى.

السلطان الصالح : أهذا هو كل مابقى فى خزانة الدولة من أموال ؟

فخر الدين : يوم مات الملك الكامل .. كان فى بيت المال ستة آلاف ألف دينار .. وعشرون ألف ألف درهم.

السلطان الصالح : ايذهب كل ذلك فى بضعة شهور ؟

فخر الدين : ذهب كله إلى بيت بطانة العادل .. من رفاق السوء وأصحاب الفساد.

السلطان الصالح : فهل دعوت إلينا كل من تعرف ممن ناله شئ من مال بيت المال؟

فخر الدين : (بسخرية) كلهم بالباب .. جاءوا يعلنون البيعة للسلطان الجديد.

السلطان الصالح : أدخلهم الآن.

(يتجه صاحب بيت المال ناحية الباب ليدخل عدد من الرجال يقدمون قدما ويؤخرون أخرى .. السلطان يتأملهم باستغراب).

السلطان الصالح : مرحى برجال مصر وأمرائها وقادتها .. وولاة الأمر فيها.

الجميع : (بتبجيل) أطال الله بقاء السلطان. وجعله ذخرا للبلاد .. وفاء على عهده بالخير والنعمة والنصر.

السلطان الصالح : (مؤنبا) بايعتم .. وأنتم من خلعتم سلطانكم يوم عدت .. وكان له فى أعناقكم حق الطاعة.

(يتبادلون النظرات باستغراب لجفائه وتأنيبه لهم .. يتقدم أحدهم وهو شيخ القضاة وهم يدفعونه ليمثلهم أمام السلطان.)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيخ القضاة : خلعناه .. وبايعنا الأحق والأرشد.

السلطان : أما كنتم رجاله وناصحيه ؟

شيخ القضاة : وجدناه سفيها. لايحسن تدبير الأمر .. ولا سياسه الملك.

السلطان : فهل علمتم وأنتم الفقهاء والقضاة وأصحاب الرأى أن تصرف السفيه ينفذ ؟

شيخ القضاة : كل تصرف للسفيه باطل .. وفتنه للناس.

السلطان : إذن تأبون على أنفسكم أن تكونوا فتنة وباطل الأباطيل.

الجميع : لهذا خلعناه .. ورددنا الأمر لصاحبه.

السلطان : (بحسم) فردوا على الدولة كا أخذتم من نتاج يده .. وسفيه تصرفه .. وأنتم القائلون أن السفيه لايملك أن يهب أو يشترى أو يبيع.

المشهد الثانى

«الشرفة فى قلعة الجبل بالقاهرة. شجرة الدر جالسة تتأمل ما أمامها وعز الدين أيبك يقف فى تبجيل واحترام».

أيبك : أخشى أن أقولها يامولاتى .. ولكنى لا أثق فى هذه الفئة من أمراء بنى أيوب واتباعهم.

شجرة الدر : أدرك ماتعنيه ياعز الدين.

أيبك : أذعنوا اليوم لامر السلطان، وأظهروا له الطاعة والولاء ..ومن قبل فعلوا الشئ نفسه مع العادل .. ثم انقضوا عليه وهم أصفياؤه وبطانته.

شجرة الدر : شيمة المنافقين .. أذلة لمن يملك المال والسلطان مدبرو ظهور لمن لايملك نفعا ولامضرة بعد زوال السلطان.

أيبك : لهذا أخشاهم على ملك الصالح نجم الدين.

شجرة الدر : أما تخاف منهم ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : ما أسهل أن يغدروا به يوم يفد وافد جديد .. فينقلبوا عليه كما فعلوا بأخيه.

شجرة الدر : برأسى مثل ما برأسك .. ويزيد عليه انقلاب أبناء عمومته فى الشام ورفضهم البيعة له.

أيبك : مايزال فيهم من يجهد ليستقل بما تحت يديه .. ومن يستنصر بالصليبيين ليكسر شوكته.

شجرة الدر : فأشر بالرأى ياعز الدين.

أيبك : (يتردد) أخشى أن يكون ميلك لأهل بيت السلطان .. وأنت زوجته.

شجرة الدر : أنا أكثر حرصا من السلطان على السلطان ... فغدا يكون العرش لولدى خليل، ولن أسمح لبنى أيوب وأتباعهم أن ينقضوا عليه، ويضيعوا الملك من بين يديه.

أيبك : فافعليها اذن .. أمراء بأمراء .. ورجال برجال.

شجرة الدر : ومماليك .. بمماليك ..

«يظهر السلطان الصالح عند الباب، وقد سمع المقطع الأخير ..»

السلطان الصالح : نعم الرأى يادرة العين قد رأيت بنفسى بلاء التركمانية من رجال خوارزم فى القتال .. ومن الغير .. ابنى قعلة فى جزيرة الروضة .. تتسع للآلاف من مماليك الترك .. أمراؤهم بيبرس وأقطاى .. وأيبك التركمانى.

المشهد الثالث

«ساحة تدريب جنود يتدربون على المصارعة، وخلفهم سيوف ودروع معلقة .. أقطاى وبيبرس وأيبك، ومعهم الامير الشاب قطز وهو أصغر سنا منهم .. يتابعون التدريب ويراقبهم قطز .. ينفضون ويتابعهم امراء المماليك بعيونهم فى تقدير.»

قطز : يكفى اليوم هذا يارجال.

بيبرس : والله أن تلاميذ الأمير قطز لخير من عرف السلاح .. وتحمل بصلابة الرجال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطز : هم ابناؤكم يا أمراء الصالحية .. قوتهم غرس أيديكم .. وبراعتهم بعض ماتمرسوه من شجاعتكم وتفانيكم.

أيبك : سيكونون خير عون لسيدتنا شجرة الدر .. واليد اليمنى لولدها خليل فى تثبيت دعائم ملكه وسلطانه.

أقطاى : مازلت تخشى أمراء بنى أيوب .. وتتصور أن يجرءوا على الوثوب عليه ؟

بيبرس : لن يجرءوا .. وقد عركوا بلاء المماليك الصالحية فى القتال ضد المنتفضين منهم على سلطان الصالح نجم الدين.

أيبك : لعل للأمير قطز رأيا أخر .. فهو قادم من الشام .. وقد خبرهم وعرف مدى أحقادهم وسوء نواياهم.

قطز : عرفتهم منقسمين على أنفسهم لايحرصون على تماسك بلاد الإسلام .. ولايهمون بمقاومة أعدائهم الصليبيين قدر اهتمامهم بتمزيق أوصال السلطنة .. وتحقيق الأطماع .. ونهش الأسلاب.

بيبرس : والله إنا للمتمردين والصليبيين معا .. بقوتنا وإخلاصنا.

أقطاى : سيعرفون كيف يكون الصالحية .. دعامة لملك السلطان الصالح .. من فدانا .. وأعزنا .. وأمرنا كما كان آباؤنا.

أيبك : هى نعمة كبرى لايفى بشكرها أن نبذل أرواحنا فدى له ولاختنا ومولاتنا أم خليل .. فهى صاحبة التدبير لنكون سندها وقوتها فى مواجهة الطامعين والحاقدين.

المشهد الرابع

«الشرفة المملوكية المطلة على النيل .. شجرة الدر والسلطان الصالح فى جلسة هادئة.»

شجرة الدر : ما أروع أن يتحقق الحلم. وتتجسد الأمنيات.

الصالح : كان بعض سعيى لها .. أن أرضى درة العين وحبيبة القلب .. وأن تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بجانبى تطل من شرفة على النيل .. وشمس الأصيل منبسطة على صفحة الماء الرقراق والخضرة الزهراء.

شجرة الدر : كان وقتها حلما بعيد المنال .. ظننته مستحيلا، وأنا وراء أسوار حصون كيفا وسنجار والكرك. والغدر والمؤامرة يبعدان عنك السلطان.

الصالح : لم أكن أخشى ضياع السلطان .. قدر خشيتى أن أفقد شجرة الدر وهى ملء العين والقلب.

شجرة الدر : أعز الله ملكك يامولاى .. وأدام عليك نعمته، وحفظ السلطان فى بيتك وولدك.

الصالح : يحفظه بإذن الله لولدنا الملك المنصور خليل.

شجرة الدر : (بقلق) ياخوفى أن يأخذها منه ولدك غياث الدين طورانشاه.

الصالح : (بضيق) هذا الغبى النزق ؟ أبدا لن تكون له ولاية عهدى.

شجرة الدر : (تثيره) تكون طالما هو هنا فى القاهرة .. وحوله مؤيدوه من بطانة الفساد.

الصالح : والله قد فكرت أن أبعده عن القاهرة .. فما أحب رؤيته وهو الطائش ضعيف الرأى الذى لا يصلح لشئ.

شجرة الدر : (باغراء) فلم لاترسله أميرا على حصن كيفا فى الشام ؟

الصالح : (مفكرا) حصن كيفا ؟ ألا يريبه هذا الإبعاد ويريب حاشيته وبطانته ؟

شجرة الدر : كيف يريبهم .. وكنت ولى عهد السلطنة حين أرسلك إليه أبوك الكامل .. لولا غدر سوداء.

الصالح : والله هو ماقلت يا أم خليل، وغدا يذهب طورانشاه إلى حصن كيفا .. يريح .. ويستريح .. وتزول عنه الأطماع والأحقاد.

المشهد الخامس

(غرفة فى دار عز الدين أيبك. جيهان زوجة أيبك ومعها الجارية سلافة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلافة : لست طامعة ولا حاقدة .. ولكن كيف أطيق أن أعود جارية فى قصر السلطنة .. وهى الزوجة وام الولد ؟

جيهان : تشعرين الآن بالندم ؟

سلافة : (بحقد) ضاع مكانى بسقوط سلطانى.

جيهان : فكيف سخطى، وكنت بالصالح أحق وأسبق ؟

سلافة : انت الآن على الأقل .. زوجة الأمير عز الدين أيبك .. ولكن أين أنا ؟

جيهان : أنت فى المكان الذى يتيح لك الانتقام.

سلافة : أنتقم منها وهى المصونة المحروسة أم الولد ؟

جيهان : (بتحريض) لن تظل أم الولد .. لو عدت إلى عقلك وفطنتك.

سلافة : تقصدين شيئا ياجيهان ؟

جيهان : (بخبث) الطفل الهزيل لايعيش طويلا إذا ازداد هزاله.

سلافه : ترعاه أمه.

جيهان : أم الولد .. لاتستمر أم الولد .. إذا فقد الولد.

سلافة : ويحك ياخبيثة .. وكيف لى ولست أكثر من جارية فى القصر ؟

جيهان : (بخبث) بشئ من الود .. تتحول الجارية إلى حاضنة.

(كالمحدثة نفسها) وحاضنة الصغير .. تقدر على الكثير.

شجرة الدر : إذا انقضى هذا الشهر، وحان موعد وفاء النيل ساشهد ويشهد السلطان زفاف صفيتى وأختى على الأمير ركن الدين بيبرس.

صفية : (بفرحة) أعز الله ملك مولاتى. ستكون لنا دار على النيل وكاسات تدور.

(تظهر سلافة عند الباب تظهر الذعر)

سلافه : مولاتى .. مولاتى.

شجرة الدر : (بانزعاج) ماذا ياسلافة ؟

سلافة : أطال الله عمر مولاتى .

شجرة الدر : (تقف منزعجة) تكلمى .. ماذا حدث ؟

سلافة : (صارخة) مات ولى العهد. مات خليل .. مات الملك المنصور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
المشهد الأول

(مقصورة شجرة الدر .. الصالح نجم الدين يجلس إلى جوارها يواسيها ..)

السلطان الصالح : لست أدرى .. أعزيك أم أعزى نفسى ..

شجرة الدر : فى القلب من الهم ما يجل عن العزاء ..

السلطان الصالح : أدرى مابك .. كان أملك أن يعيش خليل .. وترينه على عرش السلطنة ..

شجرة الدر : تمنيته لك وليا للعهد .. يوثق به ويطمأن إليه .. ويجمع حوله كلمة بنى أيوب ..

السلطان الصالح : اتت الرياح بغير ما أملت وتمنيت ..

شجرة الدر : والله إن حزنى على خليل ليزيده خشيتى على مصر .. أن ينفرط عقدها .. إذا آل أمرها بعد عمر مديد إلى ولدك طورانشاه.

السلطان الصالح : لاتذكريه وحق خليل فما أراه يصلح لها .. أو يستقيم له أمرها..

شجرة الدر : أطال الله عمر مولاى حتى ينجب وليا للعهد يهيؤه من بعده لحمل أمانته.

السلطان الصالح : لم يعد فى العمر بقيه، وقد تولى الشباب.

شجرة الدر : مازلت فى ربيع حياتك يامولاى .. والله ابر بك من أن يضيع أملك .. أمل مصر والشام.

السلطان الصالح : (فى حسرة) أمل مصر والشام مايزال فى أحفاد صلاح الدين.

شجرة الدر : (بأسف) ويأبى أحفاد صلاح الدين أن تجتمع لهم كلمة ولايدرون ماوراء تفرق شملهم من تمزيق لوحده العرب وفصل الشام عن مصر، ويحقق لأطماع المغول والصليبيين فى بلاد الإسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثانى

«غرفة مملوكية بدار عز الدين أيبك .. وهو يجلس ومعه بيبرس وأقطاى وقطز ..»

أيبك : عرفتم ماجاءت به أخبار الشام ؟ .. لقد اجتمعت كلمة أمراء بنى أيوب حول الناصر داود .. تحركهم وتثيرهم خاتون امرأته ضد أخيها الصالح نجم الدين.

قطز : إلى أى هدف يرمى أمراء بنى أيوب .. وهم أصحاب الأمر فى الشام ..

أيبك : يريدونها فتنة .. تضيع الأمر من يد سيدنا ومولانا الصالح نجم الدين فى مصر أيضا.

بيبرس : ليس الضياع له وحده .. بل لاحلامنا فى الإمارة التى كان عليها آباؤنا .. لولا أن شتتهم المغول .. فتبدد أمرنا حتى أعزنا الصالح أيوب.

أقطاى : القضية بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت.

أيبك : فلن ننتظر حتى يهدموها علينا .. بل نذهب إليهم .. نسبقهم قبل أن يسبقونا.

المشهد الثالث

«قاعة العرش بقصر السلطنة .. السلطان الصالح على مكتبه، وأمامه شجرة الدر .. وبالقرب منهما أيبك ..»

شجرة الدر : هو والله ما أشار به أيبك.

السلطان الصالح : مازال فى الوقت متسع .. ولست أريد أن أسبق الان لقتال يعمق محاولات الانفصال.

أيبك : أولى بنا يامولاى أن نسبق بها .. ونقضى على الفتنة فى مهدها .. فالخوف ان ينقض الصليبيون علينا ونحن أشلاء ممزقة .. فيزيدونا تمزيقا.

نجم الدين : (بحيرة) لا احب أن أخرج لقتال، وفى النفس أثقال وبأطرافى مرض عضال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : (تشجعه) إن كان وجودى بجوارك .. يخفف من أحمالك .. أذهب معك رفيقة ومؤنسة.

نجم الدين : بل تأتين وزيرة ومشيرة.

أيبك : فأذن لى يامولاى .. أبلغ أمراء الصالحية.

نجم الدين : لاباس .. فليجهزوا للقتال .. وليكن فارس الدين أقطاى مقدما للجيش.

أيبك : (فى مفاجأة) اقطاى يامولاى ؟

السلطان الصالح : كدت أسلمها لك .. لولا كراهته إياك .. وخوفى ان يثير بقية الأمراء عليك. فبمن تشير ؟

أيبك : صاحبك وموضع ثقتك .. الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ..

شجرة الدر : (مؤيدة) نعم الرأى .. إنه هو الأحق بأن يكون أتابك جيش مصر.

المشهد الرابع

(خيمة قيادة الجيش .. فى أرض المعركة فى الشام بعد أن أخمد نجم الدين الفتنة هناك .. السلطان راقدا عى سريره فى إعياء وحوله عدد من أمراء المماليك وشجرة الدر وفخر الدين ..)

أيبك : حمدا لله أن أخمدت الفتنة التى أرادوها وتحقق لك النصر ..

فخر الدين : الفتنة لم تخمد بعد ياعز الدين ..

نجم الدين : ماذا تعنى يا أتابك جيش مصر ؟

فخر الدين : أمراء بنى أيوب، وقد أعجزهم النصر .. يستنفرون علينا قوى اخرى..

شجرة الدر : أى القوى تستطيع أن تنتصر على جيش الصالح وأبطال مصر ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فخـر الدين : قوى أكبر من جيوش الفتنه وأقدر .. يحاولون بها تحويل وجهتنا لنرتد عنهم ..

«يدخل قطز فجأة وهو مضطرب».

قطز : الصليبيون يامولاى ..

السلطان الصالح : ماذا ..؟

قطز : رسول من حسام الدين نائب السلطنة فى مصر.

شجرة الدر : فما فحوى الرساله ؟

قطز : لويس التاسع ملك فرنسا .. يقود حملة صليبية ضخمة .. بأساطيل عظيمة .. وجيوش عديدة يتقدم بها من قبرص للهجوم على مصر .. والإغارة على دمياط ..

شجرة الدر : فلتكن عودة يامولاى .. فحق الدفاع عن بلاد الإسلام .. أولى الآن مما نحن فيه.

أيبك : (برفق) فلعل صحة السلطان اليوم تحتمل مشقة الطريق ..

فخر الدين : الإسلام فى خطر .. وصحة السلطان فى خطر .. فلينظر السلطان أيهما يؤثر .. وفى يده رد حكم القدر.

«السلطان يحاول النهوض فى ضعف ويتكلم بحسم».

السلطان الصالح : الدين والوطن أحق بتلبية النداء .. فانقلونى على المحفة واسرعوا بنا إلى قصر المنصورة .. نواجه بجيش الإسلام أعداء الإسلام.

المشهد الخامس

«مركز قيادة الصليبيين . الملك لويس والكونت دارتوا وعدد من القادة».

دارتوا : أخشى ان تمتنع علينا دمياط هذه المرة يامولاى.

لويس : اتمتنع على ألف وثمانمائه سفينة تضم أساطيل فرنسا وبيزا وجنوه والبندقية ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دارتوا : نزلت أتجسس .. فوجدت بها من الجند والعتاد والذخيره مايرد إلى البحر عنها أى هجوم ..

لويس : وقرباني لربى ..؟ وقسمى إذا شفانى أن أقوم بأعظم حملة صليبية على المشرق ..؟ ألا يشفع لى فى النصر ؟

دارتوا : نسيت ثباتها لحصار الصليبيين بضع عشرة سنة ؟

لويس : ولكنهم اقتحموا أسوارها وأسقطوها.

دارتوا : بعد عام ونصف من الحصار .. ومع هذا ارتددنا عنها بعد حين ..

لويس : وحق إيمانى بالمسيح .. ولو طال الزمن ما أعود إلا وقد رددت أهل المشرق كلهم إلى المسيحية .. كما رددنا اهل المغرب فى الأندلس إلى صليب المسيح.

المشهد السادس

(قاعه قصر السلطان فى المنصورة .. السلطان يسير متساندا على أيبك والبهاء زهير حتى يجلس على أريكته فى صدر المكان .. يحيط به قطز وبيبرس وعدد من المماليك).

أيبك : أجهدت نفسك يامولاى .. اتنتقل من فراش مرضك لتلقى رسول الفرنسيس ؟

السلطان : بعض الجهد والاحتمال .. خير من أن ينقل إلى ملكه سوء حال قائد جيوش المسلمين ..

(يعتدل فى مكانه مظهرا القوه).

الآن إيذنو للرسول

يدخل كونت دارتوا أخو ملك فرنسا بعجرفة.

دارتوا : السلام على سلطان مصر ..

السلطان : أسلام ممن جاءوا يخرقون السلام فى أرض الإسلام ..؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دارتوا : هى رسالة أؤديها من ملك الفرنسيس .. ولولا تقديره للسلطان ماحملها أخاه.

السلطان : كونت دارتوا ؟ فبلغ رسالتك.

دارتوا : يقول لك حامى ذمار المسيحية .. غير خاف عليك أن مسلمى الأندلس قد أصبحوا اليوم فى قبضة يدنا .. نسوقهم كالأغنام .. نقتل ذكورهم ونرمل نساءهم.. ونسبى أولادهم وبناتهم ونصير ديارهم خرابا.

بيبرس : (بغيظ) يا لذلة المسلمين.

دارتوا : فاعلم ذلك إن كنت تجهله وإنى مهاجمك حتى لو أقسمت يمين النصرانية وارتديت ثياب القسس.

قطز : يالأسلوب السفهاء ..

دارتوا : وإنى أحذرك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل. وعددهم كعدد الحصى .. يهرعون إليك لاهلاكك وقومك بأسياف القضاء.

أيبك : (بغيظ) اللعين .. والله لولا أن الإسلام أمن حامل الرسالة .. لأوردتك حتفك.

دارتوا : هل أعود برد السلطان ؟

السلطان : قل للفرنسيس وفئته الباغية أما علمت أننا أرباب السيوف مابغى علينا باغ إلا دمرناه ؟ فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر فيكم والأوائل .. لكان لك أن تعض بنان الندم .. ولابد أن تزل بك القدم .. فى يوم أوله لنا وآخره عليك وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون .. الا فاعلم قول الحكماء إن الباغى له مصرع . وبغيك يصرعك وإلى البلاء يسلمك والسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السابع

«ركن فى دار ابن لقمان بالمنصورة .. قمر الدين فى رداء الحرب يتحدث إلى شيخ مصرى شاب فى لباس الفدائيين هو الشيخ ابن عبد السلام» .

فخر الدين : اترضى وأنت شيخ شعب مصر .. أن تكون يدكم مغلولة .. وتدعوها للمماليك .. يدفعون عنكم عدوكم وأنتم تتفرجون ؟

ابن عبد السلام : (باستنكار) من دفع الصليبيين عن دمياط ودحرهم أيام الكامل غيرنا يا ابن شيخ الشيوخ ؟

فخر الدين : تفعلونها مرة أخرى ابن عبد السلام بإذن الله.

ابن عبد السلام : أبغير سلاح ؟ وقد حرمنا منه منذ أصبح كله لمماليك الصالحية.

فخر الدين : لن تحرموا من السلاح وأنا أتابك جيش مصر.

ابن عبد السلام : فحدد لنا مكاننا فى المعركة ننقض على أعداء الإسلام.

فخر الدين : عندما يصلكم السلاح .. ادع الحرفيين من أبناء الشعب والعربان يكونون على أهبة الاستعداد للقتال من أول البحر الصغير.

ابن عبد السلام : (بحماس) ولو تأخر السلاح .. فسنقاتل بطوب الارض ..

فخر الدين : مكانكم عند مكامن البر الغربى .. وسنستدرج الفرنج لعبور الجسر إلى البحر الشرقى .. فمتى عبروه فاقطعوه.

ابن عبد السلام : نقطع عنهم طريق العودة وطريق الإمداد.

فخر الدين : ثم تهاجمون سفنهم الراسية هناك وتشعلون فيها النار ..

سنجعلها رمادا بإذن الله.

أما الباقى .. فعلى الكنانيين وعساكر المماليك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثامن

«مقر قيادة الصليبيين والكونت دارتوا عند باب المقر يمنع فتاة متخفية من الدخول إلى حيث الملك لويس داخل قيادته ..»

دارتوا : تكلمى .. من أنت ؟

الفتاه : لا اتكلم إلا أمام الملك.

دارتوا : تتجسسين على الملك يالعينة .. لتنقلى أخباره إلى الكفرة المسلمين ؟

الفتاة : بل أنقل إليه خبرهم وخبر سلطانهم ..

دارتوا : أخبرينى .. انا أخو الملك ..

الفتاه : حديثى إلى الملك وحده .. فإن لم أقابله فسأعود من حيث جئت ..

لويس : (مناديا) أدخل المرأة يادارتوا ..

تدخل المرأة وهى متخفية لتقف أمام الملك .. وحتى ينزاح جزء من الرداء من على وجهها يتضح أنها سلافة.

لويس : أى الاخبار تحملينها يا امرأة ؟

سلافة : ماخفى على مبعوث الملك وهو يتصور انه قد قابل السلطان.

دارتوا (بغضب) تكذبيننى يا امرأة .. من قابلته كان هو السلطان ..

سلافه : بل كان حطام السلطان.

لويس : ماذا تعنين يا امرأة ..

سلافة : (لدارتوا) خدعك السلطان وهو يجلس قويا شامخا على أريكته .. بينما كان فى الحقيقة شبه غائب عن الوعى من مرضٍ يقضى عليه.

لويس : (باستغراب) أهو مريض .. إلى حد يعجز معه عن قياده المقاومة فى دمياط ؟

سلافة : (بسخرية وخبث) مالكم ودمياط الحصينة .. وانتم قادرون على بلوغ المنصورة نفسها وسلطانها يحتضر..

لويس : أيمكن أن نبلغ المنصورة دون طريق دمياط ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلافة : ادلكم على طريق آخر .. عبر فارسكور .. فتفاجئون السلطان وامرأته وأمراءه .. فلا تملك قواته فى دمياط إلا التسليم.

لويس : (مفكرا ثم لدارتوا) رحبوا بها ياكونت دارتوا .. أدخلوها عند الملكة حتى نبحث الموقف من جديد.

المشهد التاسع

(خيمة القيادة .. فخر الدين وأيبك الذى يدخل مندفعا ..)

أيبك : كيف سحبت الجيش يافخر الدين ؟

نجم الدين : سحبت الجيش ؟ أيمكن ان يحدث هذا ؟

أيبك : بل حدث ..البر الشرقى خال من الامراء والعساكر.

فخر الدين : (ينهض منزعجا) بنفسى رتبت العسكر داخل دمياط ليدافعوا مع أهلها عنها .. وكلفت الأمراء أن يرابط جزء منهم حول الأسوار ليقاتلوا دونها والجزء الآخر يمنع العدو من الوصول إلى فارسكور ..

أيبك : انسحب الجميع بعساكرهم .. وهم الآن فى الطريق إلى المنصورة.

فخر الدين : المنصورة ..! والأسوار .. من عليها ؟

أيبك : لم يعد على الأسوار احد يحميها .. ياقائد الجيوش.

فخر الدين : (آمرا) ادركهم يا أيبك .. مرهم بالعودة فالمعركة لم تبدأ بعد ..

أيبك : (بيأس) فلم لاتلحق بهم أنت وأنت أتابك الجيش ؟

فخر الدين : وجودى بدمياط الآن أصبح ضرورة .. وماعاد عندى غير الكنانيين والعربان والحرافيش تصد العدو لو عبر إلى البر الشرقى لاقتحام المدينة.

يحاول أيبك التحرك للخروج فيصطدم به الشيخ ابن عبد السلام، وهو يدخل مندفعا.

فخر الدين : كيف تركت موقعك ابن عبد السلام ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن عبد السلام : موقعى ؟

فخر الدين : اما كلفتكم بالبقاء عند مكامن الجسر ؟

ابن عبد السلام : العدو عبر الجسر فقطعناه خلفه .. ولكنه لم يجد مقاومة فى المدينة فدخلها.

فخر الدين : (بانزعاج شديد) كيف .. والكنانيون ؟

ابن عبد السلام : غادروا المدينة عندما انسحب منها عساكر المماليك .. ولم يبق غير الشعب ..

فخر الدين : (ثائرا) اللعنة على الخونة .. فلنقاوم بالشعب وحده .. وانطلق انت ياعز الدين فاطلب النجدة من السلطان ..

المشهد العاشر

(قاعة قصر السلطان بالمنصورة .. السلطان مستلق على الأريكة فى جهد .. وشجرة الدر تتطلع إلى خريطة للمعركة .. يدخل بيبرس وقطز وأقطاى فى لباس الحرب)

شجرة الدر : من ؟ بيبرس وأقطاى وقطز .. فى المنصورة ؟! فمن يحمى دمياط من الصليبيين ؟

أقطاى : (باندفاع) الغبى فخر الدين .. أمرنا بالانسحاب.

السلطان : الانسحاب ؟ كيف ؟!

أقطاى : التحمنا مع العدو فى معركة غير فاصلة للمناوشة نهار أمس .. وعندما جاء الليل فوجئنا بقرار فخر الدين.

شجرة الدر : أقرار بالانسحاب من البر الغربى ؟

قطز : أمرنا ان ننتقل برجالنا إلى البر الشرقى .. وكان الواجب ان نبقى فى البر الغربى نناوش العدو وقد غادر سفنه لنصده عن دمياط.

السلطان : فمن بالبر الشرقى وأنتم هنا فى المنصورة ؟

بيبرس : لم نقتنع بتصرفه .. ولم نقبل إفساحه الطريق امام العدو للوثوب على المدينة ..

أقطاى : وجدناه ينظم الحراشفة من المقاومة الشعبية والعربان .. داخل المدينة. فقررنا ان نرجع إلى السلطان ليأمر بما يراه.

شجرة الدر : (باستنكار) اتتركون مواقعكم وترجعون إلى السلطان ؟ اليس امر المعركة وهى دائرة لأتابك الجيش فى الميدان ؟

السلطان : (بغضب وإرهاق) فأين فخر الدين ؟ أين أتابك جيش مصر ؟

«يدخل فخر الدين وخلفه أيبك وعلى ملابسهما اثار المعركة ...»

فخر الدين : قائد الجيش اصبح بلا جيش يامولاى.

السلطان : ماذا أرى ؟ أفررت انت أيضا من الميدان ؟

فخر الدين : . . . .

السلطان : الا تجيب يافخر الدين ..

فخر الدين : ماذا أقول يامولاى .. ؟ هى زلة لامثيل لها فى الحروب..

أيبك : زلة ..؟ بل هى الخيانة .. ارتكبتها أنت ورجالك ياقائد جيش مصر ..؟

«ينهار السلطان على أريكته .. تجيل شجرة الدر بصرها بين الجميع ..»

شجرة الدر : هنا كل قادة الجيش .. فمن يقاوم الصليبين الآن فى دمياط ؟

أيبك : دمياط سقطت فى أيده الصليبيين.

السلطان : يا إلهى ماذا أسمع ؟

شجرة الدر : ماذا تقول ياعز الدين ؟

أيبك : حين ذهبت حاملا رسالة مولاى إلى الأتابك .. شهدت بنفسى سقوط المدينة..

شجرة الدر : وأين كان جيش مصر والإسلام ؟؟

أيبك : لم يكن هناك عساكر ولا أمراء .. وما كان حول قائد الجيش غير جماعات المتطوعين .. هم كل عدته لمقاومة جيش العدو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقطاى : (بغضب لأيبك) : اسكت أنت ياجاشنكير .. لست رجل حرب فيسمع منك .. الزم حدك .. فلا رأى لك.

السلطان : (ثائرا) ماذا يجرى هنا ؟ ويلكم .. أجدال وقد ضيعتم دمياط فى ست ساعات. وهى التى قاومت الفرنج منذ سنوات لعام ونصف عام ؟

أيبك : والله كاد فخر الدين يحقق نصرا بقوة مقاومة الشعب والعربان ..

السلطان : فلم لم ينتصر ؟!

أيبك : كان العدو قد بدأ ينهار ويستعد للفرار .. وإذ هو عاجز عن العودة وقد قطع الشعب جسر العبور .. جاء المدد من حيث لم نحتسب.

السلطان : أمدد وقد قطع الجسر ؟

أيبك : انتظرنا العدو من الشمال فجاءه المدد من الجنوب .. كانت بعض قواته قد بلغت فارسكور فلم تجد من يضربها ..

السلطان : وعادوا .. فحاصروكم.

أيبك : وقعنا بين شقى الرحى .. وسقطت المدينة.

شجرة الدر : أعجب لسقوط دمياط .. وقد شحنت بفيض من السلاح والذخائر والاقوات .. فلعلكم تركتموها للاعداء ؟

أيبك : أبدا .. لن يفيدوا منها .. الشعب اشعل الحريق فى سوق دمياط الكبير بكل مافيها من سلاح وذخيرة وأقوات.

السلطان : (بسخرية مرة) فعل العامة والعربان ما لم يفعله العساكر والأمراء ..

أقطاى : لم يخطئ الأمراء يامولاى الخطأ خطأ أتابك الجيش ..

فخر الدين : (ينظر إليه باستنكار يهز رأسه فى مرارة) صدق أقطاى يامولاى .. فلعلها زلتى .. وعلى وحدى يقع الجزاء والعقاب ..

شجرة الدر : ياويلتنا .. أبمثل هذا تواجهون الموقف ياحماة الإسلام ؟ ليس الأن وقت الحساب .. ولا جزاء من أخطأ وأصاب .. فلنواجه الأمر الواقع الآن فما كان قد كان .. وليقف الجميع يدا واحدة من أجل رد العدوان ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس
المشهد الأول

(قاعة قصر السلطان بالمنصورة .. السلطان يتكئ على الأريكة وحوله شجرة الدر وفخر الدين .. بينما عز الدين أيبك واقفا يستمع قرب الشرفة ولا يتدخل فى الحديث)

فخر الدين : نعمل لكل شئ حسابه يامولاى.

السلطان : أنت من اعتمد عليه من بقية بنى أيوب هنا يا فخر الدين.

شجرة الدر : تعرف مكانه وتقدر ولاءه فى خدمة الدولة .. وتدرك حبه للشعب وحب الشعب له يامولاى.

السلطان : لولا هذا ماسكت عليه يوم سقوط دمياط.

فخر الدين : (بخجل) ألا تنسى هذا اليوم يامولاى؟.. أما عرفت .. وعذرت .. فغفرت ؟

السلطان : كلما ذكرت – والشهور تمضى – أنها ماتزال فى أيدى الفرنجة .. تزداد أسقامى وتمزقنى أوجاعى.

شجرة الدر : برغم ذلك لم تضيع يوما فى إعادة تنظيم الجيش وتجهيزه بأقوى ما استطعت من ذخيرة وسلاح.

السلطان : أقسمت لأرد العدوان وأطرد المعتدى .. قبل أن أسلم وجهى لله.

شجرة الدر : أبقاك الله ذخرا للوطن والإسلام.

السلطان : أملى فيه كبير.

فخر الدين : تمنيت أن أعيش لارد دينى وأفك رقبتى من زلة سقوط دمياط. وبعدها مرحبا بالشهادة فى سبيل الله.

السلطان : فمن يكون لمصر والإسلام وأمراء المماليك يتصارعون على الرئاسة والسلطان ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فخر الدين : لاتقس عليهم يامولاى .. إنهم أشجع الجنود وأصبرهم على القتال.
السلطان : ولكنهم يحسدونك على مكانتك عندى.
فخر الدين : هم يتحاملون على لأنى لست منهم.
السلطان : لهذا يجهدون فى نسبة العجز والفشل إليك.
فخر الدين : الرأى يامولاى ان تعزلنى عن القيادة وتوليها واحدا منهم .. فينهضوا للقتال بكل مايملكون من روح الشجاعة والتحدى والفداء.
شجرة الدر : أنصفتهم يافخر الدين وتظلم نفسك.
فخر الدين : هم يتوجسون منى مايشاع أنى أطمع فى ولاية الامر ..وأنى أستغنى عنهم وأجند من عامة الشعب.
شجرة الدر : لم ينصفونك .. فيما علموا أن السلطان عرضها عليك من قبل .. ورفضت.
السلطان : ولكنى اليوم أعرضها عليك .. وتقبلها بالرغم عنك ..
فخر الدين : بوركت يامولاى .. ولكنك لو فعلت تزيد النار اشتعالا وتفرق الجند والأمراء والعدو على الأبواب.
السلطان : فخذ العهد سرا لايعلمه غيرنا وأم خليل.
فخر الدين : عهدك لطورانشاه يامولاى .. فلا تعرض الدولة بعدك للانقسام والضياع.
شجرة الدر : طورانشاه ليس رجلها يافخر الدين .. فلا تتحمل على عنقك تبعته.
فخر الدين : أتحملها خير من أن أتحمل تبعة التمزيق والانقسام .. وحسبى أنا وإجلاء المعتدين والشهادة على سبيل إعلاء كلمة الإسلام.
السلطان : بالرغم منى أقبلها منك يافخر الدين ..
فخر الدين : فهلا حاولت لقاء الأمراء ليزيد أطمئنانهم يامولاى.
السلطان : تعال بنا إليهم يافخر الدين .. وإن كانت صحتى لاتحتمل المسير (يخرجان).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثانى

« قاعة القصر بالمنصورة .. شجرة الدر فى الإيوان وأمامها فخر الدين وأيبك وأمير ثالث هو محسن ناظر الخاصة » .

شجرة الدر : رأيت السلطان وقد زاد عليه إلحاح المرض .. فخشيت مفاجآت القدر ونحن مشغولون بقتال العدو .. وليس له ولى للعهد يحمل الأمانة .. فانظروا ما أنتم فاعلون.

فخر الدين : إنا لنضرع إلى الله ان يشمل السلطان برعايته .. ولو حدث مالا نملك رده فالرأى ماترون.

شجرة الدر : فما رأيك يامحسن وأنت ناظر الخاصة ؟ ترى لو قدر الله شيئا .. اتذهب ريح الدولة بين الصراع والانقسام.

محسن : أخشى ان يفت الحدث فى عزم الأمراء والأجناد.

شجرة الدر : فما الرأى وأنت أدرى بمطامع الأمراء.

محسن : لابد من جمع الكلمة حول من يصلح لها ومن يولى أمرها .. وإن لك يامولاتى تدبير مايكون.

شجرة الدر : فما قولك أنت ياعز الدين .. لعلك تشير بالرأى .. فلست الطامع ولا الحاقد، ولا الساعى إلى فرقة الانقسام.

أيبك : مولاتى أدرى بما يمكن أن يكون .. ولعل السلطان قد ولى العهد لأحد لم يعلنه .. وإنك لقادرة إن تعرفى منه من ولاه ..

فخر الدين : إن لم يكن قد أعلن الولاية لأحد قبل أن يشتد به المرض .. فإنه فى مثل ما صار إليه لايصلح أن يسأل عمن يوليه.

شجرة الدر : تحملوننى عبء الاختيار والرأى والمشورة .. ولست سوى امرأة لاحول لها.

أيبك : أكاد أرى مولاتى تنهى إلينا نبأ الفاجعة فى مولانا السلطان .. فإن كان قد حدث فانا لله وانا إليه راجعون.

شجرة الدر : (تنهار فجأة) هو ذاك .. قضى الأمر أيها الأمراء .. مات السلطان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس
المشهد الأول

(قاعة العرش بقصر السلطان بالمنصورة شجرة الدر على الإيوان وفخر الدين ومحسن وأيبك فى تفكير عميق وحيرة واضحة).

فخر الدين : دولة الإسلام اليوم فى معركة لاتحتمل الخلاف والصراع .. وفى يدك وحدك يا أم خليل تدبير كل الأمر.

شجرة الدر : أنا يافخر الدين ؟ أليس لهذا دعوتكم .. حتى تروا أمر البلاد وهى بغير سلطان ؟!

فخر الدين : ومن كان صاحب الأمر منذ لزم السلطان الصالح فراش مرضه ؟

شجرة الدر : كنتم جميعا أصحاب الرأى والمشورة.

فخر الدين : فمن سواك يعرف كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة.

شجرة الدر : لست تعنيها يافخر الدين .. أفقدت الديار رجلا يدبر الأمر فيها ؟

فخر الدين : بل أعنيها .. أفلو كان خليل حيا، وهو بعد طفل أما كنت تديرين شئون الدولة باسم السلطان ؟

شجرة الدر : (بحسرة) لم يعد هناك نجم الدين ولا خليل.

أيبك : فهناك ام خليل .. تمضى فى تدبير الأمر كما لو كان أى منهما على كرسى السلطنة .. وتكون ملكة المسلمين.

شجرة الدر : أفأحدث فى الإسلام خرقا .. ؟

فخر الدين : كل دولة الإسلام فى مصر والشام تعرف أياديك وأفضالك.

أيبك : صدق فخر الدين .. ليس من يجهل أن مولانا كان يعهد إليك بتدبير أمور الدولة فى غيبته لفضلك وكياستك .. فإذا توليت أمرهم بما عهد فيك من بعد النظر وحسن التدبير كان أجرك عند الله عظيما.

شجرة الدر : لست أريد أن أغضب الرسول فى قبره وهو القائل .. لايفلح قوم ولوا عليهم امرأة.

محسن : بارك الله فى سيدة نساء المسلمين.

فخر الدين : أفيرضى الله ورسوله أن تتمزق دولة الإسلام بين صراعات مراكز القوى من أمراء المماليك وأمراء بيت بنى أيوب ؟!

أيبك : الحق قال الأتابك .. لو أصبحت وليه الأمر وأنت من هؤلاء وهؤلاء. كبحت جماح المتنافسين والطامعين ولم يعد أمام أى منهما حجة للمعارضة.

شجرة الدر : أخشى والله على وحدة دولة الإسلام حين يجدون على العرش امرأة.. ولعل هذا رأى ناظر الخاصة أيضا .. وهو يعرف كل صغيرة وكبيرة فى دار السلطنة.

محسن : مادامت مولاتنا لاترى رأيكما .. فلنبعث بأحد الليلة سرا إلى حصن كيفا .. يخبر طورانشاه ابن السلطان .. ويدعوه لتولى شئون البلاد.

أيبك : (معترضا بحذر) ولكن السلطان لم يعهد له .. ولاشك أن هناك من الأسباب ما استند إليه .. فما سمعته يذكره بخير أبدا.

فخر الدين : ان كنت تعنى يامحسن أن كلمة بنى أيوب قد تجتمع حول طورانشاه فإن شجرة الدر أم خليل أعظم سلاطينهم بعد صلاح الدين .. وصاحبة رايه ومشورته.

محسن : شعب البلاد أيضا .. وأنت تدريه .. لايقبل إلا ملكا من بيت بنى أيوب.

شجرة الدر : لعل الحق ماقال محسن .. والدولة ليست بسلطانها .. بل ايضا برجالها ونفوس أبنائها .. فان رأيتم أرسلت أستدعى طورانشاه.

أيبك : إن كان هذا رأيك فافعلى .. على أن تتولى كل الامر إلى حين وصوله من حصن كيفا .. والمسافة ذهابا وجيئة لاتقل عن أربعة شهور .. يفعل الله فيها مايريد.

شجرة الدر : على أنى أرى أن نتكتم أمر موت السلطان حتى يعود طورانشاه .. فالخوف أن يبلغ الأمر الفرنج فيتصورون البلد لقمة سائغة وهى بلا سلطان.

فخر الدين : كيف يخفى هذا الامر على الأمراء .. وعهدهم ان يستقبلهم السلطان كل حين ؟

شجرة الدر : دعوا هذا الأمر لى .. أستطيع تدبيره بإذن الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثانى

«الساحة امام الخيمة المملوكية .. بيبرس وأقطاى وأمامهما رقعة الشطرنج يلعبان . البهاء زهير يتابعهما ويصفق لكل قطعة تسقط» .

بيبرس : فلعل كتاب السلطان قد بلغ إاليك.

أقطاى : (مشككا) هل تظنه خطه وتوقيعه حقا ياركن الدين.

بيبرس : (مفكرا) الحق لم يخطر ببالى ماتعنيه وإن أستغربت أن يكتب لنا السلطان بخطه.

زهير : (مستغربا) أيكتب السلطان بخطه وهو من نعرف عجزه فى مرضه ؟

بيبرس : ويطلب أن نؤكد الطاعه له .. والبيعة لولاية العهد لولده طورانشاه.

أقطاى : لا اتصوره خط السلطان .. بل خط كاتبه سهيل.

بيبرس : (بابتسامة خفيفة) أو شاعره زهير.

زهير : معاذ الله .. أما عرفتم ان زهير قد طرد من الجنة؟!

بيبرس : فلم ينسبها السلطان لنفسه ؟

أقطاى : الجواب عند شجرة الدر.

بيبرس : أهناك سر لاندريه ؟

أقطاى يمد يده إلى رقعة الشطرنج ويمسك الشاه

أقطاى : ارفع يدك يابيبرس مات الشاه.

بيبرس : بئس الفأل يا أقطاى.

زهير : أأنت من اهل الطيره يابيبرس ؟

بيبرس : أعرف أنها خرافة .. ولكنها تصح فى كثير من الأحيان.

أقطاى : قد تصح اليوم أيضا ياركن الدين فكل الظواهر تؤكدها.

بيبرس : (منزعجا) هل تعنى .. السلطان ؟

أقطاى : أليس غريبا أن يؤخذ اليوم العهد لولده .. وأن نصدر الإرادة السلطانية بتأكيد الأتابكية من جديد .. لفخر الدين ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : ذكرتني يا أقطاي .. كلما طلبنا الإذن للقاء السلطان .. قيل لنا إنه متعب.. ويحيلونا إلى شجرة الدر.

أقطاي : أو لم تنتبه إلى أن الوحيد الذى يتردد على القصر مصبحا وممسيا .. هو الأمير فخر الدين ؟!

زهير : ويقال إنه لايدخل الطعام أو يخرج به من غرفة السلطان إلا الجاشنكير.

بيبرس : فما يعنى ذلك ؟

أقطاى : لايعنى غير شئ واحد .. مات السلطان .. بغير إعلان.

بيبرس : ولماذا يخفون ؟

أقطاى : فخر الدين يخادع شجرة الدر لتخفى النبأ .. وتدعو طورانشاه من حصن كيفا.

البهاء زهير : لو صدق هذا .. ففخر الدين يمهد الأمر لنفسه.

بيبرس : فلماذا يستدعى طورانشاه لو أرادها ؟

البهاء زهير : ينتهى من أمر طورانشاه خلال مسيرة الطريق.

أقطاى : (منفجرا) إلا والله لو كان هذا .. وفضلت شجرة الدر عليه فخر الدين .. لأسبقن إليه .. وتكون نهايته على يدى.

المشهد الثالث

«قاعة العرش وايوان السلطنة .. شجرة الدر وعلى وجهها غضب شديد وأمامها اقطاى وبيبرس بينما ايبك متباعد عنهم قليلا ..»

شجرة الدر : فخر الدين .. فخر الدين. كأن لم يعد فى العالم كله غير فخر الدين.

أقطاى : لاينبغى إلا أن توضع الأمور فى نصابها يا أم خليل.

شجرة الدر : هل يعيب فخر الدين أن يتفرغ بكل جهده لمواجهة عدو يتجهز لينقض .. بينما كل همكم أن تحطموه وتدمروه ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : إنه يامولاتى ليستبد بنا وينسى أننا أمراء الصالحية.

أقطاى : إنه يتيه علينا كأنه ملك .. أو كأنه السلطان.

شجرة الدر : حاشا لله .. فكيف ومازال على البلاد السلطان ؟

أقطاى : (متحديا) أين هو السلطان يامولاتى ..؟ لا يسمح لنا برؤيته منذ فترة طويله .. إلا إذا كان قد جرى له أمر الله.

شجرة الدر تتردد لحظة ثم تواجه التحدى

شجرة الدر : ولو كان أيها الأمراء .. اتواجهون الموقف بمثل هذا الخلاف والشقاق والعصيان .. والبلد بلا سلطان.

بيبرس : (بحزن) إذن قد مات يامولاتى .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

شجرة الدر : والله لولا أن تكتمت الامر .. لشغلكم البحث فيمن يتولى السلطنة عن الاستعداد لمعركتكم الفاصلة مع عدوكم .. ولما استطعتم ان تنجزوا ما انجزتم من وسائل الدفاع .. والعدو جد قريب.

أقطاى : (بعتاب بسيط) أما كنت شاورتنا فى الامر .. وكلنا خدمك واتباعك وتلاميذ أستاذنا الصالح نجم الدين ؟

شجرة الدر : فى مثل هذا الموقف لاتكون الشورى للجميع .. وإلا أصبح السر مشاعا.

بيبرس : إن خفتها من الكثرة .. فعلى الأقل للقلة ..

شجرة الدر : (مشيرة إلى أيبك) واحد منكم مثلكم .. واجمعنا على صيانة السر وحجبه عن الانتشار .. فلا يصل إلى العدو حتى نجليه.

أقطاى : (بسخريه) فلعله أن يكون صاحب رأى وكلمة.

أيبك : (بتحد) قد وضعتم الثقة فى مولاتكم أم خليل وهى تدير امور الدولة لشهور .. فلا بأس لو طال الوقت لفترة أخرى حتى يصل السلطان الجديد.

أقطاى : ويلك .. حتى انت ياجاشنكير كان لك الرأى فيمن يكون السلطان ؟!

بيبرس : فلعلك اخترت فخر الدين.

أيبك : بل ولد مولانا وأستاذنا وولى نعمتنا .. غياث الدين طورانشاه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

(قاعة قلعة الكرك .. طورانشاه وهو شاب فى الخامسة والعشرين يبدو مستغرقا فى ضحك ساخر وأمامه خاتون عمته أخت أبيه)

طورانشاه : أخيرا فعلها السلطان .. ومات.

خاتون : ألا تحزن على أبيك ياطورانشاه ؟

طورانشاه : أما نفانى بتشجيع من امرأته لاسجن فى حصن كيفا .. ويصبح الأمر لابن امرأته خليل ؟

خاتون : (فى كشف) اتت الرياح بما لم تشته السفن.

طورانشاه : (بحقد) مات الأول والثانى .. ولم يبق إلا الثالثة.

خاتون : ولكنها أرسلت تستدعيك لتولى السلطنة بعد أبيك.

طورانشاه : ليست وحدها .. سبقها إلى ابلاغى واستدعائى الطواشى محسن .. ولحق برسولها المملوك أقطاى.

خاتون : لأمر فى نفس يعقوب .. يتنافس كل منهم إليك.

طورانشاه : وحقك ياعمة دار بها رأسى .. فما يفعلها أمراء المماليك الا خشية أن يثب إلى العرش واحد من غير صلبهم.

خاتون : خير لهم أن يكون الامر لابن مولاهم الذى ينتسبون إليه .. عن أن يكون لسواه.

طورانشاه : على الأقل .. ليصبح لهم على السلطان الجديد فضل تثبيته على عرش أبيه.

خاتون : أهو رأيك أيضا فى امرأة أبيك ؟

طورانشاه : لم تكن لتفعلها إلا وقد أدركت أن الأمراء قد سبقوها .. فما تحب أن تعارضهم فيما أجمعوا عليه.

خاتون : (بخبث) أنا أعرف بها وأخبر .. فقد خافت أن يصلك أن الأمراء كانوا أحرص منها على تمليكك فسبق رسولها رسولهم لتكون لها بذلك يد عليك .. ولتظل قابضة على السلطة فى عهدك، كما كانت على عهد أبيك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طورانشاه : بئس الحية .. وحقك ياعمه ماتنالها ولاينالها أمراؤها .. وسيعرفون كيف يكون طورانشاه .. من تآمروا عليه .. واستكثروا أن تكون له ولاية العهد فى حياة أبيه.

المشهد الخامس

« قاعة العرش والإيوان بقصر المنصورة .. شجرة الدر وفخر الدين يدرسان الموقف على خريطة للمواقع .. »

شجرة الدر : اراك تعتمد على الفدائيين فى الكثير من الاعمال يافخر الدين.

فخر الدين : هم أبناء البلاد .. فى أعماقهم روح الفداء .. وحرقة الاحتلال .. وحماس المقاومة ..

شجرة الدر : أترى فيهم القدرة على هز كيان الصليبيين واستقرارهم ؟

فخر الدين : لو رأيت يامولاتى كيف قاوموا وحدهم نزول العدو فى دمياط .. بعد ان انسحب منها العسكر والكنانيون لعرفت كيف كاد النصر ان يكون حليفهم .. ولأدركت قدر بلائهم وشجاعتهم.

شجرة الدر : وهل أنسى فدائيتهم يوم انقذوا صفية من الأسر ؟

فخر الدين : إن مانال الأهالى من القتل والتشريد والمذلة .. هو حافز كل منهم لحمل سلاحه والذود عن حياته وعرضه وحماه.

شجرة الدر : فهم عدتنا لتمهيد الأرض قبل الزحف ..

فخر الدين : لن يكتفوا بل يعدون عدتهم للثأر .. ويستجمعون قوتهم للوثبة .. يوم نبدأ الهجوم.

شجرة الدر : تمنيت أن يعرف أمراء المماليك قدر مايفعله هؤلاء الحرافيش .. وقد حرموا العدو بغارتهم هدوء النهار وراحة الليل.

فخر الدين : قد واعدت شيخهم ابن عبد السلام يأتينى بأنباء المقاومة . فلو أذنت ورأيته .. فقد وصل الآن.

شجرة الدر : أتمنى أن أحيى فيه النبل والشجاعة والبطولة.

يتجه فخر الدين نحو الباب لينادى الشيخ ابن عبد السلام الذى يدخل محييا شجرة الدر

ابن عبد السلام : سلام على فخر نساء المسلمين.

شجرة الدر : مرحى بشيخ الشهامة والفداء .. فقد أكدت أعمالكم وبطولاتكم أنكم سندة المجد وصانعو التاريخ.

ابن عبد السلام : الشعوب برجالها .. وولاة الأمر فيها ياعصمة الدنيا والدين.

شجرة الدر : فكيف بلاؤكم هذه الزيام مع العدو ؟

ابن عبد السلام : فى كل هداة ليل أو قيلولة نهار .. ينقض رجالنا على معسكر العدو على امتداد الساحل .. فيخربون المنشآت .. ويجندلون القتلى ويحملون الأسرى عشرات ومئات.

شجرة الدر : فهلا اكتشفتم مخازن ذخيرتهم ووقودهم ؟

ابن عبد السلام : لم تخف على عيون صقورنا يامولاتى دمرنا أغلبها .. ومانزال لها بالمرصاد.

فخر الدين : وسفنهم الراسية فى النيل ؟

ابن عبد السلام : ساعدتنا عليها الأعاصير .. فدمرت أكثر من مائتى سفينة .. ومازال فى الجعبة الكثير.

المشهد السادس

(فى غرفة عز الدين أيبك .. جيهان زوجته مستلقية على أريكة وإلى جوارها أيبك تتلطف معه.)

جيهان : خدعتك الحية.

أيبك : كيف تقولينها ياجيهان ؟

جيهان : تلعب بك .. وتسلمها لفخر الدين.

أيبك : ثقتها بى. أكثر وأبقى.

جيهان : زمان .. كنت صفيها وموضع سرها .. تنال عن طريقك أغراضها.

أيبك : ليس لها غرض إلا صالح الدولة ونصرة الإسلام.

أيبك : أما قلت لك .. خدعتك فصدقتها .. وجعلت منك ألعوبة فى يدها.

أيبك : عزّ الدين لايلعب به أحد ياجيهان .. هو يلعب بالجميع.

جيهان : والذى يملأ البلاد من الاشاعات.

أيبك : بماذا يتقولون ؟

جيهان : شجرة الدر .. تعشق فخر الدين.

أيبك : محض افتراء.

جيهان : أما سمعت مايتحدث به الناس من أنها تمهد له ليجلس على عرش السلطنة ؟

أيبك : (بثقة) لاتفعلها .. ولاتقدر عليها.

جيهان : بل تفعلها .. ولاتكون قد كسبت أنت غير عداوة إخوتك أمراء المماليك.

أيبك : هم يحقدون على قربى من العرش.

جيهان : يزداد حقدهم عندما تساهم فى القضاء على ما لديهم من آمال وأحلام.

أيبك : كيف ينسبون ذلك لى ؟

جيهان : عندما يجدونك قد شاركت فى أن يصبح كل الأمر .. فى يد عدوهم فخر الدين .. السلطان الجديد.

أيبك : لا أستطيع ان أصدق .. شهدته بنفسى يرفض ولاية الأمر مرتين .. مرة مع نجم الدين .. ومرة مع أم خليل.

جيهان : يقبلها فى المرة الثالثة .. حين يتخلص من أمراء المماليك .. ويثبت أقدامه بالزواج من أرملة السلطان.

أيبك : (باضطراب) شجرة الدر .. تتزوج فخر الدين ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السابع

(مقصورة شجرة الدر .. شجرة الدر جالسة فى الشرفة .. يدخل عز الدين أيبك فجأة..)

شجرة الدر : ماوراءك ياعز الدين ؟

أيبك : الصليبيون يامولاتى .. خرجوا من أسوار دمياط .. وأخذوا الطريق إلى المنصورة.

شجرة الدر : المنصورة ؟ كيف يجرءون ؟!

أيبك : بلغهم نبأ موت السلطان فنهضوا للهجوم.

شجرة الدر : فأين الآن فخر الدين.

أيبك : ألا يعرف لسانك غير اسم فخر الدين يا أم خليل.

شجرة الدر : (مستنكرة) ماذا ؟ أنت أيضا ياعز الدين ؟

أيبك : (منفجرا) بلغ السيل الزبى .. وماعدت أستطيع الكتمان.

شجرة الدر : ماذا يجرى هنا .. والعدو على الأبواب ؟

أيبك : العدو، وهو حجتك وحجته .. كفى هزلا يا أم خليل.

شجرة الدر : كيف تجرؤ يا أيبك ؟

أيبك : ضقت ذرعا وأنا أخفى هم الفكر والقلب .. ليجئ غيرى فيستولى على كل الفكر والقلب.

شجرة الدر : ماهذا الذى تفعله ياعز الدين ..؟ هل أصابك شئ ؟..

أيبك : ماعدت أطيق .. كنت أخنق مابصدرى، وأنت فى صدر السلطان نجم الدين.. ولا أجرؤ على البوح بما يحرق أحشائى ؟

شجرة الدر : وجرؤت الآن ياعز الدين ؟

أيبك : احتملت الكتمان وأنت فى دوامة الحيرة بما جد عليك من أعباء .. ولكن أن اصبر أيضا على فخر الدين فذلك مالا يكون.

تضطرب شجرة الدر قليلا ثم تتماسك وتظهر التلطف ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : كل هذا فى أعماقك وتخفيه .. وأنا التى تصورت أن شغلك عنا هوى جيهان.

أيبك : أنت من وضعها فى طريقى .. ووالله مالها منى غير رباط الولد .. وإنك لتعرفين أن ميلى وهواى إلى قلب واحد .. ما أتغير عنه أبدا.

شجرة الدر : فليهنك أنه مايغير منا شئ أيضا ياعز الدين .. ولكن .. ليبق ما فى القلب فى القلب حتى ننتهى مما نحن فيه .. ثم يكون مايكون ..



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع
المشهد الأول

مركز قيادة الصليبيين .. الملك لويس والكونت دارتوا ومرافقه وعدد من الصليبيين..

دارتوا : الموت يخطف الرجال من كل مكان.

المرافق : وما استطعنا أن نجتاز النهر حتى الآن.

لويس : فهل انتهى رجالك من إقامة الجسر بين الشطين ؟

دارتوا : مع نهاية هذا الليل .. يكون الجسر جاهزا للعبور.

لويس : فمع الفجر نبدأ الهجوم .. وليتدفق حملة الصليب لاختراق استحكامات المنصورة.

دارتوا : وليتحقق نذرك يامولاى.

لويس : لأرغمن الكفرة على حمل صليب المسيح.

المشهد الثانى

جانب من ساحة القتال فى جانب المسلمين .. الفدائى الشيخ ابن عبد السلام والأتابك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ يطلان إلى بعيد ..

عبد السلام : قام الجسر أو كاد ياسيدى القائد .. ورجالى لا يطيقون الانتظار.

فخر الدين : هل أتم الرجال حفر الخندق الهلالى عند نهاية الجسر ؟

عبد السلام : لم يبق سوى الطرفان المفتوحان على النهر .. فى انظار إشارتك.

فخر الدين : عندما تجتاز مقدمه جيش العدو اول الجسر .. افتحوهما على الخندق .. يندفع اليه الماء .. وتتجرف القواعد .. وينهار الجسر بمن عليه .. ويحمله التيار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثالث

مركز قيادة الصليبين .. الملك لويس ودارتوا ومرافقه وعدد من الجنود قد استلقوا على الارض مبللين بالماء .. بعضهم يئن والبعض يحتضر .. لويس ثائر غاضب

لويس : اللعنة على الكفرة .. اكلما أقمنا معبرا على النهر أسقطوه ؟!

المرافق : وكلما فتحنا منفذا سدوه.

دارتوا : حتى أبراج الحراسة والمراقبة لانكاد نقيمها ونثبت أخشابها .. حتى تنصب عليها قذائف النار من أفواه المجانيق.

المرافق : إنها تتحول إلى أنقاض ورماد على رءوس من فيها من الجند والحراس.

لويس : (آمرا) أقيموا غيرها .. لاتتهاونوا.

المرافق : هل الخشب فى المعسكر.

دارتوا : لم تعد أبراج ولا وقود.

لويس : (ثائرا) حطموا السفن .. خذوا أخشابها واجعلوها للوقود والأبراج.

المرافق : فعلنا. فما أبقت نارهم منها شيئا.

دارتوا : الكرات المشتعله تلقى الرعب فى قلوب الجنود فيتساقطون فزعين.

المرافق : إنها تتهاوى على رءوسهم من السماء شعلا وجمرات .. فيتفرقون هربا فى كل مكان.

دارتوا : لم يعهدوا هذا السلاح النارى من قبل.

لويس يطل فى غضب إلى بعيد .. ويتابعه دارتوا فى قلق ..

لويس (ثائرا) اصنعوا أى شئ .. أى شئ.

دارتوا : مانستطيع أن نصنع .. وقد الزمتنا المقادير أماكننا ..؟

المرافق : الماء والنار تحيط بنا من كل جانب.

دارتوا : لاسبيل لنا لا إلى الأمام ولا إلى الوراء.

لويس : (منفجرا) أيها الجبناء .. ضيعتم نذرى .. أحرقتم قربانى .. فلتحل عليكم لعنة المسيح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

رحبة دار ابن لقمان بالمنصورة حيث مقر الأمير فخر الدين .. وبابها مفتوح على القاعة الداخلية. يدخل على الساحة عدد من المشاعلية يتقدمن هودجا صغيرا يشبه المحمل بداخله شجرة الدر .. أمراء المماليك قطز وبيبرس ومحسن وآخرون فى عدة القتال يسيرون على الأقدام حول الهودج حتى يتوقف قرب الباب .. يتجه محسن لحملة الهودج آمرا.

محسن : أنزلوا المحمل يارجال.

شجرة الدر (وهى تنزل) ترى دار فخر الدين أكثر أمنا من قصر السلطان ؟

بيبرس : القصر أول هدف للعدو يامولاتى .. لو قدر لهم ان يقتحموا المنصورة.

قطز : قبحهم الله .. أيبلغونها ودونها أبطال مثلكم ؟

بيبرس : كل همهم ان يأسروا مولاتنا .. فيتمكنوا من ضربنا فى أعز حرماتنا.

شجرة الدر : أخزاهم الله ..

بيبرس : إن سيوفنا مشرعة فى انتظار ان تحصد منهم الرقاب، لو جرءوا على اقتحام المنصورة.

شجرة الدر : لن يقدروا .. وأنت من أقام استحكامات دفاعاتها يا ركن الدين.

محسن : نصف جيشهم يضيع لو اقتحموها.

بيبرس : قدرنا لكل شئ قدره .. والباقى على المدافعين.

يقترب أحد الجنود من قطز هامسا إليه .. قطز يصرفه وهو يضع خوذته سريعا ويمسك درعه. شجرة الدر تنظر إليه مستفسره.

شجرة الدر : ما وراء الجندى ياقطز ؟

قطز : الفرنج وصلوا الآن إلى بحر أشمون .. واستعدوا لعبور النيل إلى المنصورة.

بيبرس : لايشغلك هذا يا أم خليل .. مجانيقنا جاهزه .. ورجالنا مستعدون.

قطز : سأمضى أنا إلى قواتى .. نقعد لهم على الماء بالمرصاد.

بيبرس : والله مايعبرون النهر ونحن أحياء.

شجرة الدر : أبدا لن يعبروه .. مادام عليه أمثالكم يا أبطال المنصورة.

تتجه شجرة الدر إلى الداخل بينما ينصرف الامراء مسرعين. لا تكاد تستريح فى القاعة الداخلية حتى يدخل أيبك.

أيبك : كنت أفضل أن تكون مولاتنا مع خاصتها فى سمنود .. وهى أكثر أمنا من المنصورة.

شجرة الدر : إن لم تكن المنصورة دار أمن ونصر .. ففى غيرها العزل والشر.

أيبك : قصدت ان تكونى بين خاصتك .. وتدعى الامر هنا للرجال.

شجرة الدر : (معاتبه) خاصتى اليوم الرجال لا النساء .. ألقيتم إلى زمام الدولة.. ووضعتم بين يدى كل أمرها حتى يأتى سلطانها .. فهل أترككم فى حومة الوغى ثم أمضى ؟!

أيبك : إن كان ذلك فمكانى بجوارك .. أحميك من أى باغ يصل إليك بمكروه.

شجرة الدر : (بمرارة) لم يعد مكانك داخل جدران القصور ياعز الدين .. مكانك حومة الوغى وحلبة القتال.

أيبك : فداؤك الروح والحياه حيث تكونين .. أذود عنك أى عدو يبغى أن يصل إليك.

شجرة الدر : لم تنصف قدر مولاتك .. والله لو لم أجد حولى أحدا .. وخطا إلى عدو بعدكم بأذى .. لكان هذا الخنجر اسرع منه إلى قلبى .. لا افتداء لشجرة الدر .. ولكن عصمة لأميرة فى المسلمين .. أن تقع فى أيدى الصليبيين.

أيبك : مرحى لسيدة نساء المسلمين .. وعصمه الدنيا والدين ..

شجرة الدر : فامض مطمئنا على مولاتك .. فهى لو قضت إلى جوار رجالها .. وسال دمها خليطا بدماء أبطالها .. زفت يوم الحشر شهيدة من الشهداء.

أيبك : (بإعجاب) يقل فى الناس مثل هذا التقى .. فأنعم للدولة بسيدتها.

شجرة الدر : الدولة ليست بسلطانها .. بل برجالها ونسائها وأبنائها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : فأنا أصدق رجالك .. وأسبقهم إلى الشهادة فى سبيل مرضاتك .. فضعينى حيث تريدين.

شجرة الدر : أريدك فى القمة بين الأبطال المقاتلين.

أيبك : سأعمل معهم فى سبيل نصر ليس لنا سواه .. يحمى ديننا ودنيانا.

شجرة الدر : إن لم تفعلوا .. فإثمها عليك وعليهم إلى يوم الدين وإنى لاخوضها معكم تحت إمرة قائدنا فخر الدين .. جنديا خاضعا من جنوده .. وسيفا قاطعا من سيوفه والنصر للإسلام والمسلمين.

يرتفع من الخارج صوت الفدائى ابن عبد السلام هاتفا مناديا ينصت الجميع وهم يتدافعون

ابن عبد السلام : انتبهوا يامسلمون .. انتبهوا .. الصليبيون فى بركم .. العدو عبر البحر الصغير إلى المنصورة. هبوا ياعرب .. هبوا يامسلمون.

المشهد الخامس

قاعة قصر السلطان حيث ينزل فخر الدين بعد ترك داره لشجرة الدر .. باب القاعة يفتح فجأة فى ضجيج .. يدخل جنود صليبيون خلفهم دارتوا شاهرا سيفه.

دارتوا : أغلقوا الأبواب .. لايهرب أحد من قصر السلطان.

الجندى : ١- (وقد أطل بعينه) القصر خال

الجندى : ٢- هرب أمراء السلطان.

دارتوا : لن تفلت منى وحق المسيح .. لا هى ولا وصيفتها.

يخرج دارتوا شاهرا سيفه .. فى نفس اللحظة يفتح الباب الداخلى ويندفع منه فخر الدين مكشوف الصدر وهو يفك فوطه حول وسطه ويلقيها بعيدا .. يشهر سيفه وهو بغير درع .. يتوقف الجنود منتبهين إليه وهم يندفعون نحوه .. تدور معركة بالسيوف يسقط فيها جنديان ويستدير الثالث للهرب .. يعود دارتوا مع صوت المعركة ويفاجئ فخر الدين بالسيف فى ظهره.

دارتوا : خذ .. وإلى جهنم.

فخر الدين : آه ياخائن .. اكذا يكون القتال ؟

يسقط فخر الدين راكعا ويده اليسرى على جنبه الجريح، ويحارب بالسيف باليد الاخرى وهو مسطوح على الأرض .. تخور قواه فيتركه دارتوا وقد اطمأن لموته ويغادرون المكان.

فخر الدين : (وهو يحتضر) في ذمة الله سيفي اذ تفارقه كفي وفي صونة مصر وأهليها.

يرتفع صوت الفدائي ابن عبد السلام في الخارج مناديا بقوة

ابن عبد السلام : يا أبناء مصر .. هذا يومكم انقضوا عليهم .. اقذفوهم بالزيت المغلي من النوافذ والشرفات .. اضربوا بكل ماتصل إليه ايديكم .. بالحجارة .. بالسكاكين .. بالهراوات .. بالفئوس احصروهم في الشوارع والحارات .. لايفلت منهم أحد .. لايفلت منهم أحد.

المشهد السادس

الرحبة امام دار ابن لقمان .. دارتوا ورجاله يدخلون مندفعين .. صفية تفاجأ وهي بأسفل الدرج حيث ينقض عليها دارتوا فيمسكها .. صفية تصرخ وهي تقاومه.

صفية : آه يانذل الرجال.

دارتوا : أخيرا ظفرت بك يالعينة.

صفية : النجدة .. الغوث ياركن الدين.

تظهر شجرة الدر أعلى الدرج والسيف بيدها .. دارتوا يترك صفيه لجنوده ويستدير نحو شجرة الدر لمهاجمتها فتضربه بالسيف .. يتراجع دارتوا إلى الوراء بينما يدخل بيبرس وجنوده.

بيبرس : ويحك ياعبد الشهوات ونذل الرجال تقاتل حتى النساء.؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يهاجمه ويتبارزان وتدور معركة بين الجنود

دارتوا : لن تفلت منى اليوم يابيبرس.

بيبرس : فاهرب من الموت ان استطعت.

دارتوا : (وهو يسقط) اه .. قتلنى المملوك.

يستدير الصليبيون هاربين

المسلمون : الله اكبر .. قتل أخو الفرنسيس .. قتل أخو الفرنسيس.

المشهد السابع

ساحة فى الجانب الصليبى .. لويس وحوله عدد من الجنود جرحى معفرين

الجنود : الفرار .. الفرار ..

المرافق : لم يعد هناك أمل يامولاى.

لويس : اقتل دارتوا ؟

المرافق : وقتل ثلاثون الفا من حملة الصليب.

الجندى : ١- جثثهم تغطى الشوارع والحارات.

لويس : (يائسا) اجمعوا شتات الباقين .. والتزموا الدفاع على الجانب الاخر من النهر.

المرافق : لاسبيل يامولاى .. قد حوصرنا.

لويس : والذين سبقوا إلى الشط ؟

المرافق : تنهال عليهم نيران المجانيق .. وتتخطفهم الجماهير أحياء .. ويعدمونهم بالسهام والنبال.

لويس : فليهرب كل منكم إلى حيث يستطيع النجاة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السابع

مقصورة شجرة الدر .. صفية تطل من الشرفة إلى الخارج .. شجرة الدر وسط الايوان وامامها جندى

شجرة الدر : جئت بالبشرى.. فما بقية أنباء الميدان ؟

الجندى : تركتهم والفرنسيون محاصرون ومعهم ملكهم الفرنسيس.

شجرة الدر : حيا الله حماه الإسلام.

الجندى : الهزائم تلاحقهم فى كل مكان .. والذين أعتصموا بالأزقة والبيوت فتك بهم الأهالى والحرافيش.

تسمع أصوات غناء وتهليل

شجرة الدر : ماهذا الضجيج ياصفية ؟

صفية : مواكب الشعب تحمل الأعلام .. إنهم يهللون ويغنون.

الجموع : (تغنى فى الخارج)

قتلنا رجالك يافرنسيس
ودسنا جلالك يافرنسيس
فغادر حمانا وقوض رحالك
وإلا فمنا ستلقى نكالك

صفية : (وهى تنظر للخارج) ببيرس يسير فى المقدمة.. وإلى جواره الأمير أيبك.

شجرة الدر : وماذا ترين أيضا ياصفية ؟

صفية : أسرى مربوطين بالحبال والأغلال ..

يفتح الباب ويدخل أيبك وبيبرس والأمراء ... تحييهم شجرة الدر وهى واقفه ..

شجرة الدر : حيا الله ابطال المنصورة.

أيبك : ادخل اسيرك يابطل الشعب.

يدخل الفدائى ابن عبد السلام وهو يدفع أمامه الملك لويس مكبلا بالحديد محنى الرأس فى ذلة.

أيبك : أيها الفرنسيس .. قدم فروض الطاعة والولاء .. لبطلة دولة الإسلام .. شجرة الدر .. عصمة الدنيا والدين .. وسيدة نساء المسلمين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن
المشهد الأول

غرفه السجن بدار ابن لقمان بالمنصورة .. الطواشي صبيح يقف بسلاحه عند مدخل القاعه ولايتكلم .. الملك لويس يقف والقيد في قدميه يطل من النافذة في سرحة ... الملكة مرجريت بلا قيد بجوارها كونت بواتييه والقيد في قدميه يتهامسان بينما عدد من الأسرى الصليبين يجلسون كذلك

مرجريت : ليتنا بقينا فى بلادنا .. مالنا وبلاد الآخرين.

بواتييه : (بأسى) نذرنا أنفسنا لهدم الإسلام .. وتركيع المسلمين.

مرجريت : ضاع الحلم .. هدمنا أنفسنا .. وركعنا للمسلمين.

بواتييه : كانت رؤسنا فى السماء .. أقدامنا فوق الرقاب .. عيوننا على القاهرة.

مرجريت : كانت القاهرة قربان القديس.

بواتييه : اصبح القديس قربان المنصورة.

لويس : (وهو يستدير إليهما) ويحك يابواتييه .. هل استولى عليك اليأس من رحمة المسيح ؟ هو يمتحننا.

بواتييه : لا أريد هذا الامتحان.

لويس : لن يتخلى عنا الرب.

بواتييه : مضى زمن المعجزات.

لويس : اغفر له يارب .. ضعف قلبه ساقه إلى الخطيئة.

بواتييه : ضعف القلوب سبب هزيمتنا.

لويس : بل ضعف الإيمان .. والغرق فى الخطايا والذنوب.

بواتييه : فأى المعجزات ينتظر القديس ؟

لويس : الحرية .. نفتدى أنفسنا بالمال .. ونعود إلى بلادنا.

مرجريت : تظنهم يقبلون المال .. وفى يدهم عدوهم ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لويس : المماليك يعرفون قدر المال .. به يشترون ويباعون.

بواتييه : لنجرب .. اطلب أحد الأمراء يفاوضنا.

لويس : ولندع الرب .. أن يجعل المال هذه المرة .. أثمن من الملك !

المشهد الثانـــى

قاعة قصر السلطان بالمنصورة. شجرة الدر على الإيوان وأمامها بيبرس وأقطاى والبهاء زهير.

بيبرس : فمن يذهب لمفاوضة الفرنسيس ؟

شجرة الدر : نكلف بها أيبك ..

أقطاى : (باستنكار) الجاشنكير .. يتفاوض باسم الدولة ؟

شجرة الدر : هو الان .. أتابك الجيش.

بيبرس : هى إذن مهمته.

أقطاى : (ساخرا) فليتذوقها .. وتتذوقه.

بيبرس : فما يقول مبعوثنا للملك ؟

زهير : قل للفرنسيس اذا جئته

مقال صدق من قئول نصوح

أجرك الله على ماجرى

من قـــتل عباد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكها

تحسب أن الزمر ياطبل ريح

فكل أصحابك أودعتهم

بحسن تدبيرك بطن الضريح

سبعون ألفا لايرى منهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا قتيل أو أسير جريح

ألهمك الله إلى مثلها

لعل عيسى منكم يستريح

وقل لهم إن أزمعوا عودة

لاخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها

والقيد باق. والطواشى صبيح

المشهد الثالث

القاعة وبينها وبين سجن الملك لويس الباب الذى يقف عنده الطواشى صبيح .. صبيح يواجه الاسرى محدثا الملك.

صبيح : الامير عز الدين أيبك .. مبعوث سيدة نساء المسلمين شجرة الدر .. يأذن للملك بالدخول.

ينهض الملك ويسير بقيوده متباطئا نحو باب القاعة وخلفه بواتيه ومرجريت .. يبدو أيبك فى القاعة متصدرا المكان .. وحين يدخل الملك لويس يحنى أيبك رأسه مرحبا..

أيبك : مرحى بالملك ورجاله .. فك القيود ياصبيح .. هم الآن ضيوفنا ..

مرجريت : شكرا للامير.

أيبك : عذرا للملكة .. يعز علينا ان تكونى هنا .. وأنت ضيفة مولاتنا.

مرجريت : مكانى بجوار الملك.

لويس : شكرا للاستجابة لدعوتى ايها الأمير.

أيبك : فهل للملك ان يجيبنى .. لماذا جاء يغزونا .. وقد جاء من قبله يوحنا دوبريان .. فأخزيناه بقوة الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لويس : لو سقطت مصر .. لانهزم عالم العرب والإسلام .. وعاد لنا بيت المقدس.

أيبك : كل حملاتك الصليبية تكسرت على صخرة عالمنا .. بقوة ضرباتنا.

لويس : كانت خيانة فى الصفوف .. وضعفا فى الإيمان.

أيبك : كانوا يلتمسون الصلح ضارعين .. ونجيبهم مكرهين .. ويقسمون ونقسم على الولاء للسلام .. فلم عدتم إليها ؟

لويس : هو عهد مع المسيح .. ولست أنقض العهد.

أيبك : (مغيظا) لم ينصرك ربك .. ولو كنتم على حق ماانهزمتم.

لويس : لم نعمل حساب وحدتكم.

أيبك : بالوحدة ردت مصر عليكم كيدكم وحطمت حملتكم .. وبعثرت قواكم .. ومرغت كبرياءكم.

لويس : كان ماكان أيها الامير .. فهلا قبلتم فدية عنى ورجالى .. تفكون أسرنا .. ونخلى لكم دمياط ؟

أيبك : فكم الفدية ؟

لويس : خمسمائة الف دينار.

أيبك : اسمع منك ولا اعدك .. وان كنت تساوى ثمنا اكثر .. فكيف دفعها ؟

لويس : نضعها برهن اخى بواتييه حتى نصل إلى دمياط.

أيبك : لانقبل الرهن .. الدفع أولا.

لويس : فأذنوا للملكة تجمع الفدية من رجالنا فى دمياط.

أيبك : لو قبلنا .. فبشرط ان تنسحب نصف الحامية قبل عودة الملكة ورحيلك إلى دمياط.

لويس : أقسم بالله ان أفى لكم بنصف الدين الباقى .. إن اطلقتم سراحى وقومى.. ثم حفظتم لى قواتى التى فى دمياط حتى آخذها ولم تقتلوا من بها من المرضى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

قاعة قصر السلطنة بالمنصوره .. السلطان طورانشاه. فتى يبدو عليه النزق يجلس على الاريكه وفى يده تاج السلطنة .. يتأمل الرداء الملكى الذى يلبسه فى سعاده، ويحركه يمينا ويسارا .. يدخل اقطاى وينحنى أمام السلطان مرحبا.

أقطاى : مرحى بالملك المعظم طورانشاه .. سلطانا على مصر والشام. وخلفا لصلاح الدين على عرش بنى أيوب.

طورانشاه : أحسنت اذ تناسيت أبى الصالح .. فما كان يبغينى لها.

أقطاى : كان حقك .. فجئت بنفسى إليك.

طورانشاه : عن نفسك .. أم عن امرأة أبى ؟!

أقطاى : أجمعنا عليها .. فنقلتها إليك .. قبل ان تذهب لسواك.

طورانشاه : حفظنا لك بادرتك يا أمير. بارك الله حكم السلطان .. بإذنك.

يخرج والسلطان يتابعه بنظرات ساخرة

يدخل ابن الطوارى صاحب طورانشاه وينظر إليه مترددا.

طورانشاه : ما وراءك يا ابن الطوارى ؟

ابن الطوارى : شجرة الدر .. جاءت تبغى لقاء السلطان.

طورانشاه : (باستخفاف) ألم تبلغها اكثر من مرة .. انى مشغول بأمور الدولة وشئون الحرب ؟

ابن الطوارى : (ناصحا) أفضل ان تستقبلها وقد جاءت بنفسها إليك.

طورانشاه : لا وقت عندى أضيعه.

ابن الطوارى : لاتغضبها يامولاى .. ماتزال فى نفوذها وقوتها.

طورانشاه : (بحدة) ستفقدهما .. حين اقصى رجالها ..

شجرة الدر : (تظهر عند الباب) ليس من حقك أن تفعلها ياطورانشاه.

طورانشاه : (فى تثاقل) مرحبا يا امرأة أبى.

شجرة الدر : تمنيت أن اكون أول من يرحب بولدى .. إذ يجئ للقاء أمه التى حفظت له العرش.

طورانشاه : رحم الله أمى .. علمتنى أن أمنح كل وقتى لأمور الدولة.

شجرة الدر : أليس من أمور الدولة أن تلتقى بمن حفظتها لك ونقلتها إليك ؟

طورانشاه : نفذت وصية أبى.

شجرة الدر : يعلم الله أنى وليتك الملك بعد أبيك بلا وصاية .. صونا لمصر .. وحفاظا على ملك بنى أيوب.

طورانشاه : زورت خاتمه على الناس بولايتى للعهد.

شجرة الدر : قد أكون خنته .. ولكنى لم أخن ولده .. ولا خنت ربى وشعبى.

طورانشاه : من يخون أبى يخوننى.

شجرة الدر : تقولها لى .. ومافعلت كان حسن ظن بك وأمانة لك ؟

طورانشاه : (ساخرا) أما اردت أن تعهدى بها لفخر الدين ؟

شجرة الدر : لو اردت لفعلتها .. ارادها أبوك ورفضها فخر الدين.

طورانشاه : أما سلمته كل الامر .. لولا أن أورده الله حتفه ؟

شجرة الدر : رحم الله شهيدا قضى .. فما خان الأمانة .. ولا أساء لصاحبها.

طورانشاه : تعرفينى إذن أنى صاحب الأمر .. على الجميع طاعتى.

شجرة الدر : لهذا جئت أدعوك لرعاية الأمانة التى توليتها فى غيبتك ..

طورانشاه : (ساخرا) أرعاها بدعوتك ؟! فكيف ؟!

شجرة الدر : تحسم أمر الفدية التى عرضها أسيرنا.

طورانشاه : لن افك أسر الملك.

شجرة الدر : (بقوة) بل تنفذ ما وعدنا .. ويرحل الملك مع جيشة عن بلادنا.

طورانشاه : ذلك أمر اقدره بنفسى .. لا أسمح لأحد بالتدخل فيه.

شجرة الدر : أنا ورجالى من أسرنا الملك.

طورانشاه : فعلتم نيابة عن السلطان .. والآن .. جاء السلطان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الخامس

دار عز الدين أيبك حول النافورة .. الامراء أيبك وقطز وبيبرس وأقطاى يتناقشون

بيبرس : لم أطمئن لهذا النزق أبدا .. ولا وثقت به.

أيبك : هى ذلة يريدها لنا .. بعد أن قبلنا من الفرنسيس .. وقبل منا.

أقطاى : (بحدة) بالرغم من السلطان .. ننفذ ما رأيناه.

بيبرس : هو الان صاحب الكلمة.

أقطاى : من لايحترم كلمته .. فلا كلمة له.

قطز : (ساخرا) نسيت أن كلمته .. أخذت لك بثأرك من فخر الدين.

أقطاى : كنت اتمناها .. لو كان الرجل حيا.

أيبك : هى كلمه غدر من طوران .. أن يأمر بسلب المال والمتاع من دار رجل مات فى سبيل الله والإسلام.

بيبرس : أليس غدرا أيضا أن يتنكر لشجرة الدر. ولولاها مادعاه داع إلى العرش؟

أيبك : كاد يقصى كل مماليك أبيه .. الأمراء البحرية .. وهم من حموا عرش الصالح ليكون لولده.

أقطاى : غلبه أصحاب السوء.

قطز : يدفعونه للغدر بأمراء المماليك.

أيبك : زينوا له البطش بأصحاب أبيه لينفردوا بالرأى والمشورة.

بيبرس : أرادوه فى يدهم العوبه.

أيبك : نحن أحق بها فلنسبقهم إليها.

المشهد السادس

قاعة قصر السلطنه بالمنصورة. مجلس طرب ورقص وغناء وطوران شاه مضطجعا على أريكته، وحوله حاشيته يشربون ويصخبون ..

ابن الطوارى : فعلت خيرا .. خففت بالرقص .. ثقل مايملا القلب من عناء.

طورانشاه : عناء .. وانت قوة الملك ويمناه ؟

ابن الطوارى : لهذا عنائى .. فما الملك والقوة إلا بيد شجرة الدر.

طورانشاه : عليها اللعنة .. إنما أنا صاحب الأمر والنهى فى البلاد.

ابن الطوارى : لست سوى خيال للحكم .. أنت بجوارها ضعيف عاجز.

طورانشاه : أنا السلطة.

ابن الطوارى : ليس قبل أن تزيحها من الطريق.

يستمر الرقص والغناء .. فى نفس الوقت تكون صفية فى شرفة مقصورة شجرة الدر المطلة على القاعة .. فتأخذ صفية عودها وتغنى لنفسها بصوت خافت.

صفية : سيدى قلبى عندك

سيدى اوحشت صبك

سيدى قل وحدثنى

متـــى تنجـــز وعـدك

يصل الصوت إلى القاعة حتى يبلغ آذان طورانشاه. الذى ينصت فى دهشة .. ثم يطل إلى البهاء زهير

طورانشاه : من صاحبة هذا الصوت ؟

زهير : جارية من حريم القصر.

طورانشاه : فى قصرى ؟ هى إذن ملكى.

زهير : (محذرا) هى وصيفة شجرة الدر.

طورانشاه : كل من ملكه أبى .. فهو ملكى .. ولأجلى تغنى.

البهاء زهير : احذر يامولاى .. غناؤها لفتاها ركن الدين.

طورانشاه : اللعنة على المملوك .. فليعلم أن من يملكها السلطان .. لاتكون لغير السلطان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السابع

داخل مقصورة شجرة الدر .. صفية تدخل مهرولة عليها وقد تمزق ثوبها .. تطل إليها شجرة الدر فى استغراب.

صفية : الحماية يامولاتى.

شجرة الدر : من فعل بك هذا ؟

صفية : السلطان.

شجرة الدر : مالك والسلطان ؟

صفية : لايريد أن أكون لبيبرس.

شجرة الدر : وما شأنه بذلك ؟

صفية : يدعونى إلى مالا أطيقه. ولا يطيقه بيبرس.

شجرة الدر : ويجرؤ عليها الفاسق ؟!

صفية : مزق ثوبى .. ففررت من بين يديه .. ألتمس حمايتك.

شجرة الدر : يفعلها وهو يعرف أنك لبيبرس ؟

صفية : ويعرف مكانى من مولاتى.

شجرة الدر : .. لن أنساها له .. ولن ينساها ركن الدين ..

المشهد الثامن

قاعة قصر السلطنة .. طورانشاه على الإيوان وإلى يمينه ابن الطوارى ويقف أمامه عدد من الأمراء بينهم أيبك وبيبرس واقطاى.

طورانشاه : أباسم أمراء الأجناد تتكلم يا أيبك ؟

أيبك : الأمر شورى بيننا .. وحين يجل الأمر نستفتى السلطان ..

طورانشاه : (بغضب) افتوى فى امور الدولة؟ انما لى الامر وماعليكم إلا البلاغ.

أيبك : هو أمر بداه الأمراء .. ولهم أن يحسموه.

طورانشاه : (بسخرية) فأى أمر هذا الذى لايحسمه السلطان.

بيبرس : امر ملك الصليبيين.

طورانشاه : الأسير .. فما خطبه ؟

أيبك : مازال من جنده فى دمياط كثيرون .. يعتصمون وراء أسوارها .. ويستعدون للرد على جيوشنا.

طورانشاه : هل يعز عليكم فتحها ؟

أيبك : لايعز معقل على جند مصر .. إنما نفضل جلاء العدو بالسلم ما استطعنا منع سفك الدم.

طورانشاه : ليس من حقكم أن تتشاوروا فى أمر من أمور دولتى.

ابن الطوارى : إن شئتم ان تسلبوا السلطان حقه .. فإنما أنتم باغون.

بيبرس : نحن مخلصون للدولة وسلطانها.

طورانشاه : لو كنتم .. كان عليكم .. إبلاغى بالأمر .. ويكون لى فيه شأنى .. قبلت أم رفضت.

أيبك : أيها السلطان .. لم نخرج بالأمر حد تقرير شروط الاتفاق بيننا وبين عدو قديم .. لم يكن لك أمره ولا هزيمته.

طورانشاه : أهو التمرد والتيه على السلطان ؟

أيبك : بل نشهد الله اننا رعينا كرامة صاحب السلطان .. وفينا لبيته ولأبيه .. وللبلد الذى وليناه سلطته باختيارنا .. وإجماع رأينا.

طورانشاه : هو حقى .. أطمعتم فى تراثى وتراث ابائى ؟

بيبرس : كان بين أيدينا .. فحفظناه وحميناه.

طورانشاه : اتتيهون على ؟

اقطاى : بل انت الذى تغض منا .. وتصغر من شأننا .. وتستريب فى كل أمر من أمورنا.

طورانشاه : أنا احافظ على كرامة الملك.

أيبك : نحن من حفظنا لك الملك..

قطز : كان يدعيه أربابه من أعمامك .. ومن غلبهم عليه أبوك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طورانشاه : سددت الدين .. فحفظت لكم المناصب .. ولم أقص أحدا من الرجال.

أيبك : الرجال صنعوا النصر وليعلم الجميع أن فى مصر أبطالا .. وأن امرأة مصرية، خير من رجال كثيرين..

طورانشاه : (ثائرا) أكذلك تخاطبون مولاكم ؟

بيبرس : (وقد وضع يده على سيفه) كان للناس أن يقوموا عمر بحد السيف .. فبأى حد نقومك أنت ؟

طورانشاه : (متراجعا بخوف) لو تركتمونى وشأنى .. صنعت مايستوجبه الدين.

أيبك : الدين يأمر بالشورى .. والرأى للجماعة .. وقد رأينا أن تقابل الملك الأسير.. ونوقع الاتفاق .. ونحن الحراس على العهد والتنفيذ.

المشهد الثامن

فى مقصورة شجرة الدر .. ومعها صفية

شجرة الدر : لم يكن ضيقى لوعد لاينفذه .. ولكن لأنها كلمة مصر .. وعدت بها باسم مصر.

صفية : الحمد لله وفيت بوعدك.

شجرة الدر : فلعلهم يحفظون كرامة الأسير .. فينصرف حاملا لمصر التبجيل والتقدير.

صفية : رجالك لن يجعلوا الحرب مذهبة للمروءة.

شجرة الدر : يعلم الله أنى بذلت جهدى لأحمى بلاد الإسلام من الفرقة والانقسام .. وتركت حول السلطان رجالا يأبون لها أن تسام أو تضام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد التاسع

قاعة قصر السلطنة .. طورانشاه على الإيوان، وحوله الأمراء جالسين فى ثبات.

أيبك : بعثنا فى طلب ملك الفرنسيس .. فالآن تستقبله .. وتوقع الاتفاق معه.

طورانشاه : (باستسلام) والفدية .. الا تزيد قدرها ؟

أيبك : بل تنقص منها .. ذلك أدعى للثناء.

طورانشاه : وأين يكون وقوف الملك ؟

أيبك : بل تأذن له بالجلوس .. وتودعه وداع الملوك.

بيبرس : ذلك اليق بالكرامة .. له ولنا.

تدخل شجرة الدر فيقف لها الأمراء ماعدا السلطان ..

شجرة الدر : سلام على أبطال المنصورة.

الجميع : وعلى حامية مصر السلام.

شجرة الدر : والله ما اطمأن قلبى منذ فقد مولاى الملك الصالح إلا الآن .. إذ اجتمعتم بولدى السلطان المعظم طورانشاه .. لتعملوا يدا واحدة من أجل مصر والإسلام.

يتنفس السلطان فى راحة، وتتجه أنظارهم إليه ولكنه لايرد ..

أيبك : نحن قوم لانبتغى غير وجه الله والوطن.

شجرة الدر : فالآن يحق لى إن أشهدكم .. انى برزت بقسمى لله ووعدى لمن قضى..

الجميع : نشهد أنك وفيت.

شجرة الدر : ولتشهد مصر أنكم حماتها .. لن تضام ما أخلصتم لها . وتعاونتم لرد أعدائها..

أيبك : نحمد الله ان تم على يدك النصر .. ياحامية مصر ..

شجرة الدر : (وهى تخرج) اللهم اشهد أنى وفيت .. وسلام على من اتبع الهدى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجميع : وعلى عصمه الدين السلام.

أيبك : (معاتبا) لو اخلصت النية .. لوقفت إجلالا لمن دعتك ولدها بعد أن أسأت إليها.

بيبرس : لو كنت كريما .. لرددت عليها السلام أيها السلطان ..

طورانشاه : (بغضب) ماهذه الذلة ..؟ أما كفاكم ما مضى ؟ أكذا تذل الملوك ؟

أقطاى : حين يكون الملوك صغارا.

طورانشاه : ويحكم .. اذهبوا عنى .. ولن أنتظر حتى يأتى اسيركم.

بيبرس يخرج سيفه ويواجهه ويجردون سيوفهم وهم يلزمون الأبواب .. يتوقف طورانشاه فى ذعر.

بيبرس : سيوفكم يارجال.

أيبك : أنت لاتملك الآن شيئا .. بقاؤك وذهابك ملك للأمة .. فإن أنت لم تقف وتلاقى الفرنسيس باسمها .. فقد نزلت عن العرش.

بيبرس : لن تعدم مصر من رجالها ملكا.

طورانشاه : لا أريد سلطنتكم .. دعونى أرجع إلى كيفا.

صبيح : (وهو يدخل) جاء ملك الفرنسيس.

أيبك : اجلس على عرشك .. أو يجلس غيرك ايها السلطان.

يتردد طورانشاه .. ثم يتجه إلى الإيوان

بيبرس : أرنا جلال بنى أيوب .. قد كانوا قوما كابرين.

يأخذون أماكنهم حول الإيوان .. يدخل الملك لويس وبعض رجاله بدون قيود يتبعهم صبيح ..

لويس : السلام على الملك المعظم طورانشاه .. سلطان مصر والشام.

طورانشاه : (متلطفا) وعلى ملك فرنسا العظيم السلام.

لويس : حفظتم أرواحنا ..وحميتم رقابنا .. فشكرا لك ولقومك أيها الملك العظيم.

طورانشاه : قد آذنتنا بالفراق .. فلعلك تنسى ما أسأنا به إليك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : ان يغلب الملك فى بلادنا ففرنسا باقية .. أما نحن فان نقهر هنا .. ضاعت بلادنا .. فالعذر واضح.

لويس : لو بصرنى ربى بأمركم من قبل .. ووفقنى إلى سر دينكم .. ما ألقيت بقومى فى مقاتلتكم.

طورانشاه : فلعلك تعدنا الا تغامر بقومك فى قتالنا بعد اليوم.

لويس : لك العهد منى أيها السلطان .. وقسما لن نعود إلى مثلها .. فقد علمنا رجال مصر .. كيف يكون النضال حتى النصر .. أو الموت.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع
المشهد الأول

مقصورة شجرة الدر .. السلطان طورانشاه يقف امامها فى تحد ظاهر .. تواجهه هى باستغراب وخلفها صفية.

شجرة الدر : أموال المسلمين ؟ اتجرؤ عليها ياطوران ؟

طورانشاه : (بعنف) بيت المال كان عامرا ايام أبى .. فأين أخفيت المال ؟

شجرة الدر : دعنى أيها السلطان وإلا ندمت.

طورانشاه : لا أدع من تسرق بيت مال المسلمين.

شجرة الدر : اتفترى على ؟ ان كنت لاتجد مالا .. فقد انفق على الجند .. ورد كيد المعتدين.

طورانشاه : وضرائب العشور .. اين ذهبت ؟

شجرة الدر : تأجلت جبايتها .. فالشعب تشغله المقاومة.

طورانشاه : وأموال أبى ؟

شجرة الدر : بقى منها القليل .. ينفق على خمرك ونسائك ومواليك.

طورانشاه : بل تبددينه بلا رقيب ولاحسيب.

شجرة الدر : فأقلنى وتولاه .. وأذن لى بمغادرة قصرك .. فما عاد لى فيه بقاء.

طورانشاه : (بصلف) لن تغادريه .. حتى تسلمى حقائب الدر والجوهر والياقوت.

شجرة الدر : أبوك أهداها لى .. فهى ملكى بشرع الله.

طورانشاه : بل أخذها لقاء ماسرقت وبددت.

شجرة الدر : (بتحد) لن تقدر على ما أملكه .. وقد وهبته لله ولرسوله.

طورانشاه : تخادعيننى يالعينة ؟

شجرة الدر : رصعت باغلبها كسوة المحمل وهو يسافر بالحج إلى بيت الله وقبر رسوله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طورانشاه : تكذبين .. فأين الباقى ؟

شجرة الدر : أحفظها .. لاهبها مقصورة النبى .. حمدا لنجاة مصر .. وانتصار الإسلام.

طورانشاه : فأين هى الآن ؟

شجرة الدر : فى قلعة الجبل .. فإن شئت ان تأخذ مال الله ورسوله .. فأنت وشأنك .. ودعنى أمضى.

المشهد الثانى

الفسطاط بمقر السلطان طورانشاه .. وهو مشغول بوضع الشموع فى الشمعدان صفوفا متتابعة يشعلها .. يتابعه ابن الطوارى وهو يحدثه.

ابن الطوارى : اقض عليهم قبل أن يقضوا عليك.

طورانشاه : سأقصيهم .. واسترد من يدهم سلطانى.

ابن الطوارى : ولو فعلت .. فلن تتمتع بسلطتك .. ومنافسوك يسرحون ويمرحون.

طورانشاه : بل سأفتك بهم جماعة واحدة .. فى ليلة واحدة.

ابن الطوارى : لاتبق أحدا منهم حيا.

طورانشاه فى ثورة يستل سيفه ويمسك به منقضا على الشموع يطيح رءوسها المشتعلة وهو يصيح بنشوة.

طورانشاه : لن يظلوا أحياء .. فكذلك أفعل بالمماليك البحرية

يفتح الباب فجأة .. ينقض الامراء بيبرس وأيبك وأقطاى وقطز فيتوسطون القاعة وسيوفهم مشرعة .. ينهال بيبرس بالسيف على السلطان الذى يحاول أن يتفادى السيف فتجرح يده.

طورانشاه : أهكذا تفعلون بسلطانكم وصاحب الطاعة عليكم ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : بل كذلك نفعل نحن بالمستبد.

طورانشاه : (محاولا الهرب) ما فعل بى ذلك إلا البحرية .. والله لا أبقيت منهم بقية.

يخرج وخلفه بيبرس مندفعا

أيبك : سدوا عليه منافذ النجاة.

أقطاى : لقد لجأ إلى البرج الخشبى.

قطز : سأشعل فيه النار.

طورانشاه : (من الخارج) لا أريد ملكا .. خذوا ملككم واحفظوا لى حياتى.

أيبك : أخرسه ياقطز.

طورانشاه : أما من أحد يعصمنى .؟ ألا من يجيرنى وينجينى ؟

أقطاى : (وهو يخرج) سيفى يجيرك وينجيك.

أيبك : الحق به .. لقد ألقى بنفسه فى النهر لينجو.

أقطاى : لانجوت إن نجا.

يرتفع صوت صراخ طورانشاه .. يطل أيبك بعيدا فى حقد وانتصار وهو يعيد السيف إلى غمده.

أيبك : اليوم انتهى أمرك ياطوران .. تموت حريقا غريقا قتيلا .. مبغوضا من الرعية .. مذموما من الناس ..

المشهد الثالث

قاعة قصر السلطان بالمنصورة. شجرة الدر واقفة قرب الإيوان فى مواجهة باب القاعة فى قلق .. فى جانب القاعة يجلس الشيخ ابن عبد السلام بحيث لايراه الداخل من الباب. يدخل عز الدين أيبك فتلتفت إليه شجرة الدر.

شجرة الدر : مرحى بالأمير عز الدين .. قد بلغنا بلاؤك فى إنقاذ البلاد من ذلك الغلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : نال الغادر مايستحق.

شجرة الدر : فلم تأخرت فى إبلاغى حتى سبقك الشيخ بالبشارة.

أيبك : شيخ الحرافيش ؟! اتجسس علينا ؟!

شجرة الدر : لاتسئ الظن بالرجل.

ابن عبد السلام : جئت المنصورة استنجز انسحاب الصليبيين من دمياط .. واستأذن ان ندهمهم لو نقضوا العهد.

شجرة الدر : بوصوله .. شهد حريق البرج. وغرق السلطان.

أيبك : فكيف تقبل بطل الشعب لما كان ؟!

ابن عبد السلام : استهان السلطان بالشعب .. فهانت حياته على الشعب.

أيبك : لهذا نفذنا كلمة الشعب.

ابن عبد السلام : يهمنا الآن جلاء الأعداء. فهل نقضوا الاتفاق ؟

أيبك : حاميتهم فى دمياط طلبت مهلة لجمع الفدية.

ابن عبد السلام : عسى ألا يكون تأخيرهم فى انتظار الأمداد.

أيبك : نحن لهم. لو نقضوا العهد.

ابن عبد السلام : وإن عيوننا بالمرصاد بإذنك ياسيدى (يخرج).

أيبك : لعلك الآن راضيه عن عز الدين.

شجرة الدر : ليست أول مرة تبرهن على صدق مودتك وإخلاصك لشجرة الدر.

أيبك : (بحب) نفسى فداء من ملكت النفس .. وتعرف مايملأ القلب.

شجرة الدر : أنا أسيرة ودك ياعز الدين.

أيبك : يكفينى منك لفتة رضى .. لاسيما بعد أن صرت ملكة المسلمين.

شجرة الدر : ملكة المسلمين ؟

أيبك : بعد أن لقى السلطان حتفه .. اجتمع الأمراء لبحث من يتولى السلطنة.

شجرة الدر : أليست لبنى أيوب.. أصحابها وورثتها ؟

أيبك : جربنا مصيرنا معهم .. كفاهم منا .. وكفانا منهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : شعب مصر والشام .. لايعترف بملك من غير بنى أيوب.

أيبك : أخترنا الطريق الوسط .. ملكة هى امرأة الملك الصالح وأم ولده خليل .. وهى أيضا بعض منا .. ومن بنى جلدتنا. تغار علينا .. ولاتغدر بأحد منا.

شجرة الدر : معاذ الله أن أغدر أو اكون من الخائنين.

أيبك : فنحن يامولاتى طوع إرادتك فيما تأمرين.

شجرة الدر : وأين الامراء ؟

أيبك : غدا يجتمعون فى قلعة صلاح الدين .. لإعلان تولية عرش مصر والشام .. لعصمة الدنيا والدين .. أم خليل ملكة المسلمين.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل العاشر
المشهد الأول

قاعة العرش بقلعة صلاح الدين بالقاهرة .. حاملو الأبواق وقارعو الطبول عند القاعة يعلنون دخول السلطانة شجرة الدر .. يدخل موكب من الرجال يرفعون قبة من الحرير المطرز بالذهب قائمة على أربعة أعمدة أرخيت ستائرها. يضع الرجال وهم الأمراء بيبرس وقطز وأقطاى ومحسن القبة فى صدر القاعة .. الأمير عز الدين أيبك يجلس أمام القبة فى وسط الإيوان. وعلى الجانبين يقف الأمراء.

أيبك : أيها الأمراء والقواد .. لايخفى عليكم ما أصاب الملك المعظم طورانشاه .. إنه أساء السيرة .. فوقع عليه القضاء.

القاضى : كل إنسان وما جنته يداه.

أيبك : الآن خلا كرسى السلطنة . .فلم نجد أولى به من مولاتنا أم خليل.

الجميع : بوركت صاحبة الملك الصالح.

أيبك : اجتمع رأى الأمراء والنواب والقضاة .. على اختيارها ملكة تتولى شئون الدولة.. بمساعدة القادة والنواب.

الأمراء : عهد علينا نحن أصحاب السيوف.. أن نطيع الملكة لإحقاق الحق.. وحماية شرائع الدين.

أيبك : فليدع للملكة شجرة الدر على المنابر .. بعد مولانا أمير المؤمنين..

الجميع : حفظ الله أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.. المستعصم بالله العباسى.

أيبك : ولينقش على الدراهم والدنانير اسم الملكة .. وتصدر باسمها الأحكام.

القاضى : (يدعو وخلفه الجميع) احفظ اللهم.. سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع .. ملكة المسلمين .. عصمة الدنيا والدين .. ام خليل المستعصمية.

يشير أيبك إلى صاحب الستار الواقف بجوار القبة .. يزاح الستار فتظهر شجرة الدر داخل القبة .. على رأسها العصائب السلطانية وهى صفراء عليها ألقاب الملكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطرزة بالذهب .. ينحنى الجميع فى تبجيل داعين - تخاطبهم شجرة الدر من مكانها.

شجرة الدر : باسم الله اشكر لكم مروءتكم .. وحسن ظنكم .. ولايسعنى إلا الموافقة على ما أتفقتم عليه.. وانتم نخبة رجال البلاد وأصحاب سيوفها.

الجميع : اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين .. عصمة الدنيا والدين.

شجرة الدر : اعتمادا عليكم وثقة بكم .. اقبل هذا المنصب .. على أن تشيروا على.. وتأخذوا بيدى.

الجميع : نحن طوع أمر مولاتنا .. نفديها بالنفوس والأرواح.

شجرة الدر : وإن رأيتم .. فإنى أعهد إلى الأمير عز الدين أيبك .. تدبير المملكة باسمى .. كبيرا لامنائى.

الجميع : حفظ الله اتابك جيش مصر.

شجرة الدر : وباسمكم اولى الأمير ركن الدين بيبرس الداوداريه الخاصة وإدارة شئون القصر والديوان.

بيبرس : أنى رهن إرادة مولاتى فى كل ما تامر وتشير.

شجرة الدر : وباسم الشعب اثبت اصحاب المناصب الموالين لنا فى مناصبهم .. من أصحاب الأقلام وأصحاب السيوف ..

أقطاى : قبلنا وأطعنا ..و ليوفقنا الله لخدمة البلاد فى ظل الملكة المعظمة.

شجرة الدر : ليمنحنى الله القدرة على حمل عبء ما أوكلتم إلى .. بمباركة وتأييد أمير المؤمنين المستعصم بالله .. خليفة الإسلام والمسلمين ..

المشهد الثانى

الشرفة خارج مقصورة شجرة الدر ومعها أيبك

شجرة الدر : ما أجمل ضوء القمر على صفحة النيل.

أيبك : أجمل منه الجلوس بين يديك .. والتمتع بحديث من بين شفتيك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : لم يعد فى حديثنا متاعب الحكم .. ومشاكل أصحاب المناصب.

أيبك : وهل أقدر منك على تدبيرها .. وقد خصك الله بمواهب لم يخص بها أحدا سواك.

شجرة الدر : ليس فى النساء من تطمع فى بعض مانلته .. ومع هذا فما أثقل العبء الذى حملته.

أيبك : زادك الله رفعة وقدرة.

شجرة الدر : ذلك والله سبب شقائى.

أيبك : شئ يثير متاعبك .. تخفينه عنى.

شجرة الدر : لا أخفى سرا .. ومالى شاغل سواك.

أيبك : فما يشغلك يا أحب الناس ؟

شجرة الدر : لم يأت من الخليفة مايقرنى على السلطنة ياعز الدين .. وأحس أن حكمى لايقبله الشرع والدين.

أيبك : الأنك امرأة ؟

شجرة الدر : ذلك ذنبى عند الناس.

أيبك : أينسون أن هذه المرأة .. قدمت لشعبها ما لم يقدمه الرجال ؟

شجرة الدر : بلسان الدين يقولون .. ماعزت مملكة تحكمها امرأة.

أيبك : عز ملكك ياشجرة الدر .. لم تخرجى عن الشرع، وأقمت دولتك على الشورى .. وأحسنت التدبير والإدارة .. فحطمت عقدة سوء ظن الرجال بالنساء.

شجرة الدر : تقولها أنت .. فماذا يقول الخليفة ؟

المشهد الثالث

قاعة العرش بقلعة الجبل بالقاهرة .. الإيوان خال .. بيبرس وأقطاى وقطز وعدد من أمراء المماليك ورجال مصر وقوف .. ويقف أمامهم مبعوث خليفة بغداد يقرأ عليهم كتاباكان مطويا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسول : إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا .. حتى نسير إليكم رجلا .. أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ؟

أقطاى : (بحيره) هذا كتاب أمير المؤمنين .. فردوا رأيكم.

بيبرس : اجتمعنا على الشورى .. فلا رأى إلا بوجود مولاتنا.

صوت شجرة الدر : أنا معكم أيها الأمراء.

شجرة الدر تظهر عند الباب فيقفون لها توقيرا .. تسير حتى تجلس على الإيوان.

شجرة الدر : سمعتم ما رأى أمير المؤمنين .. وكان قبولى للمنصب عملا برأيكم.

بيبرس : ولبيناك بقناعتنا وإجماعنا.

قطز : أردنا أن تستقر الأحوال بعد اضطرابها.

بيبرس : لولاك ماتحقق هدف ولا استقر حال.

شجرة الدر : النساء لايصلحن للسلطة .. وصدق الخليفة.

عبد السلام : ليس من سمع .. كمن رأى.

شجرة الدر : طاعة الخليفة فرض على كل مسلم .. وإنى اشهد الله أمامكم أنى أخلع نفسى من السلطنة .. واطلب إليكم أن تختاروا من يتولى الأمر .. وإنى له أول الخاضعين.

بيبرس : تنازلك لاتملكينه .. نحن نرفضه.

شجرة الدر : ليس الأمر أمر ولاية .. بل شعب تتهدده الأخطار.

قطز : تحقق فيك أمله .. فكيف تتخلين عنه ؟

شجرة الدر : دون ذلك انقسام يمزق الوحدة ويضيع الأبرياء.

أقطاى : نحن لمثيرى الفتن ومدبرى المؤامرة.

شجرة الدر : أتمزيق للشعب .. أم فتنة تتيحون أسبابها للطامعين والحاقدين.

بيبرس : لانبغيها فتنة .. ولكن تنازلك يحيى آمال بنى أيوب.

أقطاى : أبدا لانردها لهم .. أخذناها بحق النصر.

قطز : بنو أيوب ضيعوا عرشهم حين قسموا الدولة إمارات .. فوطأتها أقدام الغزاة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : لن نعصى أمر الخليفة.

بيبرس : فلسنترضيه.

شجرة الدر : لن يخلع شارة السلطنة على امرأة.

أقطاى : إن كانوا يريدون رجلا .. فلنبحث عن خيال مآته.

بيبرس : دمية على رأسه العمامة .. والامر لنا وللسلطانه.

قطز : أشريك آخر تضعونه على السلطنه ؟

بيبرس : بل إمعه .. له الاسم دون الحكم.

قطز : أمهزله تريدون ؟

بيبرس : بل حل أمثل.

أقطاى : فلتختر السلطانه زوجا .. ليس له إلا التوقيع .. تحكم باسمه .. وترضيه بلقبه.

بيبرس : ليس لذلك إلا واحد.

الجميع : الجاشنكير .. عزْ الدين أيبك.

المشهد الرابع

مقصورة شجرة الدر ومعها أيبك وهما يجلسان متقاربين على الأريكة وكل منهما يلاطف الآخر.

شجرة الدر : أملىْ فيك .. وعرشى لك.

أيبك : حفظ القلب ما ملك.

شجرة الدر : أنت الآن سيدى ومولاى.

أيبك : لملكتى النهى والأمر .. لها الطاعة فى السر والجهر.

شجرة الدر : اخذت بيدك .. فخذ بيدى .. لاتشمت الناس بى ..

أيبك : أشماته وأنت الملكة ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : لم أعد ملكة .. بل زوجة الملك.

أيبك : أنا ملك .. لانك زوجتى.

شجرة الدر : (بتدلل) لست سوى نصف زوجة.

أيبك : (فى مفاجأة وحيره) تعنين أم على ؟

شجرة الدر : ماتزال زوجتك.

أيبك : بل جاريه وأم ولد .. ولازوجة غيرك.

شجرة الدر : وتطلقها يا أيبك ؟

أيبك : لن تمت لى بسبب.

شجرة الدر : وتهجر دارها فلا تراها ؟

أيبك : لن أعرفها ولن تعرفنى .. كل قلبى لزوجة أحبها .. لاشريك فى حبى لها.

شجرة الدر : فليبارك الله للملك المعز .. وليقر الخليفة ولايته وليبعث إليه خلعة السلطنة لدولة الإسلام .. فى مصر والشام ..

المشهد الخامس

غرفة الحصن بالشام .. خاتون فى غضب تروح وتجيء وأمامها ابن الطوارى مغيظا ممتقعا

خاتون : امملوك .. على عرش صلاح الدين.

ابن الطوارى : بيدنا صنعنا المأساة.

خاتون : وبيدنا نهدمها.

ابن الطوارى : الويل لنا .. لو سكتنا عليها.

خاتون : بل الويل لشجرة الدر .. سلمت مقاليد الدولة للمماليك البحرية ..

ابن الطوارى : هى بعض منهم.

خاتون : لهذا تآمرها .. ونزعها الملك من بيت بنى أيوب.

ابن الطوارى : لو اجتمعت كلمتنا .. ما استطاعت أن تفعلها.

خاتون : فلتجتمع الكلمة .. وليتحد أمراء بنى أيوب فى مواجهة المماليك الغاصبين .. وليكن لنا دونهم ملك مصر والشام.

المشهد السادس

قاعة العرش بقلعة صلاح الدين .. شجرة الدر تسير فى حيرة .. الإيوان يجلس عليه أيبك .. ثم يحس حرجا فينهض ليقف بقربها .. بينما أقطاى وبيبرس وقطز يجلسون فى المواجهة ..

شجرة الدر : أنا لا أقبلها .. أنضرب المسلمين بأيدى المسلمين.

أيبك : بنو أيوب تمردوا .. فحق عليهم التأديب.

شجرة الدر : أنحفظ دم الصليبيين .. لنسفك دم المسلمين ؟

أيبك : أندعهم يطيحون برءوسنا .. ويأخذون مملكتنا ؟

بيبرس : صدق أيبك .. كانوا يتسترون بالدين ليبطلوا حكمك.

قطز : الآن يسفرون عن النية لأخذ ملكك.

أيبك : فماذا لو أرضيناهم ؟

أيبك : كيف .. وهم يطلبون الملك ؟

أقطاى : نختار من الايوبيين شريكا على سرير السلطنة.

أيبك : (منتقضا) أتعنيها يا أقطاى ؟

أقطاى : (بخبث) شريك لايضيرك .. ولايضيرنا.

أيبك كالمحدث نفسه بغيظ دفين وكأنه يوجه كلامه لشجرة الدر ..

أيبك : أشركه فى الزوج .. وشركة فى الحكم ؟!

أقطاى : كان حلا .. فذاك حل جديد.

أيبك : إنما تنفسون على ملكى ورياستى .. فتبغون انتقاص مكانتى وسلطانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقطاى : أشموخ وكبرياء يا أيبك ؟

بيبرس : هو حسم لصراع .. يضيع ملكنا وملكك.

أيبك : اثلاثة على عرش مملكة .. بخلاف الأمراء ؟!

شجرة الدر : لعله الخير .. إذا توفر شرط يرضى الأيوبيين .. ولاينزع السلطة من عز الدين.

أيبك : أقبل ماتراه الملكة.

شجرة الدر : حدود الشرط .. كالسير على صراط مستقيم.

بيبرس : فكيف تكون ؟

شجرة الدر : نختار صبيا . .لاينازع فى جاه ولا سلطان.

أقطاى : لابأس .. فليكن صبيا من بنى أيوب .. فبمن تشيرون ؟

بيبرس : الأشرف موسى .. من بيت الملك الكامل.

قطز : هو ذاك .. عمره ثمانى سنين ..

بيبرس : ويمتص عنا نقمة الأيوبيين.

★ ★ ★

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الحادى عشر

المشهد الأول

قاعة العرش بالقلعة .. الإيوان وقد أضيف إلى يمينه ويساره مقعدان كبيران .. الأيمن لأيبك والأيسر لشجرة الدر .. الامراء ورجال الدولة فى صفين متقابلين فى انتظار دخول أصحاب السلطة. تدخل شجرة الدر يتبعها أيبك ممتلئا بردائه السلطانى بحيث يكاد يخفى الملك الأشرف الصغير الذى يسير خلفه جاهدا أن يبرز للناس .. يتجهون إلى المقاعد الثلاثة .. الأشرف يجد صعوبة فى الصعود على كرسيه فتنحنى عليه شجرة الدر فى لطف وتجلسه فى مكانه فتبدو بينهما ضآلته.

أيبك : صاحب حلب أعلنها علينا ثورة.

قطز : استولى الناصر على دمشق .. وتهيأ للزحف على القاهرة.

اقطاى : تأزم الأمر .. ولابد من حسم الخطر.

شجرة الدر : لاتحيلوها حربا بين الأيوبيين والمماليك.

اقطاى : أيطمعون فى أكثر من العرش .. وقد نصبنا عليه الملك الأشرف الأيوبى.

يحاول الأشرف أن يرفع رأسه فى عظمه وهو يتابع الحديث ولايفهم شيئا .. يبدو الجميع وهم لايلقون إليه بالا.

أيبك : اما كنت حجتكم .. لإبطال دعاواهم فى وراثة دولة بنى أيوب ؟

اقطاى : (بغضب) اسخرية بنا يا أيبك ؟

شجرة الدر : لعلكم تريدونه صراعا .. خارج الدولة وداخلها ؟

قطز : إن كان هجوما علينا .. فنحن لها.

شجرة الدر : أخشاها فرقه بين شعبين شقيقين فى مصر والشام.

بيبرس : وقد يكون انفصالا لايكسب منه غير الصليبيين.

أيبك : فما الراى يا اقطاى ؟

اقطاى : (بحسم) لتكن الحرب .. أو تضيع دولة المماليك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : حتى ولو طاحت رقاب صنعت أمجاد المنصورة ؟

شجرة الدر : (محذرة) أجدى من الحرب تفاهم بين الطرفين .. وجهد لضم الصفين .. قبل أن ينقض عدونا وعدوهم .. ويضيع ملكنا وملكهم.

المشهد الثانى

غرفة دار أيبك وهو جالس وأمامه قطز .. قطز يحاول تهدئته.

أيبك : لن يغمدنى أقطاى.

قطز : سيبوء بالفشل مسعاه.

أيبك : أسفر فى حقده وأطماعه.

قطز : فاشغله عنك .. واصرفه عن التآمر عليك.

أيبك : شغلته بقيادة المماليك البحرية فأصبح مقدمهم.

قطز : بل تشغله بما هو أخطر.

أيبك : هو الرأى .. فسأسيره لقتال الناصر وصحبه من بنى أيوب .. فإن قتل كفانا عنه .. وإن ظفر كفيناه عنا فترة الحرب لنستأنفها من جديد.

المشهد الثالث

قاعة العرش بقلعة الجبل .. شجرة الدر تتصدر المكان وأمامها أوراق ومراسيم تدرسها وتسلمها للطواشى صبيح .. بينما الملك الأشرف الصغير لا يملك إلا التوقيع

شجرة الدر : هذه المراسيم يوقعها الملك الأشرف.

تتوقف شجرة الدر وهى تتأمل تقريرا تقلبه بين يديها فى غضب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : مماليك المعز يفسدون أمر البلاد.

صبيح : اضطراب الأمن .. ولصوص الليل يقتحمون الدور على أهلها.

شجرة الدر : (بغضب وهى تنهض) فوضى فى الأسواق .. نقص فى الأقوات .. غلاء فى أسعار اللحوم .. الا حسيب ولارقيب.

صبيح : فما تأمرين ؟

شجرة الدر : ليكلف بهذا الامر ركن الدين .. ويكفى الملك الاشرف اليوم هذه التواقيع.

ينهض الأشرف الصغير وقد تسرى عنه فيخرج وخلفه صبيح .. يدخل أيبك فيوقف صبيح عند الباب. ويعطيه مكتوبا فيخرج به ..

أيبك : أمض بهذا التكليف إلى الأمير أقطاى.

شجرة الدر : غاب أقطاى عنك .. فلعله يئس منك.

أيبك : بل أبعدته عنا.

شجرة الدر : تفعلها مع مقدم المماليك ؟

أيبك : سيرته لقتال الملك الناصر فى دمشق.

شجرة الدر : أتسيره لحرب يمتد لهيبها إليك ؟ وتتيح له نصرا ينقض بعده عليك ؟

أيبك : بل أوطد به صلتى .. وأطمعه فى كسب ثقتى.

شجرة الدر : فتحت فوهة القمقم لشيطان، وكان فى حبسه السلم والامان.

أيبك : أتأخذينها على ؟!

شجرة الدر : تصرفت بما لم ترجع به إلى.

أيبك : أليس لى وأنا السلطان ان أقرر ما أراه.

شجرة الدر : بئس ماقررت ورأيت.

أيبك : تقولينها للسلطان ؟!

شجرة الدر : تظنني خلعت نفسى .. ونزلت عن عرشى.. لتستأثر بالرأى .. وتسيطر على الملك ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : ألا ترينني جديرا بالحكم قادرا على تصريف الامر ؟

شجرة الدر : بإذنى ورأيى.

أيبك : وما مكانى فى السلطنة ؟

شجرة الدر : تعرف أنى صاحبه هذا الأمر .. لم يقعدنى عنه عجز ولا ضعف.

أيبك : (متراجعا) الا تثقين فى إخلاص من يعرف قدرك .. ولايبطر نعمك ؟!

شجرة الدر : فإياك ان تستهين برأيى .. وتستبد بمثل هذا الأمر دون مشورتى.

أيبك : فاشيرى على.

شجرة الدر : أوقف أقطاى عند حده .. فلا يحقق نصرا يحسب له عليك.

أيبك : كيف والحرب قائمة ؟

شجرة الدر : نسعى بالسلم إلى الملك الناصر فى دمشق.

أيبك : أنفاوضه والقتال دائر ؟

شجرة الدر : دع لى ذلك الامر .. قبل ان يمتد لهيب المعركة .. وتضيع الوحدة وتسيل أنهار الدم.

المشهد الرابع

دار أيبك .. جيهان وقطز امام النافورة وهى تتحدث فى غيظ.

جيهان : دمه لن يغلى أبدا.

قطز : تكتم المرأة أنفاسه .. وتكبت أحلامه وأماله.

جيهان : مازال غارقا فى حبها .. عاملا بمفارقتى على مرضاتها ..

قطز : بولدك على .. تنزعين من قلبه هذا الحب يا أم على.

جيهان : على ولدى .. وليس لها ولد.

قطز : وكل ملك .. يتمنى لولده .. ولاية عهده.

جيهان : سأغريه بعلى عليها .. فلعله يعود إلى .. ولا تطويه فى يديها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الخامس

مقصورة شجرة الدر .. عز الدين أيبك جالسا فى مواجهة شجرة الدر.

شجرة الدر : على ابن جيهان .. ولى لعهد السلطان ؟

أيبك : أتسكثرينها على ولدى ؟ ولو كان خليل حيا ما أنكرتها ..

شجرة الدر : تعيرنى بولدك ياعز الدين ؟!

أيبك : هو ابن الملك المعز .. وصاحب الحق فى وراثة عرشه.

شجرة الدر : على العرش سلطان حقيقى من بنى أيوب.

أيبك : لن يستمر سلطانا.

شجرة الدر : لولاه .. لفقدت شرعية حكمك.

أيبك : الشرعيه للتركمان .. حققوا النصر فتحول إليهم السلطان.

شجرة الدر : (بغضب) فلن أسمح لك .. ولن يسمح الأمراء.

أيبك : (مزمجرا) أنا السلطان .. لى عليهم حق الطاعة والإذعان ..

يدخل قطز. بينما شجرة الدر تروح وتجئ فى غضب. بينما الأمير قطز يتابعها فى حيرة ..

قطز : الخشداشية يتطاولون على الناس .. ويعيثون فسادا فى البلاد.

أيبك : هو كيد أقطاى .. لأبدو عاجزا عن إقرار النظام.

قطز : فهل تسكت حتى يلتفت الناس فلا يجدون لإنقاذهم غير أقطاى ؟!

شجرة الدر : أولى بهم أن يحميهم السلطان.

أيبك : (بخبث) كيف أحميهم من طغيانه .. وهو كبير مماليكك .. بنفوذه وسلطانه ؟!

شجرة الدر : اتبغيها معركة بينى وبين مماليك الصالحية ؟

أيبك : بل اتفاقا بينى وبينك .. يضع حدا لطغيانهم .. ويحمى الشعب من بغيهم.

شجرة الدر : أتسعى لوقيعة بينى وبينهم ؟!

أيبك : لن أعجز عن مناجزتهم .. ولكن لهيب المعركة لن يصيب غير الشعب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطز : (بخبث) تأبى مولاتى أن يمس الشعب سوء.

أيبك : لا خير لشعب يتحداه شيطان.

شجرة الدر : تمسكان بيدى التى توجعنى.

أيبك : لايوقف أقطاى .. إلا أن يجد شجرة الدر ضده.

شجرة الدر : لا بأس .. سأقبل التحدى .. ومن أجل خير الشعب .. أتفق معك على عدو الشعب.

المشهد السادس

قاعة اجتماع الأمراء المماليك .. أقطاى وبيبرس يتحدثان.

أقطاى : ويحك يابيبرس .. مولاتك معنا أم علينا ؟

بيبرس : أنت أثرتها .. وتعرف ما أهمها.

أقطاى : انما أثير الشعب على أيبك ليعزله .. فتسترد بنا ما كان لها من منزلة.

بيبرس : (بسخرية) ليس لمثلى ما تقول .. إنما تنفس عليه السلطنة.

أقطاى : (بحقد) فبأى حق كانت له على سائر المماليك ؟

بيبرس : بحق زوجته شجرة الدر.

أقطاى : فلا كان .. ولا كانت.

بيبرس : (بعتاب) هى أم خليل .. زوجة مولانا الصالح.

أقطاى : كان يوما مضى .. أما اليوم فهى زوجة الجاشنكير.

بيبرس : نحن من ولاها وولاه .. أفنهدم اليوم مابنيناه ؟

أقطاى : (بضيق) بل نحصد ثمار ما زرعناه.

بيبرس : الحصاد لنا .. نحن المماليك البحرية.

أقطاى : فليكن حصادا لمصلحتنا أو ادمر الحصد والزرع والثمار.

بيبرس : ماذا تعنى يا أقطاى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقطاى : فليكن العرش لى .. أو لك.

بيبرس : قلتها من قبل .. لست طامعا فى سلطان.

أقطاى : فأنا أمير المماليك .. وإن كان لابد لإدراك السيادة من نسب ملوكى .. فما أيسر أن يكون لى زوجة .. أوثق صلة بالملوكية من زوجة الجاشنكير.

بيبرس : فمن العروس ؟

أقطاى : بنت المظفر صاحب حماه ..!

المشهد السابع

قاعة قصر السلطنة بقلعة الجبل بالقاهرة عز الدين أيبك فى مواجهة الامير أقطاى متلطفا معه.

أيبك : لعل حقا ما بلغنا.

أقطاى : ان كنت تقصد إصهارى للملك المظفر فى حماة .. فما كذب من بلغك.

أيبك : تغير الحال يا أقطاى .. كنا مماليك بنى أيوب .. صرنا اليوم أصهارهم.

أقطاى : فليأذن السلطان لسليلة الملوك بالنزول فى قلعة الجبل.

أيبك : ذلك قصر السلطنة ..

أقطاى : قصور الملوك .. لنسل الملوك.

أيبك : ننظر فى الأمر غدا.

أقطاى : لعلك تبغى استشارة زوجتك ؟

أيبك : هى سيدة القلعة ..

أقطاى : (وهو يخرج) زوجة الجاشنكير .. لن تستنكف ان تنزل عن سكنها .. لابنة ملك من بيت مواليها وأولياء نعمتها.

يخرج أقطاى. بينما تدخل شجرة الدر، ووراءها صفية من باب آخر حيث سمعا نهاية الحديث.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : إلى هذا الحد هانت شجرة الدر ؟

أيبك : خففى عنك .. تعرفين غدر أقطاى.

شجرة الدر : أيريد أن يكسر أنفى ويتحدى كبريائى ؟

صفية : فاصبرى عليه كما صبر مولانا السلطان .. أما تحداه، واعتدى على حقوقه .. واستبد بالأمر دونه .. وكأنه الملك ؟!

أيبك : ماذا قلت يا صفية ؟!

صفية : لاشئ يامولاى !

شجرة الدر : أيبغى أن يظفر بى ؟ فوالله لاسبقه .. وأظفر أنا به.

أيبك : لايشغلك أمر أقطاى .. سأعلنه برفضنا.

شجرة الدر : (بعد فترة تفكير) بل تقبل وترضى.

أيبك : أبدا .. لاتتنزل زوجة المعز .. من قصرها .. لامرأة سواها.

شجرة الدر : (بسخريه) بل أتركه لعروس اقطاى .. فلن تعلو زوجة المملوك على سليلة الملوك.

صفية : أتعنيها مولاتى حقا ؟

شجرة الدر : أعجل بالإخلاء .. فلا تأتى الأميرة إلا وأنا خارج سور القلعة .. فى قصر أدنى روعة.

أيبك : هى ذلة تقبلينها لنفسك.

شجرة الدر : بل أخفف عن النفس عار الخنوع .. لإرادة أمير المماليك ..

أيبك : لو فعلت سينصر علينا .. ويغتر بما أرغمنا.

صفية : سيعتقد ان الامور ستواتيه، وأن الملك بات ملك أياديه.

شجرة الدر : (بحسم) ذلك ما أبغى أن يملأ رأسه .. فيشوقه أن يدخل دارا تشهد عرسه .. وبداخلها يلقى بطلا يحسم امره.

أيبك : اتعنينها ؟..

شجرة الدر : (لصفية) اذهبى يا صفية .. واطلبى من الأمير قطز أن يحضر لمقابلة السلطان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد فترة .. يدخل قطز إلى القاعة فى قصر السلطنة بالقلعة .. أيبك وأمامه قطز.

أيبك : كل أمرنا بيدك ياسيف الدين.

قطز : كان الأمر كله لأقطاى.

أيبك : جهر بمعارضتى .. واستبد بالامر دونى.

قطز : وضع مقاليد السياسة فى أيدى أصحابه وأتباعه.

أيبك: لم يبق لى معهم أمر ولا نهى .. لو أمرت لأحد من غيرهم بشئ لم ينفذ لى من الأمر شئ.

قطز : الكل يجتمعون ببابه ..لا كلمة إلا كلمته.

أيبك : نافسنى حتى فى مظاهر ملوكيتى .. حاشية .. وراية .. وشعار .. وحرس.. وطبل .. وموسيقى.

قطز : جيشه من المماليك يأتمر بأمره، ويمشى فى المواكب تحت رايته.

أيبك : مظهر .. وجاه .. وأمر .. ونهى .. وسلطان .. فما بقى لمولاك ياقطز.

قطز : (بتصميم) بقى له من ينفذ أمره .. ويخلصه من عدوه وغدره.

أيبك : وتقدر عليه ياسيف الدين ؟

قطز : أكفيكه وحدى.

أيبك : هو شديد القوة كريه اللقاء .. فإن أفلت هلكنا.

قطز : أعدك برأسه يامولاى .. لكنى أترك ركن الدين لك ..

أيبك : دع أمر بيبرس .. سيشغله ماهو أهم منى ومنك.

المشهد الثامن

الحديقة وفى صدرها ساحة نصب عليها عرس صفية وبيبرس .. شجرة الدر تقترب منهما بين ضجة الراقصات والمدعوين .. وبينهم ابن عبد السلام والبهاء زهير .. فينهض بيبرس وصفية احتراما لشجرة الدر التى تجلسهما وتطيب العروس وقد بدا عليها الخجل ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفية : تطيبيننى يامولاتى ؟

شجرة الدر : ما أكثر ماطيبتنى ياصفية .. فدعينى أفعلها مرة.

بيبرس : رعى الله مولاتنا .. جمعت شملنا .. عقدت فى دارها عقدنا ..

صفية : أسعدك الله بما أسعدتنا.

شجرة الدر : فأستأذن من ركن الدين بما يسعدنى.

بيبرس : روحى وحياتى فدى مولاتى.

شجرة الدر : فأغنيه من عروسنا .. فى ليلة سعدنا.

بيبرس : أتغنى العروس فى ليلة زفافنا ؟!

شجرة الدر : ألا تلبى طلب مولاتها .. فى آخر لياليها بقصرها ؟!

صفية : لمولاتى على جاريتها .. حق طاعة رغبتها وأمرها.

صفية : (تغنى)

وزائـرة زارت بـلـيـلـة فـرحـنـا
وكـنـت لمـيـعـاد لـهـا مـتـرقـبـا

فـمـا سـرنـى إلا رخـيـم كـلامـهـا
تـقـول عـروسـى .. قلـت اهـلا ومـرحـبـا

قـبـلـت أقـدامـا لـغـيـرى مـامـشـت
ووجـهـا مـصـونـا عـن سـواى مـحـجـبـا

سأشكر كل الشكر احسان محسن
تـحـايـل حـتـى ضـمـنـا .. وتـسـبـبـا

أقطاى : (متهامسا مع قطز) شغل الناس هنا بالغناء .. وقلعة الجبل الآن خواء.

قطز : فلنصعد إليها تشهد دار عرسك .. هى دارك ما تغير يومك عن أمسك.

يخرجان ويسيران معا فى ممر مغطى قليل الضوء داخل قلعة الجبل .. يظهر مملوكان بجوار الباب يفتحان ليدخل قطز وأقطاى .. يبدو على وجه أقطاى شئ من القلق لقلة الضوء فيضع يده على مقبض سيفه وتمنعه الكبرياء عن التراجع .. يمد قطز يده اليسرى إلى أقطاى.

قطز : أعطنى سيفك .. فقد يكون الملك هنا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقطاى : (بقلق) ما للملك ولنا ياسيف الدين ؟

قطز : لاينبغى لاحد رعايا الملك .. أن يقابله والسيف معه.

أقطاى : (غاضبا وهو يخرج سيفه) أتجردنى من سيفى أيها المملوك القذر ؟

يبتدره قطز بسرعه فيطعنه فى جنبه بخنجره

قطز : وأجردك من حياتك .. وأطهر البلد من رجسك.

يثور أقطاى وقد وضع يده اليسرى على جنبه ورفع سيفه باليمنى .. يتواجه الاثنان بالسيوف .. يسرع المملوكان من الخلف لمساعدة قطز الذى يصيح فيهما.

قطز : اتركاه .. المملوك القذر سيقتله وحده .. فلا يقول الناس قتله ثلاثة من مماليك المعز.

يتواثبان ويتقى قطز بضربات أقطاى العنيفة .. يبدو أقطاى وقد بدأت قواه تخور

أقطاى : يا ملعون .. اثبت لمغدورك.

قطز : يازوج الأميرة .. اثبت لنفسك.

أقطاى : (يسقط فى جهد) ادن منى يامملوك الجاشنكير.

يظهر أيبك فى المواجهة ويتكلم فى انتصار

أيبك : الجاشنكير سيدك ومولاك ..

أقطاى : (وهو يحتضر) لن تفلت .. من يد المماليك .. سيحاصرون قلعتك .. وعلى رأسهم بيبرس.

أيبك : أنعم بمماليكك حول السور .. فما عاد لهم من جسد الغادر غير الرأس.

المشهد التاسع

مقصورة شجرة الدر .. صفية تجلس فى سرحه حزينة باكية .. شجرة الدر تخفف عنها.

شجرة الدر : هروب ركن الدين .. اصابنى وأصابك.

صفية : كان أملى أن يجمعنا القدر .. لكنه وعد ثم نكث وغدر ..

شجرة الدر : تمنيت ان تقنعيه بالبقاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفية : كدت أنجح .. لولا أن ألقى الرأس عليهم من فوق الأسوار.

شجرة الدر : ليته بقى ومعه مماليكه.

صفية : خافوا من الملك .. عرفوا أنه لن يبقى منهم على احد.

شجرة الدر : ما أتعسني وأتعسك .. غادر بيبرس إلى الشام .. وكنت أدخره لنواجه به غدر الأيام.

صفيه : أغدر أكثر مما نحن فيه ؟

شجرة الدر : انفرد المعز بالملك وحده .. فلا من يجرؤ الآن أن يصده.

صفيه : (بحقد) لن يسكت الشعب على طاغية.

شجرة الدر : سيفرغ له .. وفى يده قوة باغية.

المشهد العاشر

قاعة العرش بقلعة الجبل .. السلطان عز الدين أيبك وأمامه الأمير قطز

أيبك : كانت الثورة على أقطاى فانقلبت علينا.

قطز : شجرة الدر صاحبتها .. هى وراء غرسها ودعمها.

تظهر شجرة الدر عند الباب وحين تسمع اسمها تتراجع وتتسمع

أيبك : من يغرس بذور الثورة .. فهو راعى نموها.

قطز : فلن يوقفها .. إلا أن تنزع من جذورها.

أيبك : فمن لها ياقطز سواك ؟

قطز : فلى أمر الثورة .. على تدميرها .. وقطع دابر رجالها.

أيبك : ولى أمر صاحبتها .. على قضاؤها. كما قضيت على أترابها.

شجرة الدر من وراء الستار كالمحدثة نفسها.

شجرة الدر : لن تقدر على شجرة الدر ياجاشنكير .. وان كنت غلبت أعتى الرجال .. فجرب الآن كيد النساء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى عشر
المشهد الأول

قاعة العرش بقلعة الجبل بالقاهرة .. السلطان عز الدين أيبك على إيوان .. شجرة الدر أمامه تعاتبه بشدة.

شجرة الدر : حسمت فلم تسمع لرأيى.

أيبك : ضقت بما تتدخلين فى كل شأنى.

شجرة الدر : بحقى. وما اتحت بأمرى.

أيبك : تطاولت إلى كل ما اقطع فيه بأمر .. وكأنى أعجز عن تدبير أى أمر.

شجرة الدر : فاستمع منى يا أيبك.

أيبك : يسمعك الملك المعز.

شجرة الدر : أنت تثيرها عاصفة مدمرة .. لن تجنى منها غير الحقد والكراهية.

أيبك : أنت تؤلبين على الشعب.

شجرة الدر : بسخطه عليك تضيع الملك من بين يديك.

أيبك : أعرف كيف أواجه المتمردين .. وأضرب على أيدى الساخطين.

شجرة الدر : أنت تتنكر لمن جعلوك ملكا.

أيبك : لست من ملكنى .. ملكنى الشعب والامراء.

شجرة الدر : اليوم تنكرها على الجميع.

أيبك : بل الكل ينكرون على .. وأنا من بدلهم بالضعف قوة وكرامة وبالفوضى امنا وإمارة .. وبالهزيمة فوزا وانتصارا .. فماذا عسى ان ينكروا على.

شجرة الدر : ينكرون إطلاق يد مماليكك ورجالك .. وتخليك عن الشورى.

أيبك : اعرف هدفى .. ولن أكون العوبة فى يد أحد.

شجرة الدر : هدفك أن تكون ملكا أوحد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : بل رفعة شأن الدولة .. والقضاء على الدسائس والمؤامرات .. ورفع يد النساء عن تسيير أمور البلاد.

شجرة الدر : (ساخرة) نصرك وملكك .. صنعته امرأة.

أيبك : كلام أجوف .. ما للنساء إلا الخدور .. وللرجال عظائم الامور.

شجرة الدر : (محذرة) فافعل ما بدا لك. لكنى أحذرك إياك أن تمس حق شعب سلمك القياد .. أو فاحمل وزر دم يسفكه الغباء والعناد.

المشهد الثانى

شارع فى السوق .. الشيخ ابن عبد السلام والشاعر البهاء زهير فى ركن يتحدثان وحولهما آخرون.

البهاء : اللعنة على المماليك.

ابن عبد السلام : بالحديد والنار أعلنوها حربا علينا.

البهاء : ما أقسى الهزيمة حين تحل بالثوار .. دون أن يكون بيدهم غير نداء الأحرار.

ابن عبد السلام : رجال السلطان .. علقوا على المشانق آلاف الرجال برءوس حاسرة.

البهاء : تدلت الاجساد المقهورة على طول الطريق إلى القاهرة.

رجل ١ : والشيخ ثعلب .. ما أخباره ؟

ابن عبد السلام : ألقى فى جب بقاع القلعة .. وبالقوة الغاشمة خمدت نار الثورة.

البهاء : ما أبشع أن يشمخ السلطان اليوم منتصرا برأسه.

ابن عبد السلام : بئس نصر يفرضه الحاكم بالإرهاب على أبناء شعبه.

البهاء : فو الله ماتخمد نار الثورة أبدا.

ابن عبد السلام : بل تندلع من جديد .. فتحرق الظالم وتبيد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الثالث

قاعة قصر القلعة .. عز الدين أيبك والامير قطز .. أيبك فى ضيق شديد.

أيبك : أفى كل يوم تهديد ووعيد ؟

قطز : أطمعها صبرك فيك.

أيبك : لم أعد أطيق الصبر.

قطز : تركتها ترفع بأمرها من تشاء .. وتضع من تشاء.

أيبك : ماتزال بنفوذها تقبض على السلطان.

قطز : فكيف سكوتك .. وسخرية الناس أن أمرك مردود إلى أمرها .. وأنك لا تملك رد أمر لها.

أيبك : (بضيق) والله قد استثقلت سلطتها ونفوذها.

قطز : فاضرب ضربتك .. وافرض سلطة الملك .. تملك وتحكم .. وافرض سلطة الزوج .. تذل وتحسم.

أيبك : فكيف أفر من عهد عاهدتها عليه ؟

قطز : أعهد على الذلة والمسكنة ؟!

أيبك : وعدتها يوم خلعت نفسها .. وألبستنى التاج والحلة .. ألا تكون بينى وبين ولدى صلة.

قطز : (باستنكار) اتحرم عليك زوجتك وولدك ؟

أيبك : لا أكاد أنعم برؤيتهما .. إلا على استخفاء.

قطز : أطلقتها ؟

أيبك : لم اجرؤ عليها.

قطز : فالدين يفرض عليك بينهما التسوية ولا إرغام لأى منهما على معصية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد الرابع

فى دار عز الدين أيبك .. عز الدين أيبك وزوجته جيهان يجلسان عند النافورة .. فجأة تظهر شجرة الدر عند الباب .. فيفاجأ أيبك بظهورها وتظهر عليه الحيرة والاضطراب.

شجرة الدر : إلى دار ضرتى .. تخوننى ؟!

أيبك : من .. زوجتى ؟

شجرة الدر : لم تطلقها . وكان وعدك كاذبا !

أيبك : فما جعلك تتبعيننى ؟

شجرة الدر : وساوس الزوجة المكذوب عليها .. حين تتسلل الشكوك إليها.

أيبك : (بغضب) أتجسس على؟

شجرة الدر : كنت حمقاء إذ صدقتك.

أيبك : إنما جئت أعود ولدى.

جيهان : (بغضب) أتكذبها وتكذبنى ؟!

أيبك : (متفجرا) اللعنة عليكما.

شجرة الدر : أما منعتك عنها ..؟ وألزمتك طلاقها ؟

جيهان : أجارية تتحدى الملك ؟!

شجرة الدر : أنا من زوجتك .. وأنا من تطلقك !

جيهان : أبيوت تقام .. وبيوت تنهار .. بأمر امرأة ؟!

شجرة الدر : بحقى .. وأنا الملكة.

جيهان : وأنا أم الولد .. وليس لك ولد.

أيبك : (صارخا) كفى .. امضيا عنى.

شجرة الدر : (بسيطرة) فامض معى .. ليس هذا مكان الملك.

أيبك : (بغضب) امرتك فامض.

شجرة الدر : فأمرى تطيع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : تنحى .. فمالك أمر يطاع.

جيهان : (لشجرة الدر) أثرت بقولك سخط الملك.

شجرة الدر : فلا والذى جعل بيدى أمر ملكه .. ليدركن جزاء غدره وأفكه.

المشهد الخامس

ركن السوق .. الشيخ ابن عبد السلام والبهاء زهير.

ابن عبد السلام : أخشى على مصر هذا الصراع.

البهاء : فى شعبها .. يتحداها.

ابن عبد السلام : لاتبلغ يده إليها .. فينقض على الشعب ثأرا منها.

البهاء : أنقمة على شعب .. من اجل فرد ؟!

ابن عبد السلام : لحقد وغيره .. كتب على شعب مصر القتال.

البهاء : أمن ضرة .. أم لنفوذ مهدد بالزوال ؟!

ابن عبد السلام : ليست شجرة الدر من تستنيم للأحداث.

البهاء : لن تضيع حق قلبها .. فى الاستئثار بزوجها.

ابن عبد السلام : ولن تضيع حق نفسها .. فى الاحتفاظ بسلطانها.

البهاء : فما آخر أنبائها ؟

ابن عبد السلام : اشتدت الوحشة بينه وبينها .. فنزل من القلعة ليبيت كل ليلة مع ضرتها.

البهاء : ضيع المعز نفسه.

ابن عبد السلام : أصبح لايغشى القلعة إلا وجه النهار .. ليدير شئون الملك.

البهاء : حربهما لن تظل مستمرة وراء ستار.

ابن عبد السلام : سيحدث شئ يضع الحد لهذا السعار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشهد السادس

قاعة الحصن بالشام .. خاتون أمامها الامير بيبرس وابن الطوارى.

ابن الطوارى : شجرة الدر بدأت على المعز حملتها.

بيبرس : حسنا تفعل .. لو قربت الكارهين وأدنتهم إليها.

ابن الطوارى : أنت أعرف بها.

بيبرس : وأدرى بقوتها وأسبابها.

خاتون : سيشق على المعز ماتفعله.

ابن الطوارى : فلندع ان يتحقق بخلافهما ما نؤمله.

بيبرس : لا أمل إلا أن يضرب الغادر من مأمنه.

خاتون : فأشر علينا.

بيبرس : ليسيرنى الملك على جيش له أؤدبه.

خاتون : فلعلك لم تسمع برسالة شجرة الدر إلى الملك الناصر.

ابن الطوارى : ولا برسالة المعز إلى الملك الظافر.

خاتون : الآن يلجآن إلى ملوك بنى أيوب.

بيبرس : فما تقول رسالتها ؟

خاتون : (تقرأ الرسالة) :

فإنما أبعث إلى الملك الناصر ليعلم أن امرأة الملك الصالح .. وقد جلست باسمه على عرش بنى أيوب .. لتعرض الزواج من الناصر الأيوبى فتملكه مصر .. وتهئ له أسباب النصر.

بيبرس : احسنت شجرة الدر ما خططت ودبرت .. فما كان رد الناصر ؟

خاتون : بلوت بنفسى خداعها .. فاقنعته الا يستجيب لندائها.

بيبرس : والله قد ظلمتها.

ابن الطوارى : فهلا عرفت رسالة المعز إلى الملك الظافر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : فكيف رسالته لصاحب حماة ؟

ابن الطوارى : قال له .. أما وقد كانت أختك فى طريقها إلى مصر عروسا لأقطاى.. فما كانت لأقطاى إلا أمارة .. أما المعزّ فله الملك .. وإنى لاخطب الاميرة إليك فأملكها معى على عرش كان شراكة بيننا وبين بنى أيوب.

بيبرس : خسئ الجبان .. فلعل المظفر لم يسمع له ؟

خاتون : رفضت عروس أقطاى أن تزف إلى قاتل أقطاى.

المشهد السابع

قاعة اجتماع أمراء المماليك .. عز الدين أيبك وأمامه الامير قطز.

قطز : رفض الاميرة .. جاء على هواى .. فلن تخلص للمعز .. من كانت لاقطاى.

أيبك: (باستغراب) فكيف وشجرة الدر قد ارسلت الملك الناصر ويدعمها بيبرس؟

قطز : (يفاجأ) شجرة الدر .. وبيبرس ..؟ فمن أعملك ؟

أيبك : كاتبنى الملك الرحيم لؤلؤ ..

قطز : صاحب الموصل ؟!

أيبك : يعرفها من غدرها .. وقد هربت من قصره فى صغرها.

قطز : (بعد تفكير) فلماذا لا تخطب إليك ابنته ؟

أيبك : نعم الرأى.

قطز : فإن قبل منك .. فلى عليك البشارة.

أيبك : (براحة وعناد) وتنزل شجرة الدر من القلعة إلى دار الوزارة.

قطز : فهل أذنت لاستدعى قاضى القضاة.

أيبك : بلغه أمرى قبل ان يدخل على.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخرج قطز ويظل أيبك لفترة مفكرا .. بعد فترة أخرى يعود الأمير قطز ومعه الشيخ ابن عبد السلام الذى أصبح قاضى القضاة .

ابن عبد السلام : لاتفعلها يامولاى ..لاتمض إلى ماقررت وعزمت.

أيبك : اتنكرها على .. وقد أصبحت قاضى القضاة ؟

(يجلس فى تؤده ثم يتكلم ساخرا) قد أشرت بالرأى ياشيخ.

ابن عبد السلام : أديت نصيحتى .. وبرأت ذمتى .. ولمولاى بعد ذلك مايراه.

أيبك : فقد رأيت ان أعزلك .. فلا قضاء بعد اليوم لك !



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث عشر

المشهد الأول

حديقة القصر أسفل قلعة الجبل حيث مقام عز الدين أيبك الجديد .. شجرة الدر تسير متخفية وإلى جوارها صفية حتى يقتربان من باب القاعة حيث يجلس عز الدين أيبك يتأمل بعض الأوراق وغير بعيد منه يجلس قطز .. تهمس شجرة الدر لصفية قبل أن تختفى.

شجرة الدر : امض إلى الجاشنكير بدعوتى .. وتحايلى تلبيته لرغبتى.

صفية : أبعد هذه الوحشة .. يلبى ولايخشى ؟!

شجرة الدر : مازال فى قلبه بعض هواى .. ويهنيه أن يسترد عطفى ورضاى.

صفية : فامض أنت ياسيدتى إلى دارك .. ولاتخشى على صفية.

تدخل صفية إلى القاعة بعد ان تبتعد شجرة الدر .. يطل أيبك إليها مستفسرا وهو متجهم الوجه.

أيبك : تريديننى ؟

صفية : والله يامولاى إنى ليعز على هذا الخلاف بينك وبين سيدتى.

أيبك : هى من ظلمت وعاندت .. فلتجن ثمار مابغت وأسرفت.

صفية : هون عليك يامولاى .. عذر النساء ان يغلب عليهن الهوى.

أيبك : لطالما حاولت أن أهديها وأنصحها.

صفية : تسلب الغيرة عقل المراة وتفضحها .. فلا تقس يامولاى عليها.

أيبك : أقسمت الا أطأ لها دارا ولا فراشا.

صفية : فلعلها فاءت إلى طبيعة الأنثى حين يهجرها رجلها.

أيبك : فما يكون بالها ؟

صفية : تهفو إليه نفسها .. وينعقد على عودته أملها.

أيبك : (بلطف) ألهذا تدعونى مولاتك ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفية : تتصالحان .. وينسى كل للاخر .. ما أسأت .. وماجنت..

أيبك : (فى راحة) استعتبتنى بحبها .. وقد رضيت بعتبها.

صفية : فاحفظ لها ما استعتبت .. فنفسها إلى هواك ما سلت .. وبانتظار الزوج تزينت وتجملت.

أيبك : (فى حنان) شوقتنى إلى حنانها .. فالليلة أزورها .. وأبيت عندها ..

تخرج صفية .. يقترب قطز من أيبك ناصحا

قطز : لا تبت الليلة عندها فى القلعة.

أيبك : فاحفظ عليك نصحك.

قطز : ما استحق النصح من أغلق سمعه.

أيبك : فلعلك تخشى على من كيد الملكة ؟

قطز : قلب المرأة لايعفو عمن أهمله.

المشهد الثانى

مقصورة شجرة الدر وهى جالسة على فراشها تداعب شعر أيبك وتلاطفه وهى فى أبهى زينتها.

شجرة الدر : لم أعتب عليك .. إلا هوانى لديك.

أيبك : (مداعبا بلطف) لاتهونين .. والقلب والنفس تملكين.

شجرة الدر : فلا تعتب على غيرتى عليك .. قد أشقانى أن ليس لى ولد منك.

أيبك : هو قضاء لانملكه .. فلا على ولا عليك.

شجرة الدر : فالآن تغفر لى زلتى.

أيبك : وتغفرين سعيى .. بولاية العهد لابنى.

شجرة الدر : (بتلطف شديد) ابنك هو ابنك .. من لحمك ودمك .. والابن أحق بعطف أبيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيبك : نحن بشر .. لنا قلوب تحب وتكره .. حتى بين أهلينا وذوينا.

شجرة الدر : لكننا نحن البشر .. لاندمى قلوب أحبائنا دون سبب.

أيبك : فاغفرى لى ماكان من غضب.

شجرة الدر : (بتدلل) وتوقف نزف القلب ؟!

أيبك : أخطر ببالك شئ ؟

شجرة الدر : بنت بدر الدين لؤلؤ .. أحقا خطبتها ؟!

أيبك : سعيت إليها .. وقد أكرهتنى عليها ..

شجرة الدر : والآن .. ؟

أيبك : أرجع عنها .. بما لم يعجبنى منها.

شجرة الدر : أحقا يا عز الدين ؟

أيبك : هونى عليك ملكتى .. بين يديك راحتى ونعمتى .. ولك كل ماحفظت من محبتى.

شجرة الدر : أرحت قلبى .. وهونت أمرى..

أيبك : فلعلك ترضين ..

شجرة الدر : والله كنت أخشى أن تعاود خيانتى وغدرى .. فتستحق منى نقمتى وغضبى.

أيبك : وقد خشيت ان تؤرقى منامى .. فالآن أنهض إلى حمامى.

ينهض أيبك .. تنتبه شجرة الدر وقد تذكرت شيئا وأسرع بعدها ناحية الباب الذى اتجه إليه .. تهتف فى فزع مكتوم.

شجرة الدر : لا .. بل انتظر ..

أيبك : (مسرعا إلى الباب) ما اكثر ما انتظرت وصبرت .. فلأغسل عن نفسى ادران ما أسأت وكفرت.

يخرج من الباب تقف شجرة الدر حائرة .. ثم تنادى فى اضطراب.

شجرة الدر : صفية .. اين أنت.

صفية : (تدخل) لبيك مولاتى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة الدر : اسرعى إليهم .. أوقفيهم ..

فى نفس اللحظة ترتفع صرخة أيبك من الخارج مستغيثا .. تتوقف شجرة الدر فى رعب.

أيبك : الغوث .. رحماك يازوجتى .. امنعيهم عنى .. لاتغدرينى.

شجرة الدر : (وهى تتجه ناحية الباب) ويح لكم .. اتركوه.

صوت أيبك : أبعدوا سيوفكم .. أمرتكم مولاتكم.

شجرة الدر : (باستجداء) دعوه .. لاتقتلوه .. قد غفرت له.

صوت من الخارج : لا .. لانكف أيدينا عنه .. لو عاش .. فلن نفلت من بين يديه.

ترتفع صرخة محتضرة من أيبك تضع شجرة الدر كفيها على وجهها وهى تبكى فى ندم.

شجرة الدر : يالهف نفسى عليك .. بذلتى أقسمت لاقتص منك .. وبعفوى عجزت عن منع الموت عنك.

المشهد الثالث

قاعة العرش بالقلعة .. الإيوان خال .. القاعة مليئة بأمراء المماليك ورجال مصر .. بينهم قطز وابن عبد السلام والبهاء زهير وجيهان.

قطز : (متوعدا) ياويل القتلة.

جيهان : فلتقطع رأس الحية.

ابن عبد السلام : لاتجعلوها فتنة .. بين أمراء المعزية وأمراء الصالحية.

قطز : أيمنعها عنا أمراء الصالحية ؟

جيهان : ليذيقهم المعزية شر البلية.

ابن عبد السلام : لاتفعلوا فعل البلهاء .. فلن تكسبوا من ذلك غير سفك الدماء.

البهاء : لندع حساب الجريمة لحكم الشرع والقضاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصوات كثيرة : الحق ماقال البهاء.

ابن عبد السلام : إن تفعلوا .. منعتم عن البلاد مايهددها من الفتنة والاخطار.

البهاء : وواجهتم مجتمعين زحف جحافل التتار.

قطز : فإن كان الحق .. فلنتبعه بباقى الحقوق.

ابن عبد السلام : بالشرع والشورى .. حسم أمر العرش .. وما يجمع عليه الأمراء.

جيهان : لايجلس على عروش الآباء إلا الابناء.

البهاء : هى للملك المنصور على..

قطز : هو صبى لم يبلغ الحلم.

ابن عبد السلام : يقوم على أمره سيف الدين قطز نائب السلطنة.

قطز : فليصعد مع امه إلى القصر .. ويكون له حكم مصر.

المشهد الرابع

غرفة ضيقة تشبه السجن .. نافذتها ذات قضبان هى غرفة البرج الأحمر حيث لجأت شجرة الدر ومعها صفية .. خارج باب الغرفة ممر ضيق يسيطر عليه الظلام.

شجرة الدر : قلبى عليك ياصفية.

صفية : لاتأسى على جاريتك .. أساها على مولاتها.

شجرة الدر : أخشى عليك مايفعلون بك بعدى.

صفية : لك طول العمر يامولاتى .. يمنعك الأمراء الصالحية .. وعلى رأسهم ركن الدين، وقد عاد لمصالحة نائب السلطنة وإنى والله لأسمع صوته.

تطل شجرة الدر وصفية ناحية الباب المغلق المطل على الممر حيث من خلفه يظهر ركن الدين بيبرس والشيخ ابن عبد السلام وعدد من الأمراء والجنود فى السيوف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس : (آمرا) لايبلغ أحد باب البرج الأحمر، ولايصعد إليه أحد.

ابن عبد السلام : امنعوا عنها المنصور وأمه.

بيبرس : هى تبغى لها أشد النقمة ..

ابن عبد السلام : فعلت خيرا يابيبرس بمصالحة صديقك .. وعودتك لحماية مولاتك.

بيبرس : فامنع الأمراء المعزية من أن يبلغوا إليها بسوء أو رزية.

يتحرك الجميع داخل الممر المظلم البعيد عن الباب .. بينما فى الداخل شجرة الدر وصفية تنصتان حتى يبتعد الضجيج.

شجرة الدر : أخشى على مصر من سفك الدم .. فيذكرنى التاريخ باللعنة والذم.

صفية : ليس ينسى الناس أنك من حقق النصر بعد الهزيمة .. وسوى الناس أمام العدالة .. وجعل حق الشعب قبل حق السلطان.

شجرة الدر : (بحسرة) ألن يقولوا امرأة أعمتها الغيرة ؟

صفية : سيدركون ان الغادر قد لقى مصيره.

شجرة الدر : فإلى متى أحبس نفسى فى أعلى البرج انتظر النهاية.

صفية : لاتراعى. الرجال حول البرج يسبغون عليك الحماية.

شجرة الدر : لن تسكت جيهان عن ثأرها .. وقد صار الأمر لولدها على.

صفية : هى لاتطلب الآن موتك.

شجرة الدر : أتبقى على حياتى .. ليتم لها إذلالى.

صفية : بل تطلقك .. مقابل حليك وجواهرك.

شجرة الدر : (كالملسوعة) جواهرى ..؟ والله لن تنالها.

صفية : ستكون لها فى النهاية ..

شجرة الدر : لا .. لن تملك ضرتى .. حليى وجواهرى.

تسرع شجرة الدر فى تصميم إلى صندوق الجواهر الأسود فتفتحه .. تداعب الجواهر والحلى بأصابعها وهى تضحك فى انفعال وتوتر .. تجلس وقد مدت يدها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاخرى إلى هاون تضعه أمامها ثم تفرغ فيه مافى الصندوق من حلى وجواهر .. تبدو صفية فى ذهول.

صفية : ماذا تفعلين بالدر والياقوت ؟

شجرة الدر : أسحقها فى هذا الهاون.

صفية : تسحقين حليك وجواهرك ؟

شجرة الدر : أحيلها ترابا .. فلا تنال منها شيئا أبدا.

تقذف شجرة الدر بالجواهر فى الهاون وتدق بعنف بينما صفية تتابعها فى اسى .. شجرة الدر تضحك فى شبه جنون مختلط بالانتصار وهى ترفع بأصابعها المسحوق من الهاون فتذروه من نافذة البرج مع الريح.

شجرة الدر : الآن .. فلتحترق ضرتى بغيظها .. فلن تستسلم شجرة الدر لها .. إلا وهى فى قمة انتصارها.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القســم الثــالــث
ملكــات مــن الغــرب

- مسالينا .. من القاع حتى القمة.
- بــوبــيا .. شيطانة على عرش الرومان.
- تيــودورا .. امرأة من الطين.
- لوكريشيا بورجيا .. الذئب فى الأعماق.
- كاترين الثانية .. دوامة الرجال.
- مارى انطوانيت .. خلقت للحب والموت.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسالينا

من القاع .. حتى القمة

بدا له أنها تصلى. وما كان أحب إليه من أن يقترب منها فى هدوء ويضع على شفتيها قبلة ثائرة محمومة كانت شفتاه ترتجفان فى انتظارها .. ولكن أشياء أخرى كثيرة كانت لاتزال تدعوه إلى الانتظار لوقت قصير يكون له منها بعده كل شئ.

أما هى، فما كان أحب إليها من أن تستمر فى صلاتها إلى الأبد. وماكانت لتطيق أن تفتح عينيها على ذلك الرجل الدميم المجدور، وهو يجر ساقيه الخائرتين جراً ليصل إليها.. فتحول السنون دون أن يصلب عوده، وهو يقترب من عروسه المتفجرة لأول مرة.

وعادت ترفع رأسها إلى السماء وتهمس :

«إيه أيها الإله برياب .. من أجلك ضحيت بكل شئ، وعلى مذبحك سفح كاهنك دمى وأنا لم أعد الثانية عشرة بعد. فارض عنى يامولاى، ولاتدع ذلك الرجل يمسنى الليلة على الإطلاق. بل هبنى من لدنك رجلا آخر، صاحب عنفوان، وصدر صبى خشن، يعرف كيف يضمنى إلى صدره بقوة، ويعطر بأنفاسه أنفاسى، ويمنحنى من اللذاذات أكثر مما منحنى كاهنك الذى لن يجهده ماجهد له أول مرة عندما قدمتنى إليه أمى».

وفى الحق، أن مسالينا كانت منساقة تماماً إلى أمها ليبيديا فى ذلك اليوم الذى مضى قبل خمس سنوات، ولكنه لايزال يمر بخيالها كأنه حدث بالأمس. ففى ذلك اليوم، كانت تسير طوال الطريق البعيد الذى قادتها أمها خلاله من البيت فى سفح جبل «بالاتان» إلى معبد الإله برياب خارج أسوار روما. ولم تكن الفتاة تدرى يومئذ لم تقودها أمها إلى هناك، غير أنها استطاعت أن ترسم فى ذهنها صورة باهتة لما يمكن أن يحدث، فقد سمعت أمها تدعو لها وتباركها وتقول وهى تربت على كتفها فى فرحة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– هيا يا ابنتى الرائعة .. فستذكرين هذا اليوم أبداً، لأنك ستعيشين فيه اليوم الأول لك فى الحياة..

ولم تكن تدرى لم لاتحسب لها فى الحياة الأيام الماضيات، سوى أنها لو كانت تعلم لأدركت أن الطقوس الدينية السحرية لأتباع الإله برياب لاتعتبر المرأة موجودة فى الحياة مادامت لم تعد دور العذراء بعد .. على يد شيلون – اليهودى – كاهن الإله الخاص ..!

وانطلقت مسالينا خلف أمها حتى بلغت أسوار روما. وانحدرتا خلال دروب منعرجة كثيرة لم تنتبه طويلا إليها خلال الدوامة الضخمة التى راحت تدور فى رأسها، وأمها تحدثها عن شيلون وإحاطته بأسرار كل شئ، وقدرته على تجديد قوى الشيوخ، ومنح النساء القدرة على اجتذاب من يردن من الرجال.. حتى أنه استطاع أن يجذب إلى المعبد أغلب نساء روما ورجالاتها .. من بينهم قواد عسكريون وجنود وشيوخ وأمراء..

وانتبهت مسالينا فجأة، فوجدت نفسها قد خلفت باب المعبد القائم من حجر أبيض. ولمحت أمها تنحنى وتجذبها إلى أسفل معها أمام تمثال من خشب لإله لايغطى جسده شئ. وانحنت وهى تدير بصرها بين رجال ونساء جالسين حول المعبد فى كثير من الإعياء، كلهم أزواج متخاصرة لاتخرج الكلمات من شفاههم إلا همساً..

ونهضت ليبيديا وهى تهمس فى أذن ابنتها :

– سأقودك الآن إلى الكاهن الأعظم، الذى وعدنى أن يقود خطاك فى طريق المعرفة، ويمنحك كل بركات برياب لتصيرى أنثى فيها كل مايحطم افئدة الرجال.

ولم تفهم مسالينا الأمر جيدا، سوى أنها بدأت تدرك كل شئ عندما أخذ شيلون بذراعها وحدها وسار بها خلال باب سرى إلى سرداب يغمره نور شعلة حمراء، ليسجل أول أيامها فى الحياة .. ويسدد منها الخطا فى سبيل المعرفة !!

★ ★ ★

عندما رفعت مسالينا تلك الليلة يديها إلى السماء تدعو ربها برياب وتعود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بذاكرتها إلى ذلك اليوم الذى مضى منذ خمس سنوات، كانت تعلم أنها ستنزف بعد لحظات إلى «كلوديوس» عم الإمبراطور «كاليجولا» سيد عرش روما .. والذى يستطيع القدر بإصبع صغيرة أن يلقى به من على العرش ليضع مكانه عمه، ذلك الرجل البغيض المجدور، صاحب الجسد الضخم، والرأس نصف الأصلع، الذى ستحمل اسمه منذ الليلة نفسها.

والواقع أنها عندما قبلت أن تكون زوجة له، كان يدفعها إلى ذلك ترحيب أمها ليبيديا عندما ذهب يخطبها، ونبوءات الساحر سيمون الذى قال لهما وهو يحدق فى اللهيب الأزرق المنبعث من الهيكل الصغير أمامه فى حجرته السحرية :«سيصبح كلوديوس سيد عرش روما. أما أنت يامساليـنا، فأراك خلال الجموع وعليك الأرجوان، يتحول وجهك كمثل الدم منذراً بأنك ستكونين شؤماً على الذين يحبونك، وتضعين على رأسك وردة من ذهب، تنعكس عليها شعاعات سيف طويل يتحرك حوله .. يحدد جيداً نهاية أيامك فى الحياة».

منذ تلك اللحظة قررت ليبيديا وابنتها قبول كلوديوس زوجا. فهو برغم كل شئ سيصبح إمبراطور روما، وإن كان قد ظل خافيا عليهما كيف يمكن أن يحل العم العجوز محل ابن شقيقه الشاب القوى على عرش الرومان.

وهكذا جاءت تلك الليلة التى وجدت فيها نفسها تزف إلى الرجل، وملأها انقباض زرى مجنون، وهى تطل إلى ذلك الوجه القبيح والجسم المترهل والساقين الواهنتين اللتين لاتكادان تحملانه. ولكنها مع ذلك احتملت فى صبر تلك الوقفة الطويلة أمام الهيكل والكاهن الأكبر يعقد لهما، واحتملت بصبر أكثر حين مد كلوديوس إليها يده وانحنى يلثمها، ثم بدأ يسير بها فى الطريق إلى القصر.

على أنها ظلت طوال الوقت تنتظر فى رعب لحظة ثقيلة قريبة. إذ تقضى التقاليد أن يحمل الزوج زوجته عند دخولها البيت لأول مرة، ليحول دون أن تدوس على عتبته بأقدامها. وعندما اقتربت هذه اللحظة بدأ ينتابها دوار صاخب، وتأخذ بها قشعريرة .. فهى تبغض أن يضمها ذلك الرجل إليه، أو يحملها على صدره.

وانتبهت مساليـنا فإذا بالركب قد توقف، وإذا كلوديوس ينحنى فيحملها ليدخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها من عتبة البيت. وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما فى سرعة مجنونة وهى تمد ذراعيها فى اضطراب، فقد كان كلوديوس على وشك أن يسقط بها وقد اهتزت من تحته ساقاه. على أن مسالينا قبل أن تسقط وجدت من يسارع إليها، ليحول دون سقوطها. وانحطت على صدر منقذها بقوة، وأحست عطر أنفاسه فى أنفاسها، وبدا لها كأنها فى حلم رائق لذيذ.

سوى أن الأمر لم يستمر سوى لحظة، وجدت الرجل بعدها يبعدها عن صدره ويساعدها على الوقوف. وأطلت إليه .. وعرفت فيه رجلا من أصحاب كلوديوس، حدق فيها طويلا يوم كانت عند الساحر فى إعجاب كبير، وعرفت من أمها حين سألتها عنه إذ أضطربت تحت وقع نظراته أنه يدعى فاليريوس، وكان من قبل قنصلا، وقائدا لجيوش مظفرة، هجرها جميعا متجردا من الأهواء منصرفا إلى دراسة العلوم والطبيعيات، وهو بعد لما يتجاوز الأربعين.

ومدت مسالينا يدها إليه تشكره، غير أنه تجاهل هذه الحركة وتراجع إلى الخلف فى هدوء ..

ولعل التجاهل الذى أبداه فاليريوس أزياتيكوس هو الذى جعلها تمعن فى التفرس فيه بكل مالديها من رغبة وشوق، حتى وجدت نفسها مسوقة إليه بعد ذلك، بينما الغناء والمأدبة فى الذروة من الحفل، فإذا بها تقترب منه، وترسم على شفتيها ابتسامة مليئة بالدعوة .. غير أنه لم يكد يراها حتى ترك مكانه وانطلق إلى بعيد .. وأعادت الكرة مرة أخرى، ومدت يدها إليه، غير أنه انحنى وتجاهل هذه الحركة منها، ومضى إلى الأمام غير عابئ بها على الإطلاق.

واهتز فى الأعماق منه، ألم كبير. لقد أحست نحو فالير اندفاعا ضخما لم تدر كنهه، وجذبها إليه ذلك العنف المتدفق من وجهه وحركاته جميعاً. من أجل ذلك عز عليها كامرأة ذلك التجاهل منه لكل تلك الفتنة والنعومة والخصب التى ارادت أن تضعها بين يديه. ولكنها مع ذلك لم تستطع أكثر من أن تبكى، ثم تنحدر إلى ركن من القصر تدعو ربها برياب، وتبدو وكأنها تصلى وتطيل الصلاة.

غير أن الأمر لم يكن ليطول، فقد جاءت الساعة أخيرا، وكان لابد أن تتقدم إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حجرة الزفاف. وانصفق الباب من وراء الزوجين. وأحست مساليـنا رعشة قوية عندما مد إليها كلوديوس يده يجذبها إليه وقد انحط على مقعد طويل. واغمضت عينيها حتى لاتفتحها على وجهه المجدور وجسده الضخم .. وكتمت أنفاسها فى انتظار ماتخبئه لها ليلة الزفاف من مفاجآت.

واقتربت يد كلوديوس المرتعشة تحت أعباء السنين من ثوبها الأبيض تشقه من أعلى. وامتدت أصابعه تداعب صدرها الممتلئ بالشباب. وبدأت هى تضطرب وتختلج. وفجأة فتحت عينيها فى ذهول وقد توقفت يد الزوج بغتة، وانحطت على صدرها ثقيلة جامدة..

وصرخت مسالينا فى جنون، وانتفضت كملسوعة، فقد كان الزوج قد راح فى سبات عميق.

ظلت مسالينا لحظات تنتفض، وفى الأعماق منها ألوان صاخبة من الصور والخيالات، تصطرع فى غير قليل من الحقد والبغض لذلك الرجل الذى نام فجأة فى الليلة الأولى للزفاف. وأحست مسالينا كأن خنجراً حادا طعن منها الكرامة والأنوثة معا. وفى غمرة ذلك الاضطراب أبت إلا أن تنتقم لنفسها ما عاشت بعد ذلك أبدا..

وانتظرت بعض الوقت تفكر، ثم نهضت فى بطء وهى تزيح رأس زوجها عنها، واقتربت من الباب تفتحه، وتسللت إلى الحديقة وصدرها لايزال على عهده مفتوحاً يتنسم العطر ويبحث عن جديد...

وسارت فى طرقات الحديقة خطوات، وضربت أذنيها أنغام حلوة تنبعث من مدى قريب، فاتجهت فى خطوات لينة نحو الصوت الشجى وقد بدأ صدرها يتذبذب مع كل نغمة، ويدفع بها فى دوى كبير.

وأطلت مسالينا أمامها .. فرأت المطرب «إيتامار» الذى أطرب المدعوين فى الحفل واستثار إعجابهم، مضطجعا عاريا لدى قاعدة أحد الأعمدة الرخامية وهو يرسل نغمات مثيرة أكثر منها شجية. وراحت تتأمله فى نشوة ملهوفة. وفى لحظة .. كانت قد استلقت إلى جانب الفتى، وانهالت عليه تقبيلا، وألقت صدرها المتفجر على صدره الخشن، وامتدت ذراعاها تطوقانه بشغف وهوى كله الجنون ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى هذه اللحظة فقط .. عرفت مسالينا ليلة الزفاف.

★ ★ ★

عاشت مسالينا فى القصر امرأة أخرى بعيدة جداً عن أن تكون زوجة كلوديوس، حتى بعد أن قتل كاليجولا، ونصبه القتلة هو نفسه امبراطورا، وصارت هى نفسها الإمبراطورة مسالينا سيدة الرومان ..

وكان ذلك هو أقصى ماتحلم به مسالينا..

ولعل كلوديوس نفسه لم يكن يتصور من قبل أن الأيام تستطيع أن تجعل منه إمبراطورا للرومان.. بل إن أمه نفسها صرخت ذات يوم - وهو بعد صغير - حين قيل لها إن المنجمين يبشرون بأنه سيجلس يوماً على العرش :«إذا ذهب القدر فى عبثه إلى هذا الحد فقولوا على روما وأمجادها السلام».

والواقع أنه كان ضئيل الشأن حتى أن ابن شقيقه الإمبراطور كاليجولا لم يهتم له قط، كما كان يتعمد تحقيره لأتفه الأسباب.. وما كان يدرى أن هذا العم الذى يبالغ فى احتقاره سيجلس على نفس العرش الذى يسقط هو من فوقه مضرجا فى الدماء.

وكان هذا هو الذى حددث بالفعل ..

فذات يوم، بينما كاليجولا بين حاشيته فى الملعب الإمبراطورى، إذ برز له من خلال الجموع بعض المتآمرين عليه ممن ضاقوا بدكتاتوريته المجنونة. فهبط أحدهم بسيف على وجهه فحطم فكه، ثم تبعه آخر فأجهز عليه، بينما زملاؤهما يخرجون السيوف من تحت معاطفهم ويعملون على تفريق الجماهير.

وساد البلاط اضطراب ضخم، وهرع إلى داخل الملعب رجال الحرس الجرمان يعملون التقتيل والذبح فى الجميع ماعدا المتآمرين أنفسهم الذين تمكنوا من الهرب ليكملوا ذبح الإمبراطورة وابنتها فى داخل القصر.

وكان كلوديوس بين رجال الحاشية الذين أنطلقوا يهربون فى حنايا الحديقة الواسعة المحيطة بالملعب الإمبراطورى. وبينما أحد الضباط المشتركين فى المؤامرة يجوس خلال أشجار الحديقة إذ لمح قدمين تبرزان من تحت كومة من الأعشاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحشائش، فجذبهما، وإذا به وجها لوجه أمام كلوديوس الذى ما أسرع ماجثا على ركبتيه أمام الضابط يستعطفه ويسترق قلبه. وفجأة حدث مالم يتوقعه كلوديوس قط .. فقد فوجئ بالضابط نفسه يجثو ملتمسا الصفح من مولاه، ويقول له إنه جراتوس أحد المتآمرين على الإمبراطور كاليجولا والذين يؤيدون ترشيح كلوديوس خلفا له.

وفى هذه الأثناء، وبينما هذا المشهد المضحك يجرى فى الحديقة، كان مجلس الشيوخ منعقدا يبحث عن كلوديوس ليعلنه إمبراطورا.

وجلس كلوديوس على عرش الرومان، ومعه مساليتا، المرأة التى شغف بها حبا، والتى لم يمنعه حبه إياها من أن ينصرف بين الحين والحين إلى أماكن اللهو ويختار منها نساء مليحات يمارس معهن كل مايطمح إليه من ضروب الحب الرخيص.



وفى الحق، إن كلوديوس لم يكن أبدا بالرجل الذى يهتم بامرأة واحدة على الإطلاق، فقد عاش حياته كلها يتنقل من امرأة إلى أخرى، يشرب ويلهو، ويفسق، حتى لايدرى من أمر نفسه شيئا قط. فهو سريع التقلب، ضعيف الإرادة، لايستقر على شئ واحد أبدا، ولكن يرضى دائما بكل مايلقى إليه من أطايب الطعام..

ومع مضى الأيام وبلوغ استهتاره المدى، ظل يضعف، وينهار، ولكنه مع كل ذلك ظل يحب النساء ويزداد شغفا بهن. وعرفت مساليتا ذلك فيه، ولم تكن هى لتطيق أن يقربها، فأدركت أن السبيل لإرضائه إنما يكون بإلقاء الحظيات بين ذراعيه، لتنصرف إلى ملاذها هى نفسها. ولم يكن كلوديوس يرفض أبداً، لأنها عرفت دائما كيف تتخير له من الحظيات أملحهن وأطيبهن وأشدهن غباء. فقد كان يقول دائما إنه يحب فى المرأة جسدها، أما عقلها فيخشاه.

وهكذا ظلت مساليتا تغذيه بأطايب الطعام. لتنطلق هى إلى سهراتها ولياليها الصاخبة الماجنة العربيدة التى لاتعرف هوادة فى الحب واللذة أبدا.

ومن هنا، استطاعت مساليتا دائما أن تحصل على ماتريد، ولم تبخل على أعصابها بشئ أبداً. وأبت إلا أن تتذوق أنواع الحب جميعها بكل ألوانها وأطايبها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع الشيوخ، والشباب والكبار والصغار، والأمراء والصعاليك .. كلهم، راحت تتخير من بينهم واحدا لكل ليلة، ولاتهتم بعد ذلك لما يأتى به الغد.

على أن ثمة رجلا واحدا ظل يحطم منها الكبرياء كل يوم، ويشعرها بالذلة أبدا. وكان الرجل .. فاليريوس القنصل الفيلسوف ..

والحق، أنها لم تنس أبداً يوم رأته فيه مع كلوديوس وباقى الرفاق وهم جالسون حول سيمون الساحر يتحدثون. لقد وجدت فيه رجلا آخر غير هؤلاء جميعاً. ووقع من نفسها موقعاً كان لابد أن يجعلها تتلمس إليه الطريق. على أنها مع طول ماحاولت، لم تستطع اجتذابه إليها أو تحطيم قوى إرادته. وإنها لتذكر ذلك اليوم الذى حملها فيه زوجها ليخطو بها عتبة القصر ليلة الزفاف؛ عندما كاد يسقط بها فاعتمدت على صدر فالير الخشن. لكم تمنت تلك اللحظة أن يعتصرها فى صدره القوى ويضمها بين ذراعيه الفتيتين. إلا أنه مع هذا أبعدها فى لحظة عن صدره. وعندما أرادت أن تجتذبه إليها لم يحفل بها وانحنى ثم سار بعيدا غير عابئ بكبريائها المحطوم على الإطلاق.

أبدا .. لم تكن مسالينا لتنسى ذلك الرجل برغم طول ماتمددت إلى جوار رجال آخرين، عرفت كيف تقتنصهم بشباك سلطانها وفتنتها جميعا. وما أكثر الليالى التى كانت تسرح فيها بعيداً وهى تقلب فى ذاكرتها صور هؤلاء الذين قضت معهم ليالى فاجرة مترعات، تسلك مع فريق منهم سبيل العنف لأنهم ضعفاء، وتتبع مع الآخرين خطة اللين لشعورها بقوتهم، ومع كل منهم تبيح محاسنها كلها، قائداً كان أو عبداً، فتياً كان أو عجوزاً.

كل هذه الصور كانت تتتابع متلاحقة بذاكرتها، ولكنها كانت تنحيها جميعاً، لتعود فتذكر فالير الفيلسوف. الذى لم تعرف كيف تحطمه وتنتقم لكبريائها منه بعد ..

بيد أن امرأة مثلها لم تكن لتطيق الصبر كثيراً على رجل من ذلك الطراز. وجاءت ليلة ساخنة استبدت بها فيها الرغبة لأن تصل إليه، برغم كل مايضعه فى طريقها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من عقبات. فانطلقت من القصر إلى حدائق فالير حيث يقيم، وقد وضعت فى رأسها ألواناً كثيرة باهرة من الخيالات والأوهام.

على أن الذى كان يدفع مسالينا إلى الانطلاق إليه فى تلك اللحظة بالذات، كان شيئاً آخر أكثر من الرغبة فى بلوغ الهدف، شيئاً يمزق الأحشاء، والضنى، والكبرياء جميعاً..

وكان ذلك قد حدث ذات صباح باكر من ليلة فارغة قضتها الإمبراطورة مسالينا مع رجل تافه، لم تجد ماتنتقم به منه إلا بإلقائه عاريا إلى الكلاب تنهش منه ماتريد. ثم انحطت مسالينا، إلى جاريتها كالبورنى وأسلمتها شعرها تصففه وتسوى ما اضطرب منه. وهمست الجارية وهى تمصمص شفتيها :

– لن يخفف عنك يامولاتى سوى رجل آخر تتحدث نساء روما جميعاً عن لياليهن الباهرة معه، قبل أن يدعى الزهد والورع والتقوى.

وهزت مسالينا رأسها فى سرحة وسألت وكأنها لاتعرف :

– من تقصدين ياكالى ..

– ذلك الرجل فالير يامولاتى صاحب حدائق لوكولوس العامرة بالأسرار.

وقالت مسالينا فى شبه يأس :

– ولكنه ياكالبورنى يأبى أن يقرب النساء، ولايستجيب لأى لون من ألوان الإغراء.. ولعله لم يدع الورع إلا عندما أحس بانحلال قواه وخشى أن تفضح عجزه النساء ..

وأجابت كالبورنى وقد أطلقت ضحكة خفيفة ساخرة :

– كلا يامولاتى .. ولكنه يفضل من النساء واحدة فقط دونهن جميعاً، لايرضى عنها بديلاً .. ويمنحها من أطايب الحب كل ليلة مايغنى ويبهر.

وانتفضت مسالينا وصرخت :

– ماذا .. أليس صحيحا إذن أنه قد حرم على نفسه النساء ؟

– كيف يامولاتى .. ألم يأتك حديث حدائقه وأسرارها التى لم يطلع عليها سوى عشيقته الحسناء بوبيا امرأة الشيخ سيبيون. إنها امرأة ذات جمال باهر صاخب، ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أكثر ماشوهدت وهى تدخل ليلا قصر فالير فلا تبرحه إلا عند الفجر، ومع هذا يدعى النسك والتقوى.

وفتحت مسالينا عينيها فى ثورة مجنونة .. هو إذن يفضل عليها سواها ويهملها فى الوقت الذى يدعو إليه بوبيا يقضيان ليالى باهرات فى حدائقه الزاخرة بالأسرار والمجهول ..

ومادام الأمر كذلك .. فلنر لمن يكون النصر ؟..

★ ★ ★

فى ركن هادئ من قاعة الأعمدة السبعة فى حدائق لوكولوس، كان فالير قد اتخذ مكانه ومد بصره بعيداً وكأنه يطل إلى شئ .. ومن عينيه تنحدر خيوط رفيعة من الدموع.

ومضت لحظات ساكنة أحس فالير بعدها وقع خطوات خفيفة تقترب منه، وقبل أن يلتفت سمع صوتا رقيقا يهمس :

– ما عهدنا الرجال يبكون يافالير ..!

وعرف فالير صاحب الصوت، وأخذ به العجب أن تدخل مسالينا حدائقه وتفاجئه هكذا، وهى التى لم تعرف الطريق إليها أبدا، لطول ما أبى عليها ذلك. ولكنه استفاق سريعا وأجابها دون أن يطل إليها :

– إنما يبكى الرجال حين يتبينون الحقيقة بعد أن يكون الوقت قد فات ..

– وهل فات الوقت .. يافالير ؟.

– أجل.. فلطالما عشت حياتى فى الضلال.. وحين أطل إلى مابقى لى من الوقت لاأجد مايكفى للتكفير عن ذنوبى.

فأبرقت عينا مسالينا، وبدا لها كأنه يعبر عن ندمه إزاء ما ارتكبه معها من غلظة وجفوة .. وبدأت تقول فى صوت رقيق :

– دع مامضى يا فالير .. فخير للمرء أن يبلغ الشئ متأخراً من أن لايناله أبداً .. ومع ذلك فإن ذنوبك تلك ما أسرع مايغشاها النسيان.

وأدرك فالير مايجول بخاطر مسالينا .. فقاطعها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– إن ذنوبى لايغفرها إلا الله. فما أكثر ماطعنت وضربت فى حروبى الكثيرة. وما أكثر ماتركت جنودى يرتكبون من الفظائع والدنايا مع الأسرى من شيوخ وأطفال ونساء. إن ذلك ليقسو على ضميرى كل القسوة.. قسوة لم أبدأ أحسها إلا عندما جاءونى بأعرابى أسير عند الدجلة ذات يوم، وجدت فيه فيلسوفا من نوع جديد لم أره من قبل، راح يحدثنى عن بلايا الحروب، ثم كان كل ماقاله وهو يمضى : «خذها عنى أيها القائد، فإن الإنسان ليسمو عن مستوى البشر إذا راقب نمو الأشجار والنباتات» . وهكذا عندما عدت إلى روما، بدأت أحس ذلك الثقل الكبير، وبدأت أراقب الأشجار فى حدائق انشأتها لذلك خاصة، وتنكرت من أجلها للماضى، واحتقرت المال والمجد، والمرأة أيضاً ..

وانحطت مسالينا على المقعد إلى جواره وهى تضحك فى صخب وعربدة وإغراء.. وأدنت وجهها من وجه فالير، وألقت يدها على كتفه وأرسلت إليه نظرة كلها الدعوة. ثم قالت وكل بدنها يهتز :

– أهذا كل مايبكيك يافالير. إنك فى الحق لذلك الرجل الغريب الذى امتلأت به إعجابا عن قبل. فهذه الغرابة منك تأخذ بى، ومنذ رأيتك فى منزل سيمون وجدت فيك رجلا ليس ككل الرجال، وأحسست أنك الرجل الوحيد الذى يمكن أن يفهمنى. ولم أستطع فى ذلك اليوم أن أكشف لك عن الحقيقة، لذلك أتيت أكشفها لك الآن .. فإذا شئت يافالير .. استطعنا نحن الاثنين أن نصنع من هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف شيئا باهرا جديدا..

ولم ينظر إليها، وظل بصره ممتدا إلى بعيد. وذهب منها الصبر، ولكنها اقتربت منه حتى لامست أنفاسها أنفاسه، وأخذت رأسه بين كفيها، وراحت تتطلع فى عينيه مرسلة سهاما لم تخطئ القصد أبدا. غير أنه مع كل ذلك ظل ساكتاً وكأنه لايحس وجود امرأة إلى جانبه على الإطلاق.

وفى لحظة، انتفضت مسالينا مندفعة كبركان، لقد أعماها الحقد للرجل الذى أعرض عنها، وهى الإمبراطورة الباذخة الفتنة وصاحبة الأمر والنهى فى البلاد. وانهالت من بين شفتيها شتائم صاخبة كلها الغضب، والغيرة، والجنون :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– أنـا أعرف كـل شـئ .. إن بوبـيـا سيـبـيون عـشـيـقتـك، وسـأعرف كـيـف أفضـح خياناتكما أمام زوجها وزوجى .. والناس جميعاً ..

عندمـا سـارت مسـالـينا فـى الـطـريق من حدائـق فالير إلى الـقصـر، كانـت تحس فـى أعماقها مثل النار، والجنون، والشهوة إلى الـدم ... وكان كل مايهمها فى هذه اللـحظة أن تنـتقم لكـرامتها وأنـوثتها مـن ذلك الرجـل الذى ألقت بـين ذراعيه بكـل مافيهـا من ليونـة وخصب، فأدار لـها ظهره، وانتـبه إلى أسراب من الـحمام الأبيض حـامت حـول رأسه ومضى ينثر لها فتات الخبز، ثم استدار لها وهو يقول :

– لم يبق لدى ما أقوله .. فاسمحى لى أن أعتنى بطيورى !..

أبداً لـم تكـن تسـتـطيـع أن تتصـور كيف يـطردهـا فاليـر من حـدائقه، وكـيف يـهزأ بفتنتها العـارمة .. ومن أجل ذلك كان رأسها فى خلال الطريق يدور فى صـخب ليحدد ساعة النهاية للرجل الذى حطم منها كل شئ!..

وفتح الباب فى صخب على كلوديوس وهو مـستلق يقرأ. واطل فإذا امرأته تقترب وهـى تبكى، وفتح لها ذراعيه فألقت بنفسها بينهما وجسدها يرتعش كله ..

وراح كلـوديوس يهدئ مـنها الـروع حتى هدأت ... ولـكنه بـدأ يرتـعش بـدوره وهـو ينصـت إلى قصة المؤامرة عـلى عرشه، التى راحـت تسوقها إليه مسـالينا وهـى تقول إنهـا كشـفت أن فـالير يـسعـى فى سـبيل خـلعه عـن العرش، وأنه يـستـعـد للـسفـر إلى جرمـانيـا ليـعود مـنها علـى رأس الـكـتـائـب الـرومـانية زاحـفـا إلى رومـا لـيـعلـن نفسه إمـبراطورا.

وبدأت الدوامـة تدور فـى رأس كلـوديـوس. فإنه ليذكـر الدور الذى لـعبه القائد فـالير فى الإطاحة برأس كاليجولا .. فهل يمثل مرة أخرى الدور نفسه معه!..

وأدركت مسـالينا مايدور بخلد الإمـبراطور... وعـادت تهمس إليه :

– أنسيت أنه كان يطـمع فى العرش بعد مقتل كاليـجـولا .. لولا أن الشـعب أقصاه واختارك أنت ؟.

وبدأ كأن كلوديوس قد اقتنع تماما، وماعاد فى حاجة إلى مزيد.

غير أن الإمـبراطورة لم تـكن لتدع أية فرصة لتـأكيد اتهـامها ضد الـرجل. فبيـنما

رأس الامبراطور يدور حائرا إذ دخل عليهما سوليوس وفيتيليوس، وهما رجلان عاشا حياتهما على مايحصلان عليه من مال مقابل الإيقاع بالناس أمام القضاة والوشاية بهم والتطوع لأداء شهادات الزور، واستطاعا من وراء ذلك تكوين ثروة مهدت لهما الحظوة والترحيب فى كل مكان، وجعلتهما من أقرب رجال الحاشية إلى الإمبراطورة.

وبدا للإمبراطور فى تلك اللحظة أن قد وجد من يستشيرهما ويتأكد منهما عن حقيقة فاليريوس .. وما درى أن مسالينا نفسها سبقته إلى استشارتهما فى الطريقة التى تستطيع بواسطتها إنزال نقمتها بالفيلسوف المسكين.

وانطلق سوليوس يحكى كيف أن شركاء لفاليريوس قد اعترفوا أمامه بحقيقة المؤامرة التى يدبرها للوصول إلى العرش وذبح الإمبراطور، وتبعه فيتليوس يكيل الاتهامات للقائد ويناشد الإمبراطور أن يحمى العرش والشعب بإنزال منتهى الشدة بالمتآمرين. وعلى رأسهم ذلك الخائن فاليريوس. وعشيقته بوبيا التى تستحق العقاب مزدوجا على جريمة الخيانة لزوجها سيبيون، وجريمة التآمر مع عشيقها ضد الامبراطور.

ولم يكن أمام كلوديوس إلا أن يقتنع .. وأن ينطلق جنوده ليسوقوا أمامهم فاليريوس من بين حدائقه مكبلا بالأغلال.

ولم يكن فاليريوس ليكترث بكل التهم التى ساقوها ضده، وبدا له أن يترفع عن تكذيب مزاعمهم، لولا أنه وجد التهم تنساق معه لتأخذ عناق بوبيا، وكان لابد أن يدافع عنها لينقذها. وراح فاليريوس يعدد خدماته لروما وجهوده لنشر رايتها؛ ويعدد خدماته التى قام بها من أجل كلوديوس نفسه قبل أن يجلس على العرش أوبعد ذلك. وبدا كأن كلوديوس قد بدأ يقتنع ويبرئ صديقه، لولا أن المصادفة السيئة شاءت فى هذه اللحظة بالذات أن ينفك الوثاق الذى كان يشد كفى فاليريوس، فمد يمناه الطليقة كعادة الخطباء وهو يواصل الدفاع عن نفسه. وفى نفس اللحظة رفع كلوديوس كفيه أمام وجهه كأنما ليتقى الضربة التى توقعها، وتراجع فى ذعر وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظن فاليريوس يمد يده بالسلاح. وكان فى ذلك الكفاية ليضيع كل أمل فى إنقاذ القائد الشاب.

والتفت كلوديوس إلى مسالينا يسألها الرأى، فما كان يستطيع أن يصدر أمرا بغير مشورة مسالينا؛ والتفتت إليه وهى تطل فى تشف إلى فالير الماثل أمامها فى شجاعة وكبرياء .. وقالت فى بطء :

- أرى يامولاى أن فالير؛ بما له من ماض مشرف مجيد فى خدمة الإمبراطورية، يستحق أن يترك له اختيار نوع ميتته! ..

وضحك كلوديوس طويلا وقد أعجبه الاقتراح، ثم التفت إلى فالير وهو يهز رأسه وقال :

- أجل ... أجل ...عليك بتنفيذ الحكم بنفسك الليلة .. يافالير !.

وذهب فالير .. وفى نفس الليلة أمر رئيس خدمه بأن يقطع شريان يده ويتلقى الدم المتدفق منه فى إناء يرسله إلى إصدقائه .. ثم يلقى بجسده الميت إلى محرقة تقام وسط حدائقه، ويذرى الرماد ليكون لكل شجرة منه نصيب ..

واستمرت الأيام ..

★ ★ ★

كانت روما ترقص على برميل من البارود !...

ولم يكن الشعب ليرضى طويلا بأن يضع على رأسه إكليلا جديداً من الشوك مجللا بالدنايا والخطايا والعار ... وماكان يرضى أن تجلس على عرشه امرأة تلعب فى كل لحظة بمصير واحد من الشعب ... فى سبيل لذاذاتها التى لاتنتهى عند حد... والتى لم يعد احد يعرف بسببها إذا كان الولد الذى أنجبته مسالينا والذى سمته بريتانيكوس أو الطفلين أو كتافيا وأنطونيتا كانوا بالفعل أبناء الإمبراطور .. أو أبناء عشاق الإمبراطورة ..!

والحق أن الأنوف كانت قد أزكمتها رائحة الفساد الذى يعيش فيه القصر، حتى لم يعد هناك متنفس نقى فى طول الإمبراطورية وعرضها، وكانت قصص مغامرات الامبراطورة تدور على الألسنة بنفس السرعة التى تنطلق فيها هى نفسها لشهواتها العنان، قبل أن تخمد فى جسدها أبدا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمرت مسالينا تندفع اندفاعاً صاخبا نحو حياة عابثة زرية مجنونة، وبدأ العشاق يعرفون الطريق جيداً إلى مخدع الإمبراطورة ... يقضون ليالى زاخرة بغير مقابل، ويشربون كئوس العشق مترعة حتى الثمالة .. كلهم ينالون من المتعة. سواء .. الصعاليك والعظماء، والفقراء والأغنياء .. بل والصبيان أيضاً ...

وكان لواحد من هؤلاء الصبية معها قصة دارت على ألسنة الجميع ... بل وعلى لسانها هى نفسها عندما فتحت عينيها على نهاية حياتها ...

إن مينستر مهرج الإمبراطورة ومدير شئونها الخصوصية يتبنى صبيا فى الرابعة عشرة ... جميل الصورة، فتانا، خفيف الروح ... جعل منه كل شئ بالنسبة له ... ورأت الإمبراطورة الصبى ذات يوم فأعجبت به، وبغير أن يعرف منيستر بدأ الفتى «تيتوس» يغشى مخدع الإمبراطورة وحده، ويتذوق من صنوف المتع مايحطم الأعصاب كلها. وتدلهت الإمبراطورة به، وتدله هو بها، ولم يكن أحد يعرف القصة أبداً، لولا أن الفتى الغر راح يطلق للسانه العنان، محدثاً رفاقه عن مفاتن مسالينا وأساليب عشقها. وكان لابد أن تعرف الإمبراطورة أن الفتى قد بدأ يكشف السر. وكان لابد لها أن تضع حدا لثرثرته، فوضعت على نافذة مخدعها كاسين بعد أن ملأتهما شراباً، ووضعت فى إحداهما مسحوقاً بنفسجى اللون. وأتى الفتى كما يأتى كل ليلة وجلس عند قدميها، وبدأ يأخذان من ألوان المتعة مايشاءان. وفى غمرة النشوة أمرته الإمبراطورة أن يأتى بالكاسين فيشرب أحدهما ويعطيها الآخر. وبدأ الفتى يشرب، أما هى فقد تركت كأسها يسقط عمداً خشية أن يكون السم فيه ...

وفى لحظة انتهى الأمر، وتدحرج الفتى عن السرير فى سكون، وأرسلت الإمبراطورة إلى منيستر ليتسلم جثة ولده ...

واستمرت الأيام تمضى ...

★ ★ ★

على أن قصص الفساد كان لابد أن تجمع من الشعب رجالا يعرفون جيدا ما للوطن من حق عليهم. وكان القوم قد بدأوا يجتمعون تحت رئاسة فالير فى ركن مظلم من حدائقه فى لوكولوس ... سوى أنهم لم يستمروا طويلا حتى ذهب فالير،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد أن كان قد خلع خاتم الرئاسة ليسلمه لأعز أصدقائه «كايوس سيليوس» ليقوم بعده بمهمة الإنقاذ ...

وكان للقنصل كايوس طريقته التى تختلف عن طريقة فالير ... فقد كان يرى أن يفتح آذان الشعب على الحقيقة، وأن يهاجم الإمبراطورة بغير مواربة. وبدأت حملاتهصاخبة داوية تنحط ثقيلة على كتفى الإمبراطورة محطمة كل ما كان قد ظل باقيا فى قلوب الشعب من حب وعجب بفتنتها. وبدأت تسمع بين الحين والحين هتافات صاخبة بسقوط «العاهرة ذات التاج» ...

وسهرت مسالينا ذات ليلة تفكر ... وطلع الصبح عليها وقد قررت فى نفسها أمرا وطنت عليه العزم جيداً ... ولم يكن ذلك الأمر سوى العمل على إسكات كايوس بضمه إلى قائمة عشاقها الكثيرين !...

ولعل كايوس احس بما يدبر له، ولعله حاول أن يبتعد عن طريق غواية الإمبراطورة. على أنه وجد نفسه ينساق ذات ليلة إلى القصر مع رسول ذهب إليه يدعوه إلى مقابلة الإمبراطورة مسالينا ... برغم أن أصدقاءه من رجال فالير القدماء كانوا قد قرروا ألا يستجيب للنداء ... فقد كانوا يدركون أن الفتى لن يستطيع مقاومة فتنة مسالينا، وكانوا يحسون أن فالير عندما ترك له الرئاسة لم يكن موفقا على الإطلاق ...

ووجد كايوس نفسه فى مخدع مسالينا وقد اضطجعت فى إغراء يبعث الرعدة فى أعصاب الرجال. وعندما بدأت مسالينا تعاتبه فى صوت رقيق كله الدعوة لطعنه فضيلتها، راح يدافع عن نفسه فى قوة وعنف لم يستمرا طويلا، بل بدأ يخفتان رويدا وهو يطل إلى ماتعمدت مسالينا أن تظهره عاريا من كنوز مفاتنها ... وراحت الدوامة تدور برأس الفتى، وبدأ يجد مايقنعه بأن ينشئ مع الإمبراطورة علاقة تساعده على تحطيم قواها. واقتنع بالفكرة سريعا ... ومامضت لحظات حتى كان الفتى عند قدمى مسالينا.

ومنذ تلك اللحظة .. تحول القنصل إلى رجل من نوع آخر .. لم يجد مايمنعه من أن يستمع إلى مسالينا فيهجر زوجته الجميلة «جونيا سيلانا» بينما كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطورة نفسها تخلصه - وهو يعلم - من حظيتين كان يختلف إليهما بين الحين والحين، فأرسلت إليهما من دس لهما، فماتتا. ولم يجد كايوس مايحول بينه وبين أن يسلق المشاريع سلقا فى أثناء انعقاد مجلس الشيوخ، ليتسنى له تلبية دعوة الإمبراطورة التى لايمنعها شئ من أن تدعوه من المجلس إلى مخدعها، فينطلق فى جنون وينسى من أجل لحظاته معها كل شئ.

ومن جديد بدأ الناس يتحدثون عن علاقة مسالينا بكايوس، الذى كانوا قد وضعوا فيه الآمال ... ولم يقتنع الشعب أبدا، ولا الرجال الأمناء الذين جعلوا من أنفسهم جماعة تضع حدا لفساد مسالينا، بما راح يدعيه لهم كايوس من أنه يتخذ هذه الوسيلة ذريعة للوصول إلى القضاء عليها. أبدا .. لم يقتنع الرجال بما حاول إقناعهم به ... فطردوه من جماعتهم إلى غير رجوع ..

أما هو ... فاستمر يحب مسالينا، ويكذب على نفسه، ويخدعها إلى أبعد حدود الكذب والخداع. وأما هى ... فقد عشقته كما لم تعشق أحدا من قبل أبدا ... وبلغ الهوس بها حد أن وضعت فى رأسها تماما أن تجعل لعلاقتهما طابعا شرعيا ... بغير أن يترتب على زواجها منه انفصالا عن الإمبراطور!..

وبرز منيستر - خادمها الخاص - تلك اللحظة فى الميدان ..

وتفتق ذهناهما عن خطة محكمة باهرة.

إن كلوديوس يؤمن بالسحر، ويصدق كل مايقال له عن طريقته ... ومن هنا قررت مسالينا أن تتفق مع إحدى الساحرات على أن تروى لكلوديوس أن ملك الموت يحوم حول فراش زوج مسالينا ... وأن زوج مسالينا سيموت بعد ثلاثة أيام من معرفة النبوءة ... وعندما تسيطر هذه الفكرة على رأس الإمبراطور، فإن على مسالينا أن تلعب دورها جيدا بعد إقناعه بأنه يستطيع الهرب من المقرر له إذا ابتعد عن المدينة، بعد أن يضلل ملك الموت بزوج اسمى جديد .. تتحول إليه ضربة القضاء..!!

وفى الحق أن كايوس لم يقبل بسهولة هذا الأمر، ولكن مسالينا لم تدع له فرصه للتفكير فى المغامرة وعواقبها، وعرفت كيف تقنعه بأنه أحق من كلوديوس بولاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطورية ... واختلط الأمر فى رأس كايوس. وبدا له أن فى إمكانه فعلا بعد ذلك عزل كلوديوس والحلول محله على العرش ... فيكسب بذلك العرش والمرأة معاً !..

واقتنع كايوس ... وبدأت مسالينا التنفيذ !..

وفى حفل عام أقيم فى الملعب برزت الساحرة للإمبراطور تدخل فى روعه قصة النبوءة. وفى غمرة الاضطراب والرعب. لعبت مسالينا برأس رجلها فرضى بما دبرته، وجلسا يتخيران معاً من يحل «بالاسم» محله ليكون زوج مسالينا، وكان لابد أن يقع الاختيار على كايوس سيليوس ...

وانتهت الخطوة الأولى من مغامرة الإمبراطورة، وقرر كلوديوس السفر إلى أوسيتا ... فى نفس اليوم الذى يعقد الكاهن فيه الزواج الاسمى بين مسالينا والزوج المزعوم كايوس سيليوس.

فى قاعة مظلمة إلا من ضوء شعلة صغيرة ينعكس خافتا على وجوه رجال عشرة، كان الحديث يدور حول إنقاذ الإمبراطورية من العار الذى تلحقه بها مسالينا ... وكان الصبر قد أخذ بهم حتى قرروا الخلاص منها فى نفس الليلة ولو ضحوا بأرواحهم جميعاً فى سبيل إنقاذ البلاد من حكم عاهرة، وكان بين الرجال رجل ضخم نصبوه زعيما لهم منذ أن أقصوا عن رئاستهم كايوس سيليوس الذى ألقى نفسه بين أحضان الإمبراطورة العابثة ... وكان الزعيم الجديد هو المصارع «إيناتوس» الذى فشلت الإمبراطورة فى غوايته من قبل ...

وقف الزعيم «إيناتوس» يتكلم، وبدأ الجميع ينصتون إلى كلماته تخرج هادئة عميقة ثم تنقلب زئيراً صاخبا مخيفاً. قال إيناتوس :

– لست أرى كما ترون من وضع أرواحنا جميعاً فى كفه تقابل روح مسالينا ... فالشعب فى حاجة إلينا ... ولو فقدنا أرواحنا لظلت، مسالينا على العرش تعبث وتطغى وتزيد فى العبث والطغيان ... أما الرأى فهو أن نحطم مسالينا عن طريق الإمبراطور نفسه ... كلوديوس الذى غادر العاصمة وهو لايدرى مايدبر له على يد مسالينا ... وزوجها كايوس سيليوس ...

وارتفعت أصوات الجميع فى ذهول :

– كايوس سيليوس ؟!...

واستمر إيناتوس :

– أجل ياسادة سيليوس ... ولكنى لن أقص عليكم بنفسى الأمر ... ولأدع شريك مؤامرة الإمبراطورة يحدثكم عنها بنفسه ... وتحرك إيناتوس نحو باب القاعة ففتحه ودلف منه رجل يخفى وجهه تحت عباءة ثقيلة سوداء...

ورفع الرجل عن وجهه الغطاء ... وعرفوا فيه منيستر ... صفى الإمبراطورة وخادمها الخاص!.

وبدأ منيستر يقص كل شئ ... وأدرك الجميع ما كان من أمر النبوءة ومايدبر للإمبراطور فى غيبته من عزله وإحلال كايوس الغارق فى عشق مساليـنا إلى أذنيه.... وعرفوا أن الأمر لو تم لعاثت الامبراطورة أكثر مما تعيث فساداً ... فقد كان كايوس رجلا لا إرادة له أمام امرأة، تستطيع مساليـنا عن طريقه أن تحكم وتطغى وتذل أعناق الرجال !..

ومضت لحظات ...وبدأ الرفاق يضعون خطة الإنقاذ كما يجب أن تكون !..

إن أحد العشرة صديق عزيز لنرسيس صفى الإمبراطور الذى يرافقه فى رحلته إلى أوسيتا ... وهو يستطيع لو ذهب إليه أن يدله على ماتدبره مساليـنا فى روما، فيعود كلوديوس بقواته من هناك ليحطم مساليـنا ويقضى عليها ... أما منيستر نفسه فيستطيع قبل وصول كلوديوس أن يبعد عن القصر جميع خدمه وحرسه بحيلة تبدو فى مظهر أمر من الإمبراطورة لحراسة قصر الضواحى الذى ستنزل فيه، أما باقى الرفاق ... فعليهم أن يعدوا الشعب للأمر كله ...

وانفض جمع الرجال الأمناء ....

وجاءت ليلة الحفل العام الذى تقيمه الإمبراطورة لتعلن عزل الإمبراطور وتنصيب زوجها كايوس على عرش روما. وفى غمرة الفرح وبين ضباب دخان البخور واللبان، احتفل شيوخ روما وأعيانها بزواج الإمبراطورة وهم فى حيرة من أمر هذا الزواج.

وانتصف الليل ... وتسلق الفتى تيوغينوس الذى يعرف الجميع أنه يدعى علم الغيب شجرة عالية .. ثم هتف فى رعب :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– أيها القوم ... أرى طلائع عاصفة شديدة مقبلة من ناحية أوسيتا ...

وتبادل السامعون النظرات ... فقد شهدوا الإمبراطورة منذ ساعة تعزل كلوديوس، ولاشك أنه فى طريقة الآن من أوسيتا لينتقم. وهمس البعض فى آذان الآخرين ... وفعل الهمس فعل السحر فى المدعوين جميعا ... فلم تمض دقائق حتى كان المكان قد بدأ يقفر من الشيوخ والأعيان وهم يتسللون منه فى غفلة من مسالينا وزوجها الذى أعلنته إمبراطورا ...

وبدأت مسالينا ترتعش. واقترب منها تيوغينوس وهو يتلفت يمنة ويسره، ثم قال فى صوت خفيض كأنه يسر إلى الحبيبين أمرا غاية فى الخطورة :

– أنا لا أمزح .. لقد جاءنى رسول من أوسيتا، وقال لى أن كلوديوس ونرسيس فى الطريق الآن إلى روما. ولقد أردت أن أتأكد، فلمحت بالفعل غبار الموكب يتصاعد من بعيد وهو يقترب الآن .. وإنى على ثقة من أن الإمبراطور قد وجد من يوغر صدره عليكما. ويصور له زواجكما بصورة هائلة مروعة. لقد أقنعوه بأن الإمبراطورية فى خطر، وأن العرش سينهار من تحته. إن كلوديوس يعود إلى روما وملء نفسه الرغبة فى الانتقام ...

وصمت تيوغنيوس وهو يلهث.

وقال كايوس سيليوس بعد لحظة :

– أواثق أنت !؟

– كل الثقة.

وبسط كايوس يده لصديقه وهو يقول :

– شكرا لك، قد يأتى يوم أعرف فيه كيف أكافئك. أما الآن فلأذهب لجمع أصدقائى.. وأما أنت يامسالينا .. فإذا عاد الإمبراطور حقا ...

وقبل أن يتم عبارته، برز من خلال الأشجار عبد أسود جلل التراب وجهه، ودنا منهم، وقال وبصره شارد وصدره يعلو ويهبط :

– أيها السيد كايوس سيليوس .. إن صديقا لك أرسلنى إليك.. أنا فى خدمة الإمبراطور، ولقد جئت على جناح السرعة لأخبرك أن حياتك وحياة الإمبراطورة فى خطر ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا انتفض كايوس، وصرخ فى قوة :

– إذن لم يعد هناك مجال لشك.

وعندما انتبهت مسالينا إلى ماسيطر حولها، صفقت بيديها تدعو الخدم فما أجابها أحد. ونهضت فى ذعر تدعو الحرس .. فما وجدت أحدا منهم على الإطلاق ..

كانت لحظة مجنونة صاخبة .. ما أسرع ما انتبهت مسالينا بعدها .. فاتفقت مع كايوس على أن يذهب هو ليحاول دعوة الأصدقاء ... أما هى فقررت أن تذهب حيث تلتقى بكلوديوس قبل أن يدخل روما ... وهى تعرف كيف تستولى على قلبه وتجعله يفقد توازنه إذ تفوح منها رائحة الطيب الشرقى الذى تتعطر به فتملأ أنفاسه وتطغى على إرادته...

وهبطت مسالينا إلى اسطبلات البلاط، فما وجدت فيها من المركبات والجياد شيئاً قط. واطلت من حولها فى ذعر ... فلم تجد سوى خادمها الزنجى أحميس الذى انطلق معها فى أحياء روما يبحثان عن مركبة يستأجرانها، ووقعا آخر الأمر على عربة لنقل أوساخ الطريق، فقفزا إليها، وأسرعا فى الطريق الذى يأتى منه ركب الإمبراطور ...

استمرت عربة القاذورات تجرى بالإمبراطورة حتى لمحت طلائع الموكب الإمبراطورى تقترب، فأمرت أحميس أن يقف بالعربة على جانب الطريق، وراحت هى تعد نفسها للقاء الإمبراطور ...

وفى الحق لقد كان من السهل أن تنجح الإمبراطورة فيما دبرته .. وأن يضعف كلوديوس أمام إغراء مسالينا لو التقت به. سوى أن نرسيس الذى كان يصحب الإمبراطور كان قد استعد للأمر نفسه، فما كاد وهو فى المركبة يلمح من بعيد تلك العربة التى تقف بجانب الطريق، ويكشف مسالينا وهى تشير إلى الفرسان بالوقوف، حتى أرسل أمره إلى حملة الأبواق بأن ينفخوا فيها، وأسرع باسطاً أمام عينى الامبراطور قائمة بعشاق الإمبراطورة. وراح كلوديوس يطل فى دهشة إلى الأسماء الكثيرة التى ملأت القائمة، ولم يكن يدرى أنه قد شغل بذلك عن رؤية امرأته واقفة فى عربة القاذورات، تناديه وتهتف باسمه فى جنون !..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمر ركب الإمبراطور فى طريقه سريعاً نحو روما .. ومن خلفه عربة القاذروات التي تحمل مسالينا يحطمها الرعب، بعد أن فقدت كل أمل فى اللحاق به على الإطلاق ...

★ ★ ★

عندما بلغت مسالينا أبواب القصر وجدت جميع مسالكه وقد سدتها جموع من الشعب وقوات من حرس الإمبراطور. وراحت مسالينا تحاول اختراق الجموع لتصل إلى الامبراطور قبل أن يتخذ بشأنها قرارا، غير أنها لم تجد من يتنحى ويفسح لها الطريق، بعد أن استمعوا طويلا إلى زعمائهم وهم يطلبون منهم منع تضرعات الإمبراطورة من بلوغ مسامع الإمبراطور.

وراحت مسالينا تصرخ وتبكى .. وتدور فى جنون بين الرجال المحيطين بالقصر. وفجأة برز لها منيستر خادمها الخاص، فرمت بنفسها على صدره ترجوه أن يجعلهم يفسحون لها .. ولكن الرجل أزاحها فى قسوة من على صدره وهو يبتسم فى سخرية :

– لقد انتهى الأمر يامسالينا .. وعليك أن تقنعى بنهاية من نفس النوع الذى انهيت به حياة ولدى العزيزى تيتوس.

وتحول منيستر عنها .. وعادت مسالينا تصرخ وتجرى .. لاتدرى إلى أين ..

★ ★ ★

كان كلوديوس محبوبا من الشعب بالرغم من بلادته وانهياره أمام تصرفات زوجته .. ولعل هذه الشعبية هى التى جعلت جنود المعسكرات لايكادون يلمحونه وهو يطل عليهم، ويخطب فيهم منددأ بمسلك مسالينا والقنصل كايوس سيليوس ويناشدهم الالتفاف حول العرش .. حتى يهتفوا به ويندفعوا فى تأييده بكل مايطيقون ..

من أجل ذلك لم تكد تمضى ساعات حتى استطاع نرسيس، صفى الإمبراطور والذى تولى قيادة الجيش خلال محاولة إحباط المؤامرة، القبض على كايوس سيليوس وأصدقائه. واعترف القنصل بكل شئ، وطلب فى نهاية اعترافه أن يسدل الستار بسرعة على المأساة بإعدامه على الفور .. ولم يجد نرسيس مايمنع قط من تنفيذ رغبة القنصل..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما مسالينا ... فبرغم كل شئ ... وجدت من بعض أعيان روما من يقبل أن يقابل نرسيس ويطلب إليه السماح لمسالينا بالدفاع عن نفسها. وكان جواب القائد أن محكمة خاصة ستتولى محاكمتها أمام الشعب. وعندما ذهب إليه ولداها أوكتافيا وبريتانيكوس يلتمسان العفو عن أمهما .. كان جوابه «سأجتهد فى إنقاذ راس أمكما.. فاذهبا بسلام».

وفى ذلك المساء نفسه .. بينما الإمبراطور يجلس مادا بصره فى سرحة طويلة وإلى جواره نرسيس .. إذ بطيف زوجته التى طالما أحبها يغشى أمامه .. وإذ به يطل إلى صفيه وصديقه ويقول له :

– نرسيس .. أرسل إلى زوجتى المسكينة من ينبئها بأنى مستعد لسماع دفاعها عن نفسها صباح الغد ..

وانحنى نرسيس أمام مولاه، وفى رأسه دوامة تدور .. فقد كان يدرك جيداً أن رقة الإمبراطورة ستمنعه من أن يحكم بإعدامها .. بل وقد تتيح لها الحياة من جديد والعودة إلى القصر .. وكان يعلم أيضا أن حدوث ذلك معناه هلاكه. من أجل ذلك كان الأمر الذى أصدره بدلا من إبلاغ الإمبراطورة باستعداد زوجها لسماع دفاعها .. هو أن تقطع رأسها على الفور، وأن يتولى تنفيذ ذلك الأمر رئيس الحرس نفسه ... وحتى يطمئن نرسيس إلى التنفيذ كلف خادماً يدعى ايفودوس عرف بكراهيته لمسالينا بمراقبة الإجهاز على حياة الإمبراطورة.

وانطلق إيفوديوس إلى حيث يعرف مكان مسالينا. فقد كانت الإمبراطورة – بعد أن يئست من استرضاء الإمبراطور – قد انطلقت إلى قصر فاليريوس ازياتيكوس الذى كانت تعيش فيه أمها ليبيديا منذ موته، وأطلعت أمها على كل ما كان، فلم تجد الأم إلا أن تشجعها على مواجهة مصيرها .. وقد أدخلت فى رأس ابنتها أن الإله «برياب» سيفتح لها ذراعيه حيث تقضى شهيدة الغرام ..!

وفى عشية ذلك اليوم الجديد، بينما مسالينا مستلقية على الحشائش فى حدائق لوكولوس ترقب النجوم وتنتظر المصير، إذ تناهى إلى سمعها صوت أجش. ونهضت مذعورة، فإذا رجل عملاق ينطلق نحوها عرفت فيه للفور الخادم «إيفودوس».

وجحظت عينا مسالينا، ومرت أمام بصرها فى لحظة ذكرى يوم فاجأت فيه ذلك الخادم يختلس إليها نظرات وقحة مليئة بالرغبة بينما هى تستحم، وعندما غادرت الحمام وانطلقت إلى حجرتها ودعته لكتابة يومياتها، فوجئت به يحاول الهجوم عليها، وفى عينيه بريق ثائر، فصفعته وطردته من الغرفة فى كثير من الصخب.

وعرفت مسالينا أنها لحظة الانتقام.

وتوقف الخادم العملاق أمام المرأة التى كانت ذات يوم ملكته. وأطل إليها فى حملاق يثير الرعب. وفجأة ابتدرها بسباب قذر، ثم أمسك بأعلى ثوبها وجذبه فتمزق، وانكشف صدرها من خلال الثوب بطريقة جعلت الخادم يهوى عليه بجماع يده. وصرخت الإمبراطورة وترنحت. وأمسك الرجل بشعرها وجذبها بشدة وهزها فى عنف وهو يقول فى صوت كالفحيح : «دقت ساعة الانتقام أيتها الكلبة القذرة».

وبينما هو ينزع كل ثوبها، إذ برئيس الحرس يصل ومعه رجاله، وإذ بهم يبعدونه فى قسوة .. فقد كانت الأوامر التى صدرت إليهم تقضى بإعدام الامبراطورة، وليس باستباحة جمالها ..

وفى تلك اللحظة وصلت ليبيديا أم مسالينا تجر ساقيها .. واقتربت من ابنتها فدست فى يدها خنجراً مسموماً. ولمح رئيس الحرس هذه الحركة فأشاح بوجهه كأنما لم ير شيئاً ليترك لها فرصة الانتحار ..

وترددت المرأة .. ولحظ رئيس الحرس ذلك التردد منها، فأمر رجاله بالابتعاد بالخادم إيفودوس. غير أن المرأة التى طالما أباحت جسدها لم تجرؤ فى هذه اللحظة على إيلام ذلك الجسد. وشجعتها نظرات الرجل الذى امتلأ شفقة بها. فقربت الخنجر من صدرها. ولكن الطعنة كانت خفيفة ضعيفة وإن جعلتها فى الوقت نفسه تصرخ وينتابها الدوار لمنظر الدم ينبثق من جسدها. وتركت المرأة الخنجر يسقط من يدها .. وأطلت فى استعطاف نحو رئيس الحرس المشيح بوجهه عنها .. وهتفت به فى صوت خفيض :

– رحماك .. اقتلنى بخنجرك وارحمنى من انتقام الإمبراطور.

ووقف الرجل حائرا لحظة .. ثم مد يده فى سكون إلى خنجره .. ليحدد به نهاية إمبراطورة .. وانهيار عرش.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـوبـيـــا
شيطانة .. على عرش الرومان

كانت باهرة رائعة الجمال، مليئة راسخة اللحم، يهتز فى جسمها «شىء» وهى تسير، وتغمز عيناها فى دعوة عارمة .. فإذا ما أغلقت من خلفها الباب عرفت جيدا كيف تصنع للرجال عوالم مسحورة، وكيف تبيع لكل طارق بقدر مالديه من نقود...

ومع كل ذلك فما كانت بوبيا لتعد امرأة من نساء المهنة، بل كانت إحدى نبيلات الرومان .. ملأتها الطبيعة سحرا، ووهبت لها أفتن مافى المرأة من جمال. ولم تكن وحدها صاحبة كل تلك الفتنة، بل كانت أمها قد سبقتها إليها. وفى خضم تلك الفتنة راح فتيان الأشراف يتقربون إليها، ويعرفون جيداً الطريق إلى بيتها الذى ظل يستقبل كل لحظة من لحظات اليوم صفوفا طويلة من المعجبين الوالهين العامرين بالأحلام. وعندما ذهبت الأم وتركت لابنتها بوبيا نفس البيت، بكل مايزخر به من مظاهر البذخ والترف، ظلت الابنة تستقبل نفس الصفوف، واحدا فى إثر واحد، وقد جعلت كل همها أن تجمع المال، والمغامرة والحب، من الأشراف وحدهم، دون العبيد.

ومن خلال الصفوف الطويلة من العشاق، انتفض فتى صغير تدله به الحب، أبى إلا أن يملكها وحده دون أحد سواه. ووقف الفتى ذات يوم أمامها، وفى عينيه حملاق ذاهل مجنون، يرعش منها الحياة كلها إذا أبت أن تكون زوجا له. وروعتها عيناه ... وأحست بما يمكن أن يرتكبه فتى أسلم كل قياده لنار شهوة مجنونة طاغية، ووجدت نفسها بالرغم منها تقول للفتى إنها له ... وأنها لاترفض أن يكون زوجها الحبيب.

غير أن بوبيا عندما قالتها .. كانت قد وضعت فى رأسها ألا تعطيه من الزواج أكثر من المتعة الباردة الرخيصة .. أما ماعدا ذلك، فسيظل من حقها هى وحدها، توزعه على كل صاحب وجه صبوح من فتيان روما المغامرين، وكل ذى عضل ضخم يستطيع أن يعتصر جسدها الرطب فى سهولة بين ذراعيه الجبارتين. وأثمل النصر رأس روفيوس، الزوج المدله المجنون. وبين كل سكرة وأخرى كان يفيق على قصة جديدة عن حياة أخرى عجيبة تحياها زوجته فى أحضان فتيان كثيرين ذوى فتوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجمال. غير أن لسانه لم يجرؤ على الإفصاح قط، وقلبه لم يستطع أن يعبر عما بدأ يملؤه من الغيرة الثائرة الصاخبة المجنونة. وبدا له أن يهرب بزوجه بعيداً عن روما العامرة بالعشاق، غير أنه كان كلما حاول، أخذت به سكرة جديدة يخفض لها بصره، ثم ينقاد وراءها إلى المجتمع الصاخب الذى لاتعرف سواه، ويتأمل معها الهدايا الثمينة الغالية التى ترد إلى بيته مع كل مساء جديد.

غير أن السكرة لم تكن لتستمر طويلا، وبدأ الثمل يصطخب فى أعماق نفسه مع ألوان أخرى من شرارات عقله، فهو وإن كان يحب امرأته، إلا أن تلك الحياة التى تحياها كان حتما أن تهدم من كيانه هذه الرغبة الجامحة إلى جسدها الفتى الريان. وهكذا بدأ الفتى يضج ويصخب ويظن فى نفسه القدرة على ترويض زوجته إذا ابتعد بها عن تلك العيون التى تريد أن تلتهمها، والشفاه التى لاتتحدث إلا عنها.

أما هى فما كان يقف فى سبيل رغباتها شئ، وفى الوقت الذى كان الفتى يعد فيه العدة ليرغمها على الإذعان لرغبته فى الهرب بعيداً عن مجتمع روما، لم تكن هى تجد ما يمنعها من استقبال عاشق جديد فى بيت روفيوس نفسه .. وعلى فراش الزوجية الدفىء.

وفوجئ الزوج فى فراشه بالعاشق الجديد. ووقف مذهولا وهو يراها لاتحرك ساكنا، ولايرتعش أو ينبض فى جسدها شئ على الإطلاق. وأدرك انها لاتريد سوى الطلاق.

وخرجت بوبيا من دفء بارد لتدخل فى غمار دفء ساخن جديد، دفء وازنت هى نفسها بينه وبين دفء زوجها روفيوس من قبل فرجحت كفته، وكان لابد أن ترجح لديها كفة «أوتو» الذى أوتى كل الجاه وكل السلطان، وكل الخبرة، وكل المال .. بل وأكثر من ذلك أيضاً .. فقد كان الصديق الحميم لنيرون الإمبراطور.



جلست بوبيا ذات ليلة وحيدة تنتظر زوجها الجديد الذى راح يقضى يومه كله، وكثيرا من الليل، فى صحبة مولاه نيرون، صاحب العرش الذى لم يكن يعبأ بأن يسميه الناس همسا، بزعيم اللصوص والصعاليك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والواقع أن نيرون لم يكن ليتورع أن يتسلل من قصره تحت جنح الظلام متنكرا فى زى عبد أو خادم، يحيط به أصدقاؤه الذين جمعهم من الصعاليك بكل مافيهم من جرأة وضجيج، ونساء الحانات بكل تجاربهن فى الغزل والمتاع، يخرج على رأسهم جميعاً متى جن الظلام ليخوضوا غمرات حياة ليلية من السلب والنهب والقتل. يعبثون بالحياة والموت .. ويملأون الليل صخبا ورعبا. وتروح تلك المجموعة النافرة تنتقل بين البؤر والحانات، يصخبون، ويعربدون ويستمعون فى خلال ذلك إلى غناء نيرون الذى كان يجد نفسه أكثر عبقرية فى فن الغناء من كل من عرف ذلك الفن فى روما وباريس، ثم ينغمرون بعد ذلك فى خضم مابقى من ليل روما الزاخر بالأسرار، والخطايا، والعار، وعلى رأسهم ذلك الفتى الجامح نيرون، يثب على المناضد هنا وهناك، ويزدرد الخمر، ويحطم الكئوس، ويقبل الفتاة التى تعجبه فى الطريق، ويشهر سيفه فى وجه من يقاومه، وينشد أغانيه للصعاليك واللصوص والعاهرات، ثم يعود فى مطلع كل صباح مترنحا يغنى ويصفر، مجروحا فى أغلب الأحيان.

أما روما ... فما أكثر ماشهدت شوارعها ماكان ينشب من معارك بين الناس وتلك الطغمة التى يتزعمها الإمبراطور المتنكر. وما كانت روما تصبح كل يوم إلا وفى ناحية من نواحيها أشلاء قتلى راحوا ضحايا المعارك مع هؤلاء العربيدين.

وكان «أوتو» واحدا من هؤلاء الأصدقاء الذين يلازمون الإمبراطور فى غزواته ومطارداته كل يوم .. غير أنه كان يطمع من خلال تلك الصداقة إلى تسخير نيرون لمطامعه .. من أى طريق .. ولو أدى الأمر إلى أن يعثر على زوجة لنفسه تصلح فى نفس الوقت لتكون عشيقه للإمبراطور ..!

وكان هذا هو ماحدث بالفعل .. فقد تمكن الفتى من التعرف على بوبيا. ومن خلال وسامة وجهه وإشراق طلعته وتفاخره بشبابه .. ثم من خلال الشهرة بأنه صديق الإمبراطور ... استطاع أن يوقع فى حبائله تلك المرأة حتى عشقته .. وتركت من أجله رجلها لتتزوجه ..

غير أن كلا من الزوجين كان له من وراء زواجه هدف آخر ... هو .. يريد أن يتخذ منها وسيلة للسيطرة على نيرون ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما هى فقدعرفت كيف تلعب دورها تماما كما يجب أن يكون .. فما أكثر ماسمعت من قبل عن قصص فجور الإمبراطور الذى ماتورع يوما عن أن ينال كل من تعجبه من نساء روما .. ولو كن زوجات أعز أصدقائه عليه. بل ما أكثر ما أحست بوبيا بأنها ستكون ذات يوم واحدة من عشيقات الإمبراطور. ولكنها يوم ملأت رأسها تلك الفكرة .. كانت قد صممت على ألا تكون للإمبراطور مجرد عشيقة فحسب ..!

وهكذا بدأت بوبيا تسير فى حياتها على طريق غير الذى سارت فيه من قبل. وبهر الجميع ذلك الانقلاب الذى صارت إليه الغانية التى طالما تلقفتها الأيدى، بعد أن انزوت فى قصر زوجها لاتغادره أبداً إلا وعلى وجهها قناع كثيف يخفى محاسنها عن الأنظار، ولايبيح لأحد أيا كان أن يطلع عليها .. سوى زوجها الحبيب.

ومضت الأيام، والناس ممن عرفوها يتساءلون عن سر ذلك الانزواء، والآخرون ممن لم يعرفوها يتساءلون ما أمر السيدة الغامضة المقنعة أبدا. على أنها لم تكن داخل بيتها على ذلك الحال دائما، بل كانت تنفض عن نفسها غبار ذلك المظهر، وتبدى كل ماتستطيع من مفاتنها وتنغمس بين خلانها فى حياة مترعة .. وتموج قاعات القصر بألوان صاخبة من الفتنة والإثم، وتتناثر بين الناس أحاديث التناقض الذى تعيش فيه السيدة ا لتى تبدو مقنعة فى الطريق، غارقة فى العار حتى الثمالة، داخل قصر الزوج الذى لايعلم عن حياة زوجته شيئا بعد هو غارق حتى أذنيه فى مغامراته الصاخبة مع الإمبراطور المجنون.



كان ذلك الغموض الذى عمدت إليه بوبيا، أول خطوة فى سبيل الوصول إلى الإمبراطور. فقد عرفت من خلال أحاديث عشاقها من أصدقاء الزوج، أشياء كثيرة عن حياة الإمبراطور فى قصره .. ومؤامرات المحيطين به من رجال البلاط.

والحق أن قصور روما فى ذلك الوقت من تاريخها كانت تزخر بمؤامرات ضخمة هائلة يدبرها كل من يريد أن يصل إلى نفوذ أو سلطان. ولقد كانت أجريبين أم الإمبراطور أبرز شخصيات ذلك العصر فى براعة ماتدبر من مؤامرات، حتى منذ كانت لاتزال بعد، إبنة أخت الإمبراطور كلوديوس، الجالس على عرش روما.

فقد كانت أجريبين على جانب كبير من الفتنة والبهاء، وعلى جانب كبير أيضاً من الفهم والذكاء. ولقد أغراها كل ذلك بالوصول إلى العرش عن طريق الزواج بخالها الإمبراطور. ولم يكن شئ ليقف دون تحقيق تلك الرغبة مادام الإمبراطور نفسه يعرف كيف يحطم القوانين. وهكذا عملت أجريبين على إغراء خالها بكل مافيها من فتنة عارمة، وعرفت كيف تتحكم أنوثتها الصارخة فيه حتى اتخذها زوجة له، بعد أن ألقى بزوجته السابقة إلى أحد فتيان القصر.

وراحت أجريبين تعمل للحب وحده. وكان لها من عشيق سابق ولد غير شرعى هو نيرون، كما كان لكلوديوس من زوجته ابن آخر هو بريتانيكس. وأثارت أجريبين ذات ليلة كل ما فى زوجها السكير من أعصاب. وفى اللحظة التى كانت تعرف جيداً أنه لن يتردد أن يعطيها من أجل رغبته كل ماتريد، قالت له :

– إن إبنك بريتانيكس مريض ياكلوديوس، أما إبنى نيرون فسليم.. ألا ترى أن إبنى أحق بعرشنا من بعدك ؟.

واستسلم الإمبراطور – فى غمرة الرغبة الهادرة – لطلب امرأته. وفى اليوم التالى صدر المرسوم بولاية العهد لنيرون، دون ولد الإمبراطور بريتانيكس المريض.

ولم تكن تلك الخطوة سوى أول خطوات أجريبين نحو رغبتها فى الحكم المطلق. فما كادت تضمن وراثة العرش لابنها حتى عاجلت الإمبراطور بالسم وأجهزت عليه، ثم نادت بنيرون إمبراطورا ..!

غير أن الإبن كان قد أخذ به الغرور بعد أن صار إلها على الرومانيين الذين كانوا يعتبرون ملكهم هو الإله وحده. وفى الوقت الذى كانت أجريبين على ثقة فيه بأن الأمر كله قد صار لها، كان هو نفسه قد عزم على أن يكون الأمر كله بيده وحده .. لاشريك له.

ولم تكن الأم بتلك السذاجة التى ظنها عليها ولدها. فما مضت شهور حتى فاجأته وهو فى مجلس السفراء لتجلس إلى جانبه على العرش تشاركه فى تصريف الأمور. وأخذت به المفاجاة، وإن كظم غيظه، وأخذ بيد أمه وهو يسر لها فى نفسه شر الانتقام. وبدأ صراع خفى بين الأم التى وضعت أبنها على العرش، والإبن الذى كان يرى فى نفسه الإله الواحد.

وبدأت أجريبين تستعمل ضد ابنها سلاحا جديدا، فراحت تهدده بإعلان حقيقة وراثته للعرش الذى كان صاحبه الشرعى بريتانيكس لايزال على قيد الحياة. وهال الأمر نيرون عندما تكشف له ماوراء التهديد، فما أسرع ماتخلص من الفتى بالسم، وما أسرع ما راح يطيح بأعوان أمه واحدا بعد واحد .. السم لبعضهم. السيف للآخرين. أما أمه هى نفسها، فقد اكتفى بنفيها، إلى حين.

وعادت الأم تتآمر من جديد.

وأحس أعوان نيرون من رجال البلاط أن سلاحها الجديد كان شيئا آخر غير ماتوقعوه، فقد كانت هذه المرة تحاول أن تستثير غريزة الحيوان فى ولدها .. بكل ما بقى لها من فتنة وجمال .. ليتخذ منها هى نفسها خليلة وعشيقة..!

وذات ليلة، فى مأدبة كبرى بالقصر، فوجئ القوم بأجريبين، وهى تكاد تكون عارية، ثم تلقى بنفسها بين أحضان ولدها الغارق فى الخمر إلى أذنيه.

وأحس أعداؤها بالخطر، وعرفوا أن السبيل إلى أبعادها هى أن يضعوا بين نيرون وأمه، امرأة أخرى ذات فتنة مغرية تحول دونه وعشق الأم.

واستمر رجال البلاط يبحثون عن تلك المرأة، سوى أنهم عجزوا عن أن يجدوا واحدة تستطيع أن تهزم فتنة الإمبراطورة ..

ومع هذا فقد ظلوا يبحثون.

★ ★ ★

كل ذلك عرفته بوبيا عن طريق العشاق من رجال البلاط. وانطلقت تطل إلى جسدها الصاخب فى زهو وإعجاب، وقد ملأت رأسها الرغبة فى أن تكون هى نفسها تلك المرأة التى تستطيع أن تهزم الإمبراطورة.

وهكذا اتفق الجميع .. بما فيهم زوج بوبيا ..

وبدأ الزوج يمهد الطريق الذى يستطيع أن يصل فيه إلى تحقيق هدفه الذى رسمه من قبل .. وهو الإيقاع بالإمبراطور فى شباك بوبيا.

وكان الفتى يعرف جيدا مدى تعلق نيرون بالألغاز .. فكف عن الظهور فى القصر بضعة أيام .. وعندما عاد كان يبدو عليه شحوب كبير وهزال ... جعل الإمبراطور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضحك ساخرا وهو يستقبله. وأجابه الفتى عندما بدا التساؤل واضحا فى عينيه :

- وماذا أستطيع أن أفعل يامولاى ..!؟ إنى لأعجز تماما أمام جمال امرأتى حتى لأتمنى أن أموت وأنا بين ذراعيها ..

ورمقة نيرون بنظرة فاحصة وقال :

- أهى جميلة حقا إلى هذا الحد ..!؟

وأجاب أوتو فى دهشة مصنوعة :

- كيف تجهل ذلك وأنت القيصر ..؟

وخفض نيرون بصره وقال لصديقه :

- علمت أنها فاتنة .. ولكن كيف لم تتح لى فرصة مشاهدتها والتغنى بجمالها فى شعرى من قبل ..!؟

وأجاب أوتو فى بساطة :

- كانت تخشاك وترهبك بغير شك ... يامولاى ... وهذا أيضا هو ما أحسه الآن .. فقد أصبحت أخشى عليها منك ..؟

وضحك نيرون ولمعت عيناه ... وبدأت رغبته فى حل اللغز تسيطر على أعماقه، وهو نفس ماكان يهدف إليه أوتو. وكان الفتى ذكيا، فراح يراوغ نيرون فى إجاباته حتى بدا كأنه قد استسلم فى النهاية. وقال للإمبراطور :

- لماذا تتمادى فى السؤال عنها يامولاى .. بالله دعها لى ... إننى لا أملك سواها... صحيح أن كل ما أملكه إنما هو لك .. ولكن .. هى .. إننى لا أستطيع أن أفقدها .. اتركها لى يامولاى .. لاتنتزعها منى .. ولاترغمنى على الظهور بها أمامك..!!

واشتعلت الرغبة تماما فى قلب الإمبراطور .. وهتف فى صديقه :

- أوه، أهى فاتنة إلى هذا الحد الذى تخشى معه أن يقع بصرى عليها ..!؟

وأطرق أوتو الى الأرض وهو يجيب فى استسلام :

- كلا ... ولكنى أخاف عليها من جمالك أنت يامولاى .. من سحرك وقدرتك التى يمكن أن تعرض بسببها عنى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاح الإمبراطور :

– أهى أجمل من حبيبتى أكتيه .. أهى أجمل من أمى أجريبين ؟

وأجاب أوتو :

– إن روما كلها تعرف أنها أجمل نسائها يامولاى ..!

وقطب نيرون حاجبيه .. وبسط ذراعيه إلى صديقه وهو يقول :

– عزيزى أوتو .. دعنى أراها مرة واحدة .. هل تذكر أننى خيبت لك سؤالا أبداً .. امنحنى نعمة زيارة واحدة لها .. وأقسم لك أنى لن أطلب منك رؤيتها بعد ذلك قط .!

وقد كان .. وتظاهر الزوج بالاستسلام لرغبة إمبراطوره التى يعدها أوامر له .. ووافق على أن يصحبه مرة واحدة لزيارة بيته .. والتعرف بزوجته ..!



ومرة أخرى بدأت قصة جديدة فى حياة الغانية اللعوب ..!!

زار نيرون بوبيا فى صحبة زوجها أول مرة، فقابلته بأكمامها الطويلة وقناعها المنسدل إلا عن عينيها البراقتين، وفيهما دعوة. ولم يكن المنظر عادياً بالنسبة لطاغية مثل نيرون شهد مفاتن كل امرأة أرادها منذ أول لقاء. فاشتعلت فيه رغبة فى كشف الستر عن ذلك المحجوب، حتى يعرف ماتخفيه تلك الثياب .. وماتخبئ من ألوان البدع تحت القناع.

وهكذا قرر نيرون عندما عجز تلك المرة عن حل الطلسم العجيب .. أن يحله عندما يزور المرأة مرة أخرى .. وليس معه الزوج ..!!

وعرفت أقدام نيرون الطريق إلى بيت بوبيا فى غيبة زوجها. وفى كل مرة كان يتزايد شغفه ويستبد به هيامه، كما يزداد اللغز أمامه غموضاً. فقد عرفت بوبيا كيف تذكى أوار الرغبة فى جسد الطاغية، ثم تدل عليه وتتمنع وتقول له فى اللحظة التى تصل فيها رغبته إلى القمة، أنها تتمنى أن تعطيه كل شئ لولا خشيتها من حائلين ضخمين يقومان دونهما : وفاؤها لزوجها أوتو ... ووفاؤها لإمبراطورتها أوكتافيا.

وراحت الإشاعات تدور فى أنحاء الإمبراطورية عن العلاقة الغريبة بين نيرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسـيدة المقنعة. وكان هـناك بيـتان يـهتزان رعـباً تحـت وقع هذه الإشـاعات .. بـيت أوكتافيا زوجـة الإمبراطـور .. وبيت أجريبيـين أم الامبراطور التى كانت لاتـزال تـخشـى على العرش الذى منحته إياه.

سـوى أن نيـرون لـم يكن يهـتم قط بأحاديث الـناس .. بل ظل يزور بـوبيا المتمـنعة فى دلال .. ليخرج من بيتها فى كل مرة اكثـر هياجاً وأشد ثورة .. فهو لايستطيع أن ينالها أبداً .. وهـى ترفض رغبته المتأججة فى كل مرة وعيناها مغرورقتان بالـدموع.

وذات يوم. فاجـأها وهـى تتـفرس فيه، وصـدرها يعلـو ويهبط فـى جنون وشـفـتاها ترتجفـان كأنها الـحمى. وتأكد فـى تلك اللـحظة أنهـا تحبه حقـاً .. وملأه ذلك شـجاعة كبح بها جماح ضعفه ومد إليها ذراعيه وهـو يقول فى توسل :

– بوبـيا ... أحـرام عليك أن تمنـحيـنى بعـض حبك ؟ لماذا لايشـفع لـى ألمى لـديك ياغرامى الوحيد فى هـذه الدنيا .. ألا يـحس قلبك بـعذاباتى ومهانتى .. تكلمـى يا بوبيا .. إن الإمـبراطـور يـنهـار أمامـك بـغيـر سـعادة علـى الإطلاق .. ولـو زاد تمنـعك بعـد لأعجزنى الأمر عن حمل أعباء الإمبراطورية..

وبدا لـه كأنـها تـرتجف .. وتـساقـطت من عـينـيهـا الدمـوع. وأجفـل نيـرون وأحس ارتباكا لـم يدر كنهه .. ولكـنها نهضت بـعد لـحظات وتقدمـت منه ونزعت الـنقاب عن وجهها وهـى تقول فى شبه همس :

– إن مايشـعر به قلبى لاحـق لأحد قط أن يدركه .. حـتى ولا أنت. ولكنى قـلت لك أنى امـرأة ذات زوج. وزوجى أوتو الـعزيز لـم يسئ إلـى قط .. بل مـنحنـى ماله وحـبه وكل كيانـه مع أسمه النبـيل .. فكيف استطـيع أن أخونه أو أجحده ؟ .. لـو كنت امرأة شـديـدة المطامـع لأنسـانى حبك واجبى .. ولـكنـى زوجة فاضـلة تضـع سـمـعتها فوق عظمـة قيصـر ..! إن لقبـك لايبهرنى .. ولـكن حبك الصـادق هو الذى يحطم مـنى كل شئ، برغم انى لا استطيع أن أقبل منك حبا يشاطرنى فيه مـخلوق ..! وكيـف تـريد أن اكون لرجـل هـو سيد العالـم حقاً، ولكنه يـحب أكتيه .. يحـب جارية أصبح هـو نـفسـه عبداً لها ..!؟

وصـرخ نيرون :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– ومــاذا تهـمنــى أكتـيـه .. ساطـردها مـن دارى ولـن أراهـا قـط ... وأسبـلت بـوبيـا عينيها .. ثم عادت تهمس فى أسف :

– أنت تستطيع أن تطرد أكتيه، أما أنا .. فلا استطيع أن أطرد أوتو ..!

والحق .. لـقد كانت بـوبيا أشد دهـاء من زوجها.. فبدل أن ينـتفع هـو بـها انتفـعت هى بـه .. وبدل أن يـستـخدمـها فـى الوصـول إلى أغراضـه استـخدمـته هـى لتـحقـيق هـدفها.

ففى اليوم التالى كان أوتو يقف فى ذلة أمام صـديقه الإمبراطور، لينصت إليه وهـو يأمـره بأن يقطع شـرايين يده ليتخلص من الـحياة .. ولـم يكن الفتى الذاهـل ليستطيع أن يرفض أمـر الطاغية. وفى لـحظة كانت حياته قد انتهت.

★ ★ ★

علـى أن كل ذلـك لم يكـن وحده هـو ماتريـده بوبيـا .. فقـد كان ثمـة أطمـاع أخرى جديدة .. كان ثمة شئ اسمه الإمبراطورية.

ولـم يكـن هذا الذى حدث يمكـن أن يقودها إلى كرسـى الإمبراطورية أو علـى الأقل إلى كرسى زوجة الإمبراطور .. .. بل كان الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يصل بها إلى تلك القمة هـو أن تصبح وحدها سيدة القصـر..

سيدته .. دون أوكتافيا .. زوجة الإمبراطور ..

غير أن الطريق إلى تحطيم أوكتافيا كان دونه عقبة قوية صارمة.

كانت هـناك أم الامبراطـور .. أجريبين .. تلك الرأة التى تقف وراء أوكتـافيا تحميها وتعقد عـليها الأمل وتغـامر من أجلها حـتى بالـحياة، فى نـفس الـوقت الذى تمعـن فيه فى إيـغار صدر نـيرون حقدا عـلى بوبـيا. وتهـدد وتتوعـد وتنذر بالـرحيل عـن روما.. وتجمع من المال والأنصار مايجعلها قادرة على البطش بأعدائها عندما تريد ..

وإذن .. فلتذهب أم الإمبراطور ..!!

واستقبلـت بوبيا نيرون ذات ليلـة جاء فيها ليرتشـف اللذة حتى الثمالـة، فلم يجد لديها من رغبة ولا حرارة.. تماما كما كان يحدث قبل أن يرغم زوجها على الانتحار..

وصرخ نيرون :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– ما الـذى تريـدين أيتها المـرأة ..!؟ هل أظل عاجـزا عن الوصـول إليك برغـم كل مافعلت؟ من أجلـك طردت أكتيه أحب نساء بلاطى، وفرضـت عليـها الحياة مع والدتى .. ومن أجلك أهمـلت زوجتى ووهبتك وحدك كـل قلبى .. ومع كل ذلك مازلـت بعيدة عنـى باردة غـريبـة.!؟ تكلمـى يا امـرأة .. كيـف استـطيع أن أصل إلـى قلـبك .. مـرى بماتريدين وسـأعطيك كل شئ ..؟

ومن خلال الهمسات التى أودعتها بوبيـا كل ذكائها .. ونيران دلها .. انطلق صـوت بوبيا :

– ليس فى وسـع حبك أن يمنحنى ما أريـد .. يكفى هـذا .. أنا أحبـك وكفى .. وهـذا هـو كل ما أستطيع أن أمنحك.

وصرخ نيرون :

– لا .. أنا أعرف مـاتريدين .. السـلطة .. النـفوذ .. الإمـبراطـورية ...! وتعلـم الآلهة أننى أتمـنى أن أمنحهـا كلها لك .. وأستطيع أن أجعلك شريكـة حياتى .. ولكنى أعرف يابـوبيـا أن العرش قـد ينهـار إذا طلـقت أوكتـافيـا .. إن أمى أجريـبين تحـميهـا .. وهـى لازالت قـوية تـستطـيع أن تجنـد الجيـوش وتثيـر الشـعوب علـى وتضـع علـى الـعرش واحداً سـواى ...!

ووقفت بوبيا ثائرة .. وصـرخت فى وجه نيرون :

– لقد مات كلوديوس .. ومات بريتانيكس .. فهل تظن أن اجريبين خالدة ..!

وارتـعش جسـد نيرون .. لـم يكن يتصـور أن هذا هـو الطريق الذى يمـكن أن يصـل عن طريقه إلى جسد بـوبيا ... غير أن المرأة عرفت بعد ذلك كيف تبـدع فى تزيينه له، وكيف تمعـن فى إشعال شهوة الـذئب فى أعماقه .. تقبـل عليه كارهـة .. وترتمى بين ذراعيه كجثـة ميت .. ثم تعرض فى الوقت نفسـه وتنفر فيزيد هيـاجه .. ويصـرخ فى جنون ويلعن أمه .. وزوجته .. وكل نساء الأرض ..

ومن خلال شـهوة الذئب اشـتد حقد نيرون على أجريبين، ووجد فـيها عقبة أخرى فى طـريق حبه لابـد أن تزول .. وامتـلأت أعماقه بـصور المتـعة التـى يمكن أن يذوقـهـا يوم يظفـر بعشيقته لوضـحى بوالدته .. أو علـى الأقل لو نفاها من روما..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذات صباح .. صدر أمر الإمبراطور بإبعاد أمه إلى أنتيوم .. وفى نفس اليوم انطلق إلى بوبيا وهو يفتح ذراعيه ويهتف :

– هيا بنا .. لقد رحلت عنا .. لم يعد فى استطاعتها بعد أن تقف فى وجه حبنا ...

ولكن بوبيا كانت لاتزال واقفة باردة كلوح من الثلج .. وأجابته وهى تمعن فى إبعاده وقد تصلبت منها عضلات الوجه :

– لن يبدل رحيلهما من الأمر شيئا .. يجب أن تزول ..!

وبهت الإمبراطور .. غير أن نفس الذئب عرف كيف يؤكد منذ تلك اللحظة فى أعماق نيرون صورة الجريمة الجديدة .. جريمة قتل أمه ..

وفى نفس الليلة شهدت إحدى غرف القصر اجتماع ثالوث يضم بوبيا ونيرون .. وأنيستاس أمير البحر .. وصديق الإمبراطور ..!

وهمست بوبيا :

– يلوح لى أن السم هو أمضى سلاح .. فهو لايفضح القاتل فى عين القتيل .. ولايكشفه أمام أعين الناس !

ورد نيرون :

– ولكن امرأة قوية كأجريبين سليمة البنية قد لايؤثر فيها السم .. ولو تناولت من السموم بقدر قد يجعلها تكشف الأمر فتسوء العاقبة ..

وفى صوت كفحيح الأفعى قالت بوبيا :

– الخنجر إذن ...!

وهز أنيستاس رأسه، وهمس من وراء بسمة هادئة مليئة بالإثم :

– سفك دم القتيل قد يفضح القاتل والمحرضين .. ولكن إذا ابتلعه موج البحر لايمكن أن يثير الشكوك أو يلقى الشبهة .. حتى على القيصر ...!

وصفقت بوبيا ... ونيرون ..

وبعد أيام انطلق الإمبراطور ليزور أمه فى أنتيوم .. وأخذها بين ذراعيه وهو يعتذر عما كان ... واستجابت الأم لابنها وهو يعرض عليها الاحتفال بعودة الصفاء بينهما فى جزيرة بابيس .. حيث أقيمت الأعياد تكريما للإلهة منيرفا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل أجريبين وجدتها فرصة سانحة تستطيع استغلالها - وهما معا على الجزيرة الجميلة بعيدا عن العيون - فى إغراء ولدها وإيقاعه فى حبائل عشقها .. وشجعتها صورة تداعب خيالها لقصرها فى روما .. محاطة بالوصيفات والعبيد .. تأمر وتنهى باسم نيرون وتذل عدوتها الدخيلة، عشيقة الإمبراطور. من أجل ذلك عرفت أجريبين كيف تجعل من الوقت الذى قضته مع ولدها على شاطئ الجزيرة وقتا سعيدا كله اللذاذات .. وعندما انتهى العيد وانسدل الظلام، عادا معا إلى السفينة فى البحر ليتركها الإمبراطور فى روما .. ولتستمر فى رحلتها وفوقها أجريبين لتوصيلها إلى قصرها القائم عند بحيرة تولدين .. ولايزال فى أذنها صدى صوت ولدها إذ يودعها ويصدر أوامره لأمير البحر انيستاس قائلا :

- أننى أعهد إليك بأمى يا أنيستاس .. ولن أتوانى عن أن أطيح برأسك إذا مسها سوء ..!

وأوت الأم إلى مخدعها فرحة بنجاحها فى غزو قلب ولدها، وراحت تحلم بالنفوذ والسلطان الذى عاد قاب قوسين أو أدنى ...

وفجأة، أحست بالسفينة تسعى إلى عرض البحر، بينما كان المفروض أن تتجه صوب قصرها. واستدعت أجريبين أمير البحر انيستاس تسأله عن سبب تحويل السفينة إلى عرض البحر .. ولكن الرجل قال إنه الريح يعجزه عن ضبط قيادة سفينته .. ثم تركها ليأمر رجاله بإنزال زوارق النجاة إلى الماء ..!

وأدركت أجريبين أن انيستاس يتآمر عليها، فقفزت من مضجعها تسعى إليه .. ولم تكد تفعل حتى فوجئت بسقف الحجرة ينهار .. واحست أن لوحا من الخشب ادمى كتفيها..فجمدت لحظة ذاهلة..ثم انطلقت فى قوة إلى الخارج وهى تستغيث...!

وأطلت أجريبين أمامها ... لقد كانت السفينة تتهاوى وتغرق فى الماء، والملاحون يهرعون إلى زواق النجاة، والمياة تندفع خلال الثغرات بقوة وعنف. وأدركت أن الموت قد أحاط بها من كل مكان .. فألقت بنفسها إلى البحر .. فى نفس اللحظة التى غاصت فيها السفينة فى الماء.

وبرزت رأس فتاة من تحت الماء تصيح :«النجدة، أغيثونى .. أنا أجريبين .. أنا أم القيصر».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورفع أحد المجدفين فى أحد القوارب مجدافه فهوى به على الرأس حتى أرسله إلى القاع ... وكان الرأس لوصيفة ادعت أنها أجريبين لينقذوها .. ولم تكن تدرى أن ذلك الادعاء قد أنقذ أجريبين نفسها التى شهدت وهى فى الماء تلك القصة القصيرة .. فغاصت قليلا تحت الماء .. حتى ابتعد الزورق ..وسبحت نحو الشاطئ فى صمت.. بينما انطلق انيستاس فى زورقه نحو نابولى ليخبر مولاة بنجاح الخطة ومصرع أجريبين.

ولم يكد انستاس يغادر نيرون بعد أن ساق إليه قصة نجاحه .. حتى دخل على الإمبراطور رسول من قصر أمه تنبئه بنجاتها وتدعوه إليها. وبهت نيرون للمفاجأة، غير أنه لم يستسلم لها طويلا، فقد كان قد أقسم لبوبيا أن ينتهى من أمه تلك الليلة بالذات.

وفى لحظة .. ألقى نيرون سيفه فى حركة خاطفة بين قدمى الرسول الذى أربكته المفاجأة والجمت لسانه. وأطلق الإمبراطور صراخة بطلب النجدة وانطلق حرس القصر إليه ليلقى القبض على رسول أم الإمبراطور.

★ ★ ★

وانطلقت الألسنة تشيع أن أجريبين دبرت مكيدة لقتل الامبراطور، فأرسلت إليه رسولا انتهز فرصة انفراده به فأوشك أن يقتله .. لولا رعاية الآلهة للقيصر المقدس.

وفى الليلة ذاتها .. فوجئت أجريبين بثلة من الجنود تدفع عليها الباب فى عنف، ورأت انيستاس على رأسهم، فصاحت به فى شجاعة.

– إذا كنت أيها الضابط موفدا من ابنى لتسألنى عن حالى، فقل له أننى قد أفقت من الصدمة التى أصابتنى إثر الحادث، وإن كنت قادما تبغى شراً فعجل به.

ولم يجب، بل جرد سيفه من غمده وسار نحو سريرها وجذب عن جسدها الغطاء.

وهتفت به أجريبين :

– مزق احشائى .. أيها الضابط الشجاع.

وأجاب أنستاس رغبتها .. فمزق الأحشاء التى حملت يوما الابن العاق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونشر نيرون النبأ بأن أمه حاولت قتله لتسيطر على العرش وتخضع الإمبراطور لحكمها .. فلما فضحت مؤامرتها وخشيت أن يعرض الأمر على مجلس الشيوخ فيوقع عليها القصاص .. آثرت أن تنتحر، وطعنت أحشاءها بسيف.

وأعلن الحداد، وتظاهر نيرون أمام الشعب بالأسى واللوعة، ولكنه بدا فى أقصى فرحته وهو ينطلق إلى بوبيا لينهل كل لذاذاتها، بعد أن قتل أمه من أجلها.

★ ★ ★

كانت الأحداث فى روما تنذر بالنهاية، وكانت دنيا الوثنية تترنح كثمل فقدوعيه، وكأن نيرون يزداد إسرافا فى بذخه ومجونه وخلاعته، ويمعن فى الجمع بين ملذاته وشهواته والارتماء فى أحضان بوبيا، ويتمادى فى البطش وتدبير المؤامرات وسفك الدماء.

وراحت بوبيا توغر صدر نيرون على أوكتافيا، زوجه المسكينة، حتى نبذها وأقصاها عن القصر بحجة عقمها، وأقام حاشيتها عليها رقباء يحصون حركاتها وسكناتها.

وحينئذ خلا لها الجو ... ولم تكد تمضى أيام حتى أقيمت حفلات الزواج الملكى، وأصبحت بوبيا سابينا .. إمبراطورة روما.

غير أن هذه الفضائح المخزية أغضبت أهل روما الذين كانوا يشفقون على أوكتافيا مما تلقاه من عنت وبأساء، واحتشدت جموع الشعب تحطم تماثيل بوبيا وتطوق تماثيل أوكتافيا بأكاليل الزهر، وأنذر الهياج بشر مستطير أكره نيرون على استدعاء زوجته السابقة من منفاها، فلما أقبلت تلقاها الشعب بالهتاف والترحيب والأناشيد.

وجن جنون بوبيا، فقد فعلت كل ماتستطيع لكى تنفرد بنيرون، وها هو يتراجع من جديد ويعيد ضرتها إليه. وما كانت بوبيا لتقنع بأن تكون المقربة من نيرون فحسب .. فكان لابد أن تفكر فى التخلص منها .. إلى الأبد.

واستسلم نيرون لما راحت بوبيا توسوس به إليه، ولم يقدر نيرون أن المرأة قد عقدت العزم على أن تستأثر به وبملكه مهما كلفها ذلك من ثمن، فسرعان مادبرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مظاهرة زائفة سيرت فيها أعوانا مرتشين راحوا يهتفون مطالبين برأسها محطمين تماثيلها.

وأخمد الحراس المظاهرة المدبرة، بينما هرعت بوبيا إلى نابولى تطلب إلى الإمبراطور أن يحميها ممن زعمت أن أوكتافيا قد أرسلتهم لقتلها.

وهاجت ثائرة الإمبراطور المأفون وهو يستمع إلى المؤامرة، بل وهو يستمع إلى ماراحت بوبيا تسوقه إليه من أن زعيم المؤامرة كان أحد عشاق أوكتافيا التى راحت تخون القيصر.

وبرغم أن أوكتافيا كانت بريئة من تلك التهمة، إلا أن الاعترافات راحت تنهال من أفواه خادماتها متهمة إياها بالخيانة الزوجية. ولكن أحدا لم يكن يعرف أنهن لم يتهمن سيدتهن إلا بعد أن تعرضن لأقسى أنواع التعذيب، وبعد أن مزقت أضلاعهن لإكراههن على اتهام الإمبراطورة المسكينة.

وجلس الامبراطور، وإلى جواره بوبيا، وأرسل يدعو أوكتافيا إليه.

ووقفت أوكتافيا فى رأس شامخة وهى تستمع إلى زوجها يأمرها أن تختار لها ميتة تنفذها بنفسها فى نفسها. غير أنها انهارت فجأة وراحت تتوسل إليه وتستعطفه أن يبقى على حياتها .. ولو أرسلها إلى أقصى مكان فى الأرض ...

وابتسمت بوبيا ... ومالت على الإمبراطور تقترح تخفيف الحكم على الزوجة الخائنة.. والاكتفاء بنفيها إلى جزيرة بانداتاريا ..

وفهم نيرون .... ونفذ اقتراح بوبيا. وبينما كان الجنود يسوقون الزوجة المسكينة فى الطريق إلى منفاها.. كان أحد رجال بوبيا يحاول إقناعها بوجوب الانتحار ..

غير أن المرأة التعسة ظلت تتشبث بالحياة ... وتستجدى الجنود الرحمة. ولكن الأوامر التى تلقوها من عشيقة القيصر كانت تعنى شيئاً واحداً .. هو أن تموت أوكتافيا فى الطريق..!

وهكذا كان .. وانقض بضعة جنود على زوجة الإمبراطور يطعنونها بالرماح، بينما قطع آخرون شرايين معصميها .. وعندما أبصروها تتخبط وتأبى أن تموت .. ألقوا بها فى قدر كبيرة ملئت بماء مغلى .. ثم جزوا رأسها وحملوه إلى روما..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما قدم قائد الجند رأس الإمبراطورة إلى نيرون .. تناوله هذا ليقدمه إلى بوبيا هدية ساخنة. ومدت الفاتنة الفاجرة يدها فأمسكت برأس غريمتها ووضعته على ركبتيها .. ورفعت أجفانه بأصابعها.

وكأنها تبينت فى عينى ضحيتها الميتة نذيرا وتهديدا. ففقأت العينين اللتين عميتا إلى الأبد عن نور الحياة.

واستمرت الحياة فى روما تسير ..!



عاشت بوبيا فى القصر حياة جديدة يحيط بها جلال الملك وأبهته، بعد أن أزالت من طريقها كل العقبات ..

وعمدت بوبيا فى حياتها الجديدة إلى الإغراق فى مظاهر الإبهة والعظمة تعرضها على الناس. وابتكرت ألا تستحم إلا باللبن، غير أنه كان لبنا من نوع جديد .. غير لبن الماعز والبقر الذى يعرفه الناس .. فقد ألت على نفسها ألا يمس جسدها سوى أندر الألبان .. ومن ثم اختارت لبن الحمير. وهكذا راح الناس فى روما يشهدون كل يوم فى صحبة الإمبراطورة أينما ذهبت موكبا طويلا يزيد عدد حميره على الخمسمائة، ليشهد الناس سؤدد الإمبراطورة.

وراح الناس يتناقلون حديث الحمام وطقوسه وتقاليده العجيبة .. فإن الموسيقى لتعزف أعذب الألحان .. حتى إذا لمس قدمها اللبن سكتت جميع الآلات.

وظل نيرون يعشق زوجته الجديدة .. وعجب الناس أن يخلص نيرون لامرأة واحدة شهورا .. فما فعل مثل ذلك من قبل قط .. وحملت بوبيا منه فى الوقت الذى عاد هو فيه إلى الانغماس فى ملذات من نوع جديد .. إذ راح ينظم المسابقات ويقيم المباريات والحفلات التى يشترك فيها بنفسه، مما لايتفق وجلال إمبراطور روما العظيمة.

وغالى نيرون فى انغماسه فى المباريات. وبدأ يشغل عن زوجته وإن ظل يحبها. وأحست بوبيا أن زمامه قد أوشك أن يفلت منها بعد عودته إلى العبث والمجون. سوى أنها لم تجد آخر الأمر بدا من أن تقبل الأمر الواقع لتعيش ... ولتعود إلى ارتشاف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحب بكل لذاذاته، من أفواه عشاق آخرين .. يعرفون جيدا كيف يرضون منها عنفوان الجسد الثائر المشبوب.



استلقت بوبيا على أريكتها فى فتور، وتركت لأفكارها العنان. وكان جمالها الباهر يخفى كل نوازع الشر الكامنة فى نفسها، والتى عرفت عن طريقها كيف تصل إلى عرش روما.

والحق، أنها منذ جلست إلى جوار نيرون، لم يعجزها قط أن تظل محتفظة بهواه. وعرفت جيدا أنها مادامت لاتستثير غروره ولاتتحدى براعته فى الغناء وركوب العربات ونظم الشعر، ومادامت تعرف كيف تمتدح فيه كل شئ، فلن تخشى منه غضباً أو ثورة على الإطلاق.

وكان ذلك أيضاً مايفعله كل من يحيط به من رجال البلاط، ليضمنوا بقاءهم فى القصر، وليحتفظوا أيضا برضاء الإمبراطور المخبول. فهى لم تنس يوم كانت روما تحتفل بعودة جيوش نيرون الظافرة من آسيا وإفريقيا. وكانت تجلس إلى جوار زوجها وحولهما سنيكا الفيلسوف وتيجيلينوس قائد الحرس الإمبراطورى، وبترونيوس كبير الحاشية. وكانت هتافات الشعب تدوى فى انتظار خروج الإمبراطور إلى الشرفة لتحيته. وصرخ نيرون ثائراً لذلك الضجيج الذى ينبعث من أفواه الرعاع وقال :

– ماذا يريد منى أولئك الرعاع ذوو الروائح الكريهة .. ألا أستطيع أن أستريح فى الوقت الذى أريد؟ إنهم يطلبون منى الكثير .. إن أولئك الغوغاء يعذبوننى. إننى أكرههم، ولكن كراهيتى لهم تجئ فى المرتبة الثانية بعد كراهيتى لروما ... ومع ذلك أنا مرغم على البقاء فيها لتنفيذ إرادة الآلهة. ولكنى لا أستطيع أن أتحمل هذه المدينة. إن الأنفاس الكريهة المنبعثة من أولئك الرعاع تتسرب إلى قصرى وحدائقى .. إنها تكاد تخنقنى. أوه كم وددت ..

وأسرع تيجيلينوس يقول للإمبراطور :

– رغباتك ياقيصر .. قل لى ماهى كى أنفذها.

وأجاب نيرون :

– لكم رغبت لو كان لأولئك الرعاع رقبة واحدة .. إذن لقطعتها.

وابتسم تيجلينوس وهو يقول :

– فى الإمكان تنفيذ ذلك إذا شاء قيصر.

وأدركت بوبيا أن كل من يريد الحياة فى القصر لابد له أن يتملق رغبات الإمبراطور كما يتملقه جيداً قائد حرسه. فكان لابد أن تسير فى نفس الطريق.

وعاشت بوبيا تتملق نيرون وترضى فيه كل الكبرياء وكل الغرور.. ولاتنسى أن ترضى فى نفسها أيضاً .. كل الحنين للعشق .. والحب.

ولكنها فى هذه المرة لم تكن تستمر طويلا فى قصة عشق واحدة. فقد كانت مع كل ذلك تخشى نيرون وغضبه لو كشف أمرها. فكانت تحب فى الخفاء، وتستدعى عشاقها إلى جناحها فى الوقت الذى يكون فيه نيرون فى نابولى بعيداً عن روما، حتى إذا عاد جهدت أن تبدو كأخلص وأوفى ماتكون الزوجات. إلا أن عاشقاً واحداً هو الذى جعلها تنسى ذلك الحرص، وكان ذلك الفتى ماركوس قائداً مغامراً، عرف كيف يكسب عدة مواقع فى فتوحات الشرق، ثم عاد إلى روما ليستقبله الناس استقبالا رائعاً ضخماً. ومنذ عودته صار يدعى فى كل حفلات القصر .. وراحت بوبيا ترقب قوامه الفارع، وقده الممشوق، وعضلاته القوية، وتتمنى لو تقضى بين ذراعيه ليلة أو بعض ليلة. غير أنه لم يكن ينتبه إليها وهو غارق فى عشق حبيبة رائعة من أسرى الليجيين، كانت تأتى معه فى حفلات القصر لتجلس إلى جواره، وتقضى معه وقتاً رائعاً خلال الضجيج الصاخب المخمور، وإن كانت تتمنع عليه فى كثير من الأحيان.

وفى ذلك اليوم استلقت بوبيا على أريكتها، وعلى مقربة منها فهداها الحبيبان. وانتظرت دخول ماركوس الذى كانت قد أرسلت تدعوه إليها، فى وقت عرفت فيه أن فتاته قد أغضبها إلحاحه الكثير فتركته وحده ثائراً فى جنون.

ودخل الفتى فى قامته المديده، وانحنى أمامها، فأشارت له بالجلوس إلى جوارها وهى تقول :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- يبدو أنك تجد صعوبة فى الاستيلاء على قلب فتاتك !؟

وأطل إليها ماركوس وهو يجيب فى بطء :

- إن الفرس الصغيرة غالباً ماتجد لذة فى مغالبة اللجام يامولاتى.

قالت بوبيا :

- لست مولاتك .. إنى كاهنة أمون وأنت الثعبان المقدس .. وأنا أحب طعم السم الذى فى فمك أيها الثعبان.

قالت ذلك ورفعت كأسها تحية لماركوس. ثم أشارت إلى أحد العبيد أن يملأ كأسه، وأطل الفتى حوله وقال :

- هلا يغضب الإمبراطور ياسيدتى إذا علم بذلك !؟

وهزت الإمبراطورة كتفيها وهى تقول :

- إن نيرون لم يملأ قلبى ياماركوس، وكفاه منى أن أرضى كبرياءه وأتملقه وأن أدعه فى مباذلة الخاصة. أما أنت أيها القائد .. فكم أحب أن أهزمك ..

وابتسم ماركوس وقال :

- وتفعلين معى كالعنكبوت الذى تأكل أنثاه الذكر عندما ترى أنه لم تعد لوجوده ضرورة !؟

- نعم .. إنه شئ مثل ذلك .. اجلس هنا إلى جانبى .. فكم أنا سعيدة بلقائك بعد أن واسيت نفسى بأن فكرت فى قتلك يوماً .. وتصورتنى وقد أمسكت رأسك المفصول من جسمك، وأخذت أعبث فى شعرك بأصابعى .. هكذا.

وأرسلت بوبيا أصابعها تعبث فى شعر الفتى الذى استسلم لها وهو يقول فى هدوء :

- وما الذى منعك من أن تقلبى الخيال إلى حقيقة ؟

- إن من الحمق أن نقتل من نكره. لأنهم حين يموتون يفقدون الإحساس بالألم ولا نعود نجد متسعاً للتشفى منهم، والتلذذ برؤيتهم يتألمون ويتعذبون. ولقد كرهتك يوماً يا ماركوس حينما شغلت عنى بتلك الجارية، وثق أنها إن سحرتك مرة أخرى فسأعرف كيف انتقم منك ومنها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت بوبيا ذلك، وقربت وجهها من وجهه، فقبلها قبلة طويلة كانت أول نسمة حارة فى خلال الليلة الطويلة التى قضياها معا.

★ ★ ★

كانت روما فى ذلك الوقت ترقص على برميل من البارود .. وهى تمر بمرحلة من تلك المراحل التى لابد لكل كائن أن يمر بها فى حياته .. مرحلة قلقة مضطربة تودع فيها ماضيا أن له أن يندثر، وتتأهب لمستقبل لايزال غامضا دون أن تدرى شيئا من أمره.

كانت روما تشعر فى ذلك الوقت بما تشعر به الحامل جاءها المخاض على غير توقع، فتحولتها الحمى وعدمت الراحة والهدوء. ونبتت فى أحشائها بذرة حضارة جديدة. وكانت مقبرة روما القديمة وكهوفها المهجورة ملاجئ لأولئك الذين اعتنقوا الدين الجديد الذى أتى به المسيح، وانطلقت السلطات تطاردهم وتسومهم الخسف والاضطهاد بأمر الإمبراطور.

والواقع أن نيرون لم يكن يفهم شيئا مما يدعو إليه المسيحيون، ولكن كان يكفيه سببا لتعذيبهم وإحراقهم أنهم لم يكونوا يعبدونه كما كان يفعل باقى الرومانيين. بل كانوا يعبدون إلها جديدا ينافسه. وكان كل من يحيطون به يقوون هذه الفكرة لديه.. وخاصة زوجته بوبيا التى كانت قد علمت عن طريق عيونها وجواسيسها أن الجارية التى يفضلها ماركوس عليها قد اعتنقت المسيحية سرا، وأنها قد صارت بذلك واحدة من الطغمة التى يناهضها نيرون. فراحت تنفخ فى الأتون الملتهب من قلب نيرون ليقضى على المسيحيين جميعا، وينكل بهم، وكأنها تنتقم بذلك من الفتاة التى استولت على قلب فتاها الحبيب.وتزايد اللهب فى قلب نيرون الذى قرر فى ذهنه أن يحطم روما التى كرهها وكره من فيها من المسيحيين، ليصنع روما جديدة تليق بالوهيته التى تمتاز على الوهية سابقيه.

وراح نيرون يفكر فى الطريقة التى ينظف بها الأرض من روما القديمة ليحل محلها روما الجديدة. وراحت بوبيا تذكى فى قلبه الأوار.

وقرر نيرون أن يحرق روما القديمة، لتشرق شمس روما الجديدة التى وضع هو نموذجها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو من العام الرابع والستين بعد الميلاد، وقف نيرون وإلى جواره بوبيا، يطلان على روما من شرفه قصره الباذخ، ويستمتع بمرأى النيران الهائلة مندلعة فى المدينة لايقف فى وجهها شئ.

واستمرت النار مستعرة أياما تسعة، حتى أتت عليها وتركتها قاعا صفصفا. وكان نيرون كلما زادت النار توهجا زاد حماسه فى لهوه وغنائه وشرابه.

وعندما خمدت النار واندثرت روما، أطل عليها نيرون وقهقهته تجلجل فى القضاء، ثم اندفع ينشد أغنية معربدة، ويملأ جوفه بأقداح الشراب.



اختفت روما القديمة من الوجود .. وأحست بوبيا أن كابوسا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها. بعد أن أدركت أن الجارية المسيحية التى أحبها ماركوس قد ذهبت مع جحيم المدينة. غير أن فرحتها لم تدم طويلا حين علمت أن ماركوس نفسه قد ترك القصر، وترك الجيش، وانطلق مع من بقى من المسيحيين بعد أن أنقذ فتاته من النيران.

وملأت الكراهية البشعة للمسيحيين جميعا رأس بوبيا. فقد أثر فيها هروب ماركوس تأثيرا عنيفا، وجعلها تشعر بعنف الإساءة التى وجهها إليها بتفضيله امرأة أخرى عليها. وهى جريمة فى نظرها تدعو إلى الأخذ بالثأر.

وراحت بوبيا تطل بعيدا وقد ملأت رأسها ألوان عديدة من الأفكار، حين قطع الصمت عاصفة من الهتافات تهتف كلها ضد الإمبراطور، وتطالب بالانتقام ممن أحرق روما.

والحق، لقد كانت جماهير الشعب لاتصدق سوى أن نيرون هو الذى أحرق روما.. برغم كل الادعاءات التى راح يسوقها إلى الشعب أصدقاء الإمبراطور.

وبلغت الثورة مداها .. ولم يستطع حرس القصر صد الجماهير، فى الوقت الذى كان نيرون قد تملكه فيه الرعب الصاخب المجنون.

واجتمع فى قاعة القصر نيرون وبوبيا وكبار رجال البلاط، وبينهم قائد الحرس الذى كان أول من أشعل النار فى روما. وراح الكل يتشاورون فى رعب، كيف يقنعون الشعب بأنهم ليسوا هم الذين أحرقوا مدينتهم المحبوبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولمعت فى رأس بوبيا فكرة طارئة .. تنفذ بها الموقف وترضى فى الوقت نفسه رغبتها فى الانتقام. وأنصت نيرون فى لهفة إلى بوبيا وهى تقول :

– يا جلالة القيصر .. لقد وجدتها .. إن هذه الجماهير تطلب الانتقام ممن أحرقوا روما .. وإنك لتعرف المسيحيين وجرائمهم الخسيسة وحفلاتهم وتنبؤاتهم بأن النار سوف تجلب معها نهاية العالم. والشعب كله يكرههم ويشك فى أمرهم.. وهم من أجل ذلك أعداء روما وأعداؤك، يتهامسون ضدك ليوهموا الناس أنك أحرقت روما مع أنهم هم الذين أحرقوها .. والناس يطلبون الانتقام، فلتتحول ريبتهم فى اتجاه آخر وليكن لهم مايريدون.

وفتح نيرون عينيه فى دهشه .. ثم بدأت الوان من الانفعالات تتعاقب على وجهه، ثم خلع وشاحه أخيراً ورفع يديه، وأخذ يقول فى رنة من الغضب والأسى :

– إيه يازيوس .. إيه يا أبولو .. ماذا فعلت هذه المدينة المسكينة لأولئك القساة حتى يحرقوها بمثل هذه الفظاعة المجردة من الإنسانية.

وصاحت بوبيا :

– إنهم أعداء الإنسانية وأعداء نيرون.

وصاح الباقون :

– نفذ العدل ياقيصر، وعاقب المجرمين.

وجلس نيرون وقد خفض رأسه على صدره كما لو كان مأخوذاً بخسة المسيحيين، ثم قال :

– اجل .. سأنزل بهم عقابا سيتذكره شعبى المسكين مدى الحياة.

ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهودة فى الحيل. فعثر على جماعة من الفجار والسفلة الأراذل، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة النكراء. وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين.

ومنذ ذلك اليوم بدأ نيرون ينزل بالمسيحيين ألوانا صاخبه من التعذيب والإحراق لم يعرف لها التاريخ مثيلا. وبدأت ساحات المصارعة تشهد كل يوم نيرون وبوبيا وحاشيتهما، يجلسون فى صدر المدرج الكبير، ثم يسوق الجلادون مئات المسيحيين إلى الساحة يصارعون السباع والنمور ثم يجعلون وجوههم إلى خشب الصلبان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى كانوا يحملونها ويهوون عليهم يسمرون أطرافهم فى الخشب بلارحمة ولا إشفاق.

وتقرع الطبول بأمر الإمبراطور فيسرع الجلادون يشعلون النار فى الصلبان الخشبية والأحطاب.

وظل كل يوم من أيام روما يطلع على مثل ذلك المشهد الرهيب، والناس مع ذلك لايكاد يقتنع منهم إلا القليل ببراءة نيرون من تهمة إحراق روما.

وعادت الثورة تتحرك من جديد بين الجماهير وبين رجال الجيش والحرس نفسه ضد الرجل الذى أحرق مدينتهم وأرسل عليهم الجباة الغلاظ ينبهونهم ويثقلون كواهلهم بالضرائب الفادحة بدعوى تخطيط وإنشاء روما الجديدة.

وبدأت الجماهير تهاجم القصر ...والحرس لايحاول صدها على الإطلاق ... وأخذ الطاغية يجرى داخل القصر فى جنون من غرفة لأخرى .. ودخل غرفة نومه وأراد أن يغلق بابها، فإذا به يلمح بوبيا فى أثره .. فزاد هياجه وصاح فيها :

- ألا تزالين تتبعيننى أيتها المرأة..؟ أين أمى العزيزة؟ أين أوكتافيا زوجتى؟ أين عرشى وعاصمتى؟.. كلهم ماتوا .. ماتوا بسببك أنت يابوبيا .. وأنت وحدك الباقية.. أنت التى قلت لى اقتل المسيحيين وتخلص منهم... أنت التى جلبت كل هذه المصائب والويلات.

وظل يتقدم نحوها هائجا ثائرا حتى أمسك رقبها، وانهال عليها ركلا وضربا وصفعا فى قسوة رهيبة لم تحتملها هى ولا الجنين الذى فى بطنها فسقطت جثة هامدة.

واستمر نيرون يجرى فى القصر زائغ البصر .. يتبعه المطاردون من رجال الشعب. ومن حرس القصر أيضا .. وعندما دخل هؤلاء القاعة لم يمكثوا بها طويلا.. بل عادوا يسرعون الخطى خلف الإمبراطور .. وهم يدوسون بأقدامهم جثة ملكة عبدوها من قبل..وهم يعلمون أنها كانت أسوأ النساء سمعة فى العالم على الإطلاق.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تيـــودورا
امـرأة مـن الطـين

مرحى ... هذه هى الحياة ..

الليل .. دنيا المغامرة، والخمر، والنساء، والصدور العالية، واللذاذات الفاجرة، والرعشات والنبضات والجنون.

والنهار .. للنوم !

والمساء .. للضحكات، والغناء، وانتظار الليل الزاخر بالخطايا والأسرار والمجهول..!

هكذا كانت الحياة فى القسطنطينية، مدينة النور المسعورة، التعسة، وعلى هذا ظلت، حتى قبل أن تولد تيودورا من خلال اللعنات،و العذاب، والرزايا، والعبث بكل شئ.

وعرفت تيودورا سر المهنة ..!

عرفتها حتى قبل أن يكون كل عملها أن تستند بجسمها الساخن إلى كرسى صغير، فى ذلك الركن البارد المظلم عند باب الدار، ترقب المكان، وتعجب لهؤلاء الرجال العديدين الذين يزورون شقيقتها الكبرى «كوميتا» كل مساء، والذين لم ترهم من قبل .. بين كل ساعة وأخرى رجل جديد، يقول نفس الكلمات اللاهثة، ويغلق من خلفه الباب، ثم يعطى أمها نقوداً كالآخرين ..!

وكانت تبتسم للجميع، وتمد يدها الصغيرة لتأخذ بعض القروش. ولكن الكثيرين لم يكونوا يعطونها أكثر من ابتسامة، بعد أن يكونوا قد دفعوا قبل أن يغادروا الدار كل شئ، حتى الأعصاب.

على أن تيودورا لم تكن لترضى طويلا بتلك الوقفة بالباب. فهى تستطيع أن تلعب الدور كاملا، تماما كما تلعبه كوميتا، وكما تلعبه شقيقتها الأخرى أنستاسيا.. والأم أيضا ..

وكانت تصرخ كل يوم فى أمها أنها تستطيع. وكانت الأم تجيبها دائما :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

-عندما تتخطين الثانية عشرة على الأقل ياتيودورا. أما الآن فلست سوى طفلة بعد، لاتعرفين سر المهنة جيداً.

سوى أنها كانت تعرف جيدا سر المهنة المجنونة. فمنذ سنوات سقط أبوها مروض الوحوش فى حلبة القسطنطينية صريع ضربة قاسية من دب جبار، تاركا الأم، والصغيرات الثلاث، للجوع والفقر والحرمان ..!

وكان على الأرمل الحسناء أن تحصل على القوت، لها وللصغيرات أيضاً، من خلال اللعنات، والعذاب، والخطايا، والدموع. والفقيرات الحسان يجدن القوت غالبا، خصوصا فى مدينة كبيرة كالقسطنطينية .. عرفت طويلا لذاذات الشذى الساخن من نساء الطبقة العليا، والشراب الفاخر فى كئوس الذهب .. كما عرفت دفء الشفاه الدسمة، وسحر الصدور المتفجرة، ولذة النبيذ الرخيص، فى أوكار الغانيات من طبقة الحضيض ..!

على أن الأرمل الحسناء خشيت ذلك الحضيض أول الأمر. وبدا لها أن تترك الفتيات الثلاث يطلبن الطعام لهن جميعا من عمل نظيف. فدفعت بهن دفعا إلى سيرك متنقل يقمن فيه ببعض الأعمال التافهة لقاء أجر ضئيل. ولكن القروش بدت قليلة لاتسد الرمق. وكان عليها أن تبحث لنفسها هى الأخرى عن عمل يدر من الربح أكثر مما تحصل عليه بناتها الثلاث.

وعرفت الأم كيف تبيع الليل لتعيش. وبدأ الفتيات الصغيرات يتعثرن بالزوار فى مخدع أمهن، فيقفزن كالملسوعات، ويقذفن الزائر بما تقع عليه أيديهن الضئيلة من كل مافى الدار ..

على أن الأمر لم يكن ليستمر طويلا، فقد أدركت الصغيرات أن أمهن، لكى تحصل على نقود، يجب أن تتمدد كل ليلة إلى جوار رجل، أو أكثر من رجل، ولكى يحصلن على طعام لذيد، يجب الا يكتفين بالأجر الضئيل الذى يحصلن عليه من عملهن التافه، الحقير.

وهكذا تشبعت رأس الأم، وتشبعت رءوس الصغيرات بأشياء أخرى جديدة تبعدهن جميعا عن طريق الألم، والفقر، والجوع، والتفاهات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطلت الأم حولها، فوجدت كبرى بناتها كوميتا، قد ترعرعت وتفتحت محاسنها. وعرفت أنها تستطيع أن تربح أكثر، وتخفف عن بناتها تفاهه العمل الزهيد، إذا اجتمعن جميعا فى منزل آخر كبير، يديره الشيطان.

منذ ذلك اليوم وتيودورا الصغيرة تتلقن سر المهنة الوضيعة، وتعيش فى جو صاخب عامر بالفسق والضلالة والمجون. وفى كل يوم تنطبع على صفحة ذهنها المتفتح صورة جديدة من صور الحياة المريرة المجنونة، كلها تدور حول لون واحد، يحكى قصة المرأة التى تمنح نفسها للشيطان ..!

وبلغت تيودورا الثانية عشرة، فألقت بالمقعد الصغير الذى طالما حملته فوق رأسها من بيت إلى بيت ومن ملهى إلى ملهى، فى أذيال كوميتا، أو فى انتظار خروجها من زيارة أحد طلاب اللذة، ودخولها عند آخر فى مكان جديد. وتركت مكانها بالباب لتكون لها حجرة خاصة فى بيت أمها، تستقبل فيها الصبية الكبار، والفتية اليافعين، وتلعب معهم جيداً نفس الدور الذى تلعبه الأخريات.

وراحت الأيام تمضى. وصارت الفتاة بعد وقت قصير متعة شباب القسطنطينية. وصارت الحجرة الصغيرة جناحا خاصا يقوم بذاته، تنطلق من بين جدرانه كل ليلة هتافات المسرات الوحشية، والجنون، والعار والضحكات النشوانة، المفعمة بالعبث بكل شئ، والإخلاص فى اجتناءكل لذة محرمة، مع الصعاليك والدهماء، والأشراف والنبلاء، وكل من يحمل فى جسده شيئا من الأعصاب.

وفى الحق إنها لم تكن تهتم لأحد ممن يدخلون. فكلهم يصنعون الشئ نفسه، يصخبون، ويضجون، ويعبثون بما لم يعد من المحرمات بعد، متساوين أو مختلفين فى ألوان المجون. ولكن الذى كانت تهتم له أكثر من سواه، هو استغلال مصادر الاغراء إلى أبعد حدود الاستغلال، مع كل من يستطيع أن يدفع أكثر من الآخرين. فالمال هو كل شئ، ولن يضيرها أن تلقى من أجله فى الطريق برجل دفع ثمن لذته مقدما، لتستقبل على نفس الفراش رجلا آخر عرض سعراً أوفر، وذهبا أكثر نقاء ..

وكان نبلاء ذلك الزمان وأشرافه، هم السابقون دائما إلى مخدع تيودورا، لأنهم كانوا يملكون الذهب البراق فى كل وقت، ويكرهون أن يشاركهم فى فراش معبودتهم واحد من الشعب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا .. وعن طريق شباب القسطنطينية المترفين، وعلى أكتافهم، راحت تيودورا ترتقى سلم الشهرة، حتى بلغوا بها دارا كبيرا للتمثيل، عرفت كيف تجتاز بابه من الطريق الصحيح.. فقد كانت حركاتها، ورعشاتها، وغمزات عينيها، مدعاة للترويح عن الهموم، وسبيلا للتفريج عن القلوب، والنفوس، والصدور، والأجساد أيضا ..!



منذ ذلك الوقت بدأت تيودورا تتفنن فى طريقة الرد على تحية الجماهير، وهى تصفق لها بجنون فى صالة المسرح، كلما تجلت لهم بابتسامتها الساحرة وجسدها العارى، إلا من غلالة شفافه تكشف من تحتها كل شئ. لعلها عرفت جيدا كيف تجتذب تصفيق المشاهدين وإعجابهم، بكل ماكانت ترويه من نكات بذيئة وعبارات جارحة تثير افتتان شبان ذلك العهد، ممن عاشوا لايبالون بقيم أخلاقية، ولايهتمون لشئ أكثر من المرح والتسلى والعبث بكل شئ..

ومن هنا استطاعت تيودورا أن تحوز كل إعجاب شباب القسطنطينية، سواء على المسرح .. أو خارج المسرح أيضا. فكل ذلك الانغماس فى الشهوات لم يكن ليكفيه مايحدث أمام الجمهور ولا وراء الكواليس.. بل كان لابد من إشباعه بكل مافى الشباب من رغبة فى ذلك البيت الذى عرفه كل شباب القسطنطينية الغارقين فى الإثم إلى الأذقان ..

ولم تكن تيودورا تهتم لشئ من كل ذلك قط .. بل إنها لم تهتم أيضاً حتى حينما وجدت نفسها ذات يوم أما لولد لاتعرف له أباً .. وكرهته حتى بلغت بها الكراهية أن تحاول قتله .. لولا أن واحدا ممن تصوروا أنهم آباء لهذا الطفل، استطاع أن يختطفه ويرسله بعيدا جداً إلى حيث لم يعرف عنه أحد شيئا قط، إلا بعد أن كبر وعاد ذات يوم حين كانت أمه قد أصبحت إمبراطورة ... فحاول أن يستغل صلته بها فى الوصول إلى مالم يحلم به من قبل أبدا ...

ولم تعبأ تيودورا مرة ثانية حين تكررت نفس القصة .. ووجدت نفسها أما مرة ثانية لطفلة.. غير أنها فى هذه المرة لم تفعل كما فعلت بالطفل .. بل اهتمت بها واحتضنتها، وعملت على تنشئتها فى دير للراهبات من أجل أن تعوض بها ذلك

النقص الذى أحسته، وعاشت فيه حياة ماقبل العرش .. وإن لم يعرف أحد عن الطفلة شيئا بعد ذلك قط ..!

★ ★ ★

واستمرت تيودورا تواصل حياة الليل ...

وكانت ليلة خالدة .. ليلة مضطرمة ساخنة، فى أحضان شاب كان عليه أن يودع فى ليلته تلك مباهج المدينة المسعورة، بكل حياتها الفائقة، المترعة بالقبلات، والخطايا والآثام.

وكان «هكيوبوليس» أحد شرفاء صور بالشام، قد عين سنة ٥٢١ حاكما على مقاطعة «بنتابولس» بصحراء ليبيا، فلم يشأ أن يترك تلك الأرض التى شهدت حبه، وفجوره، إلا بعد أن يمضى ليلة أخيرة باهرة. ولم يجد الفتى لمثل تلك الليلة الفاجرة خيرا من تيودورا .. شعلة النار التى لاتخمد أبداً ..

وعرفت تيودورا كيف تلعب دورها بإتقان. وأخذت الشريف الثمل وخرجت إلى النسيم البارد. وهناك .. على الحشيش الندى، عرفت كيف تستولى على قلبه، وتمهد له السبيل لأن يتوسل إليها بإلحاح أن تصحبه إلى مقر عمله الجديد.

وانهالت عليه تقبيلا، وألقت بدنها الدفئ على ركبتيه، وضغطت على صدره بصدرها المتفجر. وأحس هو بسخونة الجسد الفوار. وأحست هى أن الذئب قد بدأ يثور فيه. وفى تلك اللحظة همست فى أذنه :

– أذهب معك .. ولكن كزوجة ...

وانتفض الرجل. ولكن ثورة الذئب كانت لاتزال تأخذ به. وأجاب فى رعشة :

– ولكن .. إن ذلك مستحيل. فالقانون كما تعلمين لايسمح بزواج الخاصة بالممثلات.

واقتربت منه أكثر. والتصقت به، وعادت تقول :

– إذن .. خذنى معك .. كخليلة ..!

وقد كان ...

وغادرت سليلة مروض الوحوش القسطنطينية، مدينة النور، لتعيش فى جحيم الصحراء، مع الرجل الذى وجدت فيه سبيلها إلى المجد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الفتاة التى عاشت تعطى كل ماتهبه الغانيات من متاع، ولا تتقيد بوعد أو شرف، وتسيطر على شباب القسطنطينية كلهم وتشغفهم حبا وولها، تسرق الزوج من كل امرأة وتعرف متعة الأعصاب بين الأذرع القوية والصدور الخشنة .. هذه الفتاة لم تكن لتطيق الحياة فى جناح الحريم من أى قصر، ولو ذاقت فيه كل متعة الأزواج. إنها تريد الحرية والانطلاق والصخب والجنون، ونشوة الجسد بتعدد الألوان..!

وأخذت الأيام تمضى بها. وفى كل ليلة كانت تستلقى مادة بصرها إلى الصحراء البعيدة، الهامدة فى الظلام كدنيا الموت، ولاتلمح سوى أشباح دور تافهة وخيام، كقطع من الليل فى جوف ظلام لانهاية له، فيضطرم فى صدرها ندم حار، وتجرى على خديها دموع، دموع يحملها النسيم المرتعش إلى مكان خفى بعيد ..

على أن ثمة من كانت تستطيع أن تمسح عن صدرها كل هذه التنهدات. وكانت تلك وصيفة زنجية، كان الرجل قد وثق بها، وجعلها حارسة على امرأته، فعرفت تيودورا كيف تجعل من الحارسة الأمينة صنفا آخر من النساء، تجد بواسطتها هى نفسها السبيل إلى حياة جديدة مترعة بالرعشات الساخنة والنبضات اللاهثة، والخمر، والفجور، والضحكات.

ثم .. كانت ليلة رهيبة. فاجأها فيها رجلها فوجد فى فراشها رجلا آخر .. فتى من الأعراب الأجلاف، صاحب صدر خشن، وأذرع قوية مليئة بالعنفوان.

وفى لحظة، وجدت امرأة الحاكم نفسها طريدة، شريدة، هائمة فى صحراء لانهاية لها، لايغطى عورتها سوى كساء بسيط، هو كل ماتركها الشريف تخرج به من القصر.

وراحت تيودورا تسير فى خلال صحراء ليس فيها رجال على الإطلاق. وفى الطريق إلى الاسكندرية لم تتبلغ بأكثر من كسرات سوداء من الخبز لاتكاد تفى بحاجة طبقة رقيقة من اللحم، تحجرت فوق شبه هيكل من العظام، وهو ماصار إليه الجسد الثائر لابنة السبعة عشر ربيعا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبلغت تيودورا باب الاسكندرية، والجوع قد نهش جسدها، والإنهاك قد أخذ بها .. ولكن ملاحتها مع ذلك كانت لاتزال تتألق على مرآة وجهها.

وترنح حارس الباب أمام نظرة إغراء ترسلها امرأة عرضت عليه أن تبيع له كل شئ فى سبيل دخول المدينة.

ولم يكن لدى الحارس مايمنعه من إتمام الصفقة.

ودخلت تيودورا الإسكندرية .. باريس العصر القديم ..!

سوى أن باريس القديمة كانت مشغولة عنها فى ذلك اليوم. وكانت هى فى حاجة إلى أن تأكل وتروى، وتجد ثوبا، وتغامر فى سبيل ذلك بكل مابقى لها من شئ.

ودل عليها حوامها حول تاجر خبز. فظنوها تسرق، وقادوها إلى مركز الشرطة حيث عرفوا أنها من بائعات الجسد. وأبوا إلا أن يذكروها دائما بحفاوة الإسكندرية بها، فدمغوها بسيخ محمى من الحديد، ترك فى ظهرها علامة حمراء، ظلت تحتفظ بها إلى آخر الأيام ..!

واستمرت الدوامة تدور ...



إلى الحانات .. وقبلات الرجال .. والليل ..

إلى المسرات الباهرة، والمغامرات، والضحكات الصاخبة ..

إلى الإمعان فى الانتقام من المجتمع الذى أفعمها احتقارا وزراية.

إلى العبث بكل شئ، والكذب فى كل شئ، والإخلاص فى اعتصاركل لذة محرمة، ثائرة، مجنونة.

ولكنها فى هذه المرة، لم يكن لها بيت خاص .. لاحجرة، ولا جناح، ولاشئ من ذلك على الإطلاق. فمن الطريق كانوا يأخذونها، وإلى نفس الطريق تعود، لتسير الدوامة سيرتها.

وتتوالى الأيام والأسابيع فى تشابه عجيب، كل ليلة نفس القصة، ولكن مع رجال جدد دائما، لأن أحدا من هؤلاء الرجال لم يكن ليصبر على امرأة واحدة، فهو يحتفظ

بها لوقت طال أم قصر، ثم يلفظها ليسعى وراء صيد جديد، فيصطحبها آخر ليمضى معها ليلة يقذف بها بعدها إلى قارعة الطريق ..

وتستمر الحياة ...

ثم .. جاءت ليلة، وأحست بنت الثامنة عشرة فى أحشائها جنينا، لم تكن أحست بمثله من قبل طوال كل هذه الليالى المترعات.

واعتمدت رأسها بين يديها تفكر .. لقد شربت الكأس حتى الثمالة، وها هى آخر الأمر تجد نفسها وليس أمامها سوى طريق واحد من اثنين .. الانتحار، أو الدير ..!

فأما الطريق الأول فلم تجد فى أعماقها جراة عليه .. وأما الثانى ..!؟

وفى الحق، لقد هزتها طويلا فكرة دخول الدير، فقد عاشت حياتها الماضية غانية، مغامرة، عربيدة، فاجرة، تسخر بكل ألوان الفضيلة والحياة. ولكن .. ماذا بعد ..!؟

إن المغامرات لم تعد لها لذتها الأولى. والأشراف لم يعودوا يهتمون بها على الإطلاق. فأما الرعاع، والدهماء، والصعاليك، فهم وحدهم الذين صاروا يندفعون نحوها، أو تندفع هى نحوهم، لتقضى ليلة لاتهتم فيها لغير الطعام والشراب .. ثم لاشئ بعد ذلك قط.

لقد أصبحت تلك الحياة عبئا ثقيلا. فلم لاتختصر الطريق. وتضع للقصة نهاية رائعة، كل شئ فيها طاهر جميل، بغير ما خطايا، ولا آثام ..!؟

أجل، إنها التوبة. فلتترك هذه الأرض التى شهدت ذلتها، وفجورها وآثامها، إلى الدير .. حيث تكفر بالندم، والأناشيد المقدسة، والترانيم الناصعة البيضاء، عن كل ماضيها الأسود التافه الحقير. وليس ذلك فحسب، بل حيث تجعل طفلها يفتح عينيه فى النور على قرع النواقيس، وصوت دعاء الراهبات.

ودخلت تيودورا الدير،وبدت كأنها فى عفاف العذراء.

سوى أن روحها الملوثة لم تكن لتستقر أبدا فى مثل ذلك المكان. فلم تكد تمضى أيام، حتى حملت رضيعها، وقفزت من أقرب نافذة إلى الطريق، وسارت به لتلقيه على باب آخر رجل يمكن أن يكون هو أبو الطفل. ثم استأنفت طريقها مرة أخرى إلى القسطنطينية مدينة النور، والظلام..!

والحق، أن تيودورا لم تنس القسطنطينية قط، فقد عاودها الشوق إليها.. القسطنطينية دائما.. أمها، كوميتا، جناحها الخاص العامر بأقاصيص اللذاذات، رجال الرومان بكل تجاربهم فى الشغف والغزل والمتاع، أصدقاؤها الأشراف وأصدقاؤها الصعاليك، مملكتها .. مملكتها الكبرى ... ليالى القسطنطينية الحمراء !!

وهكذا كانت صورة الحياة فى القسطنطينية تملأ رأسها. فهؤلاء جميعاً، كيف هم، ماذا صنع الزمان بهم؟ إنهم يذكرونها ولاشك، سيكرمونها، ويحبونها ويعودون معها إلى الليالى الرائعة الصاخبة العامرة بالشباب الحار. أما هى فستحبهم، جميعاً، الكل .. الكل .. فلترحل، فلترحل ..!

وانطلقت إلى القسطنطينية. فلم تجد أحدا منهم ينتظرها على الإطلاق. كلهم ذهبوا، ولم تعد هناك سوى «بانديتا» الراقصة المريضة، التى كانت تمثل أمامها على المسرح دائما، خيال الشيطان.

على أن بانديتا كانت خيرا من كل هؤلاء الذين ظنتهم فى انتظارها. فعن طريق هذه المرأة، التى كانت فى شبابها من محظيات جستنيان، ولى عهد الامبراطورية، استطاعت أن تحصل على خطاب توصية إليه، ليساعدها فى العودة إلى المسرح.

ووضعت تيودورا الخطاب على صدرها، والتمست الطريق إلى القصر لتلتقى بجستنيان.

وكان مساء. وكان ولى العهد يجلس إلى مكتبه منكبا على شئون الدولة. وأحس فجأة بحركه خلفه قطب لها جبينه وهتف :

– دعونى أعمل فى سكون ..!

ولم يجبه أحد؛ أدار جستنيان رأسه فى هدوء ولمحها .. وأحس فى أعماقه بما يشبه انقضاض الصاعقة، فقد كانت فى كامل أنوثتها، تطل إليه بوجهها المليح، وعينيها اللتين تبعثان الإغراء، وتدعوان.

وفى ذكاء نسوى خبر طويلا مصارع الرجال، أدركت تيودورا ماكان من أمر الرجل، فدلت، وبدت كأنها خجلى. ونهض ولى العهد وانتزع يدها، فتمنعت. واقترب منها يقبلها، ففرت كمذعورة. وعندما جرى خلفها وطوقها بذراعيه، وقبلها من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديد، تركت نفسها بين يديه وكانت تترنح وتختلج، وتلهب خديه بأنفاس ساخنة، كحميا الخمر ..!

وهمس ولى العهد :

– ولكن .. كيف استطعت الدخول إلى هنا ..!؟

وسمعها تجيب :

– لقد أتيت من النافذة المطلة على حديقة القصر، بعد أن تسلقت الأسوار.

وعاد يقول :

– إيه .. وماذا تريدين ..؟

وأجابته :

– تشفع لى يامولاى لأعود إلى المسرح، لأعيش .. ولو أنى أكره ذلك الجو البغيض ..!

والتقت عيناهما فى صمت. ثم عاد جستنيان يضمها إلى صدره وهمس :

– لن تعودى إلى هناك .. بل ستظلين هنا .. معى ..!!

★ ★ ★

عاشت تيودورا ليلة جديدة صاخبة، ضحكت فيها كما لم تضحك من قبل أبدا، وشرب فيها ولى العهد جستنيان كما لم يشرب فى ليلة سواها قط. وكانت قد عرفت كيف تضئ قلبه العاشق، تطوقه بذراعيها، وتغمره بقبلات ساخنة لم يذق مثلها أبدا. وشربا، وعربدا، إلى آخر ذرة من شبابهما الحار. وتمرغ ولى العهد طويلا على صدر تيودورا، وتذوق كل مافيها من النعومة والخصب. وفى نشوة الخمر، والضحك والقبلات، والصخب، لم يعد يزن أموره قط. أما هى، فقد كانت تعرف أنه المجد ..!

على أن المجد لم يكن هو كل ماتفتح لها من الأمل. فقد عادت بذاكرتها إلى الوراء، إلى ليلة كانت لاتزال تبيع فيها محاسنها للسيد والعبد على السواء. فى بيت الشيطان. وتسخر بمعجب موله. أو عاشق ملهوف. دفع ثمن متعته مقدما. لتستقبل بدله آخر جاء يعرض سعرا أوفر. ونظرت إليها أمها فى لذة وقالت :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– إن ما أخشاه يافتاتى أن تسقطى يوما فى هوة لاتجدين لها من قرار.

وأمنت كوميتا، أختها الكبرى، على قول الأم وهى تضيف :

– هذا .. إذا لم ترتفعى إلى القمة ..!

وابتسمت تيودورا وهى تصفف خصلات شعرها أمام المرآة وتجيب :

– ولم لايحدث لى الاثنان معا ..!؟

وإذن. فهى النبوءة. وإذن .. فلتأخذ طريقها إلى القمة منذ اليوم، بعد أن وقع فى حبائلها ولى العهد نفسه. أفليست هذه هى أول الخطوات فى سبيل الحصول على رضاء الشعب.!؟

ولكن تيودورا كانت تخدع نفسها وقتئذ، فإن ذلك النجم الذى أضاء قلب جستنيان، لم يكن ليستطيع أن ينال بسهولة رضاء الشعب، الذى أبى أن يضع تاج الملك على رأس عاهرة ..

وراح العامة، هؤلاء الرعاع الدهماء والصعاليك، كلما ظهرت فى حفل عام. يقابلونها بعاصفة من الصفير والضجيج والسخرية واللعنات. وراح الخاصة .. هؤلاء الأشراف والنبلاء والسادة، يصوبون إليها نظرات كلها الاحتقار، والزراية، والهزء، والحقد، والبغضاء.

على أن تيودورا لم تهتم لكل ذلك أبدا، وحتى جستنيان نفسه لم يكن ليعير نظرات الجميع شيئاً من الاهتمام. فهو .. هو نفسه .. كان واحدا من هؤلاء التافهين الفارغين، الذين لايخجلهم شئ قط، ماداموا يجوعون، فلا يعرفون العذاب الذى يخالطه الازدراء، ولا العذاب الذى يخجل الإنسان من نفسه عندما يعانيه، خاصة فى مجتمع كانت السرقة، والفتك، والقتل، هى الأساليب الوحيدة التى يعرفها ليأخذ الناس حقوقهم فى الحرية والحياة.

والواقع أن جستنيان قد قاسى طويلا سغب الجوع، والفقر، والحرمان، أيام كان لايزال هو نفسه واحدا من الرعاع، والدهماء، والصعاليك .. يعمل مع أبيه فى فلاحة الأرض، ولايخجل يوم يحس بالجوع، من أن يعمل بساعده القوى وعضلاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المفتولة، وصدره الخشن، فى تحطيم أبواب جيرانه الأغنياء ليأخذ ماتحرمه عليه الأرض .. ويعيش ..!

هكذا كان لايزال يعيش، حين أرسل إليه عمه يستدعيه. عمه .. ذلك الرجل الذى كان جستنيان يذكر فى صباه أنه كان يحمله على ذراعيه، وهو فى ردائه العسكرى الخشن، فيقبله، ويحنو عليه، لأنه لم يكن قد ولد له ولد بعد. فما كان ليهتم بالزواج وهو الذى اتخذ من الجندية مهنة تدر عليه الربح الوفير، يشترك فى كل معركة ويستبسل ويرتقى، وينال فى كل يوم حظا أوفر، حتى بلغ به القدر قيادة الجيش .. ثم .. ثم الجلوس على العرش ..!

وفوجئ جستنيان الشاب بكتيبة من الجند تدخل الأرض، وتسأل عن جستنيان ابن شقيق الامبراطور. ونفض عن ردائه القذر تراب الأرض، وألقى من يده بالفأس الضخم، وقدم لهم نفسه. فحملوه معهم، إلى حيث عمه الذى لم يجد لولاية عهده وقد بلغ الثامنة والستين، أجدر من ابن أخيه ذى العقل الراجح والتفكير السليم، والعضلات القوية المفتولة الممتلئة بالعنفوان.

ووجد جستنيان نفسه، وقد صار وليا للعهد آخر الأمر. ولكنه لم يعرف كيف ينفض عن أعماقه تراب الطين الذى عاش فيه حياته الأولى كلها. فظل كما هو، برغم الصفات الأخرى الجليلة التى أحسها الشعب فيه، من نفس الطينة الداكنة، طينة هؤلاء الرجال الذين ولدوا تافهين وعاشوا حقبة طويلة من الزمن تافهين أيضا، وأحسوا بالجوع يعمل فى البطون الخاوية، وعرفوا الفقر ينزل بالمرء إلى أحط درجات المذلة، فإذا بسم لهم الحظ، وشاءت لهم الأقدار أن تعوض صبرهم خيراً، وطفرت بهم فى غمضة عين من جحيم الفاقة إلى نعيم الرفاهية، لم ينسوا أصلهم الأول، والأرض الجائعة التى أنبتتهم، والحضيض الذى جرعوا من كئوسه الفاسدة حتى الثمالة .. ولكنهم، لكى يخدعوا أنفسهم وينتصروا عليها، يحيطونها بكل ترف باهر وبذخ لايكاد يرقى إليه بذخ الأشراف الأول.. ليظهروا أمام الشعب فى إطار مذهب براق، يكونون به على لسان دائما أبداً ..

وهكذا عاش جستنيان أيامه كولى للعهد. وهكذا اختار أيضا تيودورا لكى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشاطره المجد، غير عابئ بماضيها لأنه مثل ماضيه، تافه، ملوث، حقير، فأبى إلا أن يجعل منها نموذجا آخر لتصاريف القدر.

وهكذا أيضا عشقته تيودورا، عشقته حتى إخمص قدميه، وعشقت فيه المجد الذى بلغته فى غمضه عين، ولم تهتم بغمزات الشعب من حولها، فقد كانت تعلم أنها ستكون إمبراطورة .. ويومئذ، ستعرف كيف تقتص منه، وتلقى عليه درسا فى كيفية معاملة الزوجات المقبلات لأولياء العهود .!؟

★ ★ ★

استمر الشعب فى طريقه .. الشعب الذى لم يكن يطيق أن تكون الفتاة المدموغة فى ظهرها بالسيخ المحمى من الحديد إمبراطورة عليه، وإن قبل بحارث الأرض سيداً للعرش.

واستمر الأشراف فى طريقهم .. الأشراف الذين نفروا من أن تكون تيودورا سيدة عليهم، وإن كانوا قد لثموا من قبل أطراف أصابعها، وهم يشاركونها فى شبابهم ذلك الخدر الطرى فى الجناح الخاص من بيت أمها العامر بالتنهدات.

واستمر السادة والأشراف والنبلاء، كما استمر الرعاع والدهماء والصعاليك، كلهم فى طريقهم يقذفونها كل يوم بألسنة حداد، لاتعرف شفقة على الإطلاق.

واستمرت هى لاتعبأ. وإن كانت تذهب لتبكى فى أحيان كثيرة، بين يدى جستنيان الحبيب، لتسرد عليه فى أسلوب أتقنت أداءه على خشبة المسرح جيداً من قبل، كيف أن إحدى الأميرات قد أشاحت بوجهها عنها عندما لمحتها من بعيد .. وكيف أن الامبراطورة لوبيسينا قد بصقت على الأرض لدى رؤيتها، وصوبت إليها نظرات تشف عن الاحتقار الممتزج بالبغض الكبير ..؟

ويربت جستنيان على خديها، ويضمها إلى صدره الخشن الدفئ، ويقسم لها ليرفعن هذا الظلم كله متى استقرت زوجة العم فى الرمس، وما الطريق إليه ببعيد.

ولم يبعد الطريق حقا. فقد ماتت الامبراطورة العاتية، الامبراطورة التى احتقرت طويلا أن تطل إلى تلك المرأة الفاجرة التى سطت على قلب جستنيان فجعلته مولها بها لايطيق فراقها أبدا، بل ويعدها أن تكون يوما على نفس العرش، فى مكانها هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسها. وعرف جستنيان كيف يقنع عمه بتنقيح قوانين الزواج التى حرمت من قبل قيام رابطة الزواج بين حياة الخاصة وحياة العامة. وخرج القانون الجديد، وصلب مواده كله تحقيق رغبات خليلة ولى العهد ..!

وبالرغم عنه، اضطر الشعب عام ٥٢٧، للاحتفال بزواج جستنيان ولى العهد، بتيودورا سليلة مروضى الوحوش ..!

وبالرغم عنه أيضا، كان عليه أن يحتفل ويهلل، ويرقص، للزوجين أنفسهما وقد صارا بين يوم وليلة إمبراطورين على الرومان ..!

وفى الحق .. لقد خرس الشعب الذى طالما هتف بسقط «مندورا» أو لعنة الشيطان، التى لم تكن فى نظره تستحق أن يطلق عليها اسم «تيودورا» ومعناه هبة الرحمن ..!

ولكن تيودورا، وقد ملكت فى يدها كل شئ، لم تكن لتنسى هؤلاء الذين وصموها طويلا بالعار. ففى كل شارع وفى كل بيت، كان هناك جواسيس وعيون تنصت إلى الأحاديث، وتسترق الأسماع. وما كان أتعس هذا الذى تثبت عليه تهمة الطعن فى سيدة البلاد الأولى. فهو مهما بلغ شأنه، لن يرى حوله من مدينة النور، سوى حبل المشنقة.

وأما النبلاء، وأهل القصر، هؤلاء الذين كانوا يستخفون بها ويحتقرون النظر إليها من قبل .. فقد عرفت تيودورا كيف تشفى منهم الغليل. وبدأوا يشهدون فى حياتهم شيئا جديدا .. الإمبراطورة تتركهم ينتظرون شرف المقابلة وقتا ليس بالقصير فإذا ماسمحت لهم آخر الأمر بالمثول بين يديها، وتقدموا فى انحناء كبير يلثمون أطراف الثوب الملكى المذهب، دفعتهم بقدمها فى تشف ووحشية ولسانها يكاد يقول :«ها أنذا قد عدت إمبراطورة، فهل ترون قدرتى، وجبروتى وسلطانى، أيها الأنعام ..!؟».

والواقع أن تيودورا قد عرفت كيف تكون صاحبة قدرة وجبروت، تفرض نفسها وتجمع بين يديها كل سلطات الإمبراطورية. وغدا الملك لاشئ على الإطلاق. أما هى، فتتدخل فى شئون الملك كلها، وتدس بأنفها فى مهام الأمور وخطيرها، وتعدل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القوانين على الطريقة التى يحلو لها أن تسير فيها .. كل ذلك باسم جستنيان الرجل الذى عرفه الشعب فى أول حكمة على أنه الإمبراطور، ثم عرفه الشعب بعد ذلك على أنه زوج الإمبراطورة.

على أن الإمبراطورة، لم تنس قط أنها كانت ممثلة، فعاشت حياتها كلها وفى الأعماق منها تصطرع روح التمثيل مع نداء السلطان. ونجحت تيودورا فى أن تمزج الاثنين معا، فتخرج على مسرح حياة الشعب مسرحيات تراجيدية بارعة، تلعب الدور الأول فيها دائما، وتجعل من موت ضحاياها مآسى تتحدث بها الركبان ..!

وكان المجتمع كله ضحايا مسرحيات الإمبراطورة البارعة.

فما كانت الإمبراطورة لتنسى أن أبويها كانا فقيرين، يحصلان على القوت من خلال اللعنات والعذاب، وأن الفقر نفسه هو الذى جعل أمها، وكوميتا، وهى أيضاً .. يبرعن فى اصطياد الرجال ليتمددن إلى جوارهم، أجساداً هامدة ليس فيها من الحياة أو العاطفة أو الكرامة شئ على الإطلاق. وماكانت لتنسى ذلك السيخ المحمى فى النار الذى ألصقوه على كتفها، ولا رائحة الدخان الممتزج باللحم المحترق الذى انبعث منه. وهى لاتزال تذكر أيامها السود الطوال التى عاشتها تفعل كما يفعل الآخرون .. الغجريات، والنساء المشردات، والصعاليك، والأفاقين، والأوباش، وبائعات الليل. وهى تذكر جيدا هذه اللعنات الصاخبة التى طالما سمعتها من أفواه ذلك الشعب قبل أن يبنى بها الإمبراطور .. إنه المجتمع كله .. كلهم رموها بالعار .. وهى .. هى الأخرى .. ستلقى بهم من حالق ..!

وكان حكم الإمبراطورة، سلاسل متتابعة للانتقام من هؤلاء الذين أفعموها زراية واحتقارا، وأذاقوها العذاب والحرمان ..

وكان أشراف ذلك الزمان على القمة من قائمة تيودورا السوداء.

وبدأت تدفع بهم أولا نحو الفقر ..

فهم أغنياء، ليس للمال عندهم حساب. وقد سبق أن اشتروا جسدها بالمال من قبل، كما ظلوا يعيشون حياتهم يتلذذون بشراء أجساد النساء جميعا بالمال نفسه .. فلم لاتأخذه هى وتحرمهم من كل هذه اللذاذات ..!

وراح القوم يسقطون في هاوية الفقر واحدا بعد أخر. فهي تسطو على أملاكهم وتجردهم من قصورهم، وتسرق ماورثوه من نفائس وثروات. وعندما يتم ذلك كله، تبدو وكأنها تعطف عليهم، وتألم لما انحدروا إليه، وتأخذ بها رأفة ضخمة لحالهم، وتشفق عليهم أن يستمروا في الحياة يقاسون البؤس بعد العز. فلا تجد من سبيل إلا بالقضاء على حياتهم سراعا .. إنقاذا لهم من موت بطئ يحل بهم لو استمروا يعيشون ..!

وهكذا استمرت تنتقم من الأغنياء، ولكنها لم تنس أن مالها كان يقوم بأود نساء عاشت كما يعشن، وشعرت كما يشعرن، وتعذبت كما يتعذبن. فوجدت من حقهن عليها أن تكفل لهن حياة جديدة، لاتعرف الجوع والمرارة، والحرمان والعار.

وراحت تيودورا تحمل زوجها على إصدار قوانين جديدة .. تضمن نصوصها كل الحقوق لجميع أفراد الشعب الفقير الكادح من جميع الفئات.. وخاصة فئة الممثلين والممثلات وبنات الخطيئة اللواتى تدرك الإمبراطورة أن أغلبهن قد سقطن فى تلك الهوة تحت ضغط الحرمان والجوع والعذابات ..

ومن خلال تلك القوانين التى عرفها التاريخ باسم زوجها جستنيان، واعترف هو نفسه أن قسما كبيراً منها من وحى زوجته، عرفت تيودورا كيف تكفل نساء تلك البيئة التى خرجت منها كل مايقيهن شرور الحياة .. كما ازالت من امامهن جميع العقبات التى كانت تحول بينهن وبين العيش الشريف .. ورفعت القيود التى كانت تربط ذلك الصنف من النساء بالطين دائما ... فأصبحت أمامهن فرص جديدة لتغيير الحياة التى غرقن فيها حتى الآذان، خاصة بعد أن شملت القوانين إغلاق بيوت الهوى وتحريم بيع الأجساد ..!

وعندما ضمنت الإمبراطورة الحياة لكل هؤلاء اللاتى عاشت مثلهن من قبل، وعرفن الفساد الذى عرفنه ومارسن العار كما مارسنه.. وبعد أن افتدت بما لها أولئك البائسات وحررتهن من ذل الطين .. أصدرت تيودورا أمرها بإعداد أحد قصورها التى تطل على البسفور، لتضمن الراحة بعد طول عناء، والسعادة بعد طول شقاء، لكل من بقى بغير مأوى من بقايا بنات الليل وتاجرات الهوى وبائعات الأجساد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الأمر لم يستمر طويلا. فما كان العيش الهنى الهادئ ليقنع نسوة مثل هؤلاء، أو يرضى مايعتمل فى أعماقهن. وبدا كأن البعض منهن قد أدركن أن الإمبراطورة لم تكن تشفق بهن، ولكن تضعهن فى سجن اختيارى لا حياة فيه. وقلقن. وأخذ بهن رعب مخيف، قاتل، جبان ...

وفجأة، عرفت الإمبراطورة أن بعض الفتيات قد آثرن الانتحار بإلقاء أنفسهن من أبراج القصر العالية إلى الخضم فى أسفلها ...

وثار ثائر الإمبراطورة. وصدر أمر جديد بإحراق القصر المطل على البسفور ... بكل من بقى فيه من نساء ...!

★ ★ ★

واستمرت تيودورا تعيش، وتنتقم، وتبدع فى إخراج المآسى والمسرحيات.

ولم تفشل تيودورا أبدا فى الحصول كل يوم على موضوع جديد لمسرحية رائعة...

ولم تبخل الأقدار عليها قط .. فما أكثر الرجال البسطاء فى ذلك العالم الواسع العريض ..

وكان «فيتاليان» واحدا من هؤلاء الرجال البسطاء ..!

كان فيتاليان زعيما كبيرا لإحدى القبائل القوطية المنتشرة غربى الإمبراطورية. وكما يفعل الزعماء الكبار دائما، توطد منه العزم على اغتصاب العرش العظيم، وراح يجمع حوله كل هارب من وجه الإمبراطورة الفاجرة، وكل من أحس بالضياع فى عاصمة الإمبراطورية.

وجاء عيون الإمبراطورة إليها بالنبأ، فمالت على أذن زوجها، صاحب السلطان الرسمى تشير برأى..

وعرف جستنيان أن عليه أن يرسل إلى الزعيم القوطى دعوة باسمه للقدوم إلى العاصمة، حيث ينتظره ليتباحثا معا فى عقد محالفة يتنازل فيها صاحب العرش عن بعض الامتيازات لجاره العزيز. وأما مابعد ذلك فليتركه كله لتيودورا .. حلالة المشكلات ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولبست العاصمة مباهجها لاستقبال الضيف العظيم الذى جاء مع حاشيته ملبيا دعوة عدوه، وقد ملأه غرورا شعوره أن الإمبراطور لم يدعه إلا بعد أن استشعر الخطر على عرشه فرأى التنازل عن شئ ... بدلا من فقد كل شئ ...!

وخرج الإمبراطوران يستقبلان الضيف، ومن معه من الأعوان المخلصين. وتوالت الحفلات واحدة فى إثر أخرى، والإمبراطورة جالسة دائما إلى جوار ضيفها، تهمس إليه وتبتسم له وتريه من ألوان المفاتن مابرعت فيه بائعة الهوى الرصينة فيها من قبل. فى كل يوم فتنة جديدة، وشذى، ومتعة، ونبيذ، يحلم فى أعقابها بوله الإمبراطورة به، وتفضيلها إياه، ويرسم خططا أخرى بارعة يعرضها عليها بعد، لتقتل الإمبراطور الذى تكرهه، وتتزوجه هو .. رجل أحلامها الحبيب ..!

ومرت الأيام .. وكلما اقترب اليوم الذى تشرف فيه الزيارة على الانتهاء، يحاول الرجل أن يبحث عن الفرصة التى يتمهد له فيها مصارعة الإمبراطورة .. المرأة ..!

وبدت له الفرصة سانحة عندما جلست إلى جواره – وحدهما – يشهدان حفلة خاصة أقامتها فى ملعب المدينة الكبير، حيث ألقى بألف من المجرمين العتاة طعما لخمسين رأسا من الوحوش الضارية، قد حبس عنها الطعام لأيام ...

ومال الضيف على مضيفته يهمس :

– ما أعجب هذا الاستعراض الغريب .. وما أضخم ذلك الصراع الجبار .. صراع ينتهى دائما بانتصار الأقوياء .. وهو مايعتمل اليوم فى أعماقى .. أعماقى التى هدتها قوة جمالك الجبار، ويجعلنى أكاد أركع على ركبتى أمام سحره العجيب ...

وابتسمت تيودورا فى دهاء، وهى تنبهه إلى زوجها الذى كان يقترب ..

– انتظر ياصديقى .. فسأمهد الفرصة للحديث منفردين، فى الحفل الذى سيقام لكم فى مساء الغد توديعاً لوفدكم الكبير الكريم، والذى قرر الإمبراطور أن يكون بالغاً حد الروعة، لتظل ذكراه عالقه فى الذهن مدى العمر ..!

وأجاب الرجل وهو يحاول إسكات الذئب فى أعماقه :

– لن أنسى قط روعة الحفل، ولا روعة الحديث ..!

ولم ينس فيتاليان روعة الاثنين معاً .. لأنه لم يجد الوقت لينسى بعد ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى الليلة التالية شهدت قاعات القصر صخبا لم يسبق أن شهد مثله القصر قط... الرقص فى كل ركن، والطعام من كل لون، والخمر، والنبيذ، والغناء، والنساء أيضا .. إنها فى الحق ليلة العمر ..!

ومرت ساعات الليل طويلة على فيتاليان فى انتظار الفرصة التى ينفرد بها بالإمبراطورة ليحدثها لأول مرة حديث الحب. ولمحها آخر الأمر تأخذ بذراع الإمبراطور الذى ظهر جليا أن التعب قد أخذ منه، لتقوده إلى فراشه وتعود. ولم يسمع الرجل اعتذار الإمبراطور، فقد كان فى شغل عنه بغمزة العين التى أرسلتها إليه الإمبراطورة. وأدرك أنها تعد العدة للقاء .. بعد أن ينام الإمبراطور..

واستمرت كئوس الخمر تدير الرؤوس، واقترب الليل من فجره، وانسحب رجال القصر تاركين مكانهم لمن أرسلتهم الإمبراطورة من حرس القصر ..

وطلع الصبح على القاعة الذهبية الكبير، وقد ضمت بين حناياها جثثا ممزقة وأشلاء غارقة فى مزيج من الخمر، والنبيذ، والدماء ..!

وانتهى كل شئ .. ولم يعد فيتاليان إلى قبيلته. ولا أحد آخر من أتباعه الأوفياء..

وصفق الإمبراطور للإمبراطورة ... فقد أعجبه إبداعها فى فن الإخراج ..!

★ ★ ★

واستمرت عجلة الزمن تدور ..

ومع كل دورة من دوراتها تكسب تيودورا جولة لتخسر جولات. فالشعب الذى أبغضها أولا ثم أحبها وقدرها، عاد يبغضها من جديد كما لم يبغض أى ملكة من قبل على الإطلاق.

فقد كانت تيودورا لاتزال مستمرة فى انتقامها الرهيب. وكان الدور فى هذه المرة قد حان على الشعب..

وبدأت تيودورا تلعب دورها الجديد بإتقان. ووجد الشعب نفسه مثقلا تحت أعباء هائلة ضخمة من الضرائب لاتكاد تعد ...

وبدأ الهمس يعلو. ثم راح الهمس يتطور ليصير هديرا .. هدير صاخب مجنون على أتم استعداد ليحطم كل ما أمامه من عقبات وقيود، إذا هو وجد أول فرصه للانفجار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن هذه الفرصة ما أسرع ماجاءت بعد ...

وطلع صباح ذات يوم على الشعب بأن تيودورا قد عملت على إصدرار أمر بتخفيض مايصرف من القمح للشعب إلى الثلث ...

ولم يكن لدى الشعب أى استعداد لأن يجوع ليتخم الآخرون ..!

وشهد الحراس فى الصباح التالى تمثالى الإمبراطورين المقامين أمام القصر وقد لطخا بالطين.

وبدا للجميع، وخاصة كل من لهم صلة بالإمبراطورة .. أن حزبا معينا وراء ذلك الهجوم. فقد كان فى الأعماق من نفس تيودورا كراهية ضخمة نحو كل من يمت بصلة إلى حزب معين من الحزبين اللذين كانا يسيطران على كل شئون البلاد ... وكان الحزبان هما الفريق الأخضر، والفريق الأزرق ... وهما فريقان بدأت نواتهما فى الملعب الكبير، حيث كان اللاعبون ينقسمون إلى قسمين يرتدى كل منهما واحدا من هذين اللونين. ومع اشتداد التنافس بين اللاعبين تشكلت منافسة أخرى بين الجماهير، فانضم كل قسم منها إلى جانب ... وأصبحت تلك الجماهير نفسها منقسمة إلى فريقين .. الفريق الأزرق، والفريق الأخضر .. وتحولا بعد ذلك إلى حزبين كبيرين انقسم بينهما الشعب كله ..

وكانت تيودورا وهى بعد فى ملعب الدببة واحدة من الفريق الأزرق .. فكانت كراهيتها بالغة لكل مايمت إلى الفريق الأخضر بصلة ... خاصة بعد أن خذل الخضر أمها يوم كانت من أعضاء ذلك الفريق، واستنجدت بهم بعد موت زوجها فما نجدها منهم أحد على الإطلاق.

وظلت عقدة الانتقام من الخضر تسيطر على كل أعماق تيودورا ...

وظلت طول أيام حكمها تناصر الزرق وتحميهم وتؤيدهم وتتستر على كل مايأتون من جرائم مظلومين كانوا أو ظالمين ...

ووقف كل من الخضر والزرق آخر الأمر وجها لوجه ... كل منهما على استعداد لأن يضرب الآخر بقوة .. وبقوة هائلة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانطلق الزرق وهم مستندين إلى حماية الإمبراطورة لهم، يقتلون ويسرقون ينهبون ويرتكبون سلاسل من الجرائم ضد الخضر وكل من ينتمى إليهم ...

وضاق الخضر بالعدوان الذى راحوا يقاسون آثاره، وما من أحد يحاول أن يحميهم من الزرق الذين لم يعد يقف فى وجههم أحد من المسئولين، إذ كانوا قد انضموا تلقائيا إلى الزرق حيث الجانب الأقوى الذى تحميه الإمبراطورة ...

ورفع الخضر شكاياتهم إلى الإمبرطور ...

ولكن الرجل كان عاجزا تماما عن الوقوف فى وجه امرأته .. أو وجه الزرق ومن يناصرهم من ضباط القصر والجيش ..

ووسط هذا الجو الصاخب .. انطلق الخضر يلطخون تماثالى الإمبراطورين بالطين .. وخاصة بعد أن انتشرت أنباء تخفيض كميات القمح بأمر الإمبراطورة.

وعرف الجميع أن وراء الأكمة ماوراءها..

وارتفعت صيحات صاخبة فى كل مكان :

«اللعنة على الإمبراطور .. والحرق للعاهرة ..»

وكانت هذه أول مرة يرتفع فيها هذا الهتاف فى القسطنطينية ..

غير أن المدينة الصاخبة شهدت هتافات أخرى من نوع أشد قسوة، توجه إلى الإمبراطور نفسه وهو يجلس فى مقصورته بصدر الميدان الكبير .. تماما كما سمعها وهو فى طريقه ليشهد الحفل قبل أن ينطلق فى رعشة إلى المقصورة ..

وكان الأمر شديد الغرابة حقا .. لم يحدث مثله من قبل قط ..

وكان الخضر قد تجمعوا وفى الأذهان منهم أن لابد من وضع حد لكل المهازل التى يلاقونها من الزرق ومن ورائهم الإمبراطورة تيودورا ورجال الحكم الذين يتنافسون فى عداوتهم للخضر من أجل إرضائها. وكانت مقدمات الثورة قد بدأت والإمبراطور لايزال فى الطريق إلى الملعب الكبير، ثم ازدادت ثورة الخضر وتجمعهم بعد أن بدأ الحفل وجلس جستنيان فى صدر المقصورة. ولم يكد السياق يبدأ حتى بدأت الأصوات ترتفع ثم تتحول إلى صيحات منكرة راحت تزداد صخبا حتى بلغ بها الأمر إلى الصراخ والهتاف باللعنة على الإمبراطور .. والحرق للعاهرة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الناحية المقابلة ارتفعت أصوات أخرى ترد فى ضجيج على الخضر وتهتف «يالصوص .. ياخونة .. يايهود .. يا أعداء الله اخرسوا السنتكم».

وكان هؤلاء هم الزرق.

ملأ الضجيج الملعب الكبير. واختلط الحابل بالنابل .. ولم يعد يفهم من الأصوات المختلطة شئ ..

وفجأة .. تجمع الخضر وهم يوجهون الاتهامات إلى الإمبراطور والإمبراطورة والزرق جميعاً. وغادروا المكان منسحبين ..

وكان فى ذلك الانسحاب أكبر إهانة للإمبراطور .. لأن من يدخل الملعب يجب الا يخرج منه إلا بعد خروج الإمبراطور.

وكان لابد أن يحدث شئ ..

انسحب جستنيان ليصدر أمره بعد أن وصل إلى القصر بإعدام جميع المشرفين على شئون الملعب الكبير ..

ولكن الأمر لم يزد الموقف سوى سوءا على سوء ..

فقد كان بين من أعدمهم الإمبراطور عدد ممن كانوا ينضمون إلى الفريق الأزرق. وكان فى إعدامهم الكفاية ليتحد الجانبان. ولتأخذ الثورة شكلا جديدا ضد جستنيان وتيودرا .. وكل رجال الحكم .. خاصة بعد أن أحس الزرق تماما كما أحس الخضر بأن قرار تخفيض القمح ينطبق على الجميع.

ولم تكن الامبراطورة تدرى من كل مايحدث شيئاً .. فقد كانت فى ذلك الوقت ترقد فى سبات عميق ألقى بها إليه داء السرطان.

ولم يكن لدى الامبراطور من ينصحه بعد ..

وأصدر جستنيان أوامره إلى بليزريوس قائد الحرس الإمبراطورى المؤلف من الجنود الأجانب ليضربوا ثورة الشعب.

وانطلق بليزريوس، وجنوده يطاردون الناس ويقتلونهم بلا تمييز أو تفريق ... ولم يهتموا لأحد قط، حتى لهؤلاء الرهبان الذين كانوا قد خرجوا فى صف طويل

من الكنيسة، حاملين الصلبان فى محاولة لتهدئة الجماهير .. فعندما وجد الجنود صف الرهبان أمامهم انطلقوا نحوهم كالوحوش وأعملوا فيهم الضرب والتقتيل.

وجن جنون الشعب ... وتحولت شوارع القسطنطينية إلى ميدان بشع للقتال ... وراحت الجماهير تفعل كل مايمكن أن يعبر عن ثورتها.. تنهب وتحطم وتحرق وتملأ العاصمة تدميرا.

وتحولت قصور الحكام ومبانى الحكومة فى القسطنطينية شعلة من النيران ...

وبدأ اليأس يدب فى نفس جستنيان ...

وانطلقت الجموع الهادرة إلى القصر الإمبراطورى ذات يوم فى محاولة أخيرة للقضاء على العرش.

وسمع جستنيان الهتاف فأسرع ليختفى فى إحدى غرف القصر الداخلية ...

وأما تيودورا .. فكانت لاتزال تستلقى فى سباتها الذى ألقى بها إليه داء السرطان..

واستمرت ضجة الشعب ... واقتحمت الجماهير أسوار القصر تبحث عن الإمبراطور .. وعن المرأة الذى لعبت بالشعب وحرمته من الطعام .. والخبز .. وكانت أوامرها بتخفيض مايصرف من القمح إلى الثلث أول شرارات ثورة الغضب «خضر وزرق».

واقترب الضجيج من الجناح الخاص ..

وانتبهت تيودورا آخر الأمر على الهدير الصاخب. وأدارت عينيها حولها .. فما وجدت سوى وصيفتها العجوز ...

وهمست الطاغية فى صوت مبحوح :

– ماهذا الضجيج !؟

وأجابت الوصيفة :

– هو الشعب الخائن يامولاتى .. جاء يطلب الطعام !

وهمست تيودورا من جديد :

– ولكن .. الزرق .. لماذا لم يبيدوهم عن آخرهم ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترددت الوصيفة وهى تجيب :

– حتى هؤلاء الذين احتضنتهم يامولاتى ووقفت إلى جوارهم فى كل وقت انقلبوا علينا واشتركوا جميعا فى الهتاف من أجل الخبز ...!

وابتسمت تيودورا فى ذهول واتكأت على فراشها لتنهض ، ولتخرج إلى الشعب وتنصت إلى شكواه ...

وأطل الشعب الثائر فوجد الإمبراطورة المريضة تطل عليه من الشرفة، وقد استندت على ذراع وصيفتها، وأحد رجال القصر. وتراجع زعماء الثورة خطوات إلى الوراء، وقد فتحوا عيونهم من الدهشة لتلك الجرأة التى لم يتوقعوها على الإطلاق...

وسمعت الجماهير صوت الإمبراطورة ..

– ماذا تريدون ..؟

وارتفع من بينهم صوت :

– الخبز .. نريد الخبز ونريد المساواة بين الجميع ..!

وهزت تيودورا رأسها فى هدوء :

– أهذا كل شئ ..!؟ سيكون لكم الخبر، وشئ آخر أكثر من المساواة، هو حفل خاص نقيمه للشعب فى الملعب الكبير ...

وفى لحظة، كانت الألسن التى هتفت بسقوط الإمبراطورة العاهرة، هى بعينها التى تهتف بحياة الإمبراطورة الكريمة التقية .. حبيبة الجماهير.

وفى اليوم التالى كانت الجماهير تغنى وترقص وهى فى طريقها إلى الميدان الكبير حيث الحفل الفخم الذى تقيمه الإمبراطورة .. من أجل رفاهية الشعب ..!

وهناك .. فى المقصورة بصدر المكان، جلس جستنيان، وإلى جواره تيودورا المريضة، يشاهدان البرنامج الباهر الذى أمرت بإعداده، ويتأملان الشعب وهو يلتهم فى شره كل مايقدم إليه من طعام وشراب.

وانتصف الليل. واقترب الحفل من نهايته. وانسحب الإمبراطوران إلى القصر فى موكب ضخم رائع، تصحبه هتافات الجماهير التى أبت إلا أن تستمر فى صخبها حتى ينتهى الحفل الذى لم يشهدوا مثله من قبل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان بعد ذلك العرض الأخير ..

وعلا صوت .. افسحوا الطريق لأروع ما احتواه البرنامج العجيب. إنها المفاجأة الكبرى ...!

واشرأبت أعناق الجميع. وتقدم إلى وسط الميدان قائد الحرس، وفى ردائه المزركش، ومن ورائه فصائل رماه السهام فى أزهى الحلل..

ومرة أخرى ارتفع الهتاف بحياة الإمبراطور ... حبيب الشعب، والإمبراطورة معبودة الجماهير ..!

وعادوا يشرئبون بالأعناق..

واستمر الجنود يتشكلون فى أقواس تواجه جوانب الميدان كله. وبدأ العرض. وانهالت السهام القاتلة على الشعب الأعزل المبهوت ...!

ولم يهرب من الميدان أحد .. وجرت الدماء أنهارا فى طرقات المدينة. مدينة النور التى شهدت فى ليلة واحدة مصرع ثلاثين ألفا من السكان ..!

أما فى القصر ..

فقد جلست تيودورا على سرير مرضها تبتسم. لقد عرفت كيف تنتقم من الشعب الذى سخر منها يوما. وكان انتقامها رائعا رهيبا .. عاش ذكره خالدا على الأزمان ..!

وأغلق فم الشعب. وانهارت يده. ولكن كان ثمة هناك يد الله .. الخالدة أبدا ..!

وظلت تيودورا تعيش وفوق صدرها كابوس .. كابوس هائل ضخم يزعج منها فجر كل يوم جديد. كان كابوس المرض الثقيل الذى لم تعمل له قط يوم أن كانت الدنيا مغامرة رحبة، أما اليوم، فلا شئ غير العذاب الدائم، والموت ...!

واستمر السرطان يسرى فى دم الطاغية فلا تستطيع له صدا. وراحت تضرب بقدمها الأرض فى رعب. وتصلى، ولكن اليد الخالدة كان لابد أن تضرب وإن تركت لها مع كل صحوة أملا قصيرا .. يهرب سراعا كخيط من السحاب الهارب وسط الغبشة المرتعشة من ظلمات الغروب ..!



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوكريشيا بورجيا
الذئب في الأعماق

لم يكن فى روما شئ مقدس على الإطلاق ... حتى الكرادلة ورجال الكهنوت .. والبابوات أيضاً، ماحسبوا لأثوابهم الكهنوتية حسابا قط أكثر مما يحسب لأى نوع من الزينة تتطلبها مراتبهم. فالصيد، والمغامرة، والفساد، والرشوة، والتآمر، والانتقام، كلها من أعمال كل يوم .. حيث لايطلع على روما صباح إلا وجثث عدد من الرجال تستلقى فى الأزقة، بينما عدد آخر من الحجاج وسفراء الدول قد خرج عليهم قطاع الطرق أثناء الليل فجردوهم من ملابسهم وأموالهم، وعدد من النساء قد هوجمن فى الشوارع والبيوت، ليلقى بهن بعد ذلك وقد فقدن كل شئ .. حتى الشرف ..!

ولم تكن الفتاة ذات الأعوام الأربعة عشر التى وقفت فى شرفة القصر البابوى بالفاتيكان عام ١٤٩٤ تجهل شيئا من كل ذلك الذى يحيط بالمجتمع الرومانى، ولا كانت تجهل شيئا من كل مايدور فى القصر البابوى، ولا فى قصور الكرادلة. فمنذ أعوام قليلة جدا، وهى بعد فى العاشرة، خرجت من دير النساء حيث كانت تتلقى تعليمها مع أخريات فى مثل سنها، ممن كان آباؤهن يستطيعون أداء نفقات التعليم. وانتقلت من بيت أرديانا إبنه عم البابا اسكندر السادس، إلى قصره البابوى، وهى تعلم أنها قد وهبت كل مايستطيع الحظ الطيب أن يهبها إياه ماعدا البنوة الشرعية .. من زوجين باركت الكنيسة مراسيم علاقتهما.

وراحت لوكريشيا تطل إلى وراء .. إلى بضعة أعوام مضت، حين لم تكن هى نفسها قد ولدت بعد، وكان أبوها رود ريجو بورجيا لايزال واحدا من الكرادلة أمراء الكنيسة المقدسة، على عهد عمه البابا كالكسنس الثالث.

ولم يكن رود ريجو فى الواقع ليستحق أن يكون كاردينالا قط. غير أنه وجد الفرصة سانحة حين تولى عمه عرش البابوية، فانطلق قادما من أسبانيا إلى مقر الفاتيكان، ليصبح بعد عام واحد نائبا لقاضى القضاة، ورئيسا للحكومة البابوية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الجميع يتحدثون عن الكاردينال الشاب. صاحب الوجه الوسيم، والطبع الحلو والعشق الحار، الذى يجعل من الصعب على أى امرأة أن تقاوم حبه، ولم يكن رود ريجو يجد مايمنعه قط من أن يكون له بضعة نساء، فجو التساهل الأخلاقى والانحلال الذى كان يسيطر على المجتمع الإيطالى فى ذلك الوقت من عصر النهضة، كان يتيح حتى لرجال الدين والقساوسة التمتع بالنساء. ولم يكن يرى نفسه أكثر تقى من كل أهل روما وقساوستها، فقرر أن يستمتع بكل النعم التى منحهم كما منحه إياها الله سبحانه. ومن ثمرات تلك النعم، ولد للكردينال الشاب ولدان.. وطفل هو بدرولويس وطفلة هى جيرولاما، جاءت له بهما خليلة رومانية اسمها «روزا» كانت حسناء من أسرة طيبة، تعيش مع زوجها الذى كان يشغل وظيفة فى الديوان الرسولى، وتغاضى فى بساطة غريبة عن العلاقة الغرامية التى لحظها بين زوجته والكردينال الشاب، الذى غمره بكل مايسيل له اللعاب من صنوف الرعاية والعطاء.

على أن رود ريجو لم يلبث أن هجر فتاته بعد أن ألم به مرض خفيف، قال طبيبه وهو يشخصه أنه أصيب به لأنه لم ينم بمفرده. ولم يكد قاضى القضاة البابوى ينهض من رقدته، حتى بدأ ينشئ صلة نسائية جديدة مع «فانوتسا كاتانى» التى أصبحت غرامه الكبير، والتى لم يستطع أن ينساها قط، فظل يعيش معها سنوات لايكاد يهجرها خلالها حتى يعود إليها، ولايكاد يزوجها برجل آخر ويدفع مهرها حتى يغار عليها، فيخفيها فى قصر بعيدا عن الأنظار، وعندما يموت زوجها يجهد فى العثور على زوج آخر، لايثيره أن تنجب منه مادامت لاتضن عليه كلما حن إليها بالذهاب إلى المنزل الذى أعده لها بجوار القصر، ليلتقيا فيه دون أن يهتما بأن يجعلا من علاقتهما سرا فى ذلك المجتمع الرومانى الذى أصبح يدعو هذه المرأة رغم أزواجها بفانوتسا بورجيا ..!

ومن خلال تلك العلاقة الوطيدة جاءت لوكريشيا ... كما جاء قبلها من نفس الأم: جان وسيزار، وجاء بعدها : جيوفرى ..

ومع هذا فما اهتم مجتمع روما، بل وما اهتم العرش البابوى نفسه، بكل تلك العلاقات للكردينال. ولم يكن هناك مايمنع من أن ينصب قسا. فقد كان الناس فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك العهد ينظرون إلى خطيئاته الجنسية على أنها آثام مرذولة حسب قوانين الكنيسة، ولكنها من الصفات التى يمكن التسامح فيها والعفو عنها. من أجل ذلك بدا كأن أحداً لايكاد يذكر عن هذه الأخلاق شيئا، حين انعقد المجلس المقدس، ليختار خلفا للبابا «إنوسنت الثانى» فاختار بإجماع الآراء رود ريجو بورجيا، الذى أجاب عندما سئل أى إسم يريد أن يتسمى به وهو بابا فقال : «الإسكندر الذى لايقهر» ..!

كل ذلك تذكرته لوكريشيا، تماما كما تذكر تلك السنوات التى قضتها فى بيت «أدريا نادى ميلا أورسينى» إبنة عم رود ريجو، والتى عهد إليها بتربيتها. فقد كانت أدريانا سيدة رقيقة جميلة ذكية، ترملت وهى فى سن مبكرة بعد أن أنجبت من زوجها الإقطاعى الكبير ولدا سمته إورسينى، ليحمل اسم أجداده الإيطاليين، رغم تمسكها هى نفسها بأصلها الأسبانى الذى كانت تعتبره فضيلة عظمى. وعندما تلقت أدريانا من ابن عمها رود ريجو تلك الابنة الصغيرة، راحت تعتنى بها وترعاها على طريقتها الأسبانية، ثم بعثت بها إلى راهبات دير «القديس سكستوس» فى وادى الأبنين على مقربة من روما، حيث تلقت هناك تربية دينية عميقة، وغرست الراهبات فى نفسها روح المحبة والإخلاص، وقمن على تعليمها اللغات الإيطالية والأسبانية والفرنسية واللاتينية، إلى جانب ألوان من الفنون بينها الرسم والموسيقى.

إلا أنه كان من الصعب على راهبات الدير أن يضعن الأسس الأخلاقية لطفلة كانت عروقها كلها ترتبط بآل بورجيا، كما كان كل كيانها يتنافر مع التعاليم التى يحاولن غرسها فى أعماق الطفلة. بل إن أدريانا نفسها لم تكن قط بالمربية المثالية التى تستطيع أن تساعد الراهبات فى مهمتهن .. فقد كان فى الأعماق منها، ورغم نقاب الجد والصرامة والوقار، نفس فاسدة مليئة بكل ألوان الرياء والنفاق، المغلفة باللباقة والرقة فى السلوك الاجتماعى.

ولم تكن لوكريشيا تعلم حتى ذلك الوقت شيئاً عن علاقات أبيها. وما كانت تدرى أنه هجر أمها واستبدلها بصبية أخرى رائعة فتية.

غير أن الفتاة أدركت كل شىء، عندما أطلت حولها وهى بعد فى العاشرة، لتجد أن عشيقة أبيها لم تكن سوى الصبية الجميلة جوليافارنيسى زوجة الفتى أورسينى ابن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدريانا، والتى تعيش معها فى نفس القصر. وإذا كانت هى نفسها لم تستطع أن تدرك متى بدأت هذه العلاقة بين أبيها رود ريجو وجوليا فارنيسى، إلا أنها أحست مما كان يجرى حولها، أن زواج الفتاة من ابن أدريانا لم يكن سوى ستارا يخفى وراءه تلك العلاقة التى كانت قد توثقت من قبل بينها وبين الكاردينال، الذى لم تكن سنه لتقل فى ذلك الوقت عن السابعة والخمسين!.

على أن الفتاة الصغيرة – وإن لم تكن عيناها قد تفتحا جيدا بعد لمثل هذه الأمور – إلا أنها بدأت تحس بأشياء كثيرة غريبة لم تكن لتخطر لها من قبل. فإن أدريانا مربيتها وراعيتها، لم تجد مايمنع من أن تشجعها على أن تستقبل أصدقاء والدها وأبناءهم، ممن كانوا يزورون قصر أورسينى، دون اهتمام بأن عدداً كبيراً من هؤلاء كانوا شبانا مكتملين جمالا ولباقة ورقة، تملؤهم فتوة ورجولة وحيوية ساخنة.

وازداد إحساس الفتاة وتفتح عينيها، عندما وجدت نفسها، وهى فى الحادية عشر من العمر، قد استدعيت إلى قصر أبيها. وكان الأب قد رأى أن يزوجها وهى فى تلك السن، فخطبها إلى نبيل أسبانى يدعى «الدون سيزونبيو». ولم تكد الفتاة تفتح عينيها جيدا، حتى ألغيت الخطبة، لتعقد من جديد وهى فى الثانية عشرة، على نبيل أسبانى آخر يدعى «الدون جسبارو» .. لم يكن قد تجاوز من السن هو الآخر الخامسة عشرة ..!

وفى تلك السن كانت خياشيم لوكريشيا قد أخذت تتفتح على رائحة المباذل التى يتمرغ فيها والدها، وأخواها الكبيران «دوق جانديا» و«سيزاربورجيا» .. كما أخذت تتفتح أيضا على فكرة قيام أى روابط بين الرجال والنساء.

وإذا كانت الرابطة التى أرادها رود ريجو لابنته قد بدت أول الأمر رابطة زوجية طيبة، كادت تتم .. إلا أنها توقفت عندما وقع الحدث العظيم فى حياة القس رود ريجو عندما جلس على عرش البابوية. ففى نفس اليوم كان أول عمل عائلى قام به البابا «اسكندر السادس» هو إلغاء خطبة أبنته لدون جسبارو، الذى لم يعد قرينا كفؤا لابنة سيد الكنيسة وخليفة بطرس الرسول. ووجد الفتى نفسه مرغما على التنازل عن فتاته نظير ذلك المبلغ الكبير من المال الذى أرسله إليه البابا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ تلك اللحظة عرفت لوكريشيا أن الخطوبة والزواج لم تكن لهما فى نظر أبيها أية قدسية على الإطلاق. تماما كما عرفت أن تلك النظرة كانت هى نفسها نظرة أخيها الحبيب سيزار إلى ذلك النوع من الروابط .. عندما أحست أنه يريد أن يجعل جمالها شركا من شراكه وهو فى طريقه إلى محاولة فرض سيطرته على شبه الجزيرة الإيطالية، بعد أن خلع عليه أبوه عدداً كبيراً من المناصب الدينية، ثم وجده أهلا دون سائر أبنائه بما أوتى من العزيمة والصرامة، لأن يخوض غمار السياسة الإيطالية فى ذلك العصر الملئ بالعنف. فقد أصبح سيزار وهو يقود الجيوش لتأكيد سلطة البابا واسترداد الولايات البابوية، لايتصور أن يكون لأحد سلطان إلى جانب سلطانه، فكل أمير يجب أن يحنو لسطوته، وكل إمارة يجب أن تدخل تحت رايته .. سواء عنده استطاع أن يفرض هذا السلطان بالحرب أو بالقتل أو بالسم .. أو عن طريق غواية النساء ...

وكان هذا الهدف الأخير هو ما أحست لوكريشيا أن شقيقها يعدها له، وهى بعد فى الرابعة عشرة. فقد لحظ ماتتمتع به من جمال رائع يخلب الألباب بوجهها العذرى، وشعرها الذهبى الطويل، وروحها الخفيف المرح، وقوامها المتزن الرقيق، فأمرها بأن تظهر فى حفلات الفاتيكان لتبهر الأنظار بجمالها وفتنتها.

والواقع أن لوكريشيا لم تجد مايدعوها للاعتراض على الإطلاق. فهى تواقة إلى اجتذاب الأنظار واكتساب الإعجاب. وهى تحمل فى دمائها تلك الطبيعة المرحة والرغبة الفوارة التى ورثتها عن آل بورجيا. وهكذا بدأت الفتاة وهى فى تلك السن تظهر فى جميع حفلات الفاتيكان .. حيث كل شئ صاخب زرى ملئ بالرزايا والعار والهوى المشبوب ..!



لم تكن لوكريشيا تعرف شيئا عن ذلك الفتى «جيوفانى سفورزا» دوق بيزارو .. أكثر من أنه واحد من الخطاب العديدين الذين كانوا يروحون ويجيئون مترددين على قصر الفاتيان للسعى لأن يكونوا أزواجا لبنت البابا. وما كانت لتهتم قط لكل هؤلاء الخطاب، الذين كانوا يمرون على حياتها كمجرد أشخاص عابرين، لاتحس نحو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحدهم باندفاع أو رغبة، ولاتعرف واحدا منهم فتتمسك بأن تكون له. كل ماكانت تعرفه أن الأمر أصبح عند أبيها البابا، لايزيد عن مجرد صفقة سياسية، تطرح على بساط التشاور، وتتدخل فيها العوامل السياسية، التى أخذت تملى على الإسكندر السادس خططه ومشاريعه فى تقرير مصير الإبنة التى اعترف بها هى وإخوتها إبناء له، وإن كان الجميع يعرفون أنهم أبناء غير شرعيين ..

ووقفت لوكريشيا فى شرفة القصر، تطل إلى المواكب التى تروح وتجئ إلى جوار الأسوار. وتختلس النظر بين الحين والحين إلى رفيقتها جوليا، عشيقة البابا، والتى راحت تصاحبها فى كل وقت طوال إقامتها فى الفاتيكان.

وفجأة، قالت لوكريشيا فى بساطه :

– جوليا .. ما الذى تعرفينه عن ذلك الفتى جيوفانى !؟

واطلت إليها جوليا .. ثم أجابتها هامسة :

– أظنه هو العريس المنتظر ... يا لوكريشيا .. فهو فى نظر البابا يمثل موقعا حربيا رائعا أكثر منه رجلا من لحم ودم ..!

وكان هذا هو الواقع.

فذات صباح من شهر يونيو ١٤٩٣، فتحت روما عينيها على آلاف من الأعلام تحمل رسم الأسد شعار آل سفورزا، إلى جانب رسم الثور شعار آل بورجيا. وعرف الناس أن جيوفانى سفورزا خطيب لوكريشيا ابنة البابا فى طريقه ذلك اليوم إلى العاصمة، لتتم مراسم الزواج الكبير. وفى كل مكان، ارتفعت هتافات الجماهير، ودوت الأبواق وقرعت الطبول، بينما موكب الأمير يجتاز أبواب القصر البابوى، والفتى ينظر يمينه ويساره فى رشاقة وخيلاء بردائه الفاخر وأوسمته التى راحت تتلألأ لتبهر أبصار لوكريشيا، التى كانت تطل على الموكب وهو يمر من تحت شرفة قصر «سانتاماريا» فى «بورتيكو» حيث كانت تقيم، لتكون قريبة من أبيها بابا الفاتيكان..

ولم يكن الفتى برغم ذلك يجهل أن قبول البابا مصاهرته لم تكن لسبب أكثر من اعتباره موقعا حربيا وغنما سياسيا يهم البابا الحصول عليه. فقد سعى الكردينال

«اسكانيو سفورزا» الذى كان أكبر عون للإسكندر السادس، لعقد تحالف بينه وبين أخيه «لودفيكو سفورزا» طاغية ميلان، ضد آل أورسيني أقوى أمراء روما الإقطاعيين، وحماتهم آل أراجون ملوك نابولى. ورأى توطيدا لهذا التحالف أن تتزوج لوكريشيا من ابن أخية «جيوفاني سفورزا» أمير بيزارو. من هنا كان جيوفاني سفورزا يعلم جيدا أن زواجه لايزيد عن معاهدة سياسية خالصة. تماما كما كانت لوكريشيا نفسها تعلم السر نفسه. .. خاصة بعد أن راحت صديقتها جوليا وراعيتها أدريانا، يفهمانها أن البابا إنما يهدف إلى الحصول على أى مصالح يمكن الحصول عليها، وأن هذه المصالح قد تتحول وتتغير، وعندئذ يصبح الزواج نفسه فى غير حاجة إلى الاستمرار... بل لقد استمعت وهى تفتح عينها فى دهشة إلى أدريانا وهى تنصحها بألا تتمادى فى حب زوجها أو تشرع فى الإخلاص له، لأن هذا قد يعود بالمتاعب على أبيها، وربما تسبب فى مصاعب يعانيها فى سياسته ومصالح العرش البابوى!!

وجاءت ليلة الزفاف ..

وكانت ليلة غريبة مريبة صاخبة ...

فهناك ... فى جناح البابا الخاص بالقصر البابوى .. راحت أجساد أربعين من أجمل نساء روما، بصدورهن العارية ونحورهن البضة .. تحتك وتضطرب مرتعشة فاجرة بين جسوم أبرز رجالات المجتمع الرومانى الصاخب، من أمراء وسفراء ووزراء وشيوخ..وقسس وكرادلة.. بينما الضجيج الصاخب الذى تبعثه الخمر يثير كل مافى النفوس من رغبات عربيدة شقية، ويهز كل مافى الأجساد من نشوة سفيهة داعرة.

ولم تكن لوكريشيا، بأقل من الجميع تأثراً بذلك الجو الفاجر الذى أحاط بها منذ تلك اللحظة التى ركعت فيها فى الكنيسة إلى جوار الرجل الذى قدر لها أن يكون زوجها. فها هو الليل يمضى، وتباشير الفجر تزحف، ورائحة الخمور والطيب تختلط بشذى الأجساد الثائرة، وكل شئ.. يمضى بلا قيود ولاحدود . أجل .. لم يكن هناك على الإطلاق سوى اللهب العربيد الذى يدير كل الرءوس والأجساد ... حتى جسد البابا الذى لم يجد مايمنعه من أن يجلس على المائدة الفاجرة وهو يضم بين ذراعيه محظيته جوليا صديقة العروس ..!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحاولت لوكريشيا أول الأمر أن تخفف من حدة الليلة العارمة وسخونتها، عن صدر فتاها الذى جلس إلى جوارها ورأسه يدور كدوامة. غير أنها لحظت تلك الابتسامة الباهتة الباردة التى كانت تملأ وجهه كله، فارتدت عنه وهى تهز كتفيها، وقد تذكرت أن ذلك الزواج لم يكن أكثر من صفقة تجارية وحسب ..

فلم يكد الليل يمضى حتى كانت هى نفسها قد نفضت كل القيود كما فعل الآخرون، وألقت بنفسها فى خضم البحر الماجن الفاجر الذى وجدت الكل غارقين فيه. ودفعت من على رأسها تاج العرس لتندفع بين أذرع كل من وجد الفرصة ليكون قريبا منها فى خلال حلقات الرقص الأسبانى الخليع الذى انطلق عارما مع نغمات الموسيقى الصاخبة ..

وبدا كأن الفتى يكاد ينفجر ...

غير أن غيظه فى تلك الساعات لم يكن قط بأكثر من الغيظ الذى كان يقتله وهو يراها قد انحطت مع الفجر، وبعد انقضاء الحفل الصاخب، على نفس السرير الذى اعتادت أن تنام عليه قبل أن تصبح زوجته .. ولم يكن أمام الفتى الثائر إلا أن يخرج وحده متسكعا فى الطريق .. ليمضى بعد ذلك إلى حانات المدينة ومواخيرها . يطفئ بين خمرها ونسائها، تلك الليلة وليال أخرى بعدها كثيرة، نار الغيظ والشك الذى ملأ منه الأعماق ..!

على أن المهزلة كان لابد أن تستمر... فما كانت الصفقة قد أتت ثمراتها حتى الآن...

فجيوفانى سفورزا لم يكن قد تمتع بعد بمكانه الجديد فى المجتمع الرومانى كزوج لابنة البابا...

ولوكريشيا لم تكن قد عرفت بعد - وهى لاتزال فى قصر سانتا ماريا بالقرب من القصر البابوى - معنى الاستقرار الحقيقى فى بيت واحد هادئ تكون هى أميرته وصاحبة الأمر والنهى فيه.

والبابا الإسكندر نفسه .. لم يكن قد انتهى بعد من الحصول على كل المصالح التى كان يطمح إليها من وراء تحالفه مع أقوى أمراء روما الإقطاعيين وملك نابولى وطاغية ميلان ..

لقد كان كل شئ يؤكد أن المهزلة يجب أن تستمر ..!

★ ★ ★

لم تكن لوكريشيا عندما تزوجت من جيوفانى سفورزا، تتصور أن تلك اللامبالاة التى تعامله بها، يمكن أن تتحول ذات يوم إلى حب. فقد كانت تدرك جيدا أن الفتى هو نفسه لم يتزوجها لأنه رآها من قبل أو أعجب بها أو أحس ذات يوم نحوها بأى نوع من العاطفة.. بل كان فى الحقيقة يحاول أن يظهر أمام أمراء ذلك العهد مدى سطوته ونفوذه وانتصاره على الآخرين فى معركة مصاهرة البابا. لهذا فما اهتم قط يوم قيل له قبل عقد القران أن الشرط الأول لهذا العقد هو ألا تبارح لوكريشيا روما إلى مقر دوقية زوجها قبل عام كامل، بقدر ما اهتم وملأته فرحة غامرة عندما ظهر بشكل رسمى لأول مرة فى مجتمع روما باعتباره زوج بنت البابا وكلف بمرافقة السفير الجديد إلى روما.

على أن لوكريشيا وهى تعرف كل ذلك، لم تكن هى الأخرى لتحس بأى شئ من العاطفة نحو الرجل الذى تزوجته. وما كانت تعتبره أول الأمر سوى زوج صورى، من حقها طوال حياتها معه أن تتمتع دونه بكل مايصوره لها دمها الحار وطبيعتها الماجنة. ولم تجد حرجا قط فى أن تندمج فى كل مايقام فى القصر البابوى وخارجه من حفلات صاخبة أو اجتماعات مليئة باللهو والمجون. ولاهى اهتمت أبدا لما أخذ زوجها يبديه من حنق، وهى تتعمد ألا تمنحه من حقوق الزواج بقدر مايجب عليها كزوجة، فى الوقت الذى بدأ هو نفسه يدرك فيه أنه كان بالغ الغباء حين سعى إلى هذا الزواج الذى كشف له مدى التفاهة والانحلال الاجتماعى الذى يعيش فيه آل بورجيا.

ولكن الأمر مع مضى الأيام بدأ يغير من نظرة كل من لوكريشيا وجيوفانى نحو هذا الزواج، ونحو علاقته بالآخر.

فقد بدأ الضيق والضجر يأخذان بخناق لوكريشيا لطول احتباسها فى القصر، خاصة بعد أن انتشر الطاعون فى روما، وأصبح محرما عليها أن تخرج إلى الطريق .. كما أنها بدأت تحس شيئا آخر يثير فى نفسها لأول مرة شعورا بالخجل والألم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما راحت تسمع بنفسها همسات الناس من رجال ونساء حول نشأتها ووجودها غير الشرعى، وازداد ذلك الشعور بها يوم فوجئت ذات يوم وهى تجلس فى شرفة القصر ومعها محظية أبيها، فإذا بعدد من الفقراء الذين طالما جاعوا من أجل أن يتخم الآخرون، يتجمعون تحت الشرفة، ويشيرون إليهما، ويقذفونهما بأقبح أنواع الشتائم والإهانات ...

فى ذلك اليوم بالذات أحست لوكريشيا أنها تعيش فى جو ملئ بالتفاهة والفساد، وبدأت تميل إلى أن تجرب لونا آخر من حياة الاستقرار، وتمنت فى كثير من الشوق أن تنتقل مع زوجها إلى ولايته حيث تعيش فى بيزارو كأميرة ... بعيداً عن خلايا الجواسيس والعيون والمؤامرات التى يغرق فيها قصر البابوية، وبدأت لأول مرة تقول لصاحبتها فى صراحة عارية : إننى أحس كأن روما سجنى ...!

وراحت لوكريشيا بالفعل تتقرب من زوجها، وتحاول أن تسترضيه، فى الوقت الذى كان هو نفسه قد بدأ يعمل من أجل الهرب وحده من روما ... بعد أن كره كل شئ فيها ... حياته، وزوجته، وصهره، وعدوى الوباء الذى انتشر فى كل مكان ...

ولم يكن هذا هو كل مايدفعه إلى الهرب بعيدا عن روما ... فقد كان ثمة شئ آخر أيضا ... هو إحساسه بأن الصفقة السياسية التى كانت تربطه بالبابا قد بدأت تنهار، فى خلال جو الاضطراب السياسى والصراع الذى يغير الموازين التى تربط بين الفاتيكان وأمراء نابولى وميلان. ومن خلال المخاوف التى سيطرت على رأس جيوفانى، كتب إلى عمه لودفيكو يقول له :«إنى فى هذا الموقف الذى أجد نفسى فيه، لأفضل أن آكل من الحشائش الجافة التى أدوس عليها بقدمى، عن الاستمرار فى مثل هذه المصاهرة».

وذات يوم ... فوجئت لوكريشيا بزوجها وقد اختفى تماما عن القصر. وعرفت بعد أيام أنه هرب من روما إلى ولايته، وقد قرر ألا يعود ..!

وجن جنون لوكريشيا ... فما كانت تتصور أن الحب الذى بدأ يتقد فى صدرها نحو جيوفانى .. يمكن أن يقابله ذلك الصدود العارم والهرب السريع.

واعتملت فى الأعماق منها اضطرابات صاخبة يغذيها الغيظ والحنق والخوف من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفضيحة والعار، ويطفئ جذوتها فى الوقت نفسه ذلك الشعور الكبير بالرغبة والحب الذى كان قد استولى منها على القلب والعقل والأعصاب ...!

ولم تكن لوكريشيا وحدها هى التى تمنت على زوجها أن يعود ... فقد كان البابا نفسه فى حيرة من الأمر ... وقد كان يحس أن الصفقة لم تكن قد آتت كل ثمراتها بعد، مع الصراع الذى كان لايزال يخوضه فى خضم المنازعات والحروب التى كان ولده سيزار لايزال يواصل بها محاولات بسط السلطان البابوى على الولايات الخارجة على الفاتيكان.

وراحت محاولات جديدة تجرى لإقناع الزوج الهارب، سواء بالوعد أو الوعيد، للعودة إلى روما. ولكن كل هذه المحاولات ذهبت عبثا مع عناد الفتى الذى لم يتصور كيف يعود من جديد إلى الجو البغيض الذى غرق فيه عدة شهور... والذى لم يقتنع بالعودة آخر الأمر، وبعد مضى الخريف كله، إلا تحت ضغط شديد من أولاد عمه الذين تنازل لهم البابا عن كثير من الحقوق فى سبيل نجاحهم فى هذا الإقناع. وعندما عاد جيوفانى إلى روما كان قد فرض رأيه لأول مرة على زوجته وعلى صهره أيضا، بأن تقيم معه لوكريشيا فى قصره بدوقية بيزارو ...

وكان هذا هو ماحدث بالفعل ...

فذات يوم من شهر مايو ١٤٩٤، انطلق موكب أمير بيزارو، وإلى جواره زوجته لوكريشيا، من ميدان سان بيتر فى الطريق إلى بيزارو، عبر جبال الأبنين. وكان الموكب نفسه يضم والدة لوكريشيا وجوليا فارنيسى خليلة أبيها وأدريانا أورسينى راعيتها ... وبعد عدة أيام وجدت لوكريشيا نفسها تواجه استقبالا حافلا من شعب الإمارة ... الذى خرج كله ليحيى حاكمه دوق سفورزا .. وعروسه ابنة الإسكندر السادس ... بابا الفاتيكان ..!

وبين جدران قصر سفورزا العتيد، وفى حدائق بيزارو الرائعة، عرفت لوكريشيا أهدأ وأسعد أيام حياتها ... حيث وجدت الفرصة أمامها لأول مرة لتعيش فى جو نقى بعيد عن الفساد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تشعر لوكريشيا خلال هذه الفترة قط بأى لون من الضيق؛ وملأت حياة زوجها وحاشيتها وبلاطها أنسا وبهجة وسعادة.

غير أن شهور السعادة فى حياة لوكريشيا لم تكن لتدوم ...

ففجأة ... بدأت لوكريشيا تتلقى بين كل يوم وآخر من أبيها البابا وأخيها سيزار بورجيا رسائل تحاول تحطيم العلاقات بينها وبين زوجها، وتشكو إليها سلوك جيوفانى السياسى الذى يهدد نفوذ البابا وسلطانه، وتؤكد أن تصرفات دوق بيزارو لاتسمح على الإطلاق باستمرار الصفاء والود بينه وبين زوجته، خاصة بعد أن عرف أنه قد انضم إلى الأمراء المناوئين الذين راحوا يتآمرون لعزل البابا.

ولطالما حاولت لوكريشيا أن تدافع عن زوجها فى رسائلها الكثيرة، التى راحت ترد فيها على اتهامات أبيها وأخيها ... وما أكثر الحجج التى راحت تواجههما بها فى مجال الرد على هذه الاتهامات، خاصة عندما حاول أخوها سيزار أن يغدر بزوجها فقال لها فى إحدى رسائله أنها إنما تزوجت بابن غير شرعى لأبيه .. فقد كانت لوكريشيا نفسها، وأبوها وأخواتها أيضا، يعرفون من قبل أن جيوفانى كان ابنا غير شرعى لكونستانزو طاغية بيزارو السابق، ولكنه وهو يعيش فى قصر لم تكن غير الشرعية فيه وصمة عار قط، استطاع أن يرث ولاية أبيه كما ورث جاهه وأمواله. بل لقد أثار عجب لوكريشيا أن يلجأ سيزار إلى التنديد بالمولد غير الشرعى لزوجها فى الوقت الذى يعلمان فيه - هى وأخوها - انهما نفسيهما لم يكونا إلا ولدين غير شرعيين للرجل الذى ماكان ينبغى له قط أن يتصل بالنساء أو ينجب أبناء ...!

ومع هذا فما استطاعت لوكريشيا قط أن تواجه الضغط الذى راح ينقض عليها من أبيها وأخيها. من أجل أن تهجر زوجها وتعود غاضبة إلى روما. ووجدت نفسها آخر الأمر مضطرة للاستسلام لطلباتهما ...

ومن جديد ... استقبل قصر سانتا ماريا، المجاور للقصر البابوى فى الفاتيكان ... لوكريشيا بورجيا، التى كانت قد غادرته من قبل وهى تقسم الا تعود إليه قط ...

وفوجئ الزوج بهرب زوجته وعودتها إلى روما، وملأه الرعب من شبح المؤامرة التى قدر أنها تحاك ضده فى الفاتيكان، خاصة بعد أن تطورت الأحداث وانتصر البابا

وقواته بقيادة سيزار بورجيا على مناوئيه الذين كانوا قد كسبوا المعارك الأولى قبل أن يستسلموا للهزيمة. وأدرك أمير بيزارو أن موقفه من البابا كان قد ازداد سوءا بعد أن عرف أن عمه طاغية ميلان كان قد ارتد عن التحالف مع البابا إلى محالفة شارل الثانى ملك فرنسا، وعمد إلى تحريضه على غزو إيطاليا والاستيلاء على مملكة نابولى اعتمادا على زعم بوراثة عرشها. وخشى جيوفانى أن يكون البابا وراء سفر ابنته إلى روما بعد أن لم تبق حكمة من استمرار الزواج. كل ذلك جعل جيوفانى يسرع إلى روما فى محاولة لتصفية الموقف، ولكى يحاول استرداد ثقة البابا بعرض خدماته السياسية والعسكرية برهانا منه على براءته ...

وفوجئ أمير بيزارو باستقبال بالغ السوء فى الفاتيكان. ثم فوجئ أيضاً بسكرتيره يدخل عليه مضطربا بعد وصوله إلى روما بيومين، وهو يقص عليه مشهداً مثيراً سمع تفاصيله وهو يختفى وراء ستار فى حجرة لوكريشيا، قادته هى نفسها إليه لينصت إلى الحديث الذى يدور بينها وبين أخيها سيزار حول زوجها، وحتى تبلغه ذلك الحديث ليكون على حذر ... وكان الحديث الذى سمعه سكرتير الأمير يحكى كيف أن سيزار قص على أخته تفاصيل مادار بينه وبين زوجها من محاولات لإقناعه بتطليق زوجته، وكيف ظل الزوج متمسكا بزوجته مصرا على رفض أى عرض أو تسوية عرضها عليه. وكيف أنه ضاق بهذا الإصرار فقرر التخلص نهائيا من الزوج .. إما بالحديد أو الزرنيخ ..

وعرف جيوفانى أن لوكريشيا باستدعائها سكرتيره ليستمع إلى هذا الحديث، إنما كانت تلجأ إلى تحذيره حتى يهرب قبل أن يقتل ... فلم يجد أمامه بدا من الهرب بالفعل ... فامتطى جواده وهو يتظاهر بالخروج للنزهة، ثم انطلق به بعيدا عن المدينة التى لم تعد له فيها حياة ...

غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد ... فقد فوجئ الأمير بعد أن عاد إلى بيزارو، بقرار صادر من البابا بتشكيل لجنة مؤلفة من اثنين من كرادلته لبحث إمكان إبطال زواج جيوفانى بلوكريشيا بحجة أن الفتاة ماتزال بكرا عذراء، وأن زوجها كان عنينا غير مكتمل الرجولة .!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان ذلك فى أعقاب زواج أخيها الأصغر جوفرى بسانشيا الابنة غير الشرعية لألفونسو الأرجونى ملك نابولى.

فقد جاءت سانشيا إلى البلاط البابوى، كأزهى وأجمل ماتكون فتاة فى السابعة عشرة، مارست خلال سنى حياتها القصيرة كل ألوان المتاع، وبدت أمام الجميع - بكل الخلاعة والخفة والنعومة التى تتمتع بها - أكثر جمالا وروعة ورونقا وإغراء من لوكريشيا نفسها ..

ولم تكن العروس الجديدة تهتم لأى نوع من الأخلاق، ولا هى حاولت ذات يوم أن تبتعد عن موطن الإغراء. فراحت تلقى شباكها للجميع. دون ما مواربة، ليسقط فى تلك الشباك كل من بقى فيه شئ من الأعصاب من رجال البلاط البابوى ... بل ومن أبناء البابا أنفسهم غير زوجها ... وعلى رأسهم سيزار ....

وبدأت رأس سيزار تدور ... وبدأ يتحول من زياراته لشقيقته لوكريشيا، إلى زيارات يومية لبيت أخيه الصغير ... الذى كان يجد فيه كل الترحيب ... خاصة من سانشيا التى كانت تجد فيه رجولة لاتجد شيئا منها قط فى زوجها الصغير جوفرى، الذى لم يكن قد تمرس بعد فى كل أنواع المتاع التى غرق فيها سيزار إلى الآذان ...

وراحت لوكريشيا ترقب كل ذلك التحول بقلب يملؤه الغيظ وتقتله الغيرة ... ولم تعد تستطيع أحتمال رؤية سيزار هانئا بمنافستها الجديدة... بعد أن كان لها وحدها..!

أما سانشيا، فهى إذا كانت قد تمكنت من الاستيلاء على قلب سيزار، وجسده أيضا ... إلا أنها لم تكن تكتفى بكل ذلك ... ولم تجد مايحول بينها وبين أن تخفف عن الإسكندر السادس نفسه كل متاعب الجسد الثائر والدم الحار ... بينما لم يكن هو نفسه يرى فى الفتاة التى انضمت إلى آل بورجيا بكل كيانها الفائر أكثر من أداة جديدة يمكن الاستفادة بمواهبها ... فى إمتاع الجميع ..

ولم يكن هناك أكثر من تلك المصيبة عند لوكريشيا .. فهاهى منافستها الجديدة لم تكتف بسيزار .. بل استولت إلى جانبه على أبيها الذى كان يجد الدفء كله من قبل بين ذراعيها هى نفسها .. وراح الناس يتهامسون فى كل أنحاء روما على تنافس لوكريشيا وسانشيا على الحظوة لدى البابا ... وإرضاء رغبات سيزار ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنفسه مسكنا فى البورجو، على مدى قليل من قصر أخته، وقد تهيأت له كل الظروف المحيطة بفساد البلاط البابوى، ليتمرد على كل قوانين الطبيعة، وليرشف كل ملذات الشباب مع أخته التى كانت أنوثتها قد تفتحت تماما لتحقق مع أخيها كل ماتشتهيه صبية عارمة الأنوثة فى مثل سنها الفتى.

ومنذ ذلك الوقت بالذات، بدأ الناس يتناقلون حكايات الإثم فى حياة لوكريشيا، ويزيدون فيها حتى اختلطت الحقائق بالخيالات. وراحت الألسنة تتناول حياة لوكريشيا بالحق والباطل، منذ أعلن زواجها لتحقيق الصفقة التى أرادها عليها أبوها، بابا الفاتيكان، والتى اشترك سيزار نفسه فى تدبيرها.

قالت الحكايات إنه إذا كان سيزار لم يحضر المأدبة البابوية التى أقيمت ليلة الزفاف، واختفى عن الأنظار طول النهار والليل، من أجل أن يتفادى رؤية أخته الحبيبة وهى فى ثياب العرس. إلا أنهما لم يجدا مايمنعهما بعد ذلك من أن يرشفا من نفس المنهل، دون أى اعتبار لزوجها دوق سفورزا، الذى كانت تعتبره فى ذلك الوقت زوجا صوريا فحسب.

وفى غفلة من الزوج المخدوع، انطلقت لوكريشيا تنهل الإثم حتى الثمالة، مع شقيقها سيزار .. تماما كما راحت تنهله، ومن وراء سيزار أيضا ... مع شقيقها الآخر جان .. دوق جانديا ...!!

وراح الناس يتحدثون عما كانوا يسمعونه من أن لوكريشيا لم تجد فى الحياة قط مايمنعها أن تتخذ من مقرها هى وأخويها وكرا للغزوات الغرامية والملذات المحرمة والسهرات الماجنة التى لاتعترف بأية قيود على الإطلاق. بل قيل إن لوكريشيا بدأت تلحظ التنافس بين أخويها على التقرب منها، ومحاولة الاستئثار بحظوتها، ومواصلة العلاقات الآثمة معها، فراحت تعمل على إضرام نار ذلك التنافس، واستغلاله من أجل الحصول على رغباتها منهما، واستعماله فى الوقت المناسب سلاحا تدفع به عن نفسها كل مايمكن أن يصيبها من أى منهما.

واستمر لهيب التنافس بين الاشتعال والانزواء أمدا، حتى جاء الوقت الذى أدى إلى تعقيد الأمور بشكل مثير ... بدخول منافس جديد ...!

وفجأة، ارتفعت همسات الناس إلى حكايات يتنادرون بها فى كل مكان .. فقد وصل فى ذلك الوقت إلى روما جان دوق جانديا، تاركا زوجته وولده الطفل فى أسبانيا ليجد متعة جديدة تعوضه كل شئ بين جدران القصر البابوى فى الفاتيكان...

وراحت الغيرة العمياء تلعب دورها جيدا بين كل أفراد أسرة بورجيا .. وتحول القصر الذى كان يضج باللهو والمرح إلى مضمار يتبادل فيه الجميع أقصى أنواع الحقد والبغض والكراهية ...

وكان لابد أن يحدث شئ ...

وكان الذى حدث هو مصرع جان دوق جانديا فى الظلام ... دون أن يعرف أحد من القاتل ...

وراح الناس كلهم يتندرون بالحادث ويتناقلون تفاصيله فى سخرية غامرة ... فأما الذين تناولوه من الجانب السياسى فقالوا إن الأسرة البابوية كانت قد تحولت إلى عرين من الضوارى التى جردت من كل عاطفة بشرية.

وكان من بين أسباب الصراع بين دوق جانديا وشقيقه سيزار، أن البابا كان يعتبر ابنه الأكبر جان عميد أسرته من بعده، ويرشح دوق سيزار لكل مشاريعه السياسية. ولكن سيزار كان بطبيعته الوثابة المغامرة وأطماعه الدنيوية البعيدة يزهد فى الحياة الكنسية ويلتمس الفرار، ويرى فى أخيه دوق جانديا حائلا دون أطماعه. وعندما عمد البابا إلى التفاهم مع مملكة نابولى واتفق مع ملكها الجديد فردريك الأرجونى على أن يتلقى التاج من قبل الكرسى الرسولى، وأن يقطع بعض ولاياتها الجنوبية لدوق جانديا ولد البابا، انتدب البابا ولديه جان وسيزار للسفر إلى نابولى .. ليتسلم أولهما الإقطاعية الجديدة، ويمثل الثانى البابا فى تتويج الملك.

وكانت الأم فانوتسا تعرف مدى المنافسة والخلاف بين الشقيقين، فقررت أن تجمعهما قبل السفر على مائدتها لتصلح بينهما.

وتم الصلح بالفعل ... وخرج الشقيقان من عند أمهما على صهوتى جواديهما، وخلف كل منهما خادم يحمل مصباحا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسار الجميع من كرمة فانوتسا إلى شوارع روما عبر الطريق المنحدر على جانب التل يضحكون ويغنون. وعندما بلغ الشقيقان مفترق الطرق مضى كل منهما فى الطريق إلى قصره.

لكن الصبح لم يلبث أن طلع بخبر مثير .. فقد اختفى دوق جانديا ولم يعرف له مكان قط. وملأ الرعب قلب لوكريشيا التى راحت تتابع كل محاولات البابا للعثور على ولده. ولكن النهار الجديد انقضى واقترب الليل، والشرطة الذين أرسلهم البابا للبحث عن دوق جانديا يجوبون كل مكان من أنحاء المدينة ولايعودون.. ثم بدأت الجريمة تنكشف عندما عثر على تابع الدوق ملقى فى صباح اليوم التالى على شاطئ التيبر جثة هامدة. وجن جنون البابا، وانطلق الحرس الأسبان يفتشون روما بيتا بيتا، وهم يثيرون الرعب فى كل مكان .. ولكن الأمر لم يكشف أكثر من العثور على جواد الدوق وقد تطلخ سرجة بالدماء، منطلقا وحده فى الأحراش المحيطة بالمدينة. وعند الفجر التالى، قبض رجال البوليس على بائع أخشاب، كان يتجول ببضاعته على شاطئ النهر. ورغم أنه ظل ينكر كل مايعلمه عن الحادث أمدا طويلا، إلا أنه تحت وطأة التعذيب الشديد ذكر للمحقق أنه شهد، وهو مستلق فى قاربه تلك الليلة التى وقع فيها الحادث، رجلين يقتربان من الشاطئ يتجسسان المكان. وعندما وجدا كل شئ هادئا أشارا إلى شخص ثالث لم يلبث أن خرج من وراء الظلال، راكبا جوادا أبيض، وهو يحمل خلفه حملا بدا تحت الضوء الخافت أنه جثة هامدة .. وسار الرجل بالجثة إلى نقطة على الشاطئ، حيث رفعها زميلاه وألقيا بها بعيداً فى الماء ...

وانطلق الصيادون والغواصون يبحثون فى النهر .. وبعد جهد كبير فى البحث، عثر أحدهم على جثة دوق جانديا، وقد أثخنت بثمانى طعنات، وكانت الجثة كاملة الثياب .. لايبدو عليها أى أثر لسرقة أو مقاومة ..

وعجز الجميع عن معرفة القاتل .. وحاول البعض أن ينسب الجريمة إلى جيوفانى سفورزا انتقاما لفضيحة الطلاق المشهورة . وحاول آخرون أن ينسبوها إلى تدبير الكردينال اسكانيو سفورزا عم جيوفانى انتقاما لشرف الأسرة ..

ولكن الجميع تحدثوا عن مقتل جان على يد سيزار الذى ارتكب الجريمة لكى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينفرد بتركه آل بورجيا، ويعطف أبيه البابا، ولكى يخلو له الجو فى عشق أخته لوكريشيا ...!

وكان الحادث فى حد ذاته رهيبا قاسيا .. لم تستطع لوكريشيا احتماله .. تماما كما لم تستطع احتمال هذا السيل الرهيب من الأقاويل التى كانت تعلم جيدا أن جزءا كبيرا منها له ظل كبير فى الحقيقة ...

وفى غمرة الحزن والألم والعار جميعاً .. انطلقت لوكريشيا إلى الدير تذرف دمعها السخين عاما كاملا ... وتستعيد فى رأسها الثائر كل تلك الأحداث التى مرت بها طوال أعوامها التى لم تتجاوز الثمانية عشر من السنين ...

★ ★ ★

ذات يوم من عام ١٤٩٨ ، انطلق إلى دير سان سكستوس من يخبر لوكريشيا بأن عليها أن تستعد لمغادرة الدير، بعد أن اقترب يوم زفافها إلى الأمير ألفونسو دوق بستشيجلى وابن أخت ملك نابولى ...

وفوجئت لوكريشيا وهى تسمع النبأ. فما كانت تنتظر أن يواصل أبوها عقد صفقاته السياسية لزواجها حتى وهى تقضى أيامها فى الدير. وكانت المفاجأة تذكر لها أن خطبتها قد تمت بالفعل إلى الأمير مقابل بائنة قدرها أربعون ألف دوقية ذهباً ... وأن العريس الجديد غلام جميل لايتجاوز السادسة عشر من العمر. وتذكرت لوكريشيا منافستها سانشيا ... فقد علمت أن هذا العريس ليس سوى شقيق منافستها الأصغر. وبدا لها أن ترفض الزواج ... غير أن الذين نقلوا إليها النبأ عرفوا كيف يقنعونها بالمباهج التى ستجدها مع الفتى الذى يبدو أنه منجم بكر للملذات يمكن استغلاله أحسن استغلال .. كما أقنعوها أيضا بأن الظروف السياسية التى يجتازها أبوها تحتم عليها أن تقبل الصفقة .. فقد كان البابا يتجه فى ذلك الوقت نحو نابولى لبسط نفوذه عليها، ولم يجد وسيلة إلى ذلك أول الأمر إلا بتزويج ابنه سيزار من ابنة فردريك ملك نابولى. غير أن الملك الذى رفض أن يزوج ابنته لقس من آل بورجيا، ارتضى أن يتخذ ابنه البابا زوجة لولده ألفونسو ابن أخيه غير الشرعى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تجد لوكريشيا بدأ من مغادرة الدير لتبدأ حياة أخرى جديدة. ولم تكد أيام ثلاثة تمر عليها وهى فى قصر البابا حتى أقيم احتفال الزفاف فى جناح البابا الخاص بالفاتيكان .. وأحست لوكريشيا ابنة الثامنة عشر وهى تزف إلى ذلك الفتى الجميل ذى الأعوام الستة عشر أنها ستجد معه سعادة لم تجد مثلها من قبل على الإطلاق ..

وبالفعل .. استطاعت لوكريشيا أن تعيش حياة جديدة مليئة بالهدوء والفرحة .. خاصة بعد أن منح زوجها الفونسو حكم إحدى الدوقيات وغدا لقبها الجديد «دوقة بيزيليا».

وشغفت لوكريشيا بزوجها أجمل فتى فى روما..

وأصبحت تحس نحوه أيضاً بعاطفة كأنها عاطفة الأمومة. وبدت للجميع كأنها فى رحلة شهر عسل طويلة مزهوة بعريسها البكر.

غير أن أمد الهدوء والاستقرار لم يكن ليدوم طويلا .. فقد كان من حظ لوكريشيا أن تكون هى وزوجها شخصين ذوى شأن فى العالم، وأن يكون للسياسة مكان فى فراشهما الزوجى.

فقد وجد البابا فرصة جديدة لعمل سياسى. وكان ملك فرنسا الجديد لويس الثانى عشر يعمل للتخلص من زوجته آن دوقة برى، والزواج من الدوقة جنة أرملة سلفة شارل الثانى، حتى يضم إمارتها بريتانيا إلى مملكته. وكان لابد للطلاق من مرسوم بابوى. ولم يكن البابا يجد مايمنعه من أن يجيز هذه الرغبة ويحققها من أجل كسب جديد. وانطلق سيزار نائباً عن أبيه إلى فرنسا ليلقى صيغة الطلاق، فاستقبله ملك فرنسا استقبالا حافلا، وأنعم عليه بلقب دوق فالنتوا. وعندئذ خلع سيزار ثوبه الدينى وزوجه لويس من أميرة فرنسية هى شارلوت دلبير أخت ملك نافار. وعن طريق هذا الزواج توثقت الروابط بين الفاتيكان .. وكلاهما خصم لملك نابولى..!

وفكر سيزار فى التخلص من زوج أخته الجديد قريب ملك نابولى، فقد بدأ يراه فى عقبة فى سبيل مشاريعه. وشعر الفونسو دون بيزيليا بحرج مركزه فى الفاتيكان إزاء تطورات الحوادث على هذا النحو. وساءه أن يجد روما تنشئ هذه

العلاقات مع فرنسا عدوة ملك نابولى. كما خشى فى الوقت نفسه غدر سيزار وعدوانه. فما كان منه إلا أن فر مسرعاً إلى بلاط خاله فى نابولى والتجأ إلى آل كولونا فى جينا زارو تاركاً زوجته الفتيه تبكى فراقه.

وصرخت لوكريشيا عندما علمت بالنبأ. وانطلقت إلى عرش أبيها تجثو عند قدميه باكية ترتعد فرائصها خوفاً من أخيها على زوجها الذى أحبته من كل قلبها وبكل جارحة من جسمها الفوار.

وراح الاسكندر يخفف من ثائرة ابنته، وعمل على التسرية عنها بما أغدقه عليها من الهبات وما أقام لها من الحفلات وما منحها من ألقاب التشريف. غير أن قلبها المحطم لم يكن على استعداد لأن يقبل أى شئ عدا عودة زوجها الحبيب.

ولم يكن الزوج نفسه رغم فراره قد هجر زوجته .. فقد راح يبعث إليها كل يوم متوسلا أن تلحق به، ولكنها لم تكن تجرؤ على تلبية دعوته خوفا عليه هو نفسه من أن يقضى عليه أخوها. ووجد البابا نفسه مرغما أمام يأس ابنته على أن يحاول حل المشكلة من جانبه وأن يبحث عن وسيلة للجمع بينها وبين زوجها لاتؤذى كرامته فى نفس الوقت. وأصدر البابا قراره بتعيين ابنته نائباً عنه فى «اسبليتو». وهناك انضم ألفونسو إلى زوجته التى عرفت كيف تقنعه بالعودة إليها ..

وظلا يعيشان سعيدين حتى هدأت العاصفة ثم عادا معاً إلى روما .. ولم تمض أيام حتى وضعت لوكريشيا ولداً سمته رود ريجو .. واحتفل بالمولد فى حفلات شائقة، غدت لوكريشيا خلالها وكأنها ملكة روما يحف بها الحب والعطف والإجلال أينما حلت .. خاصة بعد أن واصل البابا ترضياته لها فأقطعها عدة مدن وإقطاعيات من الكرسى الرسولى.

غير أن القدر كان لايزال بها بالمرصاد. فقد كان قلب الفونسو يمتلئ بغضاً لسيزار بورجيا. وربما كان هذا البغض ناشئاً عن توتر أعصاب الفونسو وحدة مزاجه. أو لعل سببه أن سيزار كان فى نظره رمزاً للحلف الفرنسى مع البابوية ضد نابولى. وبادله سيزار كراهية بكراهية، حتى كان مساء اليوم الخامس عشر من يوليو ١٥٠٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى ذلك اليوم، بينما ألفونسو دى بيزيليا يصعد درج الفاتيكان المفضى إلى الجناح البابوى، إذ فاجأة عدة رجال مقنعين، أثحنوه طعناً بالخناجر حتى خر صريعاً على الأرض، ثم فر الجناة هاربين دون أن يراهم أحد. غير أنه كان لايزال للفتى فى الحياة بقية، فاستطاع أن يزحف حتى بلغ الجناح البابوى حيث تلقاه البابا فى انزعاج شديد، بينما أغمى على لوكريشيا وأصابتها الحمى.

ولكن الزوجة المنهارة، استطاعت أن تفيق بسرعة. وراحت هى وأخته سانشيا تعتنيان به، بينما كان البابا قد أرسل حرساً مؤلفاً من خمسة عشر رجلا ليدفع عن الفتى أى أذى آخر يمكن أن يصيبه.

وأخذ الفتى يتماثل بسرعة للشفاء.

وذات يوم .. بينما هو يطل من خلال نافذته، إذ أبصر سيزار يسير فى حديقة قريبة. ولم يكن يخالج ألفونسو أدنى شك فى أن هذا هو الرجل الذى استأجر من كانوا يريدون قتله. فأمسك بقوس وسهم. وأطلق السهم نحو سيزار. وأخطأ السهم الهدف خطأ يسيراً.. وانتبه سيزار ليرى أن ألفونسو هو الذى حاول أن يقتله .. فانطلق ومعه ميشيلتو وصيفه وساعده فى مشاريعه السوداء إلى داخل القصر، وأبعد أخته عن الحجرة، وأمر ميشيلتو بالإجهاز على الفتى. وانقض هذا على المريض الراقد فوضع وسادة على وجهه، ومازال يضغط بها عليه حتى مات مختنقاً.

ولم ينكر سيزار الجريمة هذه المرة، بل راح يقول إن ألفونسو كان يزمع قتله فسبقه هو إلى القصاص. ولم يحاول البابا أن يحتج أو يبدى التذمر خشية بطش ولده الأثيم. أما لوكريشيا، فانطلقت بإذن أبيها تجرجر أذيال الحزن والعزلة إلى قصر بيبى على مقربة من اسبليتو. وهناك، أمرت بإقامة الصلوات تطلب الرحمة لألفونسو .. بينما راحت تكتب مذكراتها التى سمتها «اتعس الأميرات».

على أن أيام الحداد لم تزد كثيراً عن بضعة شهور .. وكان غريباً لدى الجميع أن تستقبل لوكريشيا – فى مقرها قبل أن يمضى شهران ونصف شهر على مصرع زوجها – شقيقها سيزار، وأن يمضى عندها طوال الليل. ويبدو أن لوكريشيا بما اشتهرت به من الصبر وليونة الجانب، استطاعت أن تقتنع بسهولة بأن مقتل زوجها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن أكثر من رد فعل طبيعي من أخيها على محاولة قتله. كما اقتنعت بسهولة أيضاً بأن سيزار لم يكن هو الذى استأجر السفاحين الذين حاولوا اغتيال الفونسو ولم يفلحوا فى محاولتهم. على أن كل الناس فى روما أخذوا يتحدثون من جديد عن لوكريشيا التى أسدلت ستار النسيان على زوجها واستردت بهجتها وعادت بسرعة إلى روما تخوض غمار هذه الحياة الباهرة وتتبادل العلاقات الآثمة مع أبيها وأخيها من جديد.

★ ★ ★

غادر الاسكندر روما فى جولة خلال الولايات البابوية، وانتدب ابنته لوكريشيا للقيام بشئون البابوية أثناء غيابه، قائلا أنه يفعل ذلك تقديراً منه لمواهبها ووفرة عقلها وذكائها وتتبعها سير الشئون العامة بدقة، وتفهمها بالأخص آراء والدها واتجاهاته.

ومضى البابا إلى جولته بعد أن سلم قصره وكل أعماله إلى ابنته، وفوضها أن تقوم بكل واجبات سلطته الدينية والزمنية. وجلست المرأة ذات العشرين عاماً على عرش بطرس الرسول، لمدة تزيد على شهرين، تتصدر اجتماعات المجمع المقدس، وتناقش الكرادلة فى شئون الدنيا والدين ..!!

وعندما عاد البابا إلى روما، ونزلت لوكريشيا عن الكرسى المقدس، استأنف بلاط الفاتيكان حياة البذخ والحفلات الشائقة، وعلى رأسه لوكريشيا إلى جانب أبيها الحبر المتهتك وأخيها الفاجر الطاغيه.

وراحت روما تتحدث عن حفلات عربيدة راقصة بدأت تجرى فى القصر البابوى..

تحدث الناس عن حفلة راقصة شهيرة تسمى «مرقص الكستنة»، كانت مسرحا لأسفل مايتصور الذهن الخليع من مناظر التهتك والفجور. ففى مساء ٣١ أكتوبر ١٥٠١، استقدم البابا خمسين غانية من أجمل نساء روما، ومثلن جميعا عاريات أمام البابا وابنه سيزار وابنته لوكريشيا وقامت الفتيات بتقديم أغرب المشاهد الراقصة مجونا وفجرا، فكن يرقصن عاريات على أربع وراء حبات الكستنة التى كان يلقيها البابا وابنه وابنته تحت الأضواء الساطعة الملونة، وتعطى الجوائز للفائزات بالسباق، كما تعطى جوائز أخرى لأبرع الفتيات فى عرض أغرب المناظر والأوضاع ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحدث الناس عن فضيحة أخرى حدثت فى أول سبتمبر من نفس العام. فقد اصدر البابا اسكندر السادس مرسومين يعلن فى أولهما أن ابنه سيزار قد رزق بغلام غير شرعى يدعى جيوفانى فى نحو الثالثة من عمره، وأنه يبرئه من عيب هذا الولد الشرعى ويباركه ويعتبره أبنا شرعيا لولده سيزار، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية، وينعم عليه بلقب دوق نيبى. وقرر البابا فى المرسوم الثانى الصادر بعد ذلك بقليل أنه وإن كان يبرئ الغلام ويرفعه إلى مرتبة الولد الشرعى، فإنه يقرر بأن عيب هذا المولد لايرجع إلى ولده سيزار، بل يرجع إليه هو نفسه مع سيدة حرة من قيود الزواج. وقال البابا انه يعتبر الصبى حرا، ويقرر أن كل مايئول إليه من الحقوق والمزايا طبقا للمرسوم السابق، يئول إليه أيضا بصفته ولد البابا وليس ولد ابنة سيزار .. وبعبارة أخرى يعترف البابا فى هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه ..

ولكن من هى تلك التى انجبت الصبى .. ومن هى هذه السيدة الحرة من قيود الزواج والتى كانت حظية البابا أو حظية ولده سيزار أو حظيتهما الاثنين معا ..!؟

لم يستطع أحد أن يكشف سر تلك الأم .. وإن كان الجميع أخذوا يتذكرون ماقيل قبل ذلك بثلاث سنوات، عندما كانت لوكريشيا تقضى أيام حزنها فى الدير، من أنها ولدت فى الدير ولدا يتفق تاريخ مولده بالضبط مع ماجاء فى المرسومين المقدسين..!!



كان سيزار بورجيا يواصل تقدمه بجيوشه فى كل أنحاء إيطاليا لإخضاع الولايات التى ترفض أن تستسلم لمطالب البابا ونفوذه وسلطانه.. حين بدا له أن ولايتى منتوا وفيرارا لازمتان لتأمين فتوحه أكثر من ذى قبل، ولوضع قاعدة طيبة فى يده يهجم منها على بولونيا.

وكان بيت «استه» فى ذلك الوقت يضم عرشى منتوا وفيرارا، وتجلس عليهما إيزابيللا ديسته، التى كانت من الشهرة الفريدة فى بيانة التاريخ الشرف العريق مالم يحلم به أحد فى ايطاليا خلال عصر النهضة. وما كان أحب إليها يوم قررت أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستقر على عرش منتوا تاركة لأخيها أركول عرش فيرارا، أن تكون خليفتها على ذلك العرش جديرة بتقاليد بيت «استه» الطاهر الناصع البياض..

لهذا لم تستطع إيزابيللا، ولا أخوها أركول، أن يتصوروا ذلك العرض الذى أرسله إليها بابا روما، بأن تتزوج ابنته لوكريشيا من الأمير ألفونسو ولى عهد آل استه على عرش فيرارا، فقد كانت السمعة التى يتناقلها الناس فى كل مكان عن ابنة البابا. لايمكن معها لأحد أن يقبل تلك المصاهرة. ولكن حاكم فيرارا وحاكم منتوا كانا يعرفان جيدا أن عرشيهما باتا معرضين للسقوط فى يد سيزار، الذى كانت قواته تواصل الزحف فى الطريق إليهما. ولم يكن بد من تفضيل بقاء العرشين مع قبول مصاهرة البابا على فقد كل شئ ... وانحنت إيزابيللا وأركول للعاصفة، واضطرا إلى قبول ماعرضه البابا من زواج ألفونسو ابن دوق فيرارا إلى لوكريشيا مقابل بائنة ضخمة قدرها، أربعون ألف دوقية ذهباً، وهى تكاد تعتبر فى حد ذاتها إلغاء تاما للجزية التى كانت فيرارا تعطيها للبابوية .. كما عرض البابا أيضاً أن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات وأن يخفض إتاوته للكنيسة إلى أدنى حد .. واضطر دوق فيرارا جريا مع التقاليد إلى أن يرسل إلى جوانى لوكاس سفيره فى الفاتيكان، ليبعث إليه بتقرير عن العروس المرشحه لولده ... ولم تكد تمضى أيام حتى تلقى ردا يقول :

«سيدى العظيم .. ذهبت اليوم مع دون جيرارد وسراتشينى فى زيارة إلى السيدة العظيمة لوكريشيا، لنبلغها احترامنا بوصفنا نائبين عن فخامتكم وعن جلالة دون ألفونسو. وتحدثنا إليها طويلا فى مختلف الشئون. وخرجنا من حديثنا معها على أنها غاية فى الذكاء والظرف، وأنها سيدة غاية فى الرشاقة. والنتيجة التى وصلنا إليها أنك ياصاحب الفخامة ودون ألفونسو العظيم ستسرون منها غاية السرور. فهى فضلا عن رشاقتها الفائقة فى كل شئ، متواضعة، ودودة، مؤدبة. وهى إلى هذا كله مسيحية مؤمنة تخاف الله. وستذهب غداً للاعتراف. وستتناول العشاء الربانى فى أسبوع عيد الميلاد. وهى فى منتهى الجمال، ولكن سحر أدبها وظرفها ليدهشنا أكثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جمالها. وجملة القول أن أخلاقها تنفى عنها كل مظنة السوء. بل إننا على العكس من هذا لانجد فيها إلا كل ماهو خليق بالثناء ..»

واقتنع صاحب الفخامة والجلالة من آل «استه» ، أو هما أرادا أن يقتنعا، بأن كل ما ماكان يشاع عن لوكريشيا لم يكن سوى إشاعات وأقاويل.

وللمرة الثالثة ... شهد القصر البابوى عقد زواج لوكريشيا إلى ولى عهد فيرارا... وشهدت روما من جديد أفراحا لم تسمع بمثلها من قبل، فى الأبهة والفخامة والبذخ.. وعندما حل موعد رحيل لوكريشيا إلى الولاية التى ستصبح بعد حين دوقتها والجالسة على عرشها، وصل إلى روما وفد كامل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستى أخو الزوج لينوب عنه فى إحضار زوجته. كما وصلت طائفة فخمة من الفرسان قادمين من فيرارا لمصاحبة العروس إلى مقر ولايتها. وأعد سيزار بورجيا من عنده مائتى فارس للاشتراك فى رحلة العروس .. كما أعد طائفة من الموسيقيين والمهرجين لتسليتها خلال الطريق. ودل الاسكندر السادس على افتخاره وسعادته بأن أمد ابنته بحاشية تضم مائة وثمانين شخصا بينهم خمسة أساقفه. وحمل جهازها على عربات صنعت خاصة لهذه الرحلة، وعلى مائة وخمسين بغلا، وكان ضمن الجهاز حلة تبلغ قيمتها مايساوى مائتى ألف دولار، وقبعة قيمتها إثنا عشر ألف دولار.

وفى اليوم السادس من يناير ١٥٠٢ بدأت لوكريشيا رحلتها فى الطريق إلى فيرارا .. وراح الإسكندر يتنقل وهو يودع ابنته فى الموكب من مكان إلى مكان، من أجل أن يلقى نظرة أخرى على ابنته وهى ممتطيه صهوة جوادها الأسبانى الصغير المكسو كله بالجلد والذهب. ثم وهى فى عربتها التى ازدانت ستائرها باللآلئ واليواقيت.

واستمر الموكب يقطع الطريق خلال سبعة وعشرين يوما، بلغ فى نهايتها ولاية فيراراً، حيث خرجت جماهير الشعب تستقبل عروس ولى العهد فى مواكب كلها التضخيم والحب والتكريم.

ووجدت لوكريشيا أمامها آخر الأمر حياة أخرى من نوع جديد، بعيدة كل البعد عن الدنس الذى طالما عاشت فيه. بل لقد أحست بسعادة غامرة رغم أن مقامها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجديد كان فى قصر قاتم موحش لايتناسب مع مقامها الفخم فى روما. فقد اعتادت حياتها الجديدة بسرعة، وعاشت فى هدوء وبساطة دون أن تفقد شيئاً من مرحها الذى سحر أهل فيرارا وجذبهم إليها، خاصة وأنهم هم انفسهم كانوا يحبون ولى عهدهم ألفونسو ديسته، الذى عرفوه فتى متين الخلق والخلال كثيرة الخطورة والجد، وافر الثقافة، رقيق الشمائل..

وفى ظل تلك الرعاية التى عاشتها لوكريشيا بعد أن أعلنتها توبة كاملة عن كل ذلك الماضى البغيض، راحت لوكريشيا تنجب لزوجها أبناء شرعيين، وتمكن دعائمها فى بلدها الجديد الذى لم يكدر هدوءه بين الحين والحين سوى مشاريع سيزار، الذى كان يخترق أواسط إيطاليا بجيشه ويمزق العدو والصديق معا، ويحاول بوسائل دموية غادرة إنشاء مملكة رومانية كبيرة.

كل هذه المشاريع كانت تسبب للوكريشيا كثيراً من الألم، لما تقاسيه من التبعة المعنوية التى تلحقها بسبب أعمال سيزار العدوانية .. على أنها ظلت تحتمل حتى وجدت مشاريع سيزار نهاية لها فى أعقاب موت البابا وهو فى الثالثة والسبعين.

وإذا كان وقع النبأ كان له أثر الصاعقة عليها بعكس وقعه على زوجها وأسرته، وبرغم أنها لم تكن قد رأت أباها منذ غادرت روما، إذ كان زوجها يأبى عليها أن تزور مقر الفاتيكان أو أن يزورها أبوها فى فيرارا ... إلا أنها ارتاحت نفسيا حين توقف سيزار عن الاستمرار فى مشاريعه الدموية التى انهارت مع انتهاء جلوس أبيه على كرسى البابوية .. حتى قضى عليه أن يصاب فى إحدى المعارك ويموت ...

واستمرت لوكريشيا تواصل حياة التوبة .. وراحت الآفاق تتفتح من أجلها بعد أن توفى دوق فيرارا الأب وجلس ولده عام ١٥٠٥ على العرش. وجلست الابنة غير الشرعية لأسوأ بابوات التاريخ على عرش دوقية فيرارا أطهر عروش الولايات فى إيطاليا ...

وظلت لوكريشيا طوال مابقى لها من حياة استمرت عشرين عاما نقية جديدة، تحاول دائماً أن تنسى سوءات السنوات العشرين السابقة ... حين كان الناس لايعرفون عنها إلا أنها «ابنة البابا ... وزوجته ... وزوجة ابنه» ..!

واستمرت الحياة تسير ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كـاتـرين الثـانيـة
دوامـة الرجـال

كانت تعرف أنه أبله ...

ولكنها لم تكن تتصور أن رجلا، أيا كان، يستطيع أن يغط في مثل ذلك السبات العميق، وعروسه التي زفت إليه منذ لحظات لاتزال تقف أمامه، وقد خلعت عن جسمها الرطب كل شئ ..!

وأخذت بها رعشة باردة، لم تكن في شئ على الإطلاق من تلك الرعشة المجنونة التي تحسها فتاة السادسة عشر، عندما يغلق الباب عليها، لأول مرة، مع الرجل الذي يستطيع أن يجعل منها امرأة ..!!

ومرت بذاكرتها في لحظة هذه الصور المتتابعة التي بدأت وهي راكعة أمام المذبح في كاتدرائية العذراء في «قازان» إلى جوار زوجها الشاب، صاحب الواحد والعشرين ربيعاً. كانت تحلم بالمستقبل القريب، غير ملقية بالا إلى الآلام التي كانت تقاسيها من ثقل ذلك التاج الذي وضعته على رأسها سبع ساعات متواليات، وظل رئيس الأساقفة خلالها يتلو في صوت أشبه بالهمس أدعيته التي استنفذت لطولها أعصاب كل من دعى إلى حضور مراسيم الزواج.

أما هي، فلعلها استعذبت ساعتئذ هذه الآلام التي سيتم بسبيلها عقد قرانها - وهي الفتاة الألمانية التي لم تحلم بالمجد قط - على الأمير بطرس ابن شقيقة القيصرة المفضل، والوارث الوحيد لعرش القيصرية. ولم تلق بالا إلى ماسمعته من اللغط عن حمق الأمير وبلاهته، التي لم يستطع معها القراءة أو الكتابة إلا في سن الرابعة عشرة .. وذلك العته الذي أيقنت منه وهي تلمح ابتسامته التي افترت عنها شفتاه منذ لحظات، عندما تقدمت منه إحدى وصيفات الشرف، وألقت إليه ببضع كلمات اعتدل بعدها في ركعته ومال على عروسه وهو يقول في صوت خفيض :«إنهاتشير على بعدم هز رأسي خلال هذه الصلاة الأخيرة، فهناك خرافة تقول بأن الذي يحرك رأسه قبل الآخر من الزوجين يسبق صاحبه إلى الآخرة، ولا أراني أرضى

أن أموت قبلك ..!!» كل ذلك، أغمضت عنه عينيها، وأغلقت أذنيها، فحسبها أن ستكون عن قريب إمبراطورة روسيا ...

وانتهت مراسيم الإكليل، ونهض العروسان من ركعتهما الطويلة القاسية، واهتزت جوانب الكنيسة بأصوات المرتلين، مختلطة بحفيف الملابس الذهبية المزركشة التى يرتديها رجال البعثات الملكية القادمون من أنحاء أوروبا، لمشاركة بيت «رومانوف» أفراح القيصرة اليزابيث. واتجه العروسان إلى القصر حيث أقيم ذلك الحفل الباهر الذى لم يكد ينفض إلا بعد أن كاد الصبر يحطم منها الأعماق كلها. وخفتت الأضواء، وذهبت الجموع، ولم يعد هناك سواها .. بعد أن استأذنت منها وصيفات الشرف الجميلات، ليتركنها لنفسها .. ولزوجها.

وانطلقت هى إلى الفراش، فخلعت ثوب الزفاف، وانكمشت تحت الغطاء، وأراحت خدها على الوسادة الناعمة الملساء فى انتظار الأمير .. تحلم بالمتعة التى ستعرفها منذ اليوم ...

ومرت ساعات من الانتظار طويلة، عنيفة، قاسية .. نهضت من خلالها مرات تتسمع علها تنصت إلى صوت قدوم الرجل. فلما أن سمعت آخر الأمر وقع الخطى العسكرية الثقيلة، زادت فى جسدها الرعشة، وضغطت على الوسادة فى سرور لذيذ، تتأمل الباب الذى سيفتح بعد لحظات ..!

وفتح الباب .. ودخل الأمير تسبقه رائحة خمر كريهة. وامتلأت عيناها رعباً وأخذ بها انقباض مجنون. ولكنها حاولت تهدئة اضطرابها. وانتظرت أن يحييها، فلما لم يفعل بدأت هى بالتحية، فردها فى غلظة، ثم ألقى بنفسه على الفراش دون أن يخلع حذاءه الثقيل، أو ثوبه العسكرى ..!

وقالت كاترين فى استحياء، وهى تتقلب على الفراش البارد :

– ولكن .. ما الذى أخرك ..؟!

وأجابها، وقد بدأ النوم يداعب جفنيه :

– كنت ألعب بجنودى الخشبية. إن أحداً لايرغب فى رؤيتى وأنا ألعب هذه اللعبة اللذيذة. ولكنهم أغبياء، لايقدرون. آه لو رأيتنى وأنا أصدر إلى جنودى الأوامر

بالتقدم، وأطوح بيدى وأنا ممسك بالسيف أقودهم إلى ميدان الحرب .. ولكن .. لماذا أقول لك كل ذلك؟ من أنت ولماذا تسالينى أنت أيضاً ؟ كلكم اغبياء .. فلتسكتوا جميعاً .. ولتسكتى أنت الأخرى ودعينى وشانى ..!

ولم يكد يتم كلامه، حتى أدار لها ظهره، وراح يغط فى سبات عميق ..!

ونهضت هى لتبكى .!

★ ★ ★

على أن أسابيع أخرى كثيرة راحت تمر، والدموع لم تجف بعد فى عينى كاترين، التى انتظرت ليلة الزفاف بشوق ساخن كبير، ثم انتظرت بعدها ليالى أخرى، فكان انتظارها عبثا، وظلت كما كانت من قبل. نفس العذراء التى لاتعرف شيئاً عن طبيعة الزواج على الإطلاق.

وراحت الشهور تتوالى، ثم السنون، وكاترين تزداد فى كل منها حيرة، واضطرابا وقلقاً، أمام القيصرة التى تريد منها أن تنجب ولداً يرث العرش الكبير.

وفى الحق، إن القيصرة كانت تضع فى الفتاة آمالا كباراً، فهى قد لمست فيها هذه الأنوثة الصارخة، والبدن الراسخ، والجمال الساخن، والشفاة الدسمة، والصدر المتفجر، والعينين اللتين تدعوان إلى ألوان متباينة من الشغف، والغزل، والمتاع. وأدركت من كل هذه الألوان أن الفتاة ستعرف جيداً كيف تفتح فى أعماق ولى عهدها رغبة الرجل، فينجح ولو مرة واحدة لأن يطرق السبيل إلى إنجاب ولد، يحفظ ذري رومانوف ..!

وعندما تم الزفاف، وأغلق الباب من خلف العروسين، فركت القيصرة كفيها فى ارتياح كبير، وظلت تنتظر حتى الصباح.

ودق الباب على العروسين، إنها وصيفة تزوجت حديثاً، أرسلتها القيصرة لتتحدث إلى الزوجين، وتعود إليها بالأخبار الزاهية .. الحمراء ..!

سوى أن الوصيفة الشابة عادت إلى القيصرة وفى عينيها خيبة. وأطلت إليها القيصرة فى حيرة، وعين ثكلى. وانصتت إليها فى دهشة وهى تقول إن الأمير يبدو فى غاية البرود وقلة الاكتراث. أما العروس فقد بدت كسيرة القلب، شقية، ذابلة يطل من عينيها الدم لكثرة مابكت طوال الليل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهتفت القيصرة فى حدة :

- إن المهزلة يجب أن تتم سريعاً، والمرأة هى المسئولة دائما، ويجب أن تعرف كيف تستثير زوجها وكيف تمنع دموعها من أن تنساب فى ليلة الزفاف.

وقالت الوصيفة :

- إنها مسكينة يامولاتى. والغراندوق لايكاد يدرى من ذلك شيئاً قط.

وهزت القيصرة كتفيها وهى تقول :

- انا لم أضطرها إلى الزواج من بطرس. وقد أخبرتنى أمها بأنها تحلم بالزواج من ولى العهد. فهى مسئولة عن إنجاب ولد يرث العرش.

على أن الأمر لم يكن من السهولة كما تريد القيصرة. فما كانت الفتاة لتأبى. وماكان فى أعماقها مايدعوها إلى أن تظل عذراء. وماعرفت قط كيف تجذبه إليها وهو غارق كل ليلة إلى أذنيه بين جنوده الخشبية التى صار يصحبها إلى حجرة الفراش نفسها.

واستمرت الحيرة تأخذ بها .. الحيرة التى تختلج فى أعماقها كلما سألتها القيصرة فى اهتمام هل تقوم بواجب الزوجة الطيبة نحو زوجها، وهل تلين لرغباته، وهل تعلم أن عليها واجباً وطنياً هو إنجاب وارث لعرش البلاد.

وفى كل مرة كانت تجيبها وهى ترتعش، وفى عينيها خيط طويل من الدموع :

- أعطنى بعض الوقت يا أماه .. حتى يمكننى تلبية رغبتك.

ولكنها لم تجد القوة أبداً لتقول للقيصرة أن زوجها يأتى كل ليلة مخموراً، ويتسلل إلى الفراش بحذائه الموحل، وكأنه لايدرى أن له زوجة ترقد إلى جواره، وفى جسدها سخونة واختلاج ورعشات ظامئات ..!

أبدا، لم تكن تستطيع أن تقول لها ذلك. ولا أنه ينهض من رقاده فى الصباح ليشغل بجنوده الخيالة، وعساكره المصنوعة من خشب، يلوح لها بسيفه، وكأنه يدير حربا ويحرك فرقا، وليس أمامه فى الواقع من ذلك شئ على الإطلاق.

والحق، أن كاترين قد فعلت أكثر مما تستطيعه امرأة. ولكنها لم تجد آخر الأمر أمام برود الزوج المعتوه، إلا أن تطوى فى أعماقها غرائزها وتشغل نفسها بالقراءة

حينا والتطريز حينا آخر، والصيد فى الغابات فى أحيان أخرى كثيرة، لتنسى فى حناياها أحاديث زوجها القليلة ... وهذه الأحاديث التى لم تخرج يوما عن موضوع مغامراته المزعومة مع وصيفات القصر، وغيرهن كثيرات، كأنما زوجته قد خلقت من جماد.

وظلت الشهور تسير. وكاترين تشهد شباب القصر، وفتياته الأخريات، كلهم يستجيبون لنداء الحب، ويتمرغون فى لذاذات الهوى، وهى .. هى وحدها .. لاتعرف من ذلك طعما أبدا، كأنها عاقر أو عود من العشب الجاف ..!

وصارت بنت السادسة عشر، امرأة عذراء فى سن الخامسة والعشرين. فى الأعماق منها قلب جامد، يشتهى أن يتفتح، وغرائز مشبوبة. ترجو أن تحيا مع اللهب، والشغف والجنون ..!

واستمرت تشغل فراغها فى الصيد.

وفى مثل هذه اللحظات، بدا لها أن ثمة حياة جديدة تقترب منها، فيها صخب وبين حناياها عنفوان. فهناك، كانت تلتقى بفتى من الفرسان جميل، طائش، يسمعها أعذب كلمات الحب وهو يتبعها طوال الطريق.

والحق. أن هذه الكلمات الباهرة الحلوة كانت تنعش منها ذلك الجدب الكبير، فما منعته من أن يتابع كلماته قط. إلا انها لوت عنان جوادها ذات مرة إليه، وقالت فى صوت فارغ جهدت أن يبدو عنيفاً :

– وبعد ... كيف تجرؤ أيها الوقح ..!؟

وأجابها الفتى، وقد اقترب منها، ومد يده ليتناول يدها :

– ولكنك امرأة قبل ان تكونى أميرة، فكيف تطيقين، يا أميرتى الرائعة ..!؟

وأجابت فى رقة هامسة، بالرغم منها :

– وزوجى ؟ ألا تخشاه ؟ وهو الذى سيكون قيصرك ذات يوم.

وبصق الفتى على الأرض. وقال فى صوت كله دعوة :

– دعيك منه يا أميرتى، ودعينى أنا أريك ياكاترين فن الغزل، فإن زوجك وحش ذو شهوات دنيئة لايشبعها إلا مع الساقطات من فتيات البلاط. أما أنا .. فأعرف كيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أطير بك إلى مملكة أوسع من مملكته، حيث لابكاء، ولاشقاء، ولادموع.. حيث مملكة باهرة من السعادة تعيشين فيها فى حلم من الأحلام ..!

وارتعشت كاترين ولم تستطع أن تنصت أكثر. فلوت عنان جوادها وانطلقت كهاربه فى الطريق إلى القصر.

وكان القصر ينتظرها هو الآخر .. فالقيصرة قد برح بها القلق، وأخذ بها الغيظ، واستولت عليها رغبة جامحة فى أن ينتهى الأمر، على أى شكل كان.

وجلست الأميرة إلى جوار القيصرة، ووجهها إلى الأرض ..

وانطلقت العجوز تهمس فى حدة :

– والآن .. ماذا بعد يا كاترين !؟ لقد مضى على زواجك تسع سنين ..!

وأجابت فى خجل :

– أجل يامولاتى ..

– إنك لم تلدى بعد، ولست أريد هذا ..!

– وماذا أفعل يامولاتى ..!؟

– خبرينى أولا، من هو المسئول عن هذا العقم، أنت أم هو ؟

ودمعت عينا كاترين.

وأجابت فى همس :

– لست أنا على أى حال .. يا أمى الصغيرة ..!

– إننى أعرف كل شئ ياصغيرتى، فإن ابن أخى يشكو عجزا، ولكن قلبى مع هذا يكاد ينفطر ألما، وعيناى لاتكادان تدعان البكاء، عندما أطل إلى المستقبل أمامى فأجد ذلك الملك العريض قد صار بلا وريث، ينتسب إلى عائلة رومانوف ..!

وسكتت القيصرة لحظة، ثم حدقت برهت فى عينى الصغيرة الشابة، وبدأت تخرج الكلمات فى هدوء وبطء ولهجة أقل حدة :

– ومع ذلك، ياصغيرتى العزيزة، فلست أجهل أن فى قلبك شقوة ضخمة، وألماً صاخبا، إذ تجدين نفسك وقد حرمت من ولد تسعدين به، ويسعد معك به العرش. ولكنى أقول لك أنه لابد أن يكون هناك وريث وسلالة. وإذا لم يكن فى استطاعة

بطرس أن يكون هو الأب.. فأظن فى استطاعتك أن تبحثى عن آخر .. يرفه عن قلبك، ويغطى ذلك العجز الذى تشقين به، وأشقى، ويشقى العرش كله.

وفتحت كاترين عينيها مشدوهة. واستمرت القيصرة فى صوت أكثر هدوءاً، وصفاء ودعوة :

- أنا أيضا ياصغيرتى، كان لى معجبون، وعشاق ..! ومع كل، فالمسألة التى تهمنا جميعا تتعلق قبل كل شئ بوراثة العرش ..! ومن أجل ذلك العرش لايسعنى إلا أن أقول لك إن ذلك هو أمرى العاجل إليك. أتفهمين ..!؟

وفهمت كاترين ..

وفى المساء، كان هناك جوادان يقفان وحدهما إلى جوار شجرة فى الغابة وقد تفتحت آذانهما، كأنها تنصت إلى الهمسات المنطلقة من صاحبيهما الراقدين على الحشائش الخضراء، وصوت كاترين وهو تقول :

- منذ الآن، ياسيرج، حبيبى .. أنا لك دائما .. وإلى الأبد ..



وبعد ..!؟

نعم .. وماذا بعد ..!؟

لقد عاشت كاترين سنوات طوالا حياة فارغة تافهة ليس فيها من البهجة شئ على الاطلاق. وإن أيامها لتمضى فى ظلام هامد كدنيا الموت .. الذلة تجلل فيها كل شئ، والمهانة تأخذ منها كل ماهو طاهر وجليل. حتى الأحلام نفسها .. لاترى فيها سوى هذه الساعات الداكنة التى تقضيها مع الزوج التافه الغبى، ذى الوجه الممسوخ بآثار من الجدرى عنيفة بارزة، والخلق الضحل الذى يجعله لايشرب الخمر إلا مع خدمه وحواشيه، والنساء الساقطات من وصيفات القصر .. حتى بعد أن صار هو رجل القصر الأول وسيد العرش الكبير .. قيصر الروسيا بطرس الثالث ..!

والحق، أن السنوات التى أعقبت تلك الليلة المشبوبة الساخنة التى دفعت فيها كاترين دفعا إلى أحضان فتى آخر غير ذلك الزوج الأحمق، كان حتما أن تجعل منها امرأة أخرى غير تلك الفتاة الخجول ذات الحياء الأحمر، والأعماق اللينة، والبدن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطاهر الزاخر بالكنوز الرائعة من ينابيع السحر المعطر المجهول. وما كان يمكن للزوجة التى ظلت عذراء بعد يوم الزفاف تسع سنين حتى صار لها عاشق آخر .. تطفئ بين ذراعيه لهفتها وتسكت على شفتيه اختلاجات شفتيها الدسمتين .. ما كان يمكن أنت ظل تعيش الحياة نفسها، بغير ما استمرار فى الخطايا، والرزايا، والآثام !

واستمرت قصة الغرام المشبوب بين سيرج وكاترين، يرعاها القصر، وتباركها الإمبراطورة، وإن استطاعت كاترين فى خلال فترات قصيرة أيضا أن تختلس لحظات أخرى مع فتيان آخرين !

ولم يكن عقم بطرس فى الواقع مزمنا، بل كان يمكن منذ وقت طويل إنقاذه منه بجراحه بسيطه. غير أنه كان يخشى مبضع الطبيب ويفزع منه، ولا من أحد يجرؤ على مواجهته بهذه الحقيقة، فتركوه جميعا .. ولكن إلى حين.

فقد بدأت أعراض الحمل تظهر على كاترين. وبرغم أن الفرحة قد أخذت طويلا بأعماق الإمبراطورة اليزابيث، إلا انها فكرت فى علاج الأمر أمام الناس، وأمام بطرس نفسه ليصبح طبيعيا. وكان معنى ذلك أنه لابد من أن يعمل الطبيب ليزيل العقم عن بطرس. ولم تعدم هى من رجال البلاط من يساعدها فى تنفيذ الأمر، فترقبوا فرصة اقاموا فيها حفلا شائقاً عربيداً شرب خلالها بطرس من الخمر ماشرب، ثم فاجأه الطبيب من تحت المنضدة بالمبضع بضربة خبير، كان فيها شفاء له وإيذان ببدء قصة بطرس الرجل ..!

ولعل قصة سيرج وكاترين كانت قد بدأت تثير غيرة رجال كثيرين من أدران البلاط. ولعل بعضهم قد ذهب إلى بطرس يشى إليه بعلاقة زوجته وغرامها المشبوب. فلما وجد نفسه آخر الأمر قد بات رجلا أبى إلا أن يقطع الشك باليقين، فإما أن يكشفها أمام الناس وإما أن يخرج لهم بالدليل الدامغ على أمانتها.

على أن كاترين لم تكن بالبلهاء قط. وقد أدركت أن زوجها لاشك سيحاول أن يثبت أمام نفسه على الأقل أنها لاتزال عذراء، لم تحاول خيانته برغم كل تلك السنوات التى انصرمت ولم يقربها خلالها. وفى الليلة التى حددوها للزفاف الداخلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجديد لم تخيب كاترين ظنه، واستطاع بطرس أن يرسل إلى صاحبة الجلالة القيصرة - والفخر يملؤها - منديلا يحمل شهادة لاتقبل الشك بأن زوجته كاترين قد ظلت حتى تلك الليلة عذراء شريفة ..!!

على أنه لم تمض سوى شهور قليلة جدا بعد تلك الليلة، حتى كانت كاترين قد وضعت طفلا .. يرث عرش رومانوف.

واستمرت كاترين، حتى بعد أن وضع الطفل، تحب وتعشق وتتقلب بين أذرع فتيان كثيرين من القصر، ومن خارج القصر أيضاً. ولم تجد مايمنعها فى بعض الأوقات من أن تغادر القصر بحثا عن لقاء حبيب جديد. وذات ليلة، قضت خلالها الليل خارج القصر فى عبث ورقص صاخبين، عادت مع تباشير الفجر إلى القصر وصعدت السلم إلى غرفتها وهى تترنم بأغنية شائعة تستمد بها مزيدا من الشجاعة. وفجأة أطلت أمامها فإذا بطرس واقفا على السلم بقبعة النوم، ومن عينيه ينطلق لهيب صارخ مجنون. وسألها :

- من أين تأتين ياسيدتى !؟

وأجابت فى صوت جهدت طويلا أن تجعله هادئاً :

- كنت أبحث عنك ياسيدى، وهذا من واجباتى.

- تبحثين عنى !؟ حقاً إنك لصفيقة الوجه كذوبة لاتطاقين .. وحق الله لأعيدن إليك رشدك.

وهزت كاترين كتفيها وهى تقول ساخرة :

- بربك خبرنى ما الذى ستفعله !؟

وانفجر بطرس فى ثورة :

- لا .. لا .. هذا كثير .. إنك لتبالغين فى التطاول وترفعين رأسك عاليا فى وجهى.

وأجابته فى شدة :

- وهل تريد منى حتى أرضيك أن أحنى هامتى وأخضع لك كما يخضع العبيد !؟

وجن جنونه وصرخ :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– اتتحدينني .. والله لأحطمنك !

وانطلق نحوها فى ثورته والغضب يكاد يقتله، فدفعها إلى الجدار وجرد سيفه مهددا متوعدا، ولكنها برغم كل ذلك لم تجبن ولم تهتز بل جابهته فى هدوء قائله :

– إذا كنت تنوى مبارزة فانا الأخرى فى حاجة إلى سيف !

وتراجع الغراندوق وهو يغمد سيفه ويقول :

– كم أنت لئيمة خبيثة.

وانصرف فى ضجة أيضاً، ورائحة الخمر لاتزال تفوح كريهة من بين شفتيه وهو لايزال يردد :

– سأحطمنك .. وسأكسر شوكتك ..!



وقفت كاترين ذات يوم، وراحت تطل من وراء مخدعها إلى الأفق البعيد، ثم تنتقل ببصرها إلى أفراد الشعب القليلين الذين يسرعون فى اجتياز الميدان المقابل. وكان المطر ينهمر فى قوة، والريح تعصف فى عنف، والليلة تنبئ بأن تكون من أشد ليالى ذلك الشتاء هولا. وفجأة، فى ساحة القصر، لمحت كاترين شابا عريض المنكبين يسير فى خطوات ثابتة، فيها كبرياء، وفيها اعتداد بالنفس .. وكأن ذلك الجو العاصف لاشئ على الإطلاق ..!

والتفتت الغراندوقة إلى وصيفتها ناتاشكا :

– من يكون هذا الشاب !؟

– إنه جريجوار أورلوف .. أحد رجال الياوران يامولاتى.

وقالت كاترين فى خبث :

– إنك تعرفينه ياناتاشكا .. أليس كذلك !؟

– نعم يامولاتى، ومن منا لاتعرفه !؟ إنه شاب رائع جذاب طالما تمنى الوصيفات أن يدعوهن إلى حفل أو لقاء، ولكنه مشغول الآن بعشيقته الجديدة الأميرة كوراكين.

– الأميرة كوراين .. وهل تركت عشيقها الجنرال شوفالوف ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأجابت الفتاة فى خبث هذه المرة :

– ألم يأتك يامولاتى حديث قصتها بين هذين الرجلين ؟ لقد دخل شوفالوف يوما على الأميرة فإذا هى فى أحضان جريجوار. وضاغ صوابه واستدعى رجاله ليؤدبوا الدخيل، فما استطاعوا التغلب عليه، بل اندفعوا تحت ضرباته يطلقون سيقانهم للريح، تاركين سيدهم وجها لوجه مع الفتى المغامر. وفى تلك اللحظة تمددت الأميرة على مقعدها وقد تركت ذيل ثوبها ينفرج عن ساقيها العاريتين. واندفع إليها شوفالوف وهو واثق برفعة مقامه على خصمه، فخيرها بين أن تختاره أو تختار الفتى الجديد، فاختارت الأميرة الجمال والقوة .. وانتصر أورلوف ..!

وطربت كاترين، فقد سرها أن تجد رجلا من ذلك النوع الذى يمكن أن تجد بين ذراعيه ألوانا جديدة من الحب تنسيها زوجها الذى لايعرف كيف يطفئ فيها لهيب النار.

وأطلت كاترين إلى الطريق، ومدت بصرها بعيداً إلى حيث كان أورلوف يسير، ثم همست لوصيفتها فى كثير من الدهاء :

– ناتاشكا، أينا أكثر جمالا .. أنا أم الأميرة كوراكين ؟

وأجابت الفتاة على الفور :

– معاذ الله يامولاتى أن تصل تلك الأميرة إلى مافيك من روعة وأنوثة وجمال ..

واستمرت كاترين وقد سرها ذلك الإطراء :

– فإذا كان عليه أن يختار، هل يفضلنى أنا !؟

– وهل يستطيع غير ذلك يامولاتى ؟ إنى لأقسم لك لو أذنتنى ولم تفضحى نفسك وتفضحينى لآتينك به الليلة.

وأجابت كاترين :

– على ألا تخبريه من أكون !

وانطلقت ناتاشكا إلى الطريق تنتظر الرجل. ولم يدم انتظارها طويلا، إذ رأته يعود آخر الليل وقد لعبت برأسه الخمر، فانفلتت إليه فى بسمة مغرية ونظرة كلها الإغراء. ومال عليها أورلوف يداعبها. وعندما عرفت كيف تغريه انفلتت من بين يديه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى تدعوه إلى اللحاق بها ليقابل سيدتها المدلهة بحبه، على أن يعصب عينيه وألا يسأل عن اسمها المجهول. وأعجبت المغامرة الرجل، وسره أن ينقاد لتلك الفتاة فاستسلم لها. ودفعته ناتاشكا فى عربة راحت تدور بها خلال عدة طرقات إمعانا فى تضليله، حتى انتهت به آخر الأمر إلى أحد الأبواب الخلفية للقصر لتقوده إلى مصيره المجهول.

وكانت الغراندوقة تجلس فى مخدعها وقد تجردت إلا من غلالة رقيقة شفافه. وكان الرجل يذوب شوقا إلى المرأة التى تفننتا لوصيفة فى إغرائه بها. فلما دخل الغرفة وفتح عينيه وجد أمامه جسدا رائعا يصرخ أنوثة. فلم يضع الفتى شيئا من دقائق حياته. بل انطلق إليها فى جنون كحيوان برحته عذابات القفص.

وانقضى الليل إلا القليل، وهى لاتزال غارقة فى عناق ريان مع ذلك الرجل الذى ما حاول أن يسألها إيضاحا ولاطلب منها كشف سرها على الإطلاق.

وكان لابد للفتى أن ينطلق قبل أن يشرق الفجر. وعندما ذهب مع الوصيفة بعد أن عصبت عينيه من جديد، كانت كاترين قد استلقت على الفراش منهوكة القوى مستسلمة لهدأه لذيذة نشوانه.

غير أن كاترين لم تستسلم طويلا لأحلامها العذاب. فما أسرع ما أستيقظت على دبيب سريع فى القصر. وسقط قلبها بين جنبيها وهى تطل أمامها إلى أحد الضباط الحراس وقد وقف أمام الفراش. وأحست فى جسدها رعشة رهيبة جبارة وكأنها تنتظر حكما بالإعدام. ورفع الضابط يده بالتحية، وهتف :

– تحيا كاترين .. قيصرة الروسيا العظمى !

وانحطت كاترين على الفراش الذى لم يعد باردا بعد، فقد كان الضابط يبشرها بموت القيصرة خلال الليل. واعتلائها مع زوجها بطرس الثالث عشر القيصرية !

★ ★ ★

لم تعرف الروسيا من قبل قيصراً غلبته نزواته كما عرفت بطرس الثالث. وقد أدرك الناس مدى ماسيكون عليه الأمر بعد مارأوا من استهتار بطرس وأساليبه الصبيانيه حتى فى جنازة أمه. بل لقد بلغ به الاستهتار والطغيان أن راح يفرق بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأزواج من رجال حاشيته ليزوجهم من جديد بمن يشاء من نساء، حتى ضج البلاط كله بسوء تصرفه واستبداده بعواطفهم ومصائرهم جميعا. أما زوجته هو، فلم يعرها منذ اعتلى العرش اهتماما أبداً، ولعل رائحة فضائحها التى أزكمت الأنوف قد جعلته يتمادى فى هجره لها وحطه من منزلتها أمام الجميع.

غير أن كاترين استمرت فى طريقها تعشق وتحب وتدعو أورلوف من جديد إلى مخدعها بعد أن كشفت له حقيقتها. وظل العاشقان سادرين فى غيهما حتى لاحت بوادر حمل على كاترين منذرة إياها بالخطر الذى يحيق بها من القيصر، الذى يعرف هو نفسه جيدا أنه لم يقرب زوجه منذ هجرها يوم اعتلائه العرش!

وراحت كاترين تستعين بوصيفتها لتتخلص من الجنين، وتخفى مظاهر الحمل تحت المشدات والأثواب الفضفاضة. سوى أن كل محاولاتها ذهبت عبثا وأبى الجنين إلا أن يرى النور.

وفى تلك الليلة عرفت كاترين كيف تدبر أمر إبعاد الإمبراطور إلى أن ينتهى الوضع بغير علمه. فاستدعت أحد رجال حاشيتها الأوفياء وسألته العون واستعجلته الخلاص من وجود الإمبراطور فى القصر. وأعمل الفتى ذهنه جيدا ثم انطلق إلى جناحه البعيد فأشعل فيه النار وهو يصيح : الحريق ! الحريق ! وانطلق الناس يحاولون إطفاء النار. وبلغت الضجة مسامع الإمبراطور فخف إلى الجناح المشتعل ناراً. وانشغل هو ومن معه بالحريق عن كاترين التى كانت فى ذلك الوقت تضع غلامها سرا، وتكتم صرخاتها بين الأغطية والجدران.

وظل الإمبراطور الأبله يجهل كل شئ عن الوليد، وإن لم يجهل الكثير عن حياة زوجته. ولعل سوء حياته هو الآخر وفساده جعله يبعدها عن ذهنه تماما حتى كانت ليلة أخرى هائلة مجنونه.

★ ★ ★

كانت المدينة كلها قد خرجت فى أضواء لينة بيضاء، تهزج بأناشيد رائعة تحيى القيصر فى العيد الثانى لاعتلائه العرش وتهتف له. وكان القصر يزخر بألوان متباينة من صنوف من كبار الرجالات، وهالات المجتمع الروسى والسلك السياسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأجنبى، كلهم يشربون ويعربدون ويضحجون، كأن ميزان العقل لم يعد له وجود فى بلاط القيصر المخبول.

وهناك، فى ركن منزو بعيد، وقفت القيصرة كاترين ترمق زوجها القيصر وقد ابتعد عن جميع هؤلاء الرجال، وانحط إلى مائدة فى أقصى القاعة الكبرى، ومن حوله بضعة صعاليك، من خدم القيصر، يضجون وفى أيديهم الكئوس، يدقون بها كاسه، ويتبادلون النكات المقذعة ليضحكوه. وكأنه لم يجد فى كل من دعوا إلى الحفل الكبير من يستحق مجالسته، فتركهم جميعاً ليجلس إلى هؤلاء السفلة من رجال القصر، وخادمات البلاط.

وراحت كاترين، وقد غمرها خجل ضخم تحت النظرات الفارغة المشدوهة المنطلقة من عيون القوم، تقترب حيث زوجها الأبله. وأطلت إليه فى لوم كبير. ثم حولت أنظارها إلى هؤلاء الذين يصخبون معه ويضجون. فاصطكت منهم الشفاه. وانهارت القلوب وانقبضت أيديهم بلا حراك على الكئوس لايكادون يقربونها من شفاههم المفتوحة. وصرخت كاترين فى الامبراطور :

- مولاى .. إن السفراء ينتظرون تشريفكم. فهلا تركت هذه المساخر لحظات لتؤدى مايقتضيه منك واجب الضيافة نحو مدعويك !

وفى عيون تنطلق منها شرارات مجنونة، حملق فيها القيصر. وفجأة نهض من مقعده وهو يصخب، ولايزال قابضا عليه. ثم رفعه فى سرعه وقذف به القيصرة المشدوهة. وانطلق من فمه سيل من الشتائم هائل رهيب :

- اطبقى فمك يارعناء. مامكانك أنت منى ؟ أو جعلت من نفسك قيما على قيصر الروسيا العظيم !؟

وأطبق على القاعة صمت جارف. واستمرت الألفاظ الجارحة تنهال على القيصرة المسكينة التى عقدت المفاجأة لسانها، وراحت الصرخات المنطلقة مع الزبد تصك أذنيها فى دوى كالرعد :

- سأعرف يوما كيف أجعلك تقدسين زوجك وتحترمين رغبته، وعندئذ سوف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصـرخين من خـلف قضـبان الـسجن تطـلبـين العفـو والغفـران من سيـدك القيـصر صاحب العرش الكبير ...

وانسـحبت القـيصرة فى سـكون، وفى قلـبها جـحيم مشـبوب، وفى رأسـها دوامة هائلة عنيفة، لاتكاد تبين ...

ومنذ ذلك اليوم بدأت حياة الامبراطور ترتعش، وأخذ العرش يهتز من تحته .!

★ ★ ★

عرفت كاترين جيداً أن كـرسى القيصـرة لـم يعد قادراً علـى احتمال بطـرس، بكل مافيه من غفلـة ورعونة. وأدركت أن ذلك الأبله – وقد وضعت بين يديه كل السـلطات – لن يدع لـها من الأمر شـيئاً سوى الحسـرة والندم. وبدا لهـا الخطر واضـحا بعد أن عرف كـيف يستـأسد أمام ذلـك الجمع الضـخم الذى كـان يعمـر قاعة الحفـل، ومـاراح يتـابعـها بـه منذ تـلك الـليلـة من صـنوف الـشتـائم والاتهـامات، حتـى لقـد جاءهـا من ينبؤها بأن الإمبراطور – وقد تحركت فيه بـقايا من غيره وكرامة – قد قرر أن يؤدبها ويحبسـها عن عشـاقها، فإذا أبت إلا أن تسـتـمر فى عنادهـا، فسيطـوف بها فى شـوارع العـاصمة ويعلق على ظهرهـا إعلانا يكتب عليه بيده «هذه ولادة سفاح وأم لقطاء ..!»

ولـم يعد من سبيـل لمقاومة الإمبراطور سوى أن تعترف كاتـرين بأن الأمر قد بات سباقا .. الفوز فيه لمن يخطو الخطوة الأولى. وكان لابد لها أن تفوز..

وأرسلـت كـاترين تسـتدعى جريـجوار أورلـوف. لقـد عرفت فيـه فتى صـارمـا قويا. يعرفـ جيداً متى يضـرب، ومتى يثور، ومتى يدبر المؤامرات ...

ومـا كان أسرع جريجوار فـى فهم الخطة. فقد كان قد سبقها هـو نـفسه فى البحث عـن طريـقـة يبـعـد بهـا الإمـبراطـور لـيخـلو لـه الجـو فى الـسـيطـرة عـليـهـا .. وعلـى الإمبراطـورية. وكان لجويـجوار إخوة ثلاثـة، جمع بيـنهم الاسـتـهتار، وحب المـغامرة، وصـلابة القلب. واجتمع الأربعة يدبرون المؤامرة. ويستعدون لكل طارئ جديد ..

وكان أول خيـط بدا لهم فـى تصرف الامبـراطور الخاص. فقـد كان بطرس قـد قرر صـرف حراسه وتجريد الضباط من رتبهـم، وقلب الأوضـاع منذ آل إليه الـحكم. فعرف الإخـوة كـيف يـشـتـرون الحرس، والـضـبـاط جمـيـعـا، بمـال باعـوا مـن أجلـه بـعـض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجوهرات كاترين. وكان الإمبراطور قد قرر إبدال مذهبه الدينى، فعرف الإخوة كيف يستغلون ذلك ويندسون فى صفوف رجال الدين ويثيرونهم باسم كاترين المتمسكة بدينها ..!

ثم كانت الخطوة الثانية. فقد اعتاد بطرس قضاء بضعة أيام من كل أسبوع فى قصره الخلوى فى «أورينا بنوم» ثم ينتقل منه إلى قصره فى بترهوف حيث يقضى مابقى من أيام ليعيد الكرة من جديد. وعرف المتآمرون كيف يدبرون الأمر كله حتى لايفلت منهم أى شئ.

ومضى من الليل شطره الأول .. وكاترين تنتظر فى بترهوف ذلك النبأ الذى دبرت من أجل تنفيذه كل شئ. وسمعت وقع حوافر جواد سريع. فاقتربت من النافذة وأطلت فى لهفة. ولمحت الضابط الكسى أورلوف - أحد الإخوة الثلاثة - يقفز فى سرعة من فوق صهوة الجواد، وينحدر سريعاً إلى مدخل الجناح الخاص. وجهدت أن تظهر أمام الكسى فى أعصاب من ثلج. وصرخ الفتى :

- مولاتى .. أسرعى .. لقد اكتشف الإمبراطور المؤامرة ..!

وصرخت كاترين :

- كيف ..!؟

وهتف الفتى :

- لقد وقفت القوات عند منحدر التل فى انتظار مرور الإمبراطور. وفجأة سأل أحد الجنود ممن معنا ضابطه .. متى نهاجم الإمبراطور ..؟ ولم يكن الضابط منا، فجزع وانطلق كالسهم فى الاتجاه الذى يأتى منه الركب الإمبراطورى، ولم نستطع اللحاق به فلوينا أعنه جيادنا وعدنا مسرعين لنصل إليك قبل وصول القيصر.

واختلجت الإمبراطورة، واستمر الضابط الشاب :

- أسرعى يامولاتى. ليس للإمبراطور مهلة. انهضى واتبعينى فقد دبرت سبيل الفرار ..!

وأسرعت الإمبراطورة فى ردائها، وانطلقت مع الفتى إلى عربة كانت فى انتظارها جرت بهما فى الطريق إلى العاصمة .. بطرسبرج ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمرت العربة فى طريقها تقطع أميالا طويلة غير وانية. سوى أن الأمر لم يكن ليمر سهلا، فما كادت تشرف على نهاية الطريق حتى اهتزت العربة فجأة، وانخلعت عنها إحدى العجلات، وكادت تؤدى بحياة الإمبراطورة.

غير أن كاترين أبت إلا أن تستمر فى الطريق، ولو سيراً على الأقدام. واتكأت الامبراطورة الهاربة على ذراع الضابط الشاب وراحا يقطعان الطريق فى عزم، ممتزج برهبة عارمة حتى لقيا فلاحا يسوق عربة سباخ، فأسرع إليها الضابط، وألقى بالفلاح على الأرض، ثم حمل الإمبراطورة ووضعها فوق السباخ.. وانطلقا سراعا نحو العاصمة من جديد ..!

ومضت ساعات خمس طويلة قاسية، وانحدرت العربة بالإمبراطورة إلى باب القصر فى بطرسبرج. وفتح حرس القصر عيونهم فى دهشة وبلاهة وهم يشهدون الإمبراطورة تهبط من فوق العربة وقد غمرتها آثار السباخ. ووقفت كاترين بينهم وهى تلهث، ومن عينها تتساقط دموع، وراحت الكلمات تخرج من بين شفتيها متقطعة، فيها مثل الأنين :

– إن زوجى القيصر أراد اغتيال حياتى الليلة أيها الجنود الشجعان .. من أجل هذا هربت إليكم، لتحمونى من الطغيان .. لأنكم حماتى وملاذى .. يا أبطال روسيا العظام ..

وفتح الضباط عيونهم من جديد، ثم انطلقت من بين شفاههم هتافات داوية :

– لتحيا الإمبراطورة .. وليسقط الإمبراطور ..!

ومن خلفهم دوت أصوات الجنود ..

ورفعت كاترين قامتها. وتقدم إليها فيلبوس قائد الفرسان. ورفع يده بالتحية واختلجت شفتاه يريد الكلام.

وانطلقت كاترين فى عزم :

– فيلبوس .. لست بحاجة إلى نصحك .. قل فقط .. ماذا تنوى ..!؟

وارتعش الرجل لحظة .. ثم خرجت من بين شفتيه كلمتان فى هدوء :

– الطاعة لجلالتك ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى لحظة .. انتهى الأمر. وتسلمت كاترين الترسانات ومخازن الذخيرة. ولم تمض ساعتان حتى كانت كاترين وحدها على العرش، تحت أمرها جيش روسيا الضخم.. وتحت قدميها العاصمة كلها ...

وأما فى بترهوف، فقد كان الإمبراطور لايزال هناك. سوى أنه لم يكن يلعب بعد بجنوده الخشبية. وفرسانه المصنوعة من الشمع، بل كان يضرب فى هذه المرة رأسه، وقد طار مابقى فيه من صواب قليل، بعد أن عرف أن زوجته قد اغتصبت منه العرش، ولم يعد بعد إمبراطورا ..

وظل بطرس فى كل لحظة يضرب رأسه، ثم بدا له أن يكتب إلى كاترين معترفا بخطئه، طالباً إليها مشاركتها فى الحكم. وجاء الجواب سريعاً مع الكونت «بانين» مندوب الإمبراطورة، الذى طلب منه أن يكتب إقراراً صريحاً بعدم صلاحيته للحكم، ونزوله مختاراً عن العرش ..!

وعجز بطرس عن المقاومة وهو يرى بانين فى الحجرة وحده معه، وفى يده سيف حاد ..

وكتب بطرس تنازله عن العرش، وإن احتفظ مع ذلك بلفظ القيصر. وتسلم بانين الإقرار بيد، وأخذ القيصر بيده الأخرى إلى قصر روبكا .. ليغلق عليه الأبواب ..!

★ ★ ★

جلست كاترين تطل بعيداً إلى البساط السندسى الفسيح الممتد أمام القصر. ولاح لها فى الأفق مابدا كإشارة استفهام كبيرة. اجل .. لقد جلست وحدها أخيراً على عرش الروسيا وصار العالم الروسى كله بأراضيه وأنهاره وخيراته ملك يديها. ومع كل ذلك فهى لاتزال أمام الناس زوجة لذلك الرجل الذى جعلها تعيش ثمانية عشر عاما سوداء فى جحيم من الشك والعزلة والعسف. بل إن شبحه لايزال يتراءى لها مخيفاً هائلا، فهو برغم أنه يعيش الآن فيما يشبه السجن، إلا أن له أصحابا وأتباعاً، ولايزال لديه حرس هولستين وقد ساءهم ما أصاب إمبراطورهم من ذلة ومهانة وتحقير. وإذن فلا يزال فى الأمر مايخيف، ولابد من أجل ذلك أن تنتهى من ذلك الرجل كشبح، كزوج، وكعدو .. وكقيصر ..!

وجلست القيصرة تلك الليلة فى مخدعها فى انتظار الكسى بعد أن أرسلت إليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدعوه. وكانت قد قررت فى راسها أمراً، كما كانت قد اعتزمت من قبل أن تنتقم من ماضيها الأسود بالارتماء فى أحضان كل من اشتهاها .. حتى ولو كان الإخوة أورلوف الأربعة جميعاً ..!!

وجلس الكسى أورلوف إليها فى نشوة وهو يستمع إلى حديثها العذب الرقيق، الذى راحت تلقى به فى أذنيه تشكره لجهوده التى بذلها فى مساعدتها على الاستيلاء على العرش. وركع الكسى أمامها مدت كاترين يدها لتنهضه وهى تقول هامسة :

– والآن .. مارايك فى أن تكون عشيق القيصرة !؟

وأجاب الفتى :

– ولكن أخى جريجوار .. و .. ولست أستحق هذا الشرف يامولاتى.

واجابته فى دهاء :

– دعك من أخيك فلن يعرف من أمرنا شيئاً. اما انت فاراك جديراً جدا بهذا الشرف. ولم لا .. إن فى ساعديك يا الكسى قوة ضخمة تسهل عليك كثيراً مهمة ضم الفتيات إلى صدرك. ولكنها مع هذا قوة تكفى لكى تضرب.. تضرب القيصر ..؟

– أضرب القيصر ..

اهو أمر جلالتك !؟

وهزت كاترين راسها وهى تجيب فى هدوء :

– هو ذلك .. فلم اعد أطيق حياته كزوج. وإن وجوده حياً ليمنعنى من أن أكون بكليتى لكم .. أفهمت يا الكسى ..!؟

وركع الكسى مرة ثانية، وهمس فى ذهول :

– ليحفظ الله مولاتى ..!

ومدت يدها مرة أخرى ترفعه من الأرض :

– لست مولاتك عندما نكون منفردين يا الكسى. إذ يكفى أن تدعونى كاترين .. فقط كاترين ..!

وتمتم الكسى وهو ينهض :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- كاترين .. كاترين .. كاترين الكبرى ..!

وفى اليوم التالى، كان ألكسى يدخل على القيصر فى سجنه بقصر روبسكا، ليجلس معه يسليه، ويحدثه حديث ندم زوجته، ويشرب معه كأساً من الفودكا ..

وبدأ صواب القيصر يعود إليه، وقد تصور أن زوجته قد أذلها الندم، فأرسلت إليه معتذرة خاضعة من جديد. وراح يكرع الفودكا فى نهم لذيذ.. نخب النصر.

غيرأن الفودكا لم تكن نخب النصر بل كانت نخب الموت الذى سرى فى دمه مع الزرنيخ القوى. ونهض القيصر وقد أحس بالمؤامرة. وأراد أن يقاوم. ولكن ألكسى ألقى به على الأرض كوحش، وراح يضغط على عنقه بيديه، ثم حشا فمه بمنديل كبير ..!

واستقبلت القيصرة ألكسى، وهى جالسة مع رجال مشورتها. وهمس فى أذنها بالنبأ فلم يبد عليها من ذلك شئ، لأنها مارغبت فى إذاعته إلا بعد أن تهيئ الأذهان. واستمرت فى جلستها تبدى البشاشة والانشراح. وعندما انتهى الاجتماع انطلقت كاترين إلى غرفتها، يتبعها ألكسى أورلوف. فلما غادر ألكسى الغرفة فى الصباح كان يبتسم .. وكانت قدماه لاتكادان تحملانه ..!

وفى ظهيرة اليوم التالى، بينما كاترين تتناول الطعام على مائدة عامة، أعلن موت القيصر. وقطبت القيصرة جبينها، وانحدرت الدموع من عينيها غزيرة جارفة. ورفعت المائدة. وانطلقت كاترين إلى غرفتها تحتجب أياما لحزنها الشديد .. وخرج بعد ذلك بيانها على الشعب :

«شاءت إرادة الله القدير أن يتوفى الإمبراطور بطرس الثالث عن هذا العالم فى نوبة مرض شديد كان يلزمه من زمن بعيد. رحمه الله، وألهم شعب روسيا العظيم الصبر فى مصابه الكبير» ...!!



عاد جريجوار أورلوف الأكبر بعد أن قمع كل الحركات التى قامت تناهض الإمبراطورة، وعاش حياة جديدة رائعة هيأتها له جيداً تلك العلاقة الصاخبة بينه وبين كاترين الثانية، بعد أن أنعمت عليه بلقب كونت ..

وفى الحق، أن كاترين قد وجدت فى جريجوار – اكثر من إخوته – رجلا مليئاً بالعنفوان، يرضى فى أعماقها كل شئ .. ويهصر كل ليلة ذلك الجسد الضائع الذى عاش طويلا يجهد فى البحث عن ذراعين قويين يضمانه فى عنف ولذة، وشعف كبير ...

ومنذ تسلمت كاترين عرش القيصر وحدها، راحت النعم تهبط سراعا على جريجوار الضابط الشاب، ذى الجسم الفارع كواحد من آلهة اليونان. فهو صاحب الكلمة العليا فى القصر كله، ومالك الضياع الواسعة والثراء الفاحش العريض. وهو وحده الذى يجد لنفسه المكان الأول إلى جوار القيصرة، يقف إلى جانبها بحذائه الثقيل ككلب أمين، فى يمينه سيفه، وعلى يساره رأسه ليقتل أو يقتل ..!

وتمر السنون وهو فى مكانه يحرسها، ويتبعها بعينه، ولاينسى أن يداعب أولاده الثلاثة الذين أنجبتهم له القيصرة ويقول لها كل يوم نفس الكلام الذى قاله لها فى أول يوم رآها فيه ...

وكان فى كاترين ولع إلى الزهو. وعرف أورلوف دائما كيف يغذى فيها ذلك الشوق ليمكن لنفسه مكانا دائماً عربيدا. وراحت كاترين تنصت إليه فى شغف وهو يقول :

«كاترين، كم أود أن أتفهم كل أفكارك النيرة العامرة بالعظمة، والحكمة، والروعة فى كل شئ. إنى لأكاد أشعر بجهلى الذى لاحد بعده متى استمعت إلى نقاشك مع رجال العلم وأساطين الفكر فى المملكة. على أنى مع هذا ياحبيبتى ما أكاد أفهم سر قبلاتك الحارة الساخنة عندما أضمك إلى صدرى ونذهب سويا فى حلم جميل ..!»

على أن كاترين تعذبت طويلا فى ذلك الحب. فمثل كل حيوان صاخب، بدأ أورلوف يتلون وينقلب ويضج ويعب الخمر فى جنون. لكنها مع كل ذلك لم تهتم لسكره، وعربدته وحيوانيته، بقدر ماكان يلذها ويغمرها بالسعادة العارمة أن يطرحها فى أحيان كثيرة على الأرض، كلما غضب منها، ويظل يضربها بقبضة يده، حتى يدمى جسدها المضطرم ليعود فيضمها فى عنفوانه مرة أخرى إلى صدره العريض ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يدرك جيداً أنها تعشقه، ولاتطيق فراقه على الإطلاق. فبدأ يعذبها ويشعرها بأنه قد سئمها. وراح يهجرها أسابيع، يعشق خلالها وتحت سمعها وبصرها جميع خادمات القصر. ولكنها مع ذلك لم تسأمه قط، ولم تضق به، بل كانت فى كل مرة تنعم عليه بالنياشين وتهديه القصور، والضياع، والقرى كاملة بأسرها ..

واستمر أورلوف يرتفع، ويعلو، ولاتدول دولته قط. بل لقد جاء من الأسباب ماجعل روسيا كلها تقيم له نصباً تذكارياً فى موسكو نفسها. ولم يكن فى الأمر بدعة. فقد انتشر وباء الجدرى فى البلاد بشكل خطير هدد العاصمة فى غير رحمة. وأطلت كاترين حولها، فلم تجد سوى أورلوف العزيز يستطيع أن يقود الحملة ضد الشعب الجاهل الذى أبى أن يحقن بالمصل الواقى، وفضل الموت على أن يمسه مبضع الشيطان ..!

وكانت الفكرة السائدة فى روسيا أن على المرء أن يستسلم فترة من حياته لمرض الجدرى، وأن من العبث مقاومة المرء للطبيعة ومناصبتها العداء بوسائل صناعية تافهة. من أجل ذلك ضج الشعب حين علم أن الإمبراطورة قد أرسلت تستدعى من انجلترا ذلك الطبيب الذى اكتشف المصل الواقى من الجدرى، وبدأ يهتف ضدها حين وصل الطبيب ومن حوله رهط من الأطباء المساعدين وكميات وفيرة من الدواء الذى اعتبروه وسيلة من وسائل الشيطان. بل إن الشعب الصاخب راح يهاجم أماكن توزيع المصل مفضلا الاستسلام للطبيعة والموت بالآلاف، على الخضوع لمبضع قادم من وراء البحار ..!

وتولى جريجوار القيام بالحملة ضد الشعب. وفى حزم وعنف راح يكره المترددين على التطعيم بقوة السلاح. ونجحت حملة العاشق، وأوقف الوباء الزاحف، وعاد الرجل وعلى رأسه أكاليل النصر .. وفى انتظاره نصب تذكارى رائع يخلد ذكرى كفاحه الكبير ..!

على أن جريجوار لم يكن يستطيع أن يغيب فى ذلك الحلم إلى الأبد. فذات يوم وكان على رأس الجيش فى ميدان الحرب مع الأتراك، إذ نمى إليه وهو مستلق على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فراشه فى الخيمة يستريح، أن علاقة جديدة قد بدأت تقوم فى موسكو بين القيصرة التى تركها هناك .. ومنافس له جديد.

وانتفض الرجل، ونسى مهمته، وقفل فى الحال عائداً ..

وفى نفس الوقت الذى وقف فيه جويجوار على أبواب العاصمة، كانت كاترين تستلقى على فراشها، وتتحدث إلى ناتاشكا وصيفتها العجوز :

– ناتاشكا .. ماذا يفعل الإنسان بالأيقونة عندما ينالها البلى ؟!

وأجابت الأخرى فى بساطه :

– إنه يلقى بها فى النار ..!

وهزت القيصرة كتفها وقالت :

– كلا .. بل يلقى بها فى الماء ..!

وقد كان .. وبدأ اسم جريجوار أورلوف يسطر مع من سبقوه فى قائمة عشاق القيصرة السابقين ..!

★ ★ ★

استمرت يد التاريخ تضيف كل حين إلى القائمة واحداً من العشاق. وماكانت كاترين لتهتم بذلك العدد الضخم من الأسماء التى تزداد واحداً بعد واحد، بل لقد كانت تنسى كل شئ عنهم متى جعلتهم يودعون الحياة، لاتتذكر حتى هذه المئات من ملايين الدولارات التى أنفقتها عليهم من دم الشعب الذى كان يجوع ويشقى فى سبيل لذات الآخرين .. الضرائب العاتية تنهال عليه، والجوع الصاخب يرهقه، والرعايا .. هم أنفسهم .. ينقلبون إثر كلمةواحدة، أو جرة قلم، إلى مادون الرقيق، ينقلون كالماشية من قرية إلى قرية، ومع هذا فلا أحد يستطيع أن يتكلم لأن كاترين كانت قد رسمت لنفسها سياستها الخالدة التى تقول «على الملوك والملكات أن يسيروا فى أحكامهم لايعبأون بصيحات الشعب، تماما كالقمر الذى لايعبأ بنباح الكلاب ..!»

وجلست القيصرة ذات مساء، وقد جاوزت الأربعين، تلعب الورق معه نفر من رجال القصر، عندما زاحم الجميع ضابط شاب من ضباط الحرس ليكون قريبا من القيصرة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطل إليه الجميع. فما كانوا – وهم ذلك الرهط من العشاق والمعجبين – ليطيقوا أن يجد عليهم جديد. غير أن الذى ضاق بالأمر أكثر من سواه كان ألكسى أورلوف شقيق جريجوار وقاتل الامبراطور، وقد استمر منذ ذلك الوقت واحداً من عشاق القيصرة البارزين.

ضاق ألكسى بالضابط الصغير وانتهره وأمره بالابتعاد، غير أن الشاب لم يأبه له بل انحنى على القيصرة ليقول معلقا على لعبة أتقنت أداءها :

– إنها ضربة صائبة، لعبتها يد رائعة جميلة فاتنة .!

وبينما كاترين ترفع نظرها إلى المتحدث وقد سرها تعليقه، كان ألكسى قد قبض على ذراع الفتى، ودفعه بقوة إلى الوراء .. فاصطدم بمائدة البلياردو المقام فى جانب من المكان ..

وصرخ الفتى فى حقد :

– ارفع يدك عنى أيها الكلب القذر ..!

وبهت ألكسى لوقاحة الضابط. وأطل إلى القيصرة فإذا فى عينيها لمعان غريب، وقد سرها تكالب العشاق وصراعهم من أجلها.

وخرجت الكلمات من بين شفتيه وكلها الجنون :

– إذهب إلى جوار أمثالك من صغار الضباط أيها الحقير، فليس لمن كان فى رتبتك الوضيعة أن يتحدث إلى مولاتى فى مثل هذه البساطة ..!

وهز الفتى كتفيه وقال :

– إنى إنما أتحدث إلى مولاتى بالطريقة التى ترضى بها هى نفسها .. وليس بالطريقة التى ترضى بها أنت .. أيها المأفون ..!

وامتدت فى الحال يد ألكسى إلى كرة البلياردو فقذف بها الشب فى قوة. وفى لحظة، اندفع الدم يغطى وجه الضابط الصغير، ويلطخ أرض المكان، بعد أن أنفقا من إحدى عينيه مركز الإبصار ..!

وهز ألكسى كتفيه وقال وهو يعود إلى اللعب :

– أحملوه إلى الخارج أيها الجنود .. إنه شاب وضيع تافه ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن الشاب الوضيع التافه، ارتفع منذ ذلك اليوم من حضيض التفاهة إلى سماء المجد، وسجل التاريخ اسم جرسجورى بوتمكين .. العاشق الواحد بعد الخمسين ..!

وفى الحق إن ذلك الحادث الذى أودى بعين الرجل، قد جعل منها هى نفسها عبدة له مختارة. ولم يكن هو بالشاب الجميل، الفاتن، الذى يلهب قلوب النساء. بل كان مارداً، قبيح الوجه، من منبت وضيع، وسمعة جريحة، فى أغوار نفسه تجتمع كل الخلال المتناقضة، لايحجم عن أمر، ولايبلغ ظلمة غاية، ظلوم فاسق، مبذر، لم يفتح كتابا قط، ولكن يعرف كل شئ ولاينسى شيئا على الإطلاق. إذا سخطت الامبراطورة على ندمائها يعرف كيف يبقى لها حاجة إليه، ويروح يلقى فى أذنها أبياتاً من الشعر عامرة بالخيالات ويقول : إن الحب ليبحث عن رفيقه فى كل قلب، حتى ولو وجده فى قلب ملكة قادرة، أو فى قلب نزيلة كهف.

وكان قلب كاترين ينهار دائماً تحت نظراته، وفى أعطاف أبيات شعره وهو يقول لها : منذ أول لحظات رؤيتى لعينيك الحالمتين، شعرت فى أعماق القلب أنه يجب على أن أدفئ ذلك الصدر، وأضم إلى قلبى ذلك القلب الكبير ..

وكان لابد لكاترين أن تسلم القياد لذلك الرجل الذى ملك العنفوان والشباب، وأن تحبه حب المرأة التى ولى عنها الشباب، لسنوات لاتدرى كيف تنقضى، وهى ترشف فى قبلاته رحيق الهوى، وتنهل بين أحضانه من ينبوع الحياة، وتأخذ بها اللذة العارمة لمجرد أن يلمسها بيديه ..!

على أن ذلك الرجل الذى عاش فى أفخم القصور، وصارت له الكلمة الأولى فى الإمبراطورية المترامية الأطراف، لم يكن يسير فى القصر إلا حافى القدمين، أشعث الشعر، واضح اتساخ البدن، تفوح مع أنفاسه رائحة مفزعة ممتزجة بالبصل والثوم، لايعمل حسابا قط لعواطف القيصرة، بل يتركها تتقلى كلما غاب، وتبتئس كلما تأخر، ويهز كتفيه فى سخرية وهى تدعوه «بحمامتى الذهبية» البارعة.

استطاع بوتمكين ببراعته الاحتفاظ بحب القيصرة وتدلهها خمسة عشر عاماً كاملة، صار فى خلالها القائد الأول لجيش روسيا العظيم، وإن كان مع هذا المنصب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفخم يرتعد من قمة رأسه إلى إخمص قدميه إذا سمع صوت طلق نارى، أو قذيفة مدفع ..!

وفى عيد الميلاد الخامس عشر لذلك الحب الطويل، اتفقا على أن يستمر فى التوسع نحو الجنوب، ليعيد بناء إمبراطورية تبز إمبراطورية الإسكندر الكبير.

وذهب الرجل على رأس الجيش إلى الميدان. وفى خلال غمرات النصر بدأت تصك أذنيه ألوان من اللغط صكت مثلها من قبل آذان جريجوار أورلوف، عن مغامرات عجوز جاوزت الستين تسعى نحو دم جديد شاب يدفئ الصدر الذى ينهار، على أنه لم يفعل كما فعل أورلوف بل استمر يحارب وهو يعلم أنها ترتكب الخيانات وهو صامد يقاوم الأعداء فى بلاد الأعداء ..!

وعاد بوتمكين إلى موسكو يستشير الإمبراطورة قبل أن يعقد الصلح، فوجد حولها زمرة من العشاق الشبان على رأسهم فتى بارع، اسمه فاسيلشكوف وجدت فى شبابه الحار مايستطيع أن يحيى موات القلب الذى كاد يبرد منذ سافر حبيبها بوتمكين إلى الميدان.

غير أنها برغم ذلك كله كانت تحب بوتمكين، فلم تكترث حينما عاد أن تلقى بالفتى الصغير من حالق لتعود إلى عشيقها الذى كان لايزال يعرف الطريق إلى قلبها الحار. أما هو فكان قد قرر فى نفسه ألا يضيع الفرصة هذه المرة، وعزم على اتخاذ كل السبل لحملها على أن تجعل منه زوجاً شرعياً يشاطرها الحكم .. ولا بأس بعد ذلك أن تفعل ماتريد!

وانطلق معها يوما إلى دير ترويتزا حيث كانت قد آلت على نفسها، إرضاء لشعبها، أن تقدم الفروض الدينية، وتحمل النذر إلى القديس سيرج.

واستلقت كاترين فترة الظهيرة فى حجرتها بالدير فأخذت بها إغفاءة لذيذة، نهضت منها فجأة لتبحث عن حبيبها بوتمكين، ولم يكن أحد ليعرف أين ذهب. وانطلقت كاترين فى المروج الخضراء حول الدير تفتش عنه بنفسها، وعبثاً حاولت العثور عليه. وأخذ منه الجهد فانحطت على مقعد داخل البستان حيث كان شباب الرهبان يروحون ويغدون. ومرت بذهنها أفكار متتابعة عديدة لم يخرجها منها إلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صوت راهب عجوز يقترب منها. ولعلها وجدت راحة فى أن تتحدث إليه، ولعله هو نفسه كان قد جاء ليحدثها هو أيضاً. وسواء كان هذا أو ذاك فقد راح الشيخ يقول لها بعد لحظات من الوعظ والتبريك والدعوات :

– أأنت أيتها الإمبراطورة العظيمة، تستسلمين لتلك الإباحية المطلقة وفى إمكانك أن تتخذى لنفسك زوجاً ..؟ اذكرى يا ابنتى أن هناك حساباً ستؤدينه يوم القيامة، ولن تستطيعى الوقوف وحدك بلا زوج يبرر روابطك الجسدية أمام الله ..

وفى تلك اللحظة أقبل بوتمكين. ولشد مافاجأها فى مسوح الرهبان التى كان يرتديها بعد أن خلع عنه أثوابه الحريرية وسيفه الذى طالما اهتز إلى جانبه. وارتمى بوتمكين أمام كاترين فى حركة تمثيلية بارعة، وأمسك بأطراف ثوبها ثم قال :

– سامحينى يامولاتى .. فيشهد الله كم أحبك .. ولكنى قد نذرت لله أن أتوب وأكفر عن خطاياى مادمت لا أستحق أن أكون زوجاً شريفاً..

وتابع بوتمكين حديثه وهو لايزال راكعاً أمام الإمبراطورة :

– لطالما أردت يامولاتى أن أخدمك وأخدم شعبك كوزير خطير أو مطران جليل.. ولكنك رفضت الأولى بامتناعك عن أن تتخذينى زوجاً، فلم يعد أمامى إلا الثانية ياكاترين. وهكذا أجدنى مضطراً إلى أن أنذر نفسى إذا ظللت على امتناعك، لأكون خادماً حقيراً من خدامه تعالى.

ولم تكن كاترين من الغباء حتى تنطلى عليها التمثيلية البارعة. فأبت إلا أن تدعه يقع فى الحفرة التى حفرها لنفسه. ومسحت كاترين على رأسه أمام الرهبان وهى تقول :

– لست بمستطيعة يابوتمكين أن أثنيك عن عزمك بعد أن نذرت نفسك خادماً لله العظيم .. ولست أجدنى أحق بك من الله، ولن أجد فى نفسى القدرة على أن أحول دون عبد مخلص والقيام بواجبه نحوه تعالى، يهتف له ويدعوه أبداً .. لن أحول دون أن تؤدى رسالتك الإلهية التى اضطلعت بها منذ الآن .. وإننى لأستودعك الله مخلصة داعية.

ولم يكن بوتمكين يستطيع أن يتراجع بعد أن ارتبط بوعده أمام الرهبان جميعاً ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا تركته كاترين وعادت إلى القصر. ولم يجد هو إلا أن يستمر فى الدير يظهر التعبد لله ويطلب الغفران منه.. وفى الوقت نفسه يدبر وسيلة جديدة للوصول إلى هدفه الكبير.

قضى بوتمكين عدة اشهر فى الدير، وكاترين فى خلال ذلك تنتقل بين أذرع كل شاب مليح من شبان القصر، ولكن بعد اختبار صحى طويل يفحص فيه الشاب قبل أن ينعم بصحبة الإمبراطورة. وقررت كاترين أن تظل تتبع تلك القاعدة حتى نهاية حياتها لتأمن شر اى مرض قد ينقله إليها فتى من الفتيان. وكان الفحص الطبى يتم فى مستشفى الدكتور روجرسن الذى لم يكن يترك عضواً فى جسم الفتى إلا أمعن النظر فيه. ثم ينتقل الفتى بعد ذلك إلى فحص من نوع آخر يتم على يد الآنسة بروتاسوف والكونتس بروس، اللتين عهدت إليهما القيصرة مهمة اكتشاف قوى القادم الجديد، وقدرته على تأدية الواجب الذى عليه أن يؤديه بعد. ولطالما نعمت الآنسة والكونتس بهذا الفحص .. ولكن الويل لأيهما لو حاولت تكرار التجربة ..!

وعرف بوتمكين أن مهمته لو أراد أن يعود إلى القصر هى أن يرضى الإمبراطورة بتقديم ألوان من الأطعمة جديدة شهية، شبانا تملؤهم فتوة وخصوبة وعنفوان .. يضمن من ورائهم البقاء فى القصر من جديد، ولو لم يعد زوج القيصرة.

وقد كان .. وعاد بوتمكين إلى القصر ليقوم فى مسوحه الكهنوتى بمهمة مطران جليل .. وليقوم إلى جوار ذلك بمهمة إرضاء الإمبراطورة.



كان «لانسكوى» هو آخر مطاف الامبراطورة كاترين فى حياة عشقها الفاجر الطويل. وكان لانسكوى واحداً من بين شبان عديدين أرضى بهم بوتمكين مولاته الإمبراطورية ليظل هو قابضاً على صولجان الحكم بيد من حديد، بعد أن زاد اتساع الإمبراطورية على يد قوادها الذين راحت ترسلهم إلى كل أرض تحيط بإمبراطوريتها الكبرى. وكان بوتمكين يعرف فى خلال ذلك أنه الإمبراطور الفعلى لا كاترين، فما كان يقضى أمر إلا بمشورته، ولاينفذ قانون إلا بتأييده.

وقدم بوتمكين ذلك الشاب لانسكوى إلى سيدته. وكان الفتى فى الثانية

والعشرين، أنيقاً فاتنا. وقدم الفتى للفحص لدى الآنسة بروتاسوف فأثبت علو كعبه، وتلقفته كاترين لتسترد به حرارة شباب ولى مع الشيخوخة التى تركت فى وجهها وجسدها آثاراً قاسية، وإن لم تعرف كيف تبرد ذلك القلب الذى كان لايزال كلما كبر يزداد اخضراراً وفتوة وضراماً.

وجلست العجوز المتصابية إلى الفتى الرائع، فما بدا منه شئ مما أثبته فى صحبة الآنسة بروتاسوف ذات الشباب الموفور. وانداحت النار فى عينى الإمبراطورة، وأسقط فى يد الفتى الذى علاه اصفرار ضخم تحت النار الملتهبة التى راحت عيناها تقذفانه بها بعد أن خانته قواه .. وبدأ الفتى يبكى ..!

ولعل الرفق قد أخذ كاترين على الفتى الذى راح يبكى. ولعله قد بدا لها أن الحياء هو الذى جعل الفتى يتهاوى أمامها لتقديسه إياها ومحبته لها حب عبادة. فتملكت أعصابها قليلاً وراحت تداعبه وتسرى عنه، وهو فى خلال ذلك يعمل فكره لينقذ نفسه من المصير الأسود الذى بدأ واضحاً أمام عينه. ولمع فى رأسه خاطر فجائى.. فقد ذكر أن طبيبه كان قد أعطاه حبات من العقاقير، فسارع يلتقطها من جيبه ويبتلعها وينتظر الفرج الذى أتاه بعد لحظات.. فراح ينتقم من تلك اللحظات السود التى مرت به وكادت تورده حتفه السريع.

وعرف الفتى بتلك الحرارة المصطنعة التى راح يلهبها فى أعماقه بالعقاقير كل يوم، كيف يشعر الإمبراطورة بحبه المجنون. ورح يقضى أياماً مترعات انست كاترين عرشها ونفسها وكل شئ.. عدا ذلك الشباب الدافئ الذى عاد يدب فيها من جديد فى صحبة ذلك الفتى اليافع صاحب الاثنين والعشرين ربيعاً.

على أن جسد الفتى لم يحتمل طويلاً تلك العقاقير التى راحت تهد كيانه وهو لايحس، حتى جاء اليوم الذى انهار فيه وسقط من حالق، وانطرح الفتى محطماً منهوكاً لايقوى على الحراك تحت حمى خبيثة ملعونة. واستدعت له كاترين كل أطباء عاصمتها عساهم ينقذون فتاها الحبيب. ولكن العلة كانت مستعصية على قدرة الأطباء الذين يلازمونه، فلم تؤمن بهم جميعاً، ولزمت فراش الفتى أياماً لاتغادره أبداً، فما كانت لتستطيع أن تصدق أن ذلك الشباب يمكن أن يذبل، وذلك الجمال يمكن أن يذوى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانطلق الفتى من ذلك العالم ذات ليلة، حاملاً معه كل راحة يمكن أن تسود روح الإمبراطورة التى عزت عليها السلوى وضاقت بالحياة ذرعاً وماعادت تتذوق طعم الحب بعد ذلك على الإطلاق..

واستمرت السنون تمضى، وتقدمت السن بالقيصرة أكثر، وترهل منها الجسد وتضخم حتى لم تستطع قدماها حمله، وبعد أن كانت تتوكأ على عصا، بدأت تتحرك على عربة ذات عجلات. وبالرغم من أنها فقدت أسنانها جميعاً إلا أنها عادت تبحث عن حب جديد وتقول محدثة نفسها :

«أنا أعرف أنى مذنبة .. ولكنى لا أدرى ما أفعل ؟ لقد لعبت طول حياتى دوراً خبيثاً تعساً. واشتريت حب رجال كثيرين. ولكنى لم أمنح أحدهم حبى الأبدى. وفى هذا يكمن سر قلقى، فما وجدت الحب المنزه قط. ومع ذلك فسأظل أبحث لعلى أجده آخر الأمر».

على أن كاترين لم تجد الحب أو الحياة بعد ذلك أبداً.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مـاري انطـوانـيت
خلـقت للحـب .. والمـوت

كيف أكون زوجاً ..!؟

كان هذا هو السؤال الذى راح يدور فى رأسه صاخبا كدوامة، منذ خرج من قصر جده الشيخ قبل ذلك بساعات ..

وفى الحق، أنه لم يكن من قبل قد أدرك من أمر نفسه شيئا. وكان فى الأعماق منه فتى هادئاً عفا، يجهل من أمور الحياة والحب كل شئ.. فلا مغامرة، ولاخمر، ولانساء، ولامتاع. أبدا، لم يكن يعرف شيئا من ذلك على الإطلاق .. بالرغم من أنه يعيش فى قصر زاخر بالمغامرات الصاخبة، والشراب الفاخر، واللذاذات الساخنة، تمنحها كل نساء ذوات شفاه دسمة، وصدور متفجرة، ومتعات شهية، لجده الملك لويس الخامس عشر، سيد عشاق باريس ..

ولم يكن هو – ولى العهد – بالذى يستطيع أن يغامر، أو يعشق، أو ينال شيئا من كل هذه المسرات الدافئة، والألوان الباهرة المفعمة بالرزايا والجنون، والقبلات. فلقد عاش لويس الصغير فى جناحه الخاص، يقرأ الأدب، والعلم، والدين، ويسبح فى الشعر، والظلال، والتأملات، ولاينغمس أبدا فيما ينغمس فيه القصر كله بين النهار والليل ..!

بل إن شيئا من ذلك قط لم يكن يعرف الطريق إلى قلبه الصغير الشاب .. ففى طبعه هدوء، وخجل، وفى جسده ضخامة ترهلت حتى لم تعد تعرف الحيوية والنشاط، بل تضفى عليه غير قليل من الخمول، والفتور، والعجز الجنسى أيضا ..!

وهكذا فوجئ لويس الصغير عندما أرسل إليه الشيخ يستدعيه، ثم يقول له إنه قد حدد اليوم الذى يصبح فيه زوجا .. وأن العروس، مارى انطوانيت، قد غادرت فيينا من قصر والدتها الإمبراطورة ماريا تريزا، فى الطريق إلى باريس ..

وخرج الفتى من حجرة جده وهو غارق فى الحيرة إلى أذنيه، وفى رأسه هذه الدوامة الصاخبة التى تدور فى جنون : كيف أكون زوجاً ..!؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمرت الدوامة تدور .. ولكنها مع ذلك لم تعرف كيف تثير فى نفسه الشجاعة التى تجعله يسأل من حوله من المربين ورجال الدين عن الواجبات التى يجب أن يؤديها الزوج نحو زوجته بعد ليلة الزفاف ..

على أنه ظل ينتظر ذلك اليوم . .وهو لايعرف بعد كيف يقضيه .!

★ ★ ★

عندما غادرت مارى انطوانيت قصر والدتها الإمبراطورة ماريا تريزا فى فيينا، كان يعمر رأسها أمل ضخم فى مستقبل باهر، يوم تجلس على عرش فرنسا، بجانب الزوج الشاب، عندما ترفعه وفاة لويس الخامس عشر إلى مصاف الملوك ..!

ولم تكن الأعوام الخمسة عشر التى قضتها من الحياة، لتستطيع أن تنزع من نفسها مرح الشباب البرئ، وزهوة المجد الدافق الذى توقعته وتلقفت أطراف خيوطه وهى فى طريقها إلى الرجل الذى سيجعل منها بعد، ملكة كما كانت أمها من قبل.

ولقد ارتسم فى مخيلتها ذلك الحب الكبير الذى سيمنحه لها شعب فرنسا، حين استقبلها رجال الدين فى الكاتدرائية الكبرى بستراسبورج، ووقف ذلك الكردينال الشاب المليح، لويس دى روهان، يقول لها فى صوت أحست مدى عذوبته :

– ستكونين أيتها الأميرة بيننا صورة حية لأمك الإمبراطورية المحبوبة، التى تثير إعجاب أوروبا، بنفس القوة التى ستثير بها إعجاب الأجيال القادمة.

ولقد تساقطت من عينيها فى تلك اللحظة دمعتان تنمان عن فرح كبير، ودارت فى رأسها تلك الكلمات الأخيرة التى قالتها لها أمها وهى تودعها وتقول :«كونى زوجة طيبة، وأميرة محبوبة من الشعب، لأن كراهية الشعوب هى السبيل دائما إلى الانهيار». وأدركت مارى أنها قد نجحت فى اجتياز أول الخطوات، حين باركها الكاردينال، وأقام من أجلها صلاة حضرها الأساقفة والعظماء، وهتف لها فيها أبناء الشعب.

وتابعت العروس السير فى الطريق إلى باريس، وهى لاتزال تحلم فى نشوة عارمة، بالزوج الذى ينتظر، والذى لم تره من قبل، وإن كان قد عمر أحلامها فى كل لياليها السابقات المترعات باللذة، والصخب، والعنفوان.

واستقبلتها باريس كما لم تستقبل أحدا من قبل ذلك قط. وازينت العاصمة فى المساء زينة باهرة رائعة مترفة، لم تعرفها سوى أيام لويس الكبير، وانفقت من أجلها الخزانة من دم الشعب مابلغ مقداره عشرين مليونا من الفرنكات .. فى أول ليلة من ليالى الاحتفال ..

وجاء الليل آخر الأمر. واختلجت فى أعماقها نبضات ظامئات، فى انتظار الساعة التى تجد نفسها فيها وحدها مع الزوج .. بغير ما حاشية، ولا وصيفات ...

وما أبطأ ماجاءت هذه الساعة. وتقدم العروسان من الملك الشيخ الذى تصدر المكان فطبع على جبينهما قبلتين، ثم انتحيا جانباً يتقبلان تهانى كبار القوم بالزواج السعيد.

وخفتت الأصوات. وأقبلت الوصيفات فى ركاب الأميرة الصغيرة يوصلنها إلى المخدع الملكى، ثم انحنين وانسحبن فى هدوء.

ووجدت مارى نفسها وحدها آخر الأمر مع الرجل الذى سيجعل منها امرأة. وارتعشت شفتاها الدسمتان، واهتز صدرها المتفجر، وسيطر عليها شعور دافق لذيذ ريان.

واقترب منها لويس. واختلج جسدها فى شغف واضطرام، وجوى كبير. وأحست بآخر خطوة له يقترب فيها منها. وأغمضت عينيها فى نشوة، وشعرت بأنفاسه الساخنة ويده المضطربة، وهو يمسك كفها الصغير، وينحنى عليه يلثمه. وبدأت تحس أنفاسه وهى ترتفع إلى وجهها، وانتظرت قبلته التى يسكت بها اختلاج شفتها، ولكن شفتاه ارتفعتا إلى جبهتها لتطبع قبلة باردة عليها، لم تترك من أثر على بشرتها سوى بعض قطرات مبللة من اللعاب ..

وفتحت مارى عينيها فى دهشة، ولكنها انقادت له وهو يسير بها إلى مقعد قريب. ثم فتحت أذنيها لكلماته التى انتظرتها حارة ساخنة، فإذا بها لاتعدو السؤال عن متاعب الطريق، أعقبها سكون طويل لم تعرف كيف تقطعه، حتى قطعه هو نفسه بأن نهض يستدعى وصيفاتها ويوصيهن بها خيراً، ثم يستأذنها فى الانسحاب إلى جناحه الخاص.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخيل لمارى كأن لوحاً من الثلج قد انحط على صدرها. وأن قصر فرساى كله قد هوى على رأسها. فما كانت تصدق أن لثم يدها، وتقبيل جبهتها، هو كل تلك السعادة الإلهية التى شرحوها لها ومنوها بها ليلة الزفاف ...

واستلقت مارى على السرير البارد، تبكى لأول مرة منذ وطئت أقدامها باريس ...

على أن ليالى حفلات القران توالت صاخبة هادرة، وفى كل ليلة تتكرر نفس القصة، قبلة على اليد، وقبلة على الجبين، ثم لاشئ بعد.. وتنهض بعدها مارى تطل من نافذتها من خلال الدموع .. وتكاد تنفجر ..

وانتهى اليوم الخامس عشر من أيام الزفاف .. وكان آخر أيام حفلات باريس. وأطلقت فى تلك الليلة الألعاب النارية كأجمل وأبهى ماتكون. وراحت مارى تتابعها فى سرحة من خلال نافذتها المطلة على الميدان امام القصر. وفجأة، دوت فى جنبات الميدان صرخات صاخبة، أخرجتها من سرحتها الطويلة، وفتحت عينيها على نار تندلع فى النصب المعلقة عليها المشاعل وتسرى فيها فى هدير مجنون ..

وعم الفزع الألوف من الناس المكتظين، واستمرت الصرخات تعلو، وتصاعدت زفرات المنكوبين ملتهبة وهم يتساقطون اختناقا من دخان الحريق الذى انتشر فى صخب وعنفوان.

وأغمضت العروس عينيها، وقد عمرت رأسها صورة مفزعة للزواج الرهيب الذى انتهت حفلاته الباهرة بين النواح والعويل والصرخات، كأنما هى نذير سوء لها، ولحياتها الزوجية التى لم تكد تبدأ بعد ..!

وفى الحق، إن مارى لم تعرف – لأمد طويل – نعمة الزواج على الإطلاق. ففى الأعماق من رأس لويس كان السؤال الحائر لايزال يدور. وفى كل ليلة يحتويها الفراش الناعم العريض فلا تجد فيه من الدفء والحياة شيئا قط. وتتوالى الأيام والأسابيع والشهور، والزواج بينها وبين لويس لايكاد يتجاوز قبلات لا يتغير موضعاها أبدا.

وأخذت بها الخيبة الصاخبة، وانهارت منها الآمال العراض، واستمرت كلها تنهار حتى لم تحس برونق اليوم الذى سجدت فيه إلى جوار زوجها، وهما يدعوان لله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متوسلين :«اللهم ارشدنا وخذ بيدنا إنا أصغر سنا من أن نحكم» . فلقد كان لويس الخامس عشر قد ودع الحياة وأسرع الرسل إلى جناحيهما ينادون بهما ملكين على فرنسا.

أبدا .. لم تحس مارى برونق ذلك اليوم قط. وما كانت - لو أرادت - لتحسه وهى تشهد النذير المشئوم يتكرر مرة أخرى. فلا تكاد تنقضى ثلاث ساعات على تنصيب زوجها ملكا، حتى يقفر قصر فرساى فرارا من الطاعون الذى فشا فى أنحائه وجثم على صدر باريس. ولم يبق فى القصر بجوار جثة الملك الراحل سوى نفر من أحط الكهنة قدرا، وطائفة من الخدم، كانوا هم وحدهم الذين ودعوا الملكين الجديدين وهما يهربان من القصر، ليعودوا مرة أخرى فيسيروا فى غير ماحفاوة بالجثة إلى سان دنيس ..

والواقع أن تلك النذر المتتابعة السوداء قد ملأت قلب مارى رعبا. على أن الفشل الذى منيت به فى متعة الزواج، جعل قلبها يزداد ثقلا على صدرها، حتى ان وصيفتها النمساوية التى جاءت معها، لم تجد بدا آخر الأمر من أن تشرح كل شئ لامبراطور النمسا - شقيق الملكة - الذى وجد نفسه مرغما على أن يتدخل رسميا لدى الملك ليذكره بواجباته الزوجية ..!

ولقد كان كل ذلك يسبب أرقا دائما فى القصرين بين فيينا وباريس. جعل الإمبراطور يأتى بنفسه من بلاده لينفرد بالملك، ويحدثه فى صراحة عما يجب أن يكون عليه الزوج. وتمت المقابلة التاريخية فى قصر فرساى. وجمع الإمبراطور كل مالديه من شجاعة، وذكر لويس بأن مارى أنطوانيت فى حاجة إلى المزيد من حبه ورعايته، وأن الزواج يعنى أشياء أخرى كثيرة تعدو اللثم على اليد والقبلات على الجبين ..!

على أن لويس عندما عرف آخر الأمر كيف يكون زوجا، كان الأوان قد فات. ولم تكن زوجته قد عادت بعد عذراء، فقد اضطرها الأمر بعد أن طالت سنوات الانتظار، إلى أن تلتمس العزاء بين أذرع رجال آخرين، يعرفون السبيل جيدا إلى جناح الملكة الخاص، فى قصر فرساى ...!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكن ابنة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا بالفتاة التى يمكن أن تعيش كأى امرأة فى القصر فحسب. فما أن دخلت البلاط الفرنسى عروساً لولى عهد فرنسا، حتى جعلت زوجها تابعاً لها وفرداً من أفراد حاشيتها. فلما انقضت أيام جده الفاجر لويس الخامس عشر، ودوت فى أرجاء القصر تلك الصيحة القديمة «مات الملك، يحيا الملك» تقدمت هى على زوجها وتولت عنه حكم الشعب الفرنسى، وأصبحت منذ ذلك الحين القوة المحركة لسياسة فرنسا، والعامل الأكبر فى وقوع ما ألم بها من خطوب.

والحق، إن مارى لم تكن قد أرغمت على الزواج، فمنذ كانت لاتزال صغيرة بعد، جلست ماريا تريزا تداعب ابنتها يوما لسؤالها عن الشعب الذى تطمح إلى التملك عليه، فأجابتها مارى أنطوانيت :«أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر». ولم تكن تلك ا لرغبة سوى صدى لما كانت تدور حوله سياسة لويس الخامس عشر، الذى كان كل مناه أن يتخذ من النمسا حليفة لفرنسا ضد روسيا، وكان سبيله إلى ذلك هو تقوية الروابط بين العائلتين المالكتين بتزويج حفيده وولى عهده، من الأميرة النمساوية الشابة. وهكذا فى الوقت الذى كانت مارى تحلم فيه بحكم الشعب الفرنسى، كان سفير فرنسا فى النمسا قد أرسل إلى الملك رداً على سؤاله عن تلك الفتاة يقول : «أنها كاملة الجمال من خلق ومن خلق، ذات ذكاء نادر وخلال سامية، تفيض نفسها الشابة غبطة وابتهاجا وطربا. وهى ميالة إلى الحصول على رضاء الناس. وفيها من الخصال التى تكفل سعادة الزوج أبدعها وأوفرها».

والواقع أن ذلك الجمال المزودج الذى كانت الأميرة الحسناء ذات الستة عشر ربيعاً تتمتع به، قد مكن لها منذ صارت زوجة لولى عهد فرنسا، مكانا سامياً فى قلوب الشعب الفرنسى، الذى عرف عنه تمجيده للحب والجمال. وتأثره بالظرف والمجاملة والرقة الهادئة، كما جعلها فتنة لرجال البلاط ونسائه الذين جعلوها موضع العطف والحب والإعجاب.

غير أن ذلك الفوز الباهر لم يلبث أن أثار الغيرة فى صدور الحساد أمثال مدام دى بارى خليلة الملك لويس الخامس عشر وغيرها، فراحت كل منهن تدس للفتاة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدسائس وتحيك المؤامرات .. وساعدتهن الفتاة نفسها بتصرفاتها الطائشة التى كانت تشوب خلق أمثالها المدللات، من تقلب النزعات وتشعب الأهواء، ثم بما اكتسبته من بلاط القصر نفسه الذى كان يموج بالرذيلة والخلال الفاسدة، وهى بعد طفلة لاتحسن خوض هذه الغمار الخطرة، ثم بما دفعه إليها أيضاً عجز لويس هو الآخر عن أن يوفى حق جسدها وأعصابها. فكان لابد أن تبدأ الضجة فى القصر حول اسمها، وأن تشتد العاصفة لتجتاز القصر إلى خارجه، حيث الشعب الذى اعتاد أن يسمع ألوانا عديدة من قصص الرذيلة فى قصور آل بربون، فعرف أن الملك الجديد لن يكون أقل من أسلافه فسادا، وأن الملكة الجديدة لن تعدو أن تكون واحدة من أمثال مدام دى بارى أو مدام دى بومبادور .. ولاشئ بعد ...



كان كل شئ فى تلك الليلة عذبا، باهرا، عربيدا. باريس كلها تستلقى فى سكون رائع عامر بالأحلام، والشعر والتأملات، والأضواء اللينة البيضاء ترتعش فى لذة نشوانة كالخمر نفسه، بعد أن ودعت مساء صاخبا من هذه الأمسيات التى تقضيها الملكة مع الأصدقاء والصديقات، فى قامة الحفلات الكبرى بالقصر، يشربون، ويضجون، ويضحكون، وكأن القصر كله قد صار قاعة مضطرمة فى مرقص عربيد.

وكان الحفل قد انقضى قبل ذلك بساعات. سوى أن مارى كانت لاتزال تستلقى على الفراش البارد فى مخدعها الخاص، نصف عارية، تحت قميص شفاف يتهدل من على صدرها، وكل جزء من بدنها الملتهب يتفجر بالنداءات. أما عيناها، فكانت تطل منهما نظرة ملهوفة، تضطرب فى ضجر نحو الباب الذى انتظرت طويلا أن ترى فيه «روجيه» ذلك الضابط الشاب، صاحب الأعوام التسعة عشر، المليئة بالفتوة، والسخونة والعنفوان، والذى التقت به أول مرة فى إحدى رحلات الصيد التى برعت فى اختيار أوقاتها. ثم التقت به مرة أخرى فى هذه الليلة فى ذلك الحفل الذى أقامته فى القصر ودعت إليه الفتى اليافع، وأسرت إليه من خلاله بالعودة، بعد أن ينتهى كل شئ، عن طريق باب سرى تحرسه وصيفتها، ويقود إلى داخل السراى الكبير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجاء الفتى أخر الأمر. وامتد المساء ليمهد للملكة ليلة دافئة طويلة عامرة بالمغانى الدافقة الريانة، صاخبة فى كل ذرة من ذرات الشباب الحار.

وانحدر الوقت لايعبأ بشئ. والملكة فى خلال ذلك تطوق الفتى بذراعيها وتغمره بالقبلات، وتتشبث به أن يبقى حتى الظلال الأخيرة من الليلة الحارة العارمة ..

سوى أن الأمر لم يكن ليستمر طويلا. ففى نشوة المتعة الريانة، والضحك والقبلات، لم ينتبه العاشقان إلى وئيد خطوات كانت تقترب ثقيلة من مخدع الملكة. وفتح الباب، وقفز الفتى كالملسوع، وانهارت منه الساقان، والأعصاب .. وكل شئ ..!

فهناك، فى فراغ الباب الكبير، وقف الملك نفسه، لويس السادس عشر، يحملق فى ذهول، ويرتعش كفراشه فى مهب الريح.

كانت لحظة رهيبة هائلة ..!

فى الأعماق من العاشقين تصطرع انفعالات حمقاء مجنونة، مسودة بالإثم، والخطايا والعار ..

وفى الأعماق من الملك تصطخب دوامة، تجتاز أحلك لحظات الحياة وهو يلمح فى لحظة، كبرياءه المنهار فى وحشية وقسوة، وحطام قلبه الطاهر المفعم بالحب للملكة الفاتنة، التى لم يعرف هو نفسه كيف يرضى فيها رغبات الجسد المتفجر الفتى الظمآن ..! على أن الأمر لم يستمر سوى لحظات، ما أسرع ما استدار لويس الطيب بعدها ليهرع هاربا إلى حجرته ويغلق من خلفه الباب ..!

وفى صوت بين مسموع، ارتفع من مخدع الملك نشيج مكتوم .. وكان الصوت صوت الملك المحطوم لويس السادس عشر ...

كان الملك يبكى ..!

وفى الحق، إن لويس لم يكن قد بدأ يلعب دور الزوج جيداً بعد. سوى أنه مع ذلك كان يحب الملكة حباً مفعما بالحرارة، والنشوة، والحياة، بكل مافى قلبه من قدرة عاجزة عن هذه الألوان.. ولقد جعله حبه هذا لايبخل عليها بشئ قط، فهو قد منحها كل ما تريد، وهو لايرد لها طلبا أبدا .. حتى شئون الدولة نفسها، تركها تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة منها، تعين، وتعزل، وترقى أكبر الموظفين، حتى الوزراء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسفراء، كل ذلك وفق مشيئتها هى، وطبقاً لأهوائها، حتى أدرك الشعب كله أن الملكة قد أصبحت كل شئ .. أما الملك فلم يعد شيئاً على الإطلاق.

ولعل لويس لم يعبأ قط بكل مابدأ يدور من الشائعات حول حياة زوجته الخاصة. فقد بدا له أن ذلك الحب الذى منحها إياه، والذى لم يبذله ملوك فرنسا من قبل إلا للخليلات، قد أثار ضدها أحقاد الوصيفات، وأغار صدور النساء الأشراف المتزلفات اللواتى كن يطمعن جميعاً فى الحصول على قلب الملك.

بل إن لويس، لم يهتم بما كانت تبديه ملكته من خروج على التقاليد الصارمة فى بلاط فرنسا، والتى كانت تتعارض كلها وأعمال الملكة. فهو يعلم أن مارى قد نشأت على ما ألفته من الانطلاق، والهرب من القيود فى قصر أمها بالنمسا، وأنه لم يعد من السهل عليها أن تأخذ نفسها بتقاليد البلاط الفرنسى الذى كان يفرض قيوداً ثقيلة على كل حركة، وكل خطوة وكل حديث، والذى يعد خدمة الملك والملكة شرفا يتسابق إليه كبار القوم، وكبيراته أيضاً. فلايجوز من أجل ذلك للملكة أن تترك مكانها دون أن يسير خلفها الأشراف والشريفات، وليس لها أن تخلع ثيابها أو ترتدى أخرى إلا فى نظام موضوع لابد منه.

وإنه ليذكر تلك الثورة التى فاجأته بها ذات يوم، وقد دخلت عليه تصطك برداً وغيظاً. وكانت القصة بالنسبة لكل فرد من أفراد البلاط عادية. ولكنها قصة محنقة لإنسانة مثلها تضيق بقيود التقاليد. فقد كان البرد قارسا، وهى تكاد تكون نصف عارية، تستعد لارتداء ثوب كانت إحدى الوصيفات توشك أن تضعه على كتفى مولاتها. وفى تلك اللحظة دخلت كبيرة الوصيفات. وتقضى اللياقة الرسمية أن تقدمه هى للملكة، فنزعت قفازها بسرعة، وتناولت الثوب، وفى اللحظة نفسها قرع الباب، وكانت القادمة دوقة أورليان، والتقاليد تقضى بأن تكن هى حاملة الثوب، على أن تسلمه للوصيفة التى تعيد تسليمه لكبيرة الوصيفات، التى عليها أن تضعه على كتفى الملكة. وكادت الدورة بالثوب توشك أن تتم حين دخلت الكونتس دى بروفانس، وكان على الثوب أن يدور دورة ثانية بين الأيدى حتى يصل إلى الكونتس

لتسليمه للملكة. وصرخت الملكة وهى تصطك من البرد .. «سحقاً لكن جميعاً .. ألا ما أعقد تقاليدكن وما أكثرها غباء وسخافة ..!».

من أجل ذلك كله تغاضى الملك عن تقييد زوجته بكل هذه القيود، ولم تخجل هى بعد، من أن تخرج كل يوم للصيد فى رداء تافه بسيط، أو تتنزه فى ثوب أبيض وعلى رأسها قبعة من القش، وفى يدها سوط صغير، تسير على قدميها لايتبعها سوى خادم واحد فتى.

غير أن هذه الطبيعة المنطلقة جلبت لمارى شهرة ساخرة، وجعلتها مضغة فى أفواه الكثيرين من الفرنسيين، حتى أن عمات الملك لم يدخرن وسعاً لجمع الأحاديث ليتسلين بها فى تهكم عليها. ووجد الملك نفسه محرجاً فأهداها قصر «البتى تريانون» لتكون فيه ما تشاء من الحرية والبعد عن التقاليد. ولم يكن شئ أحب إلى مارى من ذلك، فأقامت طليقة تمرح فى ثوبها الأبيض وقبعتها المصنوعة من القش، تقطف الزهور، وتطارد الفراشات، وتحادث الفلاحات، وتتبسط مع الضباط.. ثم .. ثم تعشق وتحب منهم من تريد ..

وهكذا مهد لها الملك السبيل وهو لايدرى. وبدأت مارى، أمام كل هذه المغريات، والضعف الذى منى به زوجها، تبحث بحثاً بريئاً أول الأمر عن السلوى والمتعة، فلم تسع إلا إلى حفلات امتازت بجوها الطاهر النظيف تدعو إليها بعض الفتيان والفتيات من الأمراء، والنبلاء والنبيلات .. الرقص هو تسليتهم الوحيدة، والفترة المسموح بها لاتتجاوز ساعة أو ساعتين، ثم ينتهى كل شئ.

سوى أن الرقص البرئ كان لابد أن يتحول بعد إلى رقص ماكر عربيد. وبدأت فتراته تمتد إلى الليل، ثم إلى مابعد منتصف الليل ... ثم أخيراً إلى الفجر. ولم يعد قاصراً على القصر، بل تجاوزه إلى قصور الأمراء، والنبلاء، تخرج الملكة الشابة عند الغروب، ثم لاتعود إلا بعد أن تشرق الشمس على باريس .. لتوقظ الملك الخامل من استلقاءته التى يستسلم لها دائماً قبل أن تدق ساعة المساء تسع دقات ..!

فلم يكن غريباً إذن أن تجد الملكة السبيل لتعيش حياة المتعة النشوانة بعيداً عن الزوج، بعد أن تصطفى من خلال الحفلات الصاخبة أى فتى تريد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الملك لم يكن يتصور كل ذلك. فقد برعت الملكة فى أن تخفى عنه، وعن عيون بعض الشعب، ألوان هذه الحياة الصاخبة التى تحياها، بل إنها استطاعت فى الحق أن تحافظ غالباً على المظهر الرسمى للعفاف.

حتى كانت تلك الليلة الصاخبة الهائلة، والتى وجدها فيها الملك بين ذراعى «روجيه» .. ذلك الضابط الفتى الصغير.

على أن مارى أنطوانيت هزت كتفيها فى سخرية، بعد أن وجدت الملك يذهب ليبكى، وضمت إليها الفتى الصغير . تقبله من جديد، وتستسلم له، وتهدئ من روعه وهى تقول :

- روجيه، لاتخش شيئاً أبداً. فالملك لن يغضب عليك، لأنك تزيح عن كاهله حملا ثقيلا ينوء تحت عبئه أبداً ..!

سوى أن الفتى لم يكن ليصدق أن الملك يمكن أن يعفو عنه. وأبى برغم كل المغريات التى عرضتها عليه الملكة، إلا أن يدعها، ليختفى بعيداً، ولايقرب القصر من الخوف شهراً أو يزيد، حتى صدر الأمر بنقله إلى مكان بعيد عن قيادة باريس ..

أما الملكة فانطلقت من ورائه، وقريباً من المكان الذى تعسكر فيه فرقته من جديد، أقيم ركن صغير خاص، كان هو المكان الذى قررت الملكة أن تلتقى فيه بالفتى من جديد، يشربان، ويصخبان، وينالان من المتعة بقدر مايسمح لهما عنفوان الشباب ..!

★ ★ ★

كان أرمان دى سان جرمان .. ضابط الحرس الشاب المكلف بحراسة ركن الملكة الريفى .. يقف غير بعيد من نافذة قريبة، تندفع منها شعاعات حمراء خافتة، تصطرع مع همسات ضئيلة نشوانة منطلقة خلال الثنايا المنفرجة من الستار المنسدل الداكن ..

وأحس الفتى اندفاعات الدم الأحمر فى وجنتيه كحميا الخمر. وعاد يقترب من جديد لينصت أكثر إلى الهمسات الدافئة المليئة بألوان مترعة من الإثم، والخطيئة، والعار. وبدا له وقد بلغت عيناه إحدى الثنايا المنفرجة من النافذة أن يسترق النظر إلى مايدور داخل الحجرة المغلقة. ورفع قامته قليلا، وثنى رقبته، وأغمض إحدى عينيه ليزيد من حدة العين المسترقة الثانية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واضطربت أنفاس الفتى فى رعشة عارمة. وتقلصت أصابعه فى عنف على حافة النافذة ذات الستار المنسدل الفاخر .. وتراقصت أمام عينيه مواكب الأضواء الحمراء.. وعمرت رئيته ألوان الشذى القاتم الحار ...

وبدأت أعصاب الفتى تنهار ..

وفى الحق إن المشهد الذى طلعت عليه عيناه، كان لابد أن يثير فى أعماقه عواطف مضطرمة فى صخب متنافر مع عواطف لاتكاد تتباين أو تتفق قط. فالملكة، فى موكب أنوثتها العارمة، قد استلقت على مقعد طويل إلى جوار المدفأة، فى أسلوب يسلب الأعصاب، إلى جوار الفتى روجيه، تقبله بشغف مجتاح، صارخ، وتهمس : «طفلى .. طفلى الحبيب»، وفجأة يذوب كل شئ .. ويمتلئ المكان بالزفرات والشهقات.

ومنذ تلك اللحظة بدأ أرمان دى سان جرمان، ضابط الحرس الخاص، ينظر إلى الملكة نظرات ليس فيها من التقديس، والهيبة، والاحترام، بقدر مافيها من الزراية والتوقح، ودعوات الذئب الجائع الملهوف ..!

وبدأ أرمان يتبعها بكل مافى أعماقه من رغبة واشتهاء، يتقدم إليها فى كل وقت .. فى المخدع، وفى الحديقة، وفى الشارع، بغير ماكلفه ظاهرة، وكأنه يلبى طلباتها هى.. ويقدم لها الخدمات ..!

وبدأت مارى تنتبه إلى ضابط الحرس الشاب .. الفارع، صاحب الأعوام التى جاوزت الثلاثين، وإن حرصت مع ذلك على أن تنأى عنه بقدر ماتستطيع ..!

ثم .. جاء يوم، ثارت فيه فجأة على الفتى روجيه .. وفى غضبة ملتاعة، ضغطت بأصابعها فى عنف على كأس الخمر الذى حاول أن يقدمه إليها، وقذفت به فى جنون إلى وجه الفتى المنهوك ..!

واضطرب روجيه أمام ثورة الملكة. ولم يعد يجد ساقيه لتحملانه إلى الخارج بعد أن هتفت به تطرده.

وكان أرمان فى مكانه إلى جوار الباب المغلق. وعندما ابتعد الفتى يخرج منحنى الرأس، أشعث، فى عينيه حيرة، أدرك فى ذكاء الخبير، أنها فرصته لكى يلتقى

بالملكة.. ومن نفس الباب الذى خرج منه روجيه، دخل أرمان إلى مخدع الملكة .. وانحنى أمامها فى ولاء .. وخضوع ..

– إن أرمان دى سان جرمان فى الخدمة ياصاحبة الجلالة ..!

وصرخت فيه مارى. واندفعت الكلمات من فمها عنيفة قاسية :

– أنت وقح ..!

واستمر أرمان فى انحناءته :

– لازلت فى خدمة مولاتى ..!

وهدأت حدة الملكة شيئاً ما. وعادت تقول فى لهجة أقل عنفا :

– كيف تجرؤ يافتى ..!؟

أجاب الفتى وكأنه يرد على سؤال آخر :

– إن ذلك الضابط الصغير ليستحق أن تنزل به عقوبة الإعدام جزاء له على إزعاج مولاتى صاحبة الجلالة ..!

وابتسمت مارى أنطوانيت، واهتز كل جزء من بدنها الملتهب.

واحتل أرمان المكان الذى كان قد سبقه إليه الضابط الفتى، صاحب الأعوام العشرين فحسب..

على أن الفتى المغلوب على أمره لم يكن يطيق. وهكذا لم تكد الملكة تعود إلى فرساى حتى كانت القصة كاملة قد سبقتها إلى آذان الملك .. بكل تفاصيلها وأحداثها، بل والأوقات التى يلتقى فيها العاشقان الجديدان ..!

ووقف لويس حائراً .. وعادت الدوامة تحطم رأسه من جديد. ولكنه لم يجد الشجاعة أبدا ليواجه بنفسه ماصار إليه الموقف من تعقيد رهيب ..

وكان لابد للملك أن يجد من يستطيع أن يواجه المعركة. وقد وجده فى رجل من أبرع رجال البلاط، هو مدير مراسم قصر فرساى..!

وكان الرجل فعلا سيد الموقف، فقد كان يحقد على الملكة، وعلى أرمان، وعلى روجيه أيضا. فهى التى صدته من قبل، يوم حاول اجتذابها إليه. وأما الآخران، فكفاه انهما استطاعا أن ينالا إعجاب الملكة. وقبلاتها المترعات، فى الوقت الذى فشل هو فى الحصول على لون واحد فقط من كل تلك الألوان ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودبر الأمر كأبرع مايكون التدبير. وفى إحدى اللحظات التى كان أرمان يغادر فيها مخدع الملكة، وجد من حوله رجالا أشداء من جنود الحرس، قادوه إلى الباستيل. وقبل أن يطلع عليه الصبح، كان الإعدام بلا محاكمة قد نفذ فيه.

إلا أن أرمان وجد بعض العزاء قبل أن يودع الحياة، عندما أطل حوله قبل أن يهبط على عنقه السكين .. فوجد أن روجيه، الضابط الذى وشى به، قد سبقه إلى المصير نفسه، خشية أن يكون فى بقائه على متن الحياة سبيل لنشر السر الذى أراد الملك أن يمنعه من الانتشار.

أما مارى أنطوانيت فلم تستطع أن تفعل شيئا قط .. سوى أن تبكيهما معا .. ولاشئ بعد .. وظل ركب الحياة يسير ..!

★ ★ ★

عاشت باريس سنوات وليس لها من حديث سواء أنباء الملكة الأجنبية - كما كانوا يسمون مارى أنطوانيت دائماً - وبعد أن كان الحديث يدور همسا أول الأمر، بدأ صوت الشعب يعلو شيئا فشيئا، متناولا بألسنة حداد تبذير الملكة واستهتارها وانغماسها المجنون فى العبث واللهو، والمغامرة والعار.

وكان الشعب فى ذلك الوقت يجوع ليتخم الآخرون. ولكن مارى لم تحس أبداً بجوع الشعب، ولاعملت لانتشاله من وهدته، بل كان كل همها أن تبعثر المال، هنا وهناك لحساب ملابسها، وعشاقها، وملاهيها، وحفلات الصيد والرقص التى لاتنتهى أبدا. ولم تحاول مارى أن تقوم من نفسها قط، حتى عندما عرفت أن أخبار سيرتها قد بلغت مسامع والديها وأن أمها أرسلت إلى السفير النمساوى تقول له : أخبرها أنها ستفقد عرشها، وقد تفقد حياتها أيضا إذا لم تصطنع التعبد والتقى ...

وبدأ الماء فى القدر يغلى ...!

وفى خضم الغليان انتشرت فى باريس قصة عقد الملكة. وكان للقضية - فى ذلك الوقت الذى كان الشعب خلاله مستعدا لقبول كل مايمس الملكة من بعيد أو قريب - أثرها العنيف العميق فى تحطيم العرش نفسه.

والحق أن مارى أنطوانيت لم تكن مذنبه فى كل ماحدث من أدوار هذه القضية.

ولعلها لم تكن تذكر حتى الكردينال دى روهان – وهو المحور الذى دارت عليه القضية – أكثر من أنه كان أول من استقبلها فى ستراسبورج خلال رحلتها بين فيينا وباريس، ورحب بها كعروس لولى العهد. وأنها سمعت ممن كان حولها يومئذ أن ذلك الكردينال الشاب يعيش كغيره من أشراف ذلك العهد حياة بذخ وترف، وأنه ينفق أموالا كثيرة بلا حساب من ثروته الهائلة، التى راح يضيعها فى إقامه ولائم وحفلات يؤمها الأشراف من نساء ورجال، يضجون، ويصخبون، ويعبون من مختلف اللذاذات، ولايحرمون أنفسهم من مساخر الحياة شيئا قط.

غير أنها لم تكن تدرى أن قلب الفتى كان قد انهار تحت نظرات العروس الشابة، فراح يتابعها ويحلم بها حتى بعد أن صارت مارى ملكة على فرنسا، وصار هو سفيرا فى بلاط ماريا تريزا، التى كرهته وحقدت عليه لطول مابذل من محاولات التجسس عليها. وأشركت الأم ابنتها ملكة فرنسا فى كراهية الرجل والحقد عليه حتى أعيد من النمسا ليستأنف حياته فى باريس نفسها.

واستمر دى روهان يحب العروس التى صارت ملكة ويحلم بها. ولكن حلمه فى ذلك الوقت لم يقتصر على مجرد الرغبة فى الوصول إلى قلبها. فقد كان للفتى أطماع ضخمة فى أن يصبح عن طريق القصر حاكما فعليا على فرنسا، كما كان من قبله الكردينال ريشيليو والكردينال مازران والكردينال فلورى. وهكذا راح يتقرب إلى القصر، ويبذل المساعى والوساطات للوصول إلى قلب سيدته ..

وفى ذلك الوقت بالذات، وقع الفتى فى شراك محتالة بارعه هى الكونتيسة دى لاموت، كما كانت تسمى نفسها، فقد كانت هذه المحتالة تعرف مدى تعطش الفتى للوصول إلى الملكة، فعرفت كيف تخدعه وتدخل فى روعه أن لها بها علاقة وثيقة، وأنها تستطيع القيام بدور حمامة السلام بينه وبين الملكة، على أن يدع لها هى تدبير الأمر، وأن يصنع ماتطلب بغير ماجدل. وصدقها الفتى وترك لها حرية العمل. وانطلقت الكونتيسة تبتز أموال الكردينال الذى راح يدفع لها من المال ماتطلب كل يوم، بل ويصدق كل مايصله بتوقيع الملكة من رسائل تأتى بها الكونتيسة إليه. وليس ذلك فحسب، بل عرفت الكونتيسة كيف تقوده إلى خلوة فى القصر ليلتقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالملكة للحظات تعبر له فيها عن رضائها عنه. ولثم الفتى ثوبها وسمع صوتها. وأيقن أن ذلك الرضا الخاص سيجعله عن قريب خليفة للكرادلة الذين حكموا فرنسا من قبل. ولم يدر أن المرأة التى حدثته فى تلك الخلوة المظلمة إلا من بصيص ضئيل من النور، لم تكن غير فتاة أخرى شبيهة بالملكة، دفعت لها الكونتيسة لتمثل ذلك الدور، قليلا من تلك المبالغ الكثيرة التى دفعها إليها الكردينال ..!

ثم برزت بعد ذلك قصة العقد. فقد عرفت الكونتيسة أن ثمة تاجر مجوهرات اسمه بوهمر، كان قد صنع عقدا رائعا بلغ ثمنه أربعة وعشرين مليونا من الفرنكات، أوصاه عليه لويس الخامس عشر ليهديه لعشيقته مدام دى بارى. ومات الملك قبل أن يشترى العقد. وانطلق بوهمر يحاول إقناع الملك لويس السادس عشر بشراء العقد للملكة مارى أنطوانيت. غير أن الملكة – ولأول مرة فى تاريخ سرفها – أبت أن تدفع فى العقد ذلك المبلغ الكبير. وكانت الكونتيسة تعرف تلك القصة، كما تعرف أيضا أن الكردينال قد صار على استعداد لإجابة الملكة إلى كل ماتطلبه، اعتقادا منه أنها قد وقعت فى غرامه المشبوب. وذهبت الكنتيسة إلى الكردينال تقول له إن الملكة ترغب فى شراء العقد لولا عجزها عن الحصول على ثمنه الكبير دفعة واحدة، وأنها قد أرسلتها إليه، وهى تأمل أن يتولى الكردينال شراءه بالنيابة عنها، فيوقع على عقد البيع ويتولى تسديد الثمن ثم يسترده من الملكة على دفعات متوالية.

وصدقها الكردينال الشاب الذى وجد تأدية تلك الخدمة للملكة وسيلة لاستخدام نفوذها، والاستيلاء على قلبها أيضا ...

واشترى الكردينال العقد وسلمه للرسول التى أوفدتها إليه الملكة لاستلامه. ولم تكن الرسول سوى إحدى صنيعات الكونتيسة دى لاموت، التى استولت على العقد وبدأت تعد معدات الفرار.

على أن الشك قد خامر ذهن الكردينال حين حضر إحدى حفلات القصر ولحظ أن الملكة لاتتحلى بالعقد. ثم ازداد الشك مرة ثانية حين حل موعد سداد القسط الأول من الثمن، وجاءته الكونتيسة تقول إن الملكة تأمل تأجيل الموعد لبضعة شهور ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان لابد للأمر أن ينكشف. فقد ذهب التاجر بوهمر إلى القصر حيث قابل مدام دى كاميلان وصيفة الملكة، ليرجوها إبلاغ شكره لجلالتها على تنازلها بشراء العقد، وقبوله ماعرضه عليه الكردينال من إرجاء دفع القسط الأول من ثمنه.

وعرفت الملكة قصة الاحتيال والتزوير. فانطلقت إلى الملك تطلعه على كل شئ، وتطلب القبض على الكردينال الذى اتهمته باستغلال اسمها وتزوير توقيعها.

وبينما الكردينال داخل الكنيسة يقود الناس فى الصلاة، تقدم إليه رجال البوليس ليقودوه فى ثوبه الكهنوتى إلى سجن الباستيل.

وغضب الشعب - الذى كان يغلى - لاعتقال الكردينال. واعتقد أن الملكة كانت قد عشقته بين من عشقت، وغررت به ليشترى لها العقد، فلما أبى أن يستمر فى إرضاء نزواتها ألقت به فى غياهب الباستيل بتلك التهمة.

وغضب رجال القصر أيضا لاعتقال رجل من خيرة رجال البلاد. وأوسعهم ثروة. وامتد الامتعاض إلى رجال الدين الذين عدوا اعتقال الكردينال إهانة لهم جميعاً.

وقدمت قضية عقد الملكة إلى القضاء. وكان فى تقديمها تشهير بالملكة، ليس فى باريس فحسب، بل فى كل مكان من فرنسا كلها. وطبعت المنشورات تتهم الملكة والملك بتدبير المؤامرة، خاصة وقد استمرت الكونتيسة بعد القبض عليها تؤكد أن الملكة هى التى طلبت منها شراء العقد وأنها استلمته بنفسها.

وبرغم أن القضاء قد أدان الكونتيسة فى حكمه عليها بالجلد والسجن مدى الحياة، وبرأ الكردينال، إلا أن الملك - بتحريض من الملكة - أصدر أمره إلى الكردينال بالاستقاله من منصبه، والذهاب إلى أملاكه خارج باريس. وازداد هياج الشعب على الملكة الأجنبية، واستقر فى ذهنه أنها هى التى جعلت الملك يعامل الكردينال بتلك القسوة رغم براءته، وهى أيضا التى جعلته يغضب القضاء الذى أبى إلا أن يحكم بالعدل رغم تدخل الملك لإدانة الكردينال.



واستمر الماء فى القدر يغلى ..

غير أن بخار الغليان لم ينبه الملكة إلى النهاية المحتومة التى ترسمها لنفسها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وللملكية كلها، بتصرفاتها المخبولة الشائنة. فما استمعت إلى نصح قط، ولا حاولت قبول مشورة على الإطلاق. بل أخذت تنزلق إلى الحضيض، حاملة معها مستقبل ملك طيب ضعيف مشغول عن آلام شعبه بغراميات زوجته، وبنادق صيده، وأدوات حدادته.

وعادت الأقاويل والشائعات أكثر من قبل صخبا وأشد ضجيجا ..!

وبدأ أفراد الشعب يجدون من الجوع مايشجعهم على ترتيل الأغانى عن مجون الملكة وعبثها. وراحوا يعددون أسماء العشاق الذين تلتقى بهم فى مخدعها الفاخر الدفئ. ويرددون قصائد الشعراء فى وصف الفضائح المترعة بكل ألوان الضلال، والتى تجعلهم يغلقون العيون، ويسدون الأنوف، ويمسكون الأنفاس، اشمئزازا من هذه الحياة الزرية التى تحياها زوجة الملك، والتى استمرت تستغل طيبة ذلك الزوج الذى عاش حياته عديم الثقة بنفسه، سهل الانقياد لغيره، آخذا بكل يد تمتد له، متقلبا تبعاً لإرادة كل ناصح مشير.

وبرغم ذلك كله فقد ظلت مارى تعيش للحب.

غير أن ذلك الحب الجديد كان له فى أعماق نفسها جذر ثابت بعد غوره وامتدحتى أيامها الأولى التى لم تكن فيها بعد سوى الأميرة النمساوية مارى أنطوانيت زوجة الأمير لويس ولى العهد.

كانت فى ذلك الوقت لاتزال تجد لذة باهرة فى الإنصات إلى الموسيقى وهى ترسل الحانها فى نشوة وقوة، ومراقبة حلقة الرقص وهى تتمايل مع الأنغام مخمورة صاخبة.

وكان دورها بعد لايعدو وقوفها غير بعيد تتأمل الراقصين، وعلى شفتيها بسمة جذابه رائعة، فيها الكثير من الاعتداد بالنفس والشعور بتمام ما لها من سطوة على أفئدة الآخرين.

وكان الحفل ألقا. وفى اللحظة التى كانت مارى توشك أن تغادر فيها القاعة، وقع بصرها على شاب لم يكن سنه ليزيد على الثامنة عشرة، يجلس غير بعيد منها وإن لم تنتبه إليه من قبل، يبدو على سيماه أنه غريب عن ذلك المكان. وتقدمت إليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تجد مايمنعها من أن تتحدث معه طويلا. ولعل شيئاً فى حديث الفتى جذبها وسباها، فإذا بها وقد نسيت نفسها، كما نسيت سائر المدعوين الذين كانت نظراتهم قد تحولت إليها، وبدأت همساتهم تعلو فى دهشة وتساؤل وعجب.

على أن هذه اللحظات القصيرة لم تدم طويلا. فقد كان الفتى بسبيل العودة إلى بلاده، بعد أن قضى أياما فى ضيافة باريس.

وكان الفتى هو الكونت أكسيل دى فرسين ضيف الأسرة الوافد عليها من السويد.

وعندما انتهت زيارته، وعاد إلى بلاده، كان يحمل بين جنبيه قلبا فيه جرح غائر تتنزى منه الدماء، وتملأ رأسه ذكرى أيام حلوة سعيدة باهرة.

وهكذا عندما عاد بعد ذلك إلى باريس، كانت مارى قد لبست التاج طويلا، وصارت منذ سنوات ملكة على فرنسا. وكان قلبها فى ذلك الوقت فارغا .. ينتظر الوافد الجديد.

وهكذا أيضاً لم يجد الفتى صعوبة فى التشرف بمقابلتها والمثول بين يديها تحت قبة قصر فرساى .. أول مرة أمام الملك، ثم بعد ذلك وحدهما، تحت المظلات الخضراء فى حدائق القصر الواسعة التى عرفت من قبل طويلا آهات المحبين.

وراحت عيون القصر تتلمس كل جديد فى حياة مارى انطوانيت. وبدأت الإشاعات والأحاديث تصطخب متصارعة على أفواه الأمراء والأفاقين، والنبلاء والصعاليك على السواء. سوى أن الملكة لم تهتم أبدا، ولاحتى الكونت نفسه. فهو فى الحق قد جاء من السويد هذه المرة يطوى الآفاق حالما بهوى سعيد صاف، فى ظلال حبيبة كانت صورتها الباهرة الطاهرة البيضاء التى رآها فيها وهى فى السادسة عشرة، لاتزال تعمر رأسه وتلهب منه الخيالات والأحلام التى يفعمها الحب بالحرارة والحياة. من أجل ذلك ظل يسير، ويتحدى، وعلى عينه غشاوة من الحب الأعمى تحجب عنه كل نور سوى النور الذى ينبثق من عينيها الحبيبتين.

وتطور همس الحاقدين الناقمين صخباً هادراً يحطم كل شئ. وبدأت المكائد تدبر فى الخفاء. وإذا بالقائمة السوداء للأشخاص غير المرغوب فيهم تطلع وعلى رأسها اسم الكونت دى فوسين .. الحبيب الجديد لزوجة الملك ..!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى أن الأمر جد فيه بعد ذلك جديد ..!

ففى ذلك الوقت كانت حرب الاستقلال قد قامت فى أمريكا، وقررت فرنسا إرسال حملة إلى هناك ..

ولايدرى أحد كيف قرر الكونت الفتى الاشتراك فى تلك الحملة، وهو يعلم جيدا أن الملكة لاتطيق فراقه على الإطلاق. ولعله أحس بالخطر المحدق به. ولعله كان يطمح إلى أشياء أخرى غامضة خفية. سوى أنه مع هذا قرر الرحيل. واستولى على الملكة أول الأمر حزن عميق صاخب. ثم راحت تحاول أن تثنيه عن عزمه الذى راح يتصلب ويشتد. ونسيت مارى تاجها وعرشها وملكها، وراحت تتوسل إليه فى لهفة أن يتذكرها أبدا .. ويعود ..!

وعلم الأمراء والناقمون بأمر سفر الكونت. وأخذت بهم نشوة عارمة. وعرفوا أن الملكة قد عادت مرة أخرى لهم وحدهم. واقتربت إحدى الدوقات من الفتى وهو يستعد للرحيل، وقالت فى صوت عامر بالسخرية والزراية، والاستخفاف :

– أهكذا ياسيدى تترك غزواتك الطيبة ..!؟

وأجاب الفتى فى ثبات :

– لو كانت لى غزوة ياسيدتى لما تركتها بسهولة، بل إنى لأرحل وأنا حر طليق دون أن أخلف ورائى آلاما أو أشعر بمرارة على شئ ..!

ولم يكن يدرى أن الأمر قد صار ذائعا بعد .. لذلك، فعندما عاد مرة أخرى إلى باريس، لم تستطع الملكة أن تخفى أمرها، بل إن الأمر قد بلغ حد دعوة الفتى يوميا إلى العشاء العائلى الخاص مع الملكة والملك. ولم يكفها كل ذلك. بل تحايلت على الملك حتى سمح له باستعادة مكانة الضيف وكولونيل شرف الحرس فى بلاط الملكة. وعادت العلاقة بين الملكة والفتى اكثر قوة وأشد توثقا، وازداد معها سيل الأقاويل والشائعات ليصير أشد صخبا وأكثر ضجيجا، خاصة عندما أعلن أن الملكة قد حملت وأنها على وشك أن تنجب مولوداً. وارتفع الهمس الذى كان خافتا ليصير ضجيجاً لا يأبه لحرمة الملكة أو قدسية العرش. ومن خلال ذلك الضجيج لم يجد شقيق الملك وهو يقف إشبينا للطفلة التى ولدت، لم يجد مايمنعه من أن يرد على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسيس الذى سأله أمام الجمع الحاشد فى نوتردام الكنيسة الكاتدرائية الكبرى، ذلك السؤال التقليدى قبل التعميد عن اسم الطفلة، فأجاب شقيق الملك :

– لايحسن بنا أن نبدأ بهذا السؤال..بل فلنسأل أولا .. من هما أب الطفلة وأمها ؟

وتناقل الناس تلك الكلمات، وراح كل أهالى باريس يتحدثون بها، وكل الأنظار محولة إلى دى فرسين. والحق لقد كان برميل البارود يغلى. وبدت ثورة الشعب فى عنفوانها، ولم تعد باريس بالتى تصلح بعد للعشق، والحب ..!

★ ★ ★

كانت الباخرة لاتزال تسير .. فى خضم متلاطم الأمواج، صاخب مجنون ...

وكان أشراف ذلك الزمان لايسمون الشعوب بغير الرعاع والدهماء والصعاليك. وكانوا قد استبدوا بكل شئ، وأمعنوا فى الكبرياء والتعالى واحتقار الشعب.

ولم تكن مارى أنطوانيت بأقل من هؤلاء الأشراف تعالياً ونفوراً من الشعب. فلم ينتبهوا جميعاً إلى الهاوية التى تسير إليها فرنسا .. بطون جائعة وخزانة خاوية، وضرائب تكاد تقصم الظهور .. اضطر معها الأفراد إلى خوض غمرات حياة من السلب والقتل، تعبث بالحياة والموت، وتملأ ليالى باريس صخباً ورعباً .. كل ذلك ومايزال القصر فى مأدبه وحفلاته، والملك مشغول بأسلحة صيده عن الشعب الجائع المحروم.

وكان لابد للبارود أن ينفجر. وفى الوقت الذى ازدحم فيه الناس من خلال الظلام الحالك، والزمهرير، وهم لايجدون مايسدون به الرمق، كان القصر يقيم مأدبه لضباط جيش الفلاندرز، يجرى فيها الشراب مجرى المياه، وتلقى أثناءها الأطعمة الفاخرة للكلاب ..!

وما من شك أن الملك والملكة كانا مسئولين معاً عن كثير مما حدث بعد .. وكانت الأزمة المالية التى أخذت بخناق الشعب قد أودت بكل ذلك القليل الباقى من الحب والاحترام للملك والملكة، وقد انهارت شخصيتهما تماماً فى نظر الشعب، لكثرة ماذاع حول اسم الملكة من التهم بالحق والباطل معاً. فكان بعض الناس يتهمها بأنها تكره الشعب الفرنسى بسبب جنسيتها النمساوية، فبادلها كراهة بكراهة. وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعضهم يتهمها بتبديد مال الدولة على ملابسها ورياشها وخدمها وعشاقها وكلابها، فبادلها تبديد مال بتبديد سمعة. وكان بعضهم يتهمها بأنها تحتقر الملك وتخونه فكان نصيبها منهم التشهير والتغيير والاحتقار.

واستمرت الأزمة المالية فى استفحالها. واستمر الملك فى انحنائه لرغبات زوجته، التى أمرت بتعيين كالون وزيرا للمالية فتم تعيينه. وكان الرجل أسخف وأجهل من ولى الأمر فى محنة كالتى كان يجتازها الشعب الفرنسى، إذ جعل دأبه إخفاء حقيقة الانهيار، وهمه الأول إرضاء الملكة وإجابة مطالب حاشيتها، فأكثر هو الآخر من الحفلات والزينات التى راح فى سبيل إقامتها يعقد القروض السرية التى أودت بالخزانة العامة إلى الحضيض.

وبدأت المجاعة تأخذ تماماً بخناق باريس. ومن خلال الجوع كان الشعب يستمع فى جنون إلى حياة البذخ التى تعيشها الملكة والملك فى فرساى، والحفلات والمآدب التى تقام لفرقة الفلاندرز التى أدرك الشعب أنها من وحى الملكة الأجنبية لتخويف الجماهير التى كانت قد أعلنتها ثورة بيضاء فى سبيل الإصلاح.

وسمع الشعب عن أخر حفلات فرساى، حيث كان الضباط يشربون نخب الملكين، ولم يجر نخب الأمة على لسان واحد منهم قط. وعرف الشعب أن الملك قد دخل على الضباط عند منتصف الليل، والملكة مستندة إليه بإحدى ذراعيها، وولى العهد على ذراعها الأخرى. فتعالى الهتاف من كل جانب. وشرب الجميع نخب الأسرة المالكة من جديد. واستمروا فى صخبهم وعربدتهم حتى رموا بشارة الثورة المثلثة الألوان إلى الأرض ووطئوها بأقدامهم، ثم انسلوا إلى حجرات القصر حيث تلقاهم نساء البلاط بالتهانى وغمرنهم بشرائط الحرير وشارات الشرف.

وأدرك الشعب أن الملكة قد أعلنتها حرباً سافرة عليه. وأشعلت أنباء تلك الحفلات خواطر الجماهير الهائجة التى كان الجوع قد أنهكها وحطم منها القوى جميعاً.

وازدحم الناس حول المخابز، ولم يجدوا كسرة من الخبز. وصاح بهم صائح :

– إلى فرساى أيتها النساء ...

وانطلقت النساء، تتقدمهن فتاة تحمل الطنبور، وهن وراءها يصحن :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– خبز .. خبز .. لنعلم الرجال الشجاعة، وإذا لم يكن فى وسعهم حمايتنا فلنحم أنفسنا .. إلى فرساى .. إلى فرساى ..!

وأبى لويس إلا المقام حيث هو، لاعن شجاعة فى مواجهة الأحداث، بل عجزاً عن اعتزام أمر. ولم تجد مارى فى زوجها عوناً، وماكانت فى حاجة إلى أحد، فبقيت وحدها محتفظة بشجاعتها وهى تقول إن ابنة ماريا تريزا تعرف جيداً ماتفعله ولاترهب فرنسا كلها ..

واهتدت جماعات الشعب – بالرغم من حرس لافاييت – إلى باب حصين، ولجوه مندفعين حتى بلغوا حجرة الملكة. ولكنها كانت قد تمكنت من النجاة وفرت إلى غرفة الملك، وليس عليها من الثياب مايكاد يسترها. واغتصبت الجماهير الثائرة غرفتها وأخذت تطعن فراشها بالرماح وتهتف :

– تسقط النمساوية الخائنة.

وبدأت الجماهير تتحرك مرة أخرى داخل القصر، لولا أن لافاييت كان قد عاد يفرق المتظاهرين وأخرجهم من أبوابه وخرجت الجماهير لتقف من جديد تحت شرفه الملك تصيح به وتناديه أن يعود إلى باريس ليشرف على الإصلاح ويشهد خضم معركة الجوع. وخرج الملك إلى الشرفة وهز رأسه بالموافقة، فهتف الشعب له. واضطرت الملكة أن تصحبه برغم ماتعلم من كراهية الشعب لها ومايتهددها من الأخطار لو هى برزت للجماهير. ودخلت الشرفة وراء الملك تواجه الشعب الذى أظهر عدم إمعانه فى عدائها، حين لوح لافاييت بيده إلى المتظاهرين، ثم أمسك بيد الملكة ورفعها إلى شفتيه فى احترام .. وأحس الشعب أن الرجاء لم يضع بعد فى مارى .. وعاد يهتف لها بعد أن كان منذ لحظات يهتف بسقوط النمساوية الخائنة.

ولو أن الملكة سارت منذ ذلك اليوم مع الملك ونصحائه فى خضم الإصلاح، لانقاد لهما الشعب، ولاتخذت الثورة غير الطريق الذى سارت فيه. إلا أنها استمرت فى عدائها للشعب والرغبة فى تحطيم ثورة الإصلاح التى كان يهدف إليها. وكان سبيلها إلى ذلك تدبير خطة الهروب من العاصمة إلى خارج البلاد، ليهاجموا الشعب من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديد، بما يقدمه لها أخوها الإمبراطور ليو بولد وسواه من ملوك أوروبا من عون حربى.

واستسلم الملك لزوجته وأعوانها – بما فيهم فتى غرامها الكونت دى فرسين .. وأخذ بإرشاد مارى دون نصح ميرابو الذى نصحه بالبقاء ومساعدة الشعب فى الإصلاح والعمل على انفراج الأزمة.

والواقع أن دى فرسين كان يحاول أن يكون إلى جانبها دائماً خلال تلك الفترة الحرجة من تاريخها .. فقد عاد من أمريكا فجأة، واستطاع أن يتسلل إلى داخل فرنسا وأن يعود إلى مكانة الضيف فى القصر، ثم إلى منصب كولونيل شرف الحرس فى بلاط الملكة. ولهذا لم تجد الملكة إلى جوارها وهى تعيش فى خلال الأزمة الطاغية إلا دى فرسين لتبحث معه وسيلة الهرب. وتعهد إليه بإعداد كل خطوات التنفيذ ..

ولايدرى أحد كيف استطاع دى فرسين أن يتولى هذا الأمر وحده، وإن كان إيمانه بأنه لايريد أن يعيش إلا لكى يخدمها، قد يكون أساس تلك الجهود الضخمة التى بذلها فى سبيل إنقاذ الملكة. فقد راح يستنفد كل مايطيق من جهد من أجل المرأة التى أحبها .. ورغم ماكان يحف مهمته ومحاولة تنفيذها من خطر كبير على حياته، خاصة مع علمه بامتلاء القصر بالجواسيس، ومايقتضيه اختراق شوارع المدينة التى تغص بأعداء الملكة من جرأة هائلة، ومايحتاج إليه تنفيذ المشروع من أموال وتكاليف وأعباء لم يكن يملكها أحد من الملكين. برغم ذلك تحمل دى فرسين كل هذه الأعباء وحده. كان يتفاوض بنفسه مع الجنرال بوبيه القائد الوحيد الذى يمكن الركون إليه فى الجيش. وكاد يكتب الرسائل ويبعثها إلى الملوك والأمراء فى الخارج لنجدة العرش المنهار. وكان يختار النبلاء الذين سيرافقون العربة الملكية فى طريق هربها على أنهم من السعاة والخدم. وكان يتولى عملية التمويل للإنفاق على هذه المهمة بعد أن فشلت كل المحاولات للحصول على عون مالى سواء من الداخل أو الخارج. فاقترض بضمان أملاكه كلها من سيدتين روسية وسويدية المال اللازم للعربة التى صنعها باسمه، ولإعداد جوازات السفر المزيفة، ولشراء ثياب التنكر وإدخالها إلى قصر التويلرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل هذا صنعه دى فرسين، وكان يتولى الإعداد له والإنفاق عليه بنفسه مع الملكة، خلال الساعات الطويلة المتوالية التى كان يقضيها معها، بعد أن يتسلل إلى غرفتها بعد الظهر أو بالليل بواسطة السراديب السرية.

وتم إعداد كل شئ ... وتمكن الملكان بولديهما من الخروج من باب غير محروس للقصر فى منتصف ليلة ٢٠ يونية. وانطلقت العربة التى أجرها دى فرسين تخترق شوارع باريس، ويتولى دى فرسين بنفسه مهمة الحوذى، وعندما تمكن عشيق الملكة من الخروج بعشيقته وزوجها وولديها بعيدا عن باريس، ليلتقوا بالعربة الفخمة التى أعدت لفرارهم حتى الحدود، كان على دى فرسين أن يغادر الركب بعد أن ذكر له لويس أنه يفضل ألا يستمر فى مصاحبتهم .. ولم يمتنع دى فرسين وإن اتفق معهم على أن يلحق بهم حتى يصلوا إلى بر الأمان.

على أنه لم يكن يعلم أن لن تمضى أربع وعشرون ساعة على الرحيل حتى ينكشف الأمر عند بلدة فارين قبل الحدود بأميال بسيطة ..وحتى تعود الملكة وأسرتها بالرغم منها وهى مسوقة أمام جماهير الحرس الوطنى فى طريق العودة إلى باريس. حيث كان الشعب قد دخل القصر من جديد. وأخذت به روح السخرية والهزؤ بالملكين، وحملت إحدى بائعات الفاكهة فراش الملكة، ووضعت فوقه مامعها من الكريز وهى تقول :«لقد جاء دور الأمة فى النعيم ..!» .



والحق، إن صبر الشعب على الفساد والسرف المجنون. كان قد بلغ منه الحلقوم. واستمرت الثورة فى طريقها مشبوبة حانقة. واستمرت الملكة أيضاً فى عنادها وتكبرها لاتلين مع الثورة مجرجرة فى أذيالها الملك المسكين. وما من شك أن الفرص قد أتيحت كثيراً للملك أن يثوب إلى الرشد. وكان هو فى أعماقه مستعداً لملاينة الثورة إلى أقصى حد، تلك الملاينة التى بدت يوم سارت جموع الشعب من جديد إلى قصر التويلرى بعد إعلان الحرب على أعداء فرنسا، ففتح الملك لها الأبواب، ثم ظهر للجماهير ووقف أمامها على كرسى فوق مائدة عالية ليراه الناس وليجيبهم إلى مايطلبون من الموافقة على طلبات جمعيتهم الوطنية. لقد عاد الشعب يهتف له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يومذاك من جديد. بل لقد نجح الملك فى أن يكون موضع إعجاب الجماهير حينما تقدم إليه أحد المتظاهرين بقلنسوته الحمراء شعار الثورة وهو يرفعها على سنان رمحه، فتناولها منه الملك ووضعها على رأسه. وبالغ فى ملاينتهم حين مد يده إلى كأس من النبيذ حملها إليه عامل ثمل ليشرب نخب الأمة، فتناولها ورفعها إلى شفتيه من غير ماتردد، مما أطفأ حدة المتظاهرين وأعادهم إلى الصواب والرضى عن الملك الطيب ...

وهكذا أثبت الملك أنه كان أبعد ضحايا الثورة عن التسبب فى وقوعها، وأنه لم تكن تزل قدمه غالبا إلا حين تتولى الملكة تسييره وقياده.

وعادت الملكة تحطم شخصية لويس بحمله على إرسال الكتب إلى خارج البلاد فى طلب النجدة. ووقعت الرسائل فى يد الشعب فكانت الطامة من جديد. فلما توجهت الجموع إلى القصر مرة أخرى وقفت الملكة بين أعوانها تسألهم عما يمكن أن يفعلوا. قال قائل منهم :

– لاشئ إلا أن تذهب الأسرة المالكة إلى قاعة الجمعية.

– تقترح أن يذهب الملك إلى أعدائه ..لا .. بل إن لدينا جيوشنا هنا ياسيدى، وقد حان الوقت أخيرا لنعرف لمن تكون الغلبة.

ونزلت لتستعرض مع الملك رجال الحرس السويسرى الذين راحوا يهتفون : فليحيا الملك، ولتحيا الملكة. وأثارت الهتافات جماهير الشعب ونبهتهم. فكان لابد من الهجوم الذى تبعه التجاء الملكين إلى قاعة الجمعية حيث تم القبض عليهما، وأودعا أحد أبراج سجن التامبل، ليقضى الملك أيامه نائما أو مشتغلا بالتدريس لأبنائه. بينما تقضى الملكة وقتها فى التطريز وتدبير مشروعات للفرار باءت جميعاً بالفشل. ولم تخلف أثرا إلا تشديد الرقابة على الملك وعليها. حتى حرمت من استعمال المقص والسكين. ومنعت من التطريز خشية أن تخفى فى غضونه رسالة رمزية تمكنها من التفاهم مع غيرها خارج السجن.

على أن الأمر كان لابد له من نهاية. وكانت بداية النهاية هى إعدام الملك الشقى تحت سكين الجيلوتين ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمرت قصة النهاية تسير فى الطريق المرسوم. واستمرت معها بضعة محاولات لتهريب الملكة، وكان من بينها خطة وضعها الرجل الذى ظل يواصل محاولاته لإنقاذ معبودته، وهو الكونت دى فرسين الذى كان قد هرب من باريس ثم عاد إليها مرة أخرى متنكرا. وكادت خطته تنجح لولا أن كشف الوشاة أمره. وكادوا يفتكون به فهرب. وتلقى بعد خاتما من الذهب مع رسول خاص ورسالة قصيرة من مارى أنطوانيت تقول :

«لم أشق بقدر ما فرحت بنجاتك. وذلك مايدعونى إلى أن أهديك هذه الهدية البسيطة التى أرجو أن تروق لك. إن الخاتم يناسب أصبعك فاحتفظ به. ولكنى أستحلفك أن تعيد طبع هذه الكلمات عليه «كل شئ يقودنى إليك» وأذكر دائما مارى التى أحبتك حتى الموت ...».

أجل .. لقد كان قلب الملكة لايزال حاراً عامراً بالحب لهذا الفتى الذى عشقته بكل كيانها ذات يوم. كانت لاتزال تفكر فيه حتى وهى تجلس بين جدران السجن تنتظر اليوم المشئوم. لايؤانسها فى سجنها سوى السجان، وترتعش تحت ثوب قذر ظل على جسدها حتى ناله البلى، فأحضر لها السجان ذلك الثوب الأبيض الذى ارتدته يوم نفذ فيها حكم الثورة ...

على أن ذلك لم يكن عشقها الأخير .. أو هكذا قال رجال الثورة ممن تولوا محاكمتها .. فقد كان ثمة لون جديد لم يعرف به أحد من قبل إلا عندما سمعته مارى أنطوانيت يوم وقفت أمام المحكمة تستمع إلى أدلة الاتهام ..



عندما وقفت مارى أنطوانيت فى قاعة المحكمة التى عقدت يوم ١٢ أكتوبر ١٧٩٣ لإجراء التحقيق الابتدائى معها، لم تكن تستطيع أن تنسى قط ذكرى كل تلك الأيام القليلة الماضية التى انقضت منذ اشتعلت أولى شرارات الثورة، ثم راحت تتوالى عليها حتى بلغت بها إلى سجن التامبل ومن بعده إلى سجن الكونسيرجى .. حيث وضعت فى زنزانة ذات بابين من الحديد، زودت نافذتها بقضبان حديدية، وقيل للشرطيين اللذين يتبادلان الحراسة بين الليل والنهار تحت نافذتها أن حياتهما رهن ببقاء السجينة فى الزنزانة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ووقفت مارى أنطوانيت آخر الأمر فى قاعة المحكمة وفى مواجهتها فوكيه تينفيل النائب العام وهرمان أركان حربه وبعض السكرتيرين. على أنها لم تهتز أو تبد عليها مظاهر الرعب وهى تعلم أنها فى الطريق إلى النهاية. ولم تستطع كل وسائل النائب العام إسقاط قناع الهدوء والوقار من على وجهها. فما غادرها سكونها قط، وراحت ترد على كل الأسئلة التى وجهت إليها بأجوبة بالغة الدقة تدل على حذر وتبصر دقيقين .. ولم تحاول مارى أبداً أن تنقل بصرها إلى المحلفين الذين أحضرتهم المحكمة من مختلف الطبقات، فكان بينهم مركيز سابق، وجراح، وبائع عصير الليمون، وموسيقى وعامل مطبعة وصانع شعر مستعار، وقسيس مطرود من الكنيسة، ونجار .. وماحاولت أبداً أن تنظر إلى جماهير الشعب التى احتشدت فى القاعة لتتبع محاكمة ملكة فرنسا التى كان يلوح على وجوه الجميع ماقدر لها من مصير ...

وتقدمت مارى إلى المحكمة فى ثوب ملطخ بالسواد، وبدأت تنصت إلى عريضة الاتهام وإلى الأسئلة التى راح يلقيها عليها فوكيه تينفيل ومن حوله من القضاة ..

وفى هدوء عجيب راحت مارى انطوانيت تستمع إلى صوت تينفيل وترد عليه فى ثبات :

– مارى أنطوانيت من لورين النمساوية.

– ماهو شأنك ؟

– أرملة لويس ملك فرنسا.

– كم عمرك ؟

– ثمانية وثلاثون.

– أين تقيمين منذ القبض عليك ؟

– لم يقبض على أبدا .. وإنما جاءوا من الجمعية الوطنية ليأخذونى إلى التامبل.

وبدأت قائمة الاتهام تتوالى ...

– أنت متهمة بأنك قبل الثورة أقمت علاقات سياسية مع ملك بوهيميا والمجر. وانك بددت مالية فرنسا التى هى من عرق الشعب على مسراتك ودسائسك،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاتفاق مع وزراء أدعياء. وقد عملت على إرسال ملايين الجنيهات إلى إمبراطور النمسا ليستخدمها ضد الشعب الذى يطعمك. ولم تكتف بذلك بل تآمرت ضد فرنسا منذ الثورة. وتفاوضت مع وكلاء من الأجانب، ودفعت الملك لويس إلى استخدام حق الفيتو ضد قرارات ممثلى الشعب.

وفى كل مرة كانت مارى تجيب بالنفى، وتنكر التهم بحزم وكبرياء .. وعادوا يقولون لها :

– من أين حصلت على المال الذى أنشأت به قصر التريانون وملأته بالرياش الفاخر لتقيمى حفلاتك الصاخبة التى كنت فيها الإلهة دائما ؟

وأجابت :

– كان ذلك من اعتماد خصص لهذا الغرض.

وعادوا يسألون :

– لابد أنه كان اعتمادا ضخما لأن القصر تكلف مبالغ باهظة من مال الشعب.

وأجابت : ربما كان الأمر كذلك .. وربما تكلف أكثر مما قدرت فقد تم الصرف بالتدريج ودون تحديد.

وقال لها فوكيه :

– أنت متهمة بأنك بنفوذك على لويس السادس عشر كنت تجعلينه يفعل ماتريدين .. فما قولك ؟

وهزت رأسها فى ثبات وهى تقول :

– هناك فرق كبير بين النصح بالشئ وبين الدفع إلى عمله.

وقال لها هرمان :

– ولكن كل هؤلاء الشهود يؤيدون اتهامك.

وأجابت وهى تهز رأسها من جديد :

– إنى لا أعرف هؤلاء الشهود وكنت أجهل ماسيقولونه. وعلى هذا فما من أحد منهم استطاع أن يحدد أية واقعة محددة ضدى. وعلى أية حال فأنا لم أكن سوى زوجة لويس السادس عشر وكان واجبا على أن ألبى رغباته ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسكت هرمان قليلا ... ثم عاد يسأل الملكة السجينة :

– ماهو مدى اهتمامك بجيوش الجمهورية ؟.

وأجابت :

– إن سعادة فرنسا هى التى أنشدها فوق كل شئ.

وقال لها من جديد :

– أنت بلا ريب تندمين على أن ابنك قد فقد عرشا كان سيسعده لولا أن الشعب الذى عرف حقوقه قد حطم ذلك العرش ..!

وأجابت فى كبرياء :

– لن أندم على شئ يتعلق بابنى حتى تكون بلاده سعيدة.

وأطال إليها هرمان النظر ثم قال فى ضحكة ساخرة :

– ولماذا لم تشعرى بالندم وأنت تفسدين أخلاقه الشاذة بالعلاقة التى أنشأتها بينك وبينه .. ألم تحسى بالندم وأنت تعشقين ابنك ولى العهد .!؟

واهتزت مارى فى عنف .. فقد فاجأها السؤال الرهيب ...

وراحوا يعيدون عليها السؤال فى إصرار .. واندفعت هى تجيب وقد ملكت جميع قواها فى ثبات عجيب :

– لن أجيب .. لأن الطبيعة ذاتها تأبى الجواب على تهمة توجه إلى أم بأنها تعشق ابنها وتفسده .. وانى لأستشهد بالسيدات الحاضرات وجميعهن أمهات لهن أبناء فى سن ولدى الصغير ..

ولم تكن مارى قد أرتكبت فى الحق تلك التهمة. من أجل ذلك ظلت تهز رأسها حتى وهم يقودونها فى العربة ذات الحواجز إلى المقصلة خلال شارع سان أوتور وكأنها تقول للسماء :

– أبداً .. يا إله السموات .. إنك لتعلم فى عليائك أننى لم أكن أعشق إبنى قط ..!

وفى الحق ..

لم تكن مارى أنطوانيت تكذب هذه المرة على الإطلاق... بل كانت تقول الصدق ..!




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ هو أحد أبواب المعرفة الهامة التى يجب أن تكون مفتوحة لجميع طلاب المعرفة .. لأن التاريخ هو خط سير الانسانية كلها .. هو السطور التى شقتها أظافر الناس فى الصخر على مر العصور.

وما أكثر مايعرض التاريخ حيوات شعوب قد تبلغ بها المهانة حد قبول كل ألوان الطغيان .. ويبرز من بين أبنائها عصابات من المداهنين والمرتزقة ممن لايعبأون بأكثر من الكسب الرخيص، ولو كان مسيرهم على جثث الشهداء وبين بحور الدم.

ولكن الشعوب لم تكن أبدا لتنسى أو تحتمل حتى الأبد .. فمن أعماقها كانت تنبثق دائما شعاعات زاخرة بكل ماهو فاضل وكريم، وتزيح من الطريق ظلامات الفساد والخطايا والعار .. وترسم طرقا جديدة فى سبيل حياة أفضل .. من نوع جديد لايعرف سوى الحق والنور.

وإذا كان الملوك – حتى مدى غير بعيد – هم أبرز الأفراد الذى يرسمون بتصرفاتهم وأحكامهم كل صور التاريخ.. فلاشك ان هناك من الملكات – سواء كن جالسات على العرش أو زوجات لهن تأثيرهن على الملوك– من لعبن أدوارا كبيرة الأثر فى حياة الشعوب.. وسواء كن قد صعدن من القاع إلى القمة، أو انحدرن من القمه إلى القاع .. فإن مايذكره التاريخ لهن لايمكن أن ينسى ..

وكل ذلك بعض مايعرضه هذا الكتاب

الناشر



MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١